

موسوعة العقائد والأديان

كشف الستار

بحث موثق في مذهب التوحيد

تاريخه - فلسفته - عقائده - شخصيّاته



تأليف
نسيب أسعد الأسعد

دار رسلان

كشف الستار

كشف الستار

بحث موثق في مذهب التوحيد

تاريخه – فلسفته – عقائده - شخصيّاته

تأليف
نسيب أسعد الأسعد

كشف الستار

بحث موثق في مذهب التوحيد – تاريخه – فلسفته – عقائده – شخصياته

تأليف : نسيب أسعد الأسعد

سنة الطباعة: 2010.

عدد النسخ: 1000 نسخة.

الترميز الدولي: IBSN: 987-9933-439-27-9

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 0963 11 5627060

تلفاكس: 0963 11 5632860

ص. ب: 259 جرمانا

Image

سورة النور الآية : 35

Image

Image

Image

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، الذي لا معبود سواه، حمداً عدد رمل القفار وموج البحار الحمد لله حتى يرضى، والحمد لله وإن رضي. خالق مبدع، وواحد قاهر، خالق الأكوان، عظيم رحمن وسلام الله على كل الأنبياء وكل المرسلين والأئمة الطاهرين، والخمسة المعصومين، والثلاثة المكرمين في كل دور وجيل منذ بدء الخلق إلى يوم الدين.

إله واحد، وكل أنبيائه ورسله وكتبه مقدسون مكرمون، وأوليائه مكرمون فهم طريقنا إليه تعالى وجل عن وصف الواصفين. هذا هو التوحيد توحيد الله تعالى وأنبيائه ورسله وكتبه وأوليائه. هذا هو العرفان، ومن اتبع هذا المسلك ؟.... نحن... الموحدون.

ستائر أسدلتها الأيام، حاجبة عن العقول والأحلام، مسلكاً قديمةً أصولُه العرفانية، ترجع إلى مصر القديمة وبلاد اليونان. ثم بزغت شمس الحق، منيرة حولها وباعثة بالكون النور والحياة بعد تلك السنين الطويلة، من الخفاء والاستتار، إمام عادل وحاكم بأمر الله، يعمل بمشيئة الله، ووفق أحكامه، أعاد المسلك التوحيد حياته، وأيقظه من سباته وكلف له من يتحمل أعباء نشره، فأعطى الإمامة لعقل التوحيد يبني وينشئ مذهبه، فكان هادياً، ناصحاً للمستجيبين، منتقماً بسيف الحق من أعداء الحق، والمارقين الكافرين بالدين وأتباعهم المغالين في ذات الحاكم العابد الزاهد المؤمن الماجد. وكلف من العابدين العارفين من خير الناس أربعة أضيفوا إليه فاكتملت دائرة الخماس، دائرة الحق والعرفان، فاهتموا بتعليم دين الحق، وثلاثة كانوا معهم فكان الحق بهم فخورا وبسيوفهم

منصورا، ومئات من الدعاة، في ارض الله سعاة، والمأذونين والمكاسرين لنشر رسائل الإمام والحدود، في تمجيد خالق الوجود الفرد الصمد، المتعالي عن الأوصاف والعدد.

وباعتباري واحداً من الجيل الشاب، فقد لاقيت ما لاقى من ضعف في المعارف الدينية، وشعرت بشعوره إزاء هذه الأمور، وكنت أطّلِعُ حسب ما يقع بين يديّ، وتحت ناظريّ من كتب فتحت بصيرتي قبل بصري، وأنارت ظلاماً كان في داخلي قابعاً، كتب أحمل في جنباتي لأصحابها (مؤلفيها) كل التقدير والاحترام وكذلك الاعتراف بالجميل. وكنت فيما سبق أقرأ الكتاب فيثير بي الشوق لمعرفة المزيد، ولكني لم أتخذ خطوة جدّية في البحث والكشف، حتى كانت اللحظة الصدفة، إذ شاءت أن أجد ملخصاً (كراس) فيه بعض المعلومات عن مذهب التوحيد والموحدين، مأخوذة من كتب تبحث في هذا الموضوع، فقرأتها وأردت نسخها، ففعلت ولكنَّ هذا الأمر، وهذا الشوق للمعرفة وحبّ الوصول للحقيقة طوَّر الفكرة في رأسي لأكمل البحث وأُخرج كتاباً . ليس الأول بموضوعه ولا الآخر . وإنّما يتميّز بشكله وتبسيطه لبعض أفكار المذهب وعقائده كي تكون سهلة سائغة أمام القارئ الشاب المبتدئ في اطّلاعاته وخاصّة الفلسفيّة منها.

كتاباً أكشف فيه الستار، لاعمّا أوصت الكتب المقدّسة بستره فأُتَّهم بالتجديف والكفر والعصيان، وهذا برأيي هامّ جداً، ولكن عن بعض ما يحتاجه الشباب الموحد خاصة عن بعض ما يهمه في حياته من معرفة لعقائد مذهبه الأساسية، وفروضه وأركانه، ومحرّماته ومباحاته، وصلواته، وصدقاته، وحجِّه، وصيامه، ظنَّها وغيرُه أنّها غير موجودة، فأساء ذلك الظنّ إلى المذهب وشوه صورة الموحدين المؤمنين بين باقي المذاهب، ألا توافقني أن الحكم على الأمور دون معرفتها هو جهل واضح وينمّ عن سريرة فاسدة خاصة وإن كان المحكوم عليه مذهباً من المذاهب الإسلامية الكثيرة وأرى عليَّ لزاماً هنا ذكر خلاصة حديث جرى بين علماء مسؤولين عن المذهب السني وعن مذهب التوحيد الملقب خطأً بمذهب (الدروز)، والحديث هو دليل واضح وبينة ساطعة لا ينكرها إلا كل كافر لدينه وربه، وظالم لغيره ونفسه، وهذا الحوار موجود في أماكن كثيرة بوسع أي كان الإطلاع عليها وفهم ما دار فيه من أسئلة وأجوبة. بين علماء من المذهبين السني والتوحيد، وأما من يطلع عليه، ثم يرمي الموحدين بالكفر، فإن الله خصمه يوم يؤخذ بالنواصي والأقدام، ويوم تجزى كل نفس ما قدمت، ويوم يجزى الظالمون بظلمهم نار السعير. وهذا الحوار جرى في يوم السادس من الشهر التاسع لعام تسعة وستين وتسعمئة وألف. وكان السائل هو السيد عبد الحق الحسيني من المذهب السني وهو يقوم بوظيفة رئيس العلوم الشرقية في جامعة كندا، وكان المسؤول الشيخ أبو

حسين هاني ريدان من قرية (عين غنوب) في لبنان. فكن والله استحلفك معي قلباً وقالباً وانس ما راكمته الأيام وما زرعته من تفرقة الأنام :

س1 : ما هو دينكم ؟

ج 1 : ديننا الإسلام.

س2 : ما هو مذهبكم ؟

ج2 : مذهبنا التوحيد لله تعالى والإقرار برسالة رسوله وهو أحد المذاهب التقية في الإسلام.

س3 هل أنتم سنه أم شيعة ؟

ج3 : لا سنه ولا شيعة، بل إحدى الفرق الثلاثة والسبعين التي أشار إليها الرسول الكريم بقوله : ستنقسم أمتي من بعدي إلى ثلاثة وسبعين فرقة[1]

س4 : هل تصلون أوقات الصلاة ؟

ج4 : نعم نصلي لأن الصلاة واجبة على كل مؤمن ولأنَّها الصلة بين العبد وخالقه.

س5 : كيف تكون الصلاة عندكم ؟

ج5 : عندما نصلي على الميت فإننا نستقبل القبلة، وأما في الصلاة العادية فهي حلقة ذكر.

س6 : هل تركعون أثناء الصلاة؟

ج6 : الركوع عندنا نافلة.

س7 : هل تسجدون وقت الصلاة ؟

ج7 :نعم نسجد حين السجود ولأنها فريضة واجبة للتقرب إلى الله تعالى والتوسل إليه.

س8 : هل تصومون شهر الصيام

ج8 : البعض منا، وخصوصاً المشايخ يصومون ولكن في عرفنا أن الصوم الظاهري نافلة، وأما الصوم الحقيقي وهو صيانة النفس عن إتيان المحرمات هو في هذه الحالة فريضة لازمة مدى الحياة وليس بأوقات معينة لأننا نعتقد أنه لانفع للصوم الظاهري مع مخالفة ما نهى الله عنه ورسوله، حيث أن كثيراً من الصائمين لا ينالون من صومهم إلا الجوع و العطش.

س9 : هل تحجون ؟

ج9 : إن الحج في عرفنا هو نافلة أيضاً وذلك عملاً بالآية الكريمة التي تقول :

((بسم الله الرحمن الرحيم ...وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً..))[2]

فكلمة من استطاع هي عبارة عن فسحة واسعة للذين لا يستطيعون أداء فريضة الحج.

س10 : هل منكم من حج إلى مكة المكرمة ؟

ج10 : نعم كثير منا زار مكة المكرمة والمدينة المنورة حاجاً أو معتمراً.

س11 : كيف تصلون على الميت ؟

ج11 : إن الصلاة على الميت عندنا هي سنية وعلى الطريقة الشافعية، ولكن نكفيكم فهذا الكتيب يجعلكم تعرفون حقيقة طقوسنا المذهبية للصلاة على الميت وفيه عقود الزواج والوصية وخلاف ذلك.

وعندما تصفّح السائلُ عبارات الكتيب التفت إلى المسؤول وقال : والله أنتم حقّاً مسلمون.

((والكلام الآن للمؤلف : ويمكنك عزيزي القارئ أن تطلع على كيفية الصلاة وأنواعها وعقود الزواج من النظر في كتابنا هذا في الجزء الأخير منه بقسم الملحقات)).

س12 : كيف تقسيم الميراث عندكم ؟

ج12 : إن طريقة تقسيم الميراث عندنا هي حسب منطوق وصي الموصي لأن الوصية عندنا فريضة يجب العمل بموجبها عملاً بالآية الكريمة :

((بسم الله الرحمن الرحيم.. يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ.. .. صدق الله العظيم))[3]

س13 كيف طريقة الوصية عندكم ؟

ج13 : إنّ طريقة الوصية عندنا هي أنّ للإنسان كلّ الحقّ أن يوصي بماله لمن يشاء سواء أكان قريباً أو بعيداً.

س14 : إنّ مذهب السنية يمنع الوصية لغير الوارث فِلَم أنتم توصّون له؟ ج14 : نحن نوصي للوارث ولغير الوارث عملاً بالآية الكريمة :

((بسم الله الرحمن الرحيم.. كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ. صدق الله العظيم))[4]

فمن هذه الآية الكريمة تتّضح عبارة للوارث و لغير الوارث. ونحن على هذه الطريقة سائرون.

س15 : هل تعدّدون الزوجات؟

ج15 : كلا لا يجوز في مذهبنا تعدّد الزوجات عملاً بالآيات الكريمة القائلة :

((بسم الله الرحمن الرحيم، وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً. صدق الله العظيم))[5]

((وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ... صدق الله العظيم))[6]

وبما أننا نعتقد أنه لا يمكن العدل بين اثنتين فإنّ الشرع أوجب علينا الاقتران بواحدة، وإنّما إجازة تعّدد الزوجات فكان المسوغ له في صدر الإسلام لحكمةٌ أوجبت ذلك، وأمّا بعد ذلك فلم يعد لها لزوماً طالما جلبت على صاحبها النقمة البيّنة.

س16 : هل يجوز عندكم الطلاق ؟

ج16 : نعم يجوز الطلاق لأسباب مشروعة، أو عدم التراضي بين الرجل ومطلقته وعليه أن يقدّمَ لها نصفَ ما يملك إن كان هو المسبِّب بالطلاق، أما إذا كانت هي المسبِّبة للطلاق من جراء جرم فعلته فللزوج نصف ما تملك.

س17 : سمعنا أنكم تعتقدون بالتقمص، فعلى أي شيء تبنونه ؟

ج17 : نحن نعتقد التقمّص ونبني هذا على شيئين، أحدهما من المنقول والثاني من المعقول، وأما المنقول، فقول الآية الكريمة :

((بسم الله الرحمن الرحيم.. كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ..صدق الله العظيم)) [7]

فمن هذه الآية الكريمة وبعض آيات غيرها نفسّرها طبقاً لهذا المعتقد بتنا نعتقد التقمص. وأما الذي من المعقول فهو لما كان الله تعالى عادلاً في خلقه فلماذا جعل بينهم هذا التفاوت العظيم من غنى وفقر وسعد ونحس وحسن وقبح طالما الناس مخلقون جديداً لهذه الدنيا فمن هذا التفاوت الكبير ومن الاعتقاد الراسخ بالله جلّ جلاله منتهى العدل ومن الآية الكريمة التي مرْ ذكرها بتنا نعتقد التقمص وأنّ هذا التفاوت الحاصل بين الناس هو من قِبَلِ عمل سابق.

س18 : هل تعتقدون أنّ أبا بكر وعمر وعثمان أحقّ من عليّ بالخلافة أو عليّ أحق منهم ؟

ج18 : هذا الشيء يعلمه الله تعالى، فنحن نعتقد بأنّ العُمْرَ محتوم عملاً بالآية الكريمة القائلة

((بسم الله الرحمن الرحيم: وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ... صدق الله العظيم)) [8]

وحيث أن أبا بكر وعمر وعثمان توفّوا في حياة عليّ ولم يتسنَّ لهم خدمة الأمة بتقدير من الله عزّ وجّل فلذلك قضت مشيئة الله بما قضت حتى يؤدي كل منهم رسالته في حينها خدمة للأمة.

س19 : هل تفضلون أبا بكر وعمر وعثمان على علي أم تفضلون عليّاً؟

ج19 : نحن عندما نذكرهم نقول : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي حسب ترتيبهم بالخلافة ولكن بذات الوقت لا نفضلهم في المنزلة على علي بل نعتقد أنّ علياً أعلى منهم وذلك عملاً بكلام الرسول (ﷺ) حيث قال في خطب الوداع ولا أظن أن أحداً ينكر حجة الوداع لا سنيّاً ولا شيعيّاً ولا غيره أو ينكر ما جاء فيها، عندما قال عليه السلام :

((... من كنت أنا مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه.... لا يحبُه إلا مؤمن ولا يبغضه إلاّ منافق...))

وأحاديث أخرى كثيرة. وعند هذا قال السائل السيد عبد الحق الحسيني : يتّضح ممّا تقدّ م أن كلّ ما عندكم من الاعتقاد تبنونه إمّا على آيات كريمة وإمّا على حديث شريف. قال المسؤول الشيخ أبو حسين : نحن لا نعمل بالرأي والقياس بل نعمل بما أمرنا به الله تعالى.

قال السائل للمسؤول : أنتم أخذتم خلاصة الأشياء بارك الله بكم. تمّت)).

بعد ما قدمت تلك الخلاصة أترك الحكم لك قارئي الكريم مستخدماً عقلك وإيمانك في حكمك.

((كشف الستار)) هذا لم يكن ولن يكون يوماً تجرؤاً على الدين ولا استهانة بالكتب المقدسة وتوصياتها، وإن فُهِمَ كذلك فلخللٍ في عقلٍ وضعفٍ في معرفة وقّلةٍ في إيمانٍ مَنْ يفهم ذلك، إنّه لنشر العلم لمَنْ لا يقدر على البحث عنه، وقد قالت الكتب الشريفة : ((فالمفيد يعلِّمُ المستفيد امتثالاً للمرسوم الكريم وزكاةً عن علمه، فيمدُّه الله تعالى بتوفيقه. ويرشده السيد المختار إلى نهج طريقه. وإذا لم يفد مع الاقتدار يقطع الله عنه المواد ويعاقبه على ذلك. وقد قيل أن يهدي اللهُ بالإنسان رجلاً واحداً خيرٌ له ممّا طلعت عليه الشمس)).

لا. ((لن يكون كشف الستار)) أبداً تجديفاً وإنّما تعريفاً وتصحيحاً لصورٍ خاطئة أُخِذَتْ عن مذهب التوحيد، وأنا الذي داومتُ البحث في كتب وسير الأئمة والعارفين وفي رسائل الدين القويم، واطلعت على جوهر التوحيد في المذهب.

(كشف الستار) هو وأشباهه نور لجيل كبير من الشباب، أليس في الكتب المقدسة أن المؤمن القوي المتعلم خيرٌ من المؤمن الجاهل والكلّ خير ؟، أليست كتبنا المقدسة فلسفة عميقة،

يضيع فيها ويتوه في لجحها أكبر الفلاسفة وعلماء الكلام والمفكرين ؟ فكيف لرجل دين لا يكاد يجيد القراءة والكتابة _ وحاشا الله أن أكون متكبراً أو ساخراً من أحد _ كيف له أن يفهم ويوضح لغيره اصطلاحات ومفاهيم فلسفية كثيرة مثل : (العقل الكلي، العقل الأرفع والعقل الأدنى، المطلق، الكثيف و اللطيف...) وكيف له أن لا يتهمني بالكفر إذا ما سمعني أردد قول المتصوفين العارفين كالحلاج والسهروردي وابن عربي، وصهيب قدس الله سرهم حين يصل أحدهم مرحلة المشاهدة : ((أنا حق...)). أو قول فيلسوفنا ومفكرنا كمال جمبلاط : ((كل إنسان مسيح أو بإمكانه أن يكون مسيحاً في داخله...)). وغيرها الكثير الكثير، ألا تحتاج هذه _ وأظن الجميع يوافقني الرأي _ لدارِسٍ ومتفقّه متعمق في الفلسفة وخاصة القديمة منها كي يفهم هذه الأقوال والمصطلحات ومن ثم يفهمها غيره مبسطة.

أليس مذهبنا مذهب العقل، ويضعه في المرتبة الأولى ؟، فلنستخدم عقولنا لنعرف الحقيقة، دون تحجر أو تقليد أعمى، ولنفتح قلوبنا وعيوننا لبعضنا، ألم يطلع المرحوم كمال جنبلاط على كتب الحكمة المقدسة رغم كونه لم يرتد زي الدين، هل نعتبره جاهلاً مجدفاً، اطلع على المستور دون أن يكون (جويداً) ؟.

حاشا لله أن نعتبر ذلك المطلع الكبير والفيلسوف العظيم جاهلاً وقد استخدم عقله في البحث والتأمل، ورحل نحو الهند بحثاً عن أسرار المذهب الدفينة، وقابل حكماء (الفيدانتا)، فلما نمنع شبابنا من الإطلاع طالما أنه لن يسعى للإطلاع إلا من كان عقله متفتحاً، وقلبه متنوراً، ومستعداً لتقبل النور والمعرفة والحق ؟

قصة الأديان أشبه ما تكون بحكاية جماعة تريد رؤية ملكها، فاستقل كل واحد منهم وسيلة مختلفة في سيره نحو هدفه وعند وصولهم صار كل واحد يمدح وسيلته ويذم باقي الوسائل مع أنها أوصلت أصحابها إلى الهدف. وكذا الأديان، فالله تعالى لن يحاسب الناس بوسائلهم ويميز بينهم بظاهرهم وإنما بأعمالهم وتقواهم ضمن أديانهم.

يا قوم ! ويا أخوة التوحيد والإيمان ! تيقظوا واعلموا أن مذهبنا هو مذهب التوحيد والإيمان، وأنكم موحدون. أبدؤوا بأول الأخطاء الذي صرنا أنفسنا نكرسه، وهو تسميتنا "بالدروز"، فكم يلحق بي من الإساءة عندما استخرج سجل قيد النفوس وقد سجل في خانة المذهب (درزي) ولكم ستكون فرحتي لو كانت كلمة (توحيدي) بدلاً منها، فلنبدأ بأنفسنا قبل أن نطالب الآخرين بذلك، وإن كنت قد

استخدمتها في هذا الكتاب أحياناً فذلك لأني مضطر، فالخطأ الشائع أصوب من صحيح كاسد في بعض الأوقات.

((كشف الستار)) كان قد ابتدأ بوهلة خاطر وإيماءة في حلم قالت : (اقرأ)، ففعلت، ثم قالت : (افهم)، ففعلت، ثم قالت : (اكتب وانشر ما فهمت، واطلب من غيرك أن يفعل مثلك، استوضح طريقك ليتوضح طريق الآخرين)، وهأنذا أفعل.

((كشف الستار)) كان فكرة، ونتيجة لبحث طويل وعميق، يكاد يبصر النور، وما فيه من رسومات تخيلية فهي وليدة الخيال وقد سبقني إلى ذلك آخرون، ومع ذلك فهي تبقى رموزاً كونه لا توجد صور ورسومات للشخصية المرسومة (بعضها على الأقل) وإنما قصدت وضعها لتربط الموضوع المكتوب بالصورة وهي تقرب الفكرة إلى ذهن القارئ.

هو وليد ينتظر الأمل ليفتح عينيه على نور الحياة، فينتشر النور في حياة أجيال خوفاً عليهم من الضياع في هذه الحياة. لم يُحِطْ بكل شيء لأن ذلك مستحيل ولكنه، لنقل أنه، يكفي أن يستحث العقول الشابة، ويدفعها للبحث بأنفسها، وهي الغاية المرجوة منه..

اللهم أشهد...ألا يدفع الشباب للكفّ عن انحرافهم، ويعود بهم إلى جادة الصواب، إن فعل فتلك الغاية وإن لم... فيكفي أنه حاول، اللهم اشهد.

والحمد لله رب العالمين، على عدد نعائم الله، الحمد لله الباسط عدله، الحمد لله الرافع ظلمه، الحمد لله حمداً يوافي نعمته، ويدفع نقمته، وحمداً يكافي مزيد بره وإحسانه، الحمد لله حمد الشاكرين، وحمد الذاكرين، وحمد الصالحين، وحمد الصادقين، وحمد الصابرين، وحمد المؤمنين، وحمد المخلصين، وحمد العابدين، وحمد العارفين، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله أجمعين، خير البرايا أجمعين وأوليائه الصادقين الصالحين، وأئمة الخلق الطاهرين، وعلى ساداتنا المكرمين، إمامهم، وعقلهم، ونفسهم، وكلمتهم، وسابقهم وتاليهم، والفتح منهم والجد والخيال، وسلام الله على الصالحين الصادقين، الأمير السيد، والفاضل، وكل رجال التوحيد المؤمنين الزاهدين العابدين منذ بدء الخلق إلى يوم القيامة العظيم.

وقبل أن أختم لا بد من توجيه الشكر كل الشكر إلى كل من ساعد في بحثي هذا، سواء بتأمين المراجع والكتب والرسائل، أو بالتشجيع والدعم المعنوي، وأخصُّ بالشكر الأستاذين عادل

الملحم موجه اللغة العربية في السويداء، واسماعيل الملحم رئيس إتحاد الكتاب في السويداء على الملاحظات الهامّة، التي قدموها لي حول هذا البحث والشكر مسبقاً لمن سيساعدني على إظهاره للنور. وكذلك لن أنسى أن أوجه بين دفتيه همسة لوم وعتاب إلى من جعل من عملي هذا مجالاً للسخرية والهزء، وليتهم اكتفوا بعدم التشجيع لكان أسهل، ولكان ذلك في نفسي أقل أثرا، سامحهم الله وأرشدهم إلى ما أرشدني.

وكل ما أرجوه من كل قارئ يطلع على ((كشف الستار)) ألا يحكم عليه قبل أن يقرأ ما فيه بتأن وعقلانية، وليستخدم عقله قبل أن يحكم، وليبتعد عن أية عصبية أو طائفية أو مذهبية، فكشف الستار دعوة للتوحيد وليس للتفريق. ((أللهم اشهد إني بلغت)).

نسيب أسعد الأسعد 1\8\1998

المحتوى :

لا بد لكشف الستار عن مذهب التوحيد من دراسة تاريخية ودينية توضح أصوله القديمة، وكذلك لا بد من معرفة الأصول التاريخية لبني معروف والقبائل العربية التي خرجوا منها. لذلك فقد قسم كشف الستار إلى أبواب أربعة، وقسم بدوره كل باب إلى فصول مختلفة. وفيما يلي سرد سريع لما احتواه كل باب وفصل وفق مخطط البحث التوضيحي الوارد فيما بعد.

أولاً : الباب الأول : الخلفية التاريخية

وقد قسمته إلى فصول ثلاثة كما يلي :

1) الفصل الأول : وتتضمّن بحثاً تاريخياً لبني معروف وأصولهم التي ترجع إلى ملوك اليمن أي العرب الجنوبيين (بني قحطان) وملوك سبأ الذين خرجت منهم قبائل الغساسنة والمناذرة وبالتالي قبائل الموحدين ومن ضمنهم بنو معروف.

وثم دراسة ملوك التنوخيين واللخميين واستقرارهم في العراق قبل الإسلام، ومن ثم انتقالهم إلى أراضي حلب والمعرة بعد الإسلام، ومن ثم استقرارهم في جبال لبنان حتى بدء الدعوة الفاطمية وبعدها دعوة التوحيد _ دعوة الحاكم بأمر الله سلام الله عليه _ ودخولهم فيها ودفاعهم عنها.

2) الفصل الثاني : فيه وضحت أصول الفاطميين ودعوتهم وارتباطهم بالدعوة الإسماعيلية التي خرجت من السلمية نحو المغرب لتكون الدولة الفاطمية (نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول(ﷺ) وزوجة الإمام علي) وكذلك ارتباط الإسماعيلية بالشيعة العلوية التي هي إحدى فرقها الكثيرة التي نادت مع شيعة علي الأوائل (سلمان الفارسي، المقداد بن الأسود، عمار بن ياسر، أبو

ذر الغفاري، رفاعة بن مضعون) بأحقية علي بإمامة المؤمنين مستندة إلى (غدير خم) عندما بايع الرسول عليّاً بالإمامة بعده.

3) الفصل الثالث : وفيه توضيح لبعض صحابة الرسول الكريم الذين كانوا أول المؤمنين. وليس عبثاً تم اختيارهم، فهم ذو مكانة مقدسة عند الموحدين باعتبارهم (السادة الحدود) في أدوارهم وهم :

(سلمان الفارسي، المقداد بن الأسود، عمار بن ياسر، أبو ذر الغفاري) سلام الله عليهم جميعاً. وأما الخامس (رفاعة بن مضعون) فالمعلومات تكاد تكون معدومة عنه ولا نعرف السبب، لذلك لم أوفق في كتابة بحث عنه، وإن شاء الله سأحاول البحث مجدداً عنه، وإن عثرت على أي شيء يمكن إضافته في ملحق خاص بهذا الكتاب كي لا نضيع حقه مع الحدود الأربعة السابقين سلام الله عليهم في دور النبي محمد (ﷺ)

وأما البحث حول الإمام علي بن أبي طالب فكان لعدة أسباب، منها أن الحدود الخمسة فقد كانوا يساندونه في أحقيته بالإمامة، فقد كانوا من شيعته الأوائل، وكذلك لأن الفاطميين انتسبوا إليه وإلى فاطمة الزهراء (ع) سيدة نساء العالمين، فلذلك كان لابد من لمحة قصيرة عنهما لارتباطهما بالفاطميين، ولن أسأل من هم الفاطميّون بالنسبة للموحّدين... لنا

ثانياً : الباب الثاني : الخلافة الفاطمية :

وفيه دراسة للخلافة الفاطمية واشتمل على فصول ستة هي :

الفصل الأول : ويشتمل على دراسة تاريخية مفصلة لنشأة الدولة الفاطمية منذ البداية، مروراً بالأدوار التي يمكن تقسيمها إلى دور التأسيس وخلفائه، مع صور تخيلية رسمتها لهم تقريباً للفكرة، وربطاً للموضوع بذهن القارئ، حيث أنه لا توجد رسومات قديمة لهم. ودور القوة مع خلفائه وصورهم التخيلية باستثناء الخليفة السادس الحاكم بأمر الله _ سلام الله عليه _ لمكانته المقدسة وباعتباره مؤسس مذهب التوحيد، فقد أفردت له فصلاً خاصاً، ولم أرسم له صورة إذ يمكن لكل موحد أن يرسم في قلبه وعقله صورة خاصة له. ودور الضعف الذي تسلم فيه خلفاء ضعفاء بعد غيبة الإمام الحاكم (س) واستمروا حتى انهيار الدولة الفاطمية.

الفصل الثاني : وفيه دراسة للحضارة العربية في الدول الفاطمية، والتقدم الذي وصلوا إليه في كل المجالات، واهتمامهم بشؤون الدولة من زراعة، وعمارة للمساجد، والأعياد الدينية والمواسم وغيرها.

وكذلك تضمّن الفصل نماذج بخط المؤلف للخط الكوفي المورق والذي استخدمه الفاطميون بكثرة وعنوا به حتى نسب إليهم فصار يسمى (الخط الفاطمي).

الفصل الثالث : وتضمن دراسة للنزاعات الدينية التي احتوتها الدولة الفاطمية التي جمع خلفاؤها السلطتين الزمنية والروحية، وكذلك المذاهب السنية التي سبقت إنشاء الفاطميين دولتهم في مصر كالشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية. ثم انتشار الشيعية في مصر وبعدها إقامة الدولة الفاطمية الشيعية فيها، وإدخال خصائص المذهب الشيعي في الجوامع الرسمية وصيغة الآذان وغيرها.....

الفصل الرابع : وقد احتوى دراسة لدعوة الفاطميين الأولى بعد توطيد خلافتهم في مصر ونشرهم لعقائدهم الشيعية في معظم الأقاليم المصرية بداية، ثم إرسال الدعاة إلى معظم أقاليم الوطن العربي حتى المغرب والجزيرة العربية وصقلية والشام والعراق. ثم قيام الحاكم بأمر الله(س) [9] بخطوة إصلاحية جريئة في سبيل إنقاذ المذهب الفاطمي وعقائده، وظهور مذهب جديد هو مذهب التوحيد.

حيث كلف حمزة بن علي (س) بإنشائه، وقد سلمه الإمام الحاكم بأمر الله الإمامة بسجل مكتوب ضمن الملحقات. وقيام الإمام حمزة (س) بتكليف الحدود الخمسة (أربعة إضافة له) بنشر تعاليم المذهب الجديد وإرسال الدعاة لنشر الدعوة، وبناء المجالس لتعليم المستجيبين وأخذ العهد (الميثاق) عليهم، وعلى أولادهم وذرياتهم.

الفصل الخامس : وقد أفردته للإمام الحاكم بأمر الله (س) حول حياته وتسلمه الخلافة وما لاقاه من صعوبات بداية من الكافرين المتسلطين، ثم طريقة حكمه وزهده في الحياة وعدله بين الناس وتكوين المذهب الجديد، وأقواله ونفي الألوهية عن نفسه في أكثر من سجل، وكذلك أوضح هذه الفكرة السادة الحدود في رسائلهم التي بينت هذا التحريف والدس في الرسائل، وحتى الميثاق نفسه، وطلبوا من أتباعهم عرض رسائلهم على الشيوخ الموثوقين، ولم أعمل على إصلاح التحريف بل اكتفيت بالإشارة إلى بعضه، حيث أني غير مخول بالإصلاح، فما أنا إلا موحد شاب في بداية

اطلاعي، وأترك المجال لغيري ليقوم بهذا الإصلاح. وكذلك تضمن الفصل نهاية الحاكم غير الواضحة والغامضة حتى يومنا هذا، وغيبته ورجعته التي ينتظرها الموحدين في آخر الزمان باعتباره المهدي المنتظر.

الفصل السادس : وفيه بحث للسادة الحدود الخمسة سلام الله عليهم في دور الكشف، حيث تعرّفنا عليهم زمن النبي محمد (ﷺ) وعلى أسمائهم، فكان لا بد من التعرف عليهم في دور الكشف وعلى أسمائهم وأعمالهم، ... ومراتبهم، وكذلك الأدوار التي مروا بها منذ أن خلقهم الخالق المبدع تعالى حتى زمن الإمام الحاكم بأمر الله (س)، مستنداً في ذلك إلى أحد كتب المذهب الشريفة.

ثالثاً : الباب الثالث ((مذهب التوحيد))

وقد قسمت هذا الباب إلى سبعة فصول هي كما يلي :

الفصل الأول : وفي هذا الفصل مقتطفات هامة من مذهب التوحيد وقد اخترت منها ما يمكن عرضه، ورأيت أنه يكفي القارئ الموحد لتكوين فكرة مبدئية عن المذهب، بحيث يمكن لمن يشاء أن يتابع البحث عن هذه العقائد. فيكفي من هذه المقتطفات أن تكوَّن لدى القارئ المبتدئ فكرة وتحثه على البحث والتعمق فيه، وقد تضمنت هذه المقتطفات : (السرية في المسلك، والعقل الأرفع والعقل الأدنى، والجبر والمقدر، والتقمص والنطق، واللاهوت والناسوت، والثواب والعقاب... وفلسفة المذهب في الخالق والخلق والعقل والنفس....) وتضمن الفصل أيضاً أركان المذهب ودعائمه ومحرماته وصلواته.....

الفصل الثاني : وقد أفرد هذا الفصل للأمير السيد عبد الله التنوخي (قدس الله سره) وفيه بحث عن حياته ونسبه وأخباره وزهده وتعبده ووفاته وأمثلة من شروحه وأقواله في النفس والعين والأذن... وصورة تخيلية. قدس الله سره ونفعنا ببركاته.

الفصل الثالث : ويتحدث عن حياة الشيخ الفاضل قدس الله سره ونسبه وتعبده ووفاته وأمثل من أقواله ودعائه وكلامه في جملة الشروط الواجب على الأخوان، وكذلك مع صورة تخيلية له، وقد اعتمدت على أحد كتب المذهب الشريفة في ذكر دعائه وكلامه. نفعنا الله ببركاته.

الفصل الرابع : وهو عبارة عن دراسة اجتماعية لواقع الموحدين وزعامتهم الدينية والزمنية، وأخلاقياتهم وتربية أولادهم ومكانة المرأة عندهم والزواج والطلاق، وكذلك بعض الأحكام القانونية المأخوذة من قانون الأحوال الشخصية المذهبية الخاصة بالموحدين.

الفصل الخامس : وفيه دراسة غير موسعة لمناطق انتشار الموحدين منذ بدء الدعوة التوحيدية حتى يومنا هذا، طبعاً أماكن انتشار ما يسمون خطأ (بالدروز) حيث أن الموحدين منتشرون في كل بقاع العالم تحت أسماء مختلفة ويشكلون كما يقول المرحوم كمال جنبلاط ربع سكان العالم حتى وإن اختلفت تسمياتهم ولغاتهم في كتابه (هذه وصيّتي).

الفصل السادس : وفيه دراسة لواقع الموحدين في فلسطين وقد تم التركيز عليه لما يعانون منه مع أهلنا في الجولان المحتل من اضطهاد وذل الاحتلال، ووفيه أماكن تواجدهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية منذ أيام الانتداب البريطاني حتى الاحتلال الإسرائيلي.

الفصل السابع : وهو بحث هام يوضح محاولات أعداء الموحدين في فصلهم عن العروبة والإسلام، لإثارة النزاع والخلافات بين الشعب الواحد منذ محاولة نابليون حتى الانتداب الفرنسي ومحاولته تقسيم العرب وإقامة دويلات مستقلة وصولاً إلى المخطط الامبريالي ومشروع (الدولة الدرزية) التي رسم خطوطها الأولى وأجلت بسبب انكشافها.

رابعاً : الباب الرابع ((شخصيات توحيدية))

وقسم هذا الباب إلى فصول ثلاثة هي كالآتي :

الفصل الأول : يتحدث عن شخصية توحيدية عظيمة، وقائد بارز للثورة السورية الكبرى، المرحوم سلطان باشا الأطرش، رجل دين جليل، ورمز عظيم لكل الأجيال. وتضمن الفصل بحثاً عن حياته وجهاده ونضاله وقيادته للثورة السورية الكبرى، ووفاته ووصيته، وبعض المراثي الكثيرة، وصورة مطابقة رسمتها له.

الفصل الثاني : ويتحدث عن شخصية توحيدية عظيمة وفيلسوف الموحدين ومفكرهم (هكذا أحببت أن أناديه أنا) وهو المرحوم كمال جنبلاط، وقد ركزت على جانب من شخصيته ولم أبحث

في كل جوانب حياته، بل اهتممت بجانب التوحيد وتعمقه في الفلسفة (لأن هذا يناسب موضوع الكتاب)، وفيه بحث عن حياته وأقواله ومختارات من أشعاره وفكره وفلسفته، واستشهاده ورثائه مع صورة رسمتها له.

وقد اقتصرت في هذا الباب على هاتين الشخصيتين مثالاً وليس حصراً لأنني إن أردت أذكر كل الشخصيات التوحيدية فسوف لن يسعني المجال ولا الكتاب، لذلك اخترت مثالاً عن الزعيم الزمني والروحي في جبل العرب ومثله في جبل لبنان.

الفصل الثالث : وفيه تسع ملحقات، منها الديني، كالسجلات التي أصدرها الحاكم بأمر الله (س) في إعطاء الإمامة (لحمزة بن علي) (س) وفي تحريم الخمر. ومنها الأدبي قصائد في مدح بني معروف، والتاريخي مثل بيان الثورة السورية، والقانوني مثل صورة عقد الزواج

تمهيد

.... عند الكلام عن الموحدين، تصادفنا مشكلة ليست بالسهلة وهي تسميتهم (بالدروز) فحتى البعض منهم ينادون أنفسهم بهذا الاسم الخطأ، وأما الأغلبية فترفض هذه التسمية وتصر على مناداتها باسم الموحدين، فمن أين جاءت هذه التسمية (الدروز) ؟؟

في هذه التسمية وجوه عدة، ولكن المسلم به أن الأتراك أطلقوها عليهم لأنهم كانوا يحاربونهم ويقاتلوهم أشد القتال الذي أقلق مضجعهم، فأراد الأتراك أن يحطوا من شأن الموحدين بنسبتهم بهذا الاسم لمعرفتهم بكره الموحدين له.

وهناك احتمال أن هذه التسمية إنما هي نسبة عسكرية إلى الأمير والقائد الفاطمي أنجور انوشتكين الدرزي الذي كلفه الإمام الحاكم بأمر الله (س) بنشر دعوة التوحيد في بلاد الشام ووادي التيم فخاض مع جماعة الموحدين ضد الأعداء معارك انتصروا فيها.

وهناك في سهل الإقحوانة قرب طبرية تعاقدت الرايات ونشأت هذه النسبة العسكرية إليه وكان ذلك قبل أن يرتد انوشتكين الدرزي عن دعوة الحاكم، مما جعل الحاكم بأمر الله يغضب عليه لتحريفه في رسائل الدعوة، ومغالاته في تأليه الحاكم، ويأمر أتباعه بقتله فقتل في وادي التيم سنة (410 هـ / 1019م).

وهناك رواية تقول إن (الدروز) هي نسبة إلى الشيخ حسين الدرزي وهو فلاح من صعيد مصر وأول من تقبل دعوة الحاكم وحارب من أجلها. ومما تقدم نجد أن هذه التسمية غير معروفة الأصل تماماً وهي ليست قديمة في التاريخ بدليل أننا إذا تصفحنا كتب الموحدين المقدسة لا نجد لها أي أثر، بل نجد الكتب تخاطب أتباعها باسم الموحدين. ومهما يكن من أصل هذه التسمية فإن

الأتراك أرادوها ذلاً للموحدين، فشرَّفَها الموحدون وأعزُّوها بمجدهم. ولذلك أجدني مرغماً على استخدامها بعض الأحيان مسبوقة بالاسم الصحيح (الموحدين) فرب خطأ شائع يصيب أكثر من صحيح قليل.

فلنبدأ والله المستعان فيما نحن مقدمون عليه من مهمة صعبة وعسيرة.

أَصْبَحْتُ لا أَرْجُو وَلا أَتَّقِي

إلا إلَهِي وَلَهُ الفَضْلُ

جَدِّي نَبِيٌّ، وَإمَامِي أَبِي

وَدِينِي الإخْلاصُ وَالعَدْلُ

الحاكم بأمر الله



سلام الله عليه

الباب الأول

الخلفية التاريخية

الفصل الأول
بنو معروف

1 – ملوك اليمن

2 – التنوخيون واللخميون في العراق

3 – التنوخيون واللخميون في الإسلام

بنو معروف عبر التاريخ[10]

أولاً ـ ملوك اليمن :

تقسم الظروف الطبيعية بلاد العرب إلى قسمين كبيرين تفصل صحراوات واسعة بينهما، تجعل حياة كل منها تختلف عن الأخرى. فنجد الجنوبيين متحضرين أصحاب مدن وحضارة، بينما الشماليون في الحجاز يعيشون معيشة بدوية، يتنقلون وراء مساقط الغيث ومواضع العشب والكلأ. وقد نهض الجنوبيون بحضارة لا تزال هياكلها وقلاعها ماثلة حتى اليوم.

والعرب الجنوبيون هم العرب العاربة من بني قحطان الذي عاش أخوه جرهم في الحجاز وملك فيها حتى هاجر إليهم إسماعيل بن إبراهيم وتزوج منهم.

وقد تسلم (قحطان) ملك اليمن سنة (2030 ق.م) ثم خلفه على عرش اليمن ابنه (يعرب)، فكان من عظماء ملوك العرب، ثم خلفه على الملك ابنه (يشجب)، ثم (عبد الشمس) الذي كان كثير المعارك والغزوات والانتصارات، وكان يسبي الكثير من النساء فسمي (سبا)، وبنى سداً بالصخر والقار بين جبلين في مدينة (مأرب) لجمع المياه من الأمطار والينابيع وتوزيعها في ري الأراضي. ولكنه توفي قبل الفراغ منه. فأكمله بعده ابنه، وقد قوي نفوذ السبئيين، وامتد سلطانهم على الجنوب كله، وتحكموا بالقوافل التجارية، اتخذوا ((مأرب))[11] حاضرة لهم، ولكن انهيار السد جعلها تفقد مكانتها الحضارية، وفي سنة (270 ق.م) أنشأ بطليموس الثاني ملك الرومان أسطولاً بحرياً في البحر الأحمر يحمل إلى مصر عروض الهند وأفريقية الشرقية، فأحدث ذلك اضطراباً في

شؤون السبئيين الاقتصادية، ونازعهم ملوك (ريدان) أصحاب ظفار وغلبوا عليهم وعلى الدولة الجنوبية منذ سنة (115 ق.م).

وفي سنة (24 ق.م) جهز (إليوس جالوس) والي الرومان على مصر بأمر من القيصر (أوغسطس) حملة كبيرة لفتح بلاد الحميريين والاستيلاء على ميناء عدن واتخاذها قاعدة لتموين سفنهم، ففشلوا بذلك فشلاً ذريعاً، ثم اتجه الرومان إلى الملاحة في البحر الأحمر، واستطاعوا بعد فترة الاستيلاء على عدن وجعلها قاعدة لتموين السفن، فشلُّوا بذلك تجارة الحميريين[12]، وساءت أحوالهم الاقتصادية فأهملوا شؤونهم العمرانية، وأخذ الخراب يدب في البلاد، وظهر لهم خصم ثان هو ملوك الحبشة الذين حاربوهم واستولوا على بلادهم في منتصف القرن الرابع الميلادي، وظلوا بها نحو عشرين عاماً وفي هذه الأثناء كانت اليهودية تتغلغل في الجزيرة العربية. واندفعت كذلك بعثات دينية مسيحية إلى الجنوب فاعتنقت مدينة نجران في القرن الخامس هذا الدين، فشعر ملوك حمير بالخوف من تغلغل النصرانية، فدبر آخر التبابعة (ذو نواس) في عام (523 م) مذبحة لنصارى نجران مما جعل الإمبراطور الروماني يستثير العاطفة الدينية لدى الأحباش فتجهّز منهم سبعون ألف مقاتل لغزو اليمن بقيادة أبرهة الأشرم، فاحتلها سنة (525 م) وضمها إلى بلاده، فاعتنى بنشر المسيحية بين العرب وبنى في نجران كنيسة (القليس) فقام رجل ودنس كعبة نجران، لأن أبرهة بنى القليس وجعلها عظيمة البنيان مزخرفة الهندسة والنقوش، وهدفه من ذلك تحويل العرب عن الحج إلى مكة. مما أغضب أهل الحجاز ما جعل أحد رجال الحجاز يدنس القليس، فغضب أبرهة وقصد الحجاز بجيش عظيم مصحوباً ببعض الأفيال لهدم بيت مكة، ولكن الله تعالى حمى الكعبة وهزم الأشرم وأرسل عليه وعلى جيشه طيوراً ترميهم بالحجارة فهلك الجيش معظمه وانهزم الباقي وقد سمي ذلك العام اليوم عند العرب بعام الفيل، وفيه ولد الرسول الكريم، والصحابي الجليل عمار بن ياسر، قال تعال في سورة الفيل:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ {1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ {2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ {3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ {4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ {5}

وقد ظل الاحتلال الحبشي نحو خمسين عاماً ثارت فيه اليمن ثورات عنيفة، حيث استنجد الأمير (سيف بن ذي يزن) بالفرس أعداء بيزنطة، وأنسبائه ملوك الحيرة، فأنجدوه بقوات قاتل بها الأحباش، وأفنى معظمهم وجعل من بقي منهم خدماً وعبيداً، وظلوا فيها حتى سنة (628 م) إذ

اعتنق واليهم (باذان) فيها الإسلام فجاهدوا في سبيله وأعزوه، وكانوا أول من صافح باليد، وقال الواقدي عنهم : ((عندما أراد الخليفة أبو بكر توجيه الجيوش لفتح بلاد الشام وجّه كتباً يدعو القبائل العربية للقدوم إلى المدينة، فكانت قبيلة حمير أول من وصل إلى المدينة وأمامها كبيرها (ذو الكلاع) الحميري، فلما قرب من أبي بكر والصحابة حوله، ألقى السلام وألقى شعراً يمدح فيه الرسول والإسلام، فابتسم أبو بكر وقال للإمام

علي : ((أما سمعت رسول الله يقول : إذا أقبلت حمير[13] ومعها نساؤها تحملها، فابشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين)) قال الإمام علي صدقت، وأنا سمعت هذا منه.

لقد كانت حضارة اليمنيين حضارة عريقة لم تأتهم من الخارج بل نمت وتطورت في الداخل. وكان لهم قوانينهم وأنظمتهم ودساتيرهم، وكانوا ممن يؤلهون السيارات الفلكية والنجوم. ويعبدون الكواكب، وكانت تقوم ديانتهم على أساس ثالوث هو القمر واسمه عند المعينيين[14] (وَدَّ) وكان إلههم الأكبر، ومن بعده تأتي الشمس التي اعتبروها زوجه وهي (اللات)، ومنها ولِد (العُزَّى) أي الزهرة أو الفينوس. وبجانب هذا الثالوث كان عندهم آلهة أخرى ترمز لبعض النجوم، أو مظاهر الطبيعة، ولكن الإسلام ودخولهم فيه، قضى على كل هذه الوثنية، حيث تركوا عبادة الأوثان التي لا تدفع ضرراً، ولا تجلب خيراً، وصاروا يعبدون الله الواحد الصمد. ومازال عرب الجنوب يحملون اسم جدهم الأكبر (قحطان) ويلقبون به، أو باليمنيين. بينما نجد عرب الشمال يلقبون بالعدنانيين أو النزاريين.

إذاً لقد كان أصحاب السدّ والمدن ذوي حضارة عريقة لم يعرفها لا العرب ولا العالم القديم، كانت اليمن خضراء وفيها الجنان التي يرويها سد مأرب وفي المقابل نجد باقي العرب في الشمال يعيشون حياة البداوة والتنقل، وكثير من القبائل الشمالية هاجرت نحو الجنوب وسكنت هناك واختلطت مع الجنوبيين واندمجت بهم، حتى انهار السد وانهارت معه حضارة اليمنيين، فمنهم بقي في اليمن ومنهم من نزح عنها.

ثانياً _ التنوخيون واللخميون في العراق

بقي بعض قبائل (حِمْيَر) في اليمن ملوكاً عليها، وهاجر بنو كهلان، فحلوا في أرض الحجاز، حيث أقاموا بيثرب (المدينة المنورة) ملكاً لهم، وقبائل منهم هاجرت إلى الشمال مثل جُذامْ وكَلْب وخُزَاعة، الذين مرّوا على عين ماء يقال له (غسّان [15]) فسموا به، فصاروا يعرفون بالغساسنة. وقد أقاموا إماراتهم في شرقي الأردن ولم يتخذوا لهم حاضرة أو عاصمة لأنهم كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر، فتارة كانت حاضرتهم الجولان أو الجابية أو جلق بالقرب من دمشق. وتارة تكون البلقاء، وقد توسع ملكهم فشمل الغوطة كلها، وحوران ودمشق، وفي أيام ملكهم الحارث بن جبلة، عاش الغساسنة أزهى أيامهم حيث امتد سلطانهم من ((البترا)) بالأردن إلى ((الرصافة)) شمالي تدمر، وكانوا قد دخلوا في المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي، وبعد الحارث تسلم ابنه المنذر (569 _ 581) الذي سار على منهجه في المسيحية، ولكن البيزنطيين خافوا من انقلابه ضدهم، فقبضوا عليه ونفوه إلى صقلية. وحاول من بعده ابنه النعمان أن يثور، لكنه لاقى نفس المصير في سنة (584). أما قبيلتا الأزد وقضاعة فقد تحالفتا على المقام في البحرين، الإحساء، فسموا تنوخاً[16] ثم انضمت إليهم بطون من نمارة بن لخم، فأقاموا في البحرين سنين، ثم رحلوا إلى العراق لما علموا باختلاف ملوكها، لخصب أراضيها فاستوطنوا جنوب العراق. ورحلت منهم فئات مع مالك القضاعي، فنزلوا شمالي العراق، وقد استنجد بهم ملك الروم لما غزاه الفرس، فأنجدوه وقاتلوا معه قتالاً شديداً، ثم حاربوا الفرس وحدهم، وانتصروا عليهم فأعجب ملك الروم بهم، وفرق فيهم الأموال والهدايا، وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة ثم انتقل أحدهم واسمه (قحطان) ((غير قحطان جدهم الأكبر)) إلى البرية الواقعة بين حلب والمعرة، وأنجب أولاداً، وكثر نسلهم، وصاروا قبائل مع مرور الأيام. وأما القسم الذي رحل إلى العراق، فقد أقام فيها سنة (138

م) بين الحيرة والفرات[17] وأول ملك لهم هو (ملك بن فهيم) الذي تسلم الحكم سنة (195 م) واتخذ من الأنبار منزلاً له. وبعد وفاته قام بالملك رجل ذو رأي وحزم هو (جذيمة بن الوضاح) الذي جمع ملك أرض العراق، واتفق مع كسرى الفرس عام (226 م) على أن يكون عرب الحيرة عوناً للفرس ضد الدولة الرومانية، وقد استمر حكمه ستين عاماً، قتل بعدها غدراً بمكيدة من ملكة تدمر زنوبيا انتقاماً لوالدها عمرو بن حسان. ولما لم يكن لجذيمة أولاد، فقد تسلم الحكم من بعده ابن أخته عمرو بن عدي من اللخميين وقد اتخذ من الحيرة عاصمة له، وأعلن استقلاله عن الفرس، فغزاه ملك الفرس وقهر دولته، فهاجر كثير من تنوخ العراق إلى تنوخ الشام وعاشوا معهم. وأما من بقي في العراق فقد عاش تحت حكم ابن عمرو بن عدي وهو امرؤ القيس سنة (228م) وكان يدين بالولاء للفرس والروم معاً، وقد امتد ملكه حتى بادية الشام والعراق والحجاز. ومات سنة (328 م) وتسلم من بعده ابنه عمرو من عام (328 م) حتى عام (363 م) لكن سابور ملك الفرس عمل على قتله، وسلم مكانه (أوس بن قلام العمليقي) لكن الأخير أيضاً قتل من قبل (حجاب بن عتيك اللخمي)، وعاد الملك لابن عمرو الذي قتله سابور وهو _ أي ابن عمرو _ أمرؤ القيس الثاني عام (378 م) الذي لقب بالمنذر لأنه كان ينذر المجرمين بالنار، ثم تسلم بعده ابنه النعمان الأعور أو السائح عام (403 م) الذي كان قوياً بالحروب، وكان له جيش كبير وقوي يتألف من كتيبتين هما: الشهباء والدوسر[18]، فحالفه بنو عامر العدنانيون، وبنو تغلب، وقاتله بنو تميم وهو الذي بنى بنايات عظيمة وأشهر ما بنى هو قصر الخورنق والسدير[19] وقد أرسل كسرى الفرس (يزدجرد الأول) (399 – 420 م) ابنه الأكبر (بهرام جور) لينشأ في قومه، ويتعلم الفروسية والصيد ولما توفي يزدجرد، أراد الفرس إقصاء ابنه بهرام عن الملك، فتدخل النعمان وأيده بجيش مكنه من استرداد عرشه، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة عند الفرس وهيأ لها موقعها في طريق القوافل أن تكون مركزاً مهمّاً للتجارة، فعاش المناذرة معيشة الترف بسبب التجارة والزراعة المزدهرة عندهم، ولكن النعمان أواخر حياته زهد في الدنيا، وترك الملك واتجه للعبادة، فكان ذلك عام (431 م) فتسلم من بعده ابنه المنذر الأول عام (431 م) وكانت أمه من الغساسنة فحارب الروم وأحرق بلادهم، وسلب وسبا، وقصد فتح القسطنطينية ولكن توغله في بلاد الروم سبب له الفشل وخسارة الكثيرين من رجاله وبعد وفاته عام (462 م) تولى ابنه النعمان الثاني الملك بعده. وبعده تسلّم الأسود بن المنذر سنة (473 م) الذي حارب الغساسنة وانتصر عليهم وأسر منهم عدة أمراء، وعندما أراد إطلاق سراحهم أثار

حفيظته عليهم ابن عمته واسمه (أذينة) بقصيدة مثيرة فقتلهم ثأراً لأخيه قتيل غسان. منها هذه الأبيات :

هم جردوا السيف فاجعلهم له جُزُرَا وأوقد النار فاجعلهم لها حطبا

واذكر بمنجاهم مثوى ابن كرب فيهم وحبس عدي عندهم كربا

وبعده تسلم أخوه المنذر الثاني، وبعده تسلم النعمان الثالث بن الأسود بن المنذر سنة (500 م) فاشتهر بانتصاراته على الروم إلى أن قتل في إحدى المعارك. فعين كسرى الفرس من بعده أبا يعفر بن علقمة (507 م) ولكن بعد عامين تولى الملك أمرؤ القيس الثالث عام (509 م) الذي اعتنى بالعمران وزين عاصمة ملكه بالهندسة، وحارب قبيلة ربيعة بن نزار في البحرين ونجد، واختطف ماريا بنت عوف وتزوجها ولجمالها فقد لقبت بماء السماء، وأنجبت له ولداً أسماه المنذر، وقد زوجَّه من هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي لإنهاء العداء بين اللخميين وبني بكر بن وائل، وبعد موت أمرىء القيس الثالث تسلم ابنه المنذر الثالث (514 م) الذي لقب (المنذر بن ماء السماء) وقد ساءت العلاقات بينه وبين (قباذ) ملك الفرس في أول حكمه، وذلك لأن قباذ اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسمياً للدولة، وحاول أن يفرضها على المناذرة، فرفض المنذر، فعزله وولّى مكانه الحارث بن عمرو، أمير كندة، ولكن بعد وفاة قباذ وتسلم أنوشروان الذي كان يكره المزدكية، أعاد المنذر إلى حكم الحيرة فنشبت بينه وبين الحارث حروب طويلة قضت عليهم جميعاً، وقد اشتهر المنذر بأن له يومين : يوم نعيم، وكان أول شخص يصادفه في هذا اليوم يعطيه مائة من الإبل ويوم بؤس، وأول من يطلع عليه فيه يقتله. وبعد أن انتصر المنذر في حروب كثيرة، فشل في معركة (مرج حليمة) سنة (554 م)، ثم قتله مرة بن كلثوم، فتولى بعده عمرو بن هند[20] (554 – 569 م) وينسب إلى أمه هند، وإلى هند هذه ينسب دير في الحيرة (دير هند) لأنها كانت نصرانية بينما كان هو وثنياً، على دين آبائه، وكان طاغياً مستبداً وفيه يقول الشاعر :

أبى القلب أن يهوى السدير وأهله وإن قيل عيش بالسدير غرير

به البق والحمى وأسد خفية وعمرو بن هند يعتدي ويجور

وقد لقبه العرب بالمحرّق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل من تميم حرقاً وقد بر بنذره في يوم إوارة باليمامة، واشتبك مع تغلب و طيء في بعض معاركه وامتد سلطانه على قبائل كثيرة في شرقي نجد وشماليها وغربيها، وكان بحكم استبداده يتعرض له الكثير من الشعراء بالهجاء، وقد استقدم ليلى بنت المهلهل أخ كليب بحجة أن تزور أمه، لكن أمه استخدمتها وأهانتها فغضب ابن ليلى عمرو بن كلثوم التغلبي وقتله، ثم ملك بعده أخوه قابوس بن هند (578 م) فكان ضعيف الهمة فقتل، وتولى بعده أخوه المنذر الرابع المكنى بأبي قابوس (580 – 602 م) وفد نشأ في حجر أسرة مسيحيّة هي أسرة عَدِيّ بن زيد العبادي ولعل ذلك هو سبب تنصره، فهو أول من تنصر من ملوك الحيرة الوثنيين، وكان سلطانه يمتد إلى البحرين وعمان. وكانت له قوافل تجارية تجوب الجزيرة العربية، وقد سار مسيرة عمرو بن هند في رعاية الشعراء فوفد على بابه منهم الكثيرون مثل أوس بن حجر، والمنخل اليشكري، ولبيد، وحاتم الطائي، والنابغة الذبياني، وحِجر بن خالد الذي قال فيه

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبي قابوس حزماً ونائلاً

وقد مدحه النابغة الذبياني بعد أن غضب النعمان عليه بسبب وفوده على الغساسنة، حيث أرسل النابغة مجموعة قصائد يعتذر فيها له، تعتبر حتى يومنا هذا أجمل ما قيل في الاعتذار منها هذه الأبيات :

نبّئت أنّ أبا قابوسَ أوعدني ولا قرار على زأرٍ من الأسدِ

وقال في قصيدة ثانية :

ألم تر أن الله أعطاك ســورةً ترى كلّ ملك دونهـــا يتذبذب

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منها كوكبُ

وقد اغتنم ملك غسان (جفنة بن النعمان الجفني) خروج النعمان إلى البحرين فهاجم الحيرة، وقتل وسبا وأحرق ورجع منصوراً إلى بلاده، فقال عدي بن زيد يلوم النعمان على ذلك:

سما صقر فأشعل جانبيها وألهاك المروح والعذيب

ويظهر أن النعمان لم يكن سهل القياد، ويقال أنه قتل عدي بن زيد على لومه ذلك، وبعد أن ملك النعمان عشرين سنة ونيفاً اعتقله كسرى الثاني ملك الفرس بسعاية زيد بن عدي، كاتب كسرى وترجمانه إلى العربية، وكان النعمان قد أدخل زيد بن عدي هذا في ديوان كسرى معتذراً إليه عن قتل أبيه، ولكن زيداً أخذ يتحين الفرص ليثأر لوالده، فبدأ يزين لكسرى جمال نساء اللخميين، وأشار عليه بالخطبة من بني المنذر، مع علمه أن النعمان يرفض ذلك، وإنما زيد فعل ذلك ليوقع بينهما، فأوفده كسرى مصحوباً بفارسي يفقه العربية، ولما طلب زيد الخطبة لكسرى، رفض النعمان وقال غاضباً ((أما في عين[21] السواد وفارس ما يغنيكم عن بناتنا)) فعاد زيدو الفارسي إلى كسرى بالخيبة، ونقلا إليه كلام النعمان كما فسره زيد، فغضب وأرسل يدعوه إلى المدائن[22] للمفاهمة في أمور تحتاجها المملكة ولا تحيط بها المكاتبة ولكن النعمان فهم الشر المنوي من وراء هذه الدعوة، وقصد قبائل العرب طالباً النجدة فلم تجسر أية قبيلة على مساعدته خوفاً من بطش الفرس، وكانت العرب آنذاك قبائل مشتتة غير متحدة، متناحرة متحاربة، فذهب إلى بني شيبان فأودع عند رئيسهم هاني بن مسعود ماله ونعمه ودروعه البالغة ألف درع تامة ثم توجه إلى كسرى الذي علم بتنقلاته

بين القبائل، فقيده في السجن ثم قتله ويقال أنه رمى به تحت أرجل الفيلة فمزقته إرباً، وكان ذلك قبل بعث النبي برسالة الإسلام بسبعة أشهر.

ولم يول الفرس بعده أحداً من هذا البيت، فقد نصبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ثم أرسل كسرى يطلب من هاني بن مسعود تأدية أرزاق النعمان المودوعة عنده فرفض، عندئذ أمر كسرى إياس بن قبيصة بالمسير لمحاربة قوم شيبان، وأنجده بالجنود والأفيال وأمر ولاة الحواضر أن ينجدوا إياساً بالمؤن والجنود، فسارت الجيوش لمحاربة بني شيبان وفي هذه الأثناء كان بنو شيبان قد أستنجدوا بالقبائل العربية الموالية لهم، وتولى مع هاني القيادة حنظلة بن ثعلبة العجلي[23] وقد جرى القتال في أرض ذي قار، وهو ماء غزير ترده العرب في الصيف، وقد قسم بنو شيبان جموعهم إلى ميمنة تولاها بنو عجل، وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر وكان قائدهم جميعهم هاني بن مسعود (الذي يمجده الموحدون ويقدرون بطولته في يوم ذي قار) وقال الرسول الكريم عن ذي قار

((إنه أول يوم انتصر فيه العرب على العجم[24]))

وقبيل المعركة وقف هاني بالجموع خطيباً يحثهم على الصبر والاستبسال في القتال، فقال ((يا قوم ! مهلك مقدور خير من نجاء مغرور، وإن الحذر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الصدور أكرم من الطعن في الظهور، يا قوم جدوا فما من الموت بد، فتح لو كان له رجال يا آل بكر، شدوا واستعدوا ولا تشدوا تردوا)).

وقد بدأت المعركة بهجوم جيوش الفرس وأنصارها من القبائل فالتحم الفريقان بقتال شديد جعل الأمر يشتد على العرب، حتى خشوا الانكسار، لكنهم تشددوا في اليوم الثاني ووضعوا لهم كميناً، ثم حملوا على الفرس حملة أزاحتهم عن أماكنهم، بعد ان تخلت عنهم بعض القبائل، فتعقبوهم حتى ظهر الكمين أمامهم، فذبحوا من الفرس مذبحة عظيمة واستولوا على أسلابهم وأرزاقهم وكان ذلك بين عامي (604 – 610 م).

وقد خلد الأعشى هذا النصر العربي بقوله :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم منا غطاريف[25] ترجو الموت وانصرفوا

لما أتونا كأنّ الموت يقدمهم مطبق الأرض تغشاها بهم سدف[26]

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ملنا ببيض قطل الهام يقتطف

لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

قالوا : البقية !؟ والهندي يحصدهم[27] ولا بقية إلاّ السيف فانكشفوا

ثالثاً : التنوخيون واللخميون في الإسلام :

بعد أن اعتقل النعمان وقتل، ولى كسرى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي، وبذلك اضمحل ملك اللخميين في العراق، وأخذ الفرس باضطهادهم والتضييق عليهم حتى نزحوا مع قبائلهم إلى جهات حلب واللاذقية ونزلوا عند أقربائهم التنوخيين، وعند ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية بدأ الرسول الكريم يفكر في نشره خارج الجزيرة، فكانت الشام أول بلاد فكر في نشره فيها، والقضاء على السيطرة الرومانية التي دامت سبعة قرون، ومما كان يشجع الجنود العرب على اقتحامها وجود القبائل العربية فيها التي كانت تشارك الروم بالحكم مثل غسان في الجنوب، وتنوخ في الشمال، وقد حاربت هذه القبائل دعوة الإسلام في بادئ الأمر، ثم سرعان ما تقبلت الدين الجديد وحاربت من أجله الروم، الذين تكاثروا على المسلمين مما جعل الخليفة أبا بكر يكتب إلى خالد بن الوليد ليبادر إلى نجدة المسلمين في سورية، فسار خالد ومعه زهاء ألف وخمسمائة مقاتل من لخم وجذام بقيادة عون بن الملك المنذر، الملقب بالمغرور اللخمي فظهرت شجاعتهم في حصار بصرى ومعركة أجنادين التي استشهد فيها عون بن المنذر.

وعندما حاصرت الجيوش العربية الإسلامية مدينة دمشق عام (636 م) كان اللخميون مع خالد في الجانب الشرقي، وعندما تضايق المحاصرون بعد حصار سنة، ثقب رومي حائط بيته الملاصق للسور وأعلن استسلامه للأمير مسعود بن عون الذي تسلم بعد والده، فأعلم هذا الأمير خالد بن الوليد بأمره، ثم دخل منزل الدمشقي ومعه مائة من رجال لخم وفتحوا باب المدينة بعد أن قتلوا حراسه، فدخلها خالد بجيشه، واشترك بعد ذلك مع جيش مسعود وقومه باحتلال قلعة حلب ومدينة إنطاكية، وبحروب المسلمين ضد الروم كلها، مما جعل الخليفة عمر بن الخطاب يأمر أبا عبيدة بن الجراح بأن يولي هذه العشيرة بلاد المعرة اعترافاً بفضل جهادها.

ولما تم فتح سوريا نزلت هذه العشيرة في أرض المعرة نحو البرية والزور وامتزجوا هناك بأقربائهم الأقدمين التنوخيين الذين كانوا قد كتبوا إلى خالد بن الوليد معلنين مؤازرتهم له، فاشتركوا في الحروب التي خاضها العرب لنشر الإسلام، واشتهر منهم قبيلتا : تنوخ وربيعة، اللتان نبغ منهما الأمراء والتنوخيون والمعنيون، فاستوطنوا وقبائلهم جبل السماق (الأعلى) غربي حلب وزرعوا أراضيه، وبنوا فيه الحصون والمعاقل.

وعندما قدم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور إلى دمشق (760 م) لدراسة الوضع الحربي على الساحل الشامي، وجد رغبة عند أمير المعرة وهو الأمير أرسلان بن مالك باستبدال بلاده المجدبة، ببلاد جديدة فأقطعه وقومه جبال بيروت، فنزل هو وقبيلته بحصن وادي تيم الله، ثم انتقلوا إلى حصن أبي الجيش، ثم جبل المغيشة (ظهر البيدر) حتى وصلوا إلى سن الفيل وجرت بينهم وبين المردة أنصار الروم معارك عديدة انتصروا فيها عليهم، وقد ساندهم فيها قبيلة (بني لام) العربية التي استوطنت الشوف في عهد عبد الملك بن مروان، ثم تفرق اللخميون في جبال لبنان الغربية وعمروا قراه الساحلية، واختلطوا بأنسابهم التنوخيين متعاونين معاً في الدفاع عن الساحل الشامي، وتشييد الحصون لمحاربة الأعداء الذين كانوا يغيرون على السواحل العربية.

ثم قدم من جهات حلب فروع من قبائل شمر وتغلب وربيعة فاستوطنت جبال لبنان واشتركت مع اللخميين والتنوخيون والقبائل العربية الأخرى بصدّ هجمات الروم على الساحل الشامي حيث أصبحت جبال لبنان موطناً للقبائل العربية، واستمروا حتى وصلتهم الدعوة الفاطمية إلى الشام ولبنان فتقبلوها وساروا على هداها وحاربوا من أجل نصرتها وحافظوا على ميثاقها حتى يومنا هذا.

الفصل الثاني
الشيعة والفاطمية

إن الموحدين الفاطميين فرع من الشيعة، والشيعة لفظة أصلها في اللغة من المشايعة وتعني المتابعة والمطاوعة، والشيعة كمذهب : هم الفرقة من الناس الذين تابعوا الإمام علي بن أبي طالب (ع) وأهل بيته، حتى صار اسماً خاصاً[28] وهذا الاسم له سند في القرآن الكريم حيث يقول تعالى

((...هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ...))[29]

والشيعة كفرقة دينية سياسية، اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ظهورها تماماً. يقول أحد المؤرخين وهو النوبختي الذي عاش في القرن الثالث الهجري في كتابه فرق الشيعة، في الصفحة : (2، 17، 18) : إنهم فرقة علي بن أبي طالب، المسمون بشيعة علي، ظهروا في زمان النبي محمد وبعده، وقد عرفوا بانقطاعهم لعلي والقول بإمامته، ومن شيعته الأوائل المقداد بن الأسود الكندي (م 33 هـ / 653 م) وسلمان الفارسي (م 36 أو 37 أو 20 أو 28 هـ / 656 أو 657 أو 640 أو 648 م) وأبو ذر الغفاري (م31 أو 32 هـ / 651 أو 652 م) وعمار بن ياسر (م 87 هـ / 706 م) ويقول ابن النديم الذي ولد عام (383 هـ / 993 م) مناقضاً للنوبختي في كتابه المسمى (الفهرست) في الجزءِ الأول، ص 105 : ((... إن هذه التسمية ظهرت لأول مرة عندما حارب علي طلحة والزبير[30]، اللذين أبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان واتهماه به، فتسمى من اتبع علياً في قتالهم بالشيعة، وكان علي يقول هذه شيعتي)).

ومهما يكن الأمر الصائب، فإن المحن والمصاعب التي حلت بعلي بن أبي طالب بقتاله طلحة والزبير، وبقتاله معاوية بن أبي سفيان من بعدهما، وهو الذي طالب بدم عثمان لقرابته به، فقد ازدادت الشيعة تضامناً بحيث أن أغلب أهل الكوفة أصبحوا من شيعة علي وأصبحوا موضع اضطهاد الخلافة الأموية التي قامت بعد مقتل علي على يد ابن ملجم سنة (40 هـ / 661 م) مستندة هذه الخلافة إلى عصبة البيت الأموي عدوة بيت بني هاشم الذي ينتمي إليه علي فالعداوة بين البيتين تمتد إلى أيام الجاهلية[31] حيث بدأ الأمويون يسبون علياً ويلعنونه في الخطب على منابر المساجد، وسموه (أبا تراب)، وحقروا الشيعة أتباعه ومناصريه وسموهم (بالترابية)[32] وكان هدفهم من وراء ذلك تشويه صورة الإمام علي (كرم الله وجهه)، وجعله كقاطع طريق، وقد قتلوا كل من فكر بالخروج عليهم من بني علي، ويذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (مقاتل الطالبين) أسماء من قتل منهم كالحسن والحسين بن علي، الذي اعتبر سفك دمه عند الشيعة في سهل كربلاء بالعراق ذا قيمة في التضحية تشبه سفك دم السيد المسيح عند المسيحيين. وقد استفاد بنو العباس من هذه الحالة وهذا الاضطهاد – وهم سلالة العباس بن عبد المطلب، شقيق عبد الله والد النبي الكريم، وهم من بيت هاشم أيضاً – ودعوا إلى الرضا من آل البيت، بقصد القضاء على خلافة الأمويين أعدائهم ولكن بني العباس الأوائل لم يكونوا يسعون إلى الخلافة والحكم وإنما كان هدفهم تعضيد علي وأبنائه في المطالبة بحقهم في الإمامة والخلافة. لكنهم لمّا تمكنوا من القضاء على الخلافة الأموية، تولوها من دون بني علي لأن الطريق قد خلت لهم لكثرة من قتل من بني علي.

وكان من المفروض أن يكون بنو العباس أخف وطأة على من هم أقرباؤهم _ بني علي _ من الأمويين أعداء بني هاشم، لكنهم كانوا أشد قسوة عليهم خوفاً من أن تضيع الخلافة من أيديهم، وبالرغم من شدة الظلم والتنكيل والقتل استمر بنو علي _ الشيعة _في ظل العباسيين في مثابرتهم على الدعوة لآل علي ولقد كثرت فرقهم وقتئذ، وكانت كل فرقة تدعو إلى إمام منهم[33] وإن ظل اسم الشيعة يدل على طوائفهم المختلفة ويميزهم عن غيرهم من الإسلام.

وكانت أهم الفرق في عهد العباسيين، وأكثرها تطوراً في العقائد الدينية هي الإسماعيلية، وهي التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فهذه الفرقة تؤمن مثل غيرها من فرق الشيعة بوصاية النبي لعلي في (غدير خم) مكان بين مكة والمدينة _ لتبقى الإمامة، وهي حكم المسلمين في بيت علي إلى يوم

الدين. فكانت عقيدتها : ((لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله)) وبعد موت إسماعيل في حياة أبيه جعفر الصادق، انتقلت إلى ابنه محمد، وكل كتب الدعوة الإسماعيلية تشير إلى تأويل القرآن الكريم، وكل الأحاديث النبوية ردوها إلى أئمتها وهي ما عرفت عندهم بـ(الأخبار).

ولكن أمام اضطهاد العباسيين لهذه الفرقة، اضطرت إلى الدعوة السرية واضطر أئمتها إلى التستر والتكتم وهو ما عرف بـ(التقية)[34] حتى أن محمد بن إسماعيل الذي انتقلت إليه الإمامة بعد موت والده سمي (بالمكتوم) وكان الأئمة يظهرون دعاتهم الذين عرفوا بـ(الحجج) لينقلوا عقائدها وينشروها بين الناس، وإن لم يكشفوا إطلاقاً عن شخصية الإمام وكان الأئمة في تسترهم يلجأون إلى وسائل متعددة ليبقوا على سريتهم، فأربعة من أولاد جعفر الصادق ادعوا الإمامة لأنفسهم بقصد ستر الإمام الحقيقي.

ومع أن الفرقة الإسماعيلية أرسلت دعاتها إلى كل مكان، لاسيما منذ أن تستر محمد ابن إسماعيل، إلى البحرين ومصر واليمن والهند والمغرب، فإنه لم يكتب لها الفوز مثلما نجحت في المغرب حيث تمكنوا من إنشاء خلافتهم فيها وانتسبوا إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم، وزوجة الإمام علي بن أبي طالب وتسموا بالفاطميين منذ ذلك الحين، فقد كانت هذه البلاد أي المغرب العربي بعيدة عن مركز الخلافة العباسية (بغداد) تسكنها قبائل من البربر متمردة، بحيث أن العرب الأوائل لم يتمكنوا من فتحها، إلا بعد حروب طويلة وصعبة استمرت من عام (26 هـ / 646 م) إلى عام (83 هـ / 789 م) وبعد إسلام البربر ومشاركتهم للعرب في الجهاد والفتوحات الإسلامية، أساء الأمويون لهم وفرقوا بين العرب وبينهم، لذلك أصبحت المغرب ملجأ للخارجين عن الخلافة مثل الخوارج بفرقتها : (الأباضية والصغرية) ومثل الأدارسة العلويين الذين كونوا دولتهم في سنة (173 هـ / 789 م) وقد احتضنت الإسماعيلية من قبائل البربر قبيلة كتامة في بلاد إفريقية الممتدة من طرابلس إلى طنجة. وقد كانت هذه القبيلة صعبة المراس، تسكن في جبال أوراس الوعرة، وقد بدأت الدعوة الإسماعيلية بين كتامة منذ سنة (145 هـ / 762 م) على يد الحلواني وأبي سفيان، وبعد موتهما، انتشرت الإسماعيلية على يد أبي عبد الله المحتسب المشهور ((الشيعي الصنعاني)) لأنه جاء من صنعاء اليمن سنة (288 هـ/ 893 م) وقد وجد أبو عبد الله الأرض ممهدة له، فبدأ بجمع الأتباع حوله وأنشأ جيشاً قوياً، ومن أرض كتامة الوعرة بدأ يهاجم دولة الأغالبة ويلحق بهم

خسائر تلو الخسائر[35] حيث استطاع أن يتغلب عليهم في عاصمة ملكهم (رقادة) سنة (296 هـ / 908 م).

وقد أدركت الخلافة العباسية الخطر من نجاح دعوة الإسماعيلية وخاصة بعد التغلب على الأغالبة في بلاد المغرب، فأرسلت الكتب إلى ولاتها في أنحاء الخلافة وأقاليمها ليقبضوا على إمام الإسماعيلية بصفته وهيئته لأنه وكما ذكرنا كان متستراً، ولا أحد يعرف هويته، إضافة إلى أن أكثر من واحد كان قد اتخذ لقب إمام تستراً على الإمام الحقيقي وحماية له من العباسيين الذين أرادوا القضاء عليه وعلى دعوته. فخرج الإمام الإسماعيلي من ((سلمية))[36] متخفياً ومعه ولي عهده أبو القاسم محمد، وكان غلاماً حدثاً في ذلك الوقت، ومضى به حتى وصل مصر التي كان له دعاة وشيعة، وأراد أن يتوجه إلى اليمن، لكن بسبب ظروف فيها واختلاف دعاته فيها، جعله ذلك يقرر البقاء متستراً في مصر ليدخل منها بعد ذلك إلى المغرب، ولاسيما وأن عبد الله كان يستحثه على القدوم إلى المغرب، وسير إليه في سلمية رجالاً من كتامة ليخبروه بما فتح الله وحققه من انتصارات وإنجازات وكان دائماً يرسل إليه كتباً تطلبه حيثما نزل، ثم قرر الإمام التوجه إلى المغرب فخرج من مصر متنكراً في زي التجّار حاملاً معه كتب الأئمة الأولين وعلومهم، لكنه وفي أثناء طريقه دهمه اللصوص وسرقوا كتبه وما معه من أموال، وقد كان يصحبه آنذاك أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي، وجعفر بن منصور الحاجب الذي ترك لنا تاريخ سيرته مع الأئمة في كتاب ((الفرائض وحدود الدين في نسب الخلفاء الفاطميين)) لكن أبا العباس سبقهم إلى القيروان فقبض عليه الأغالبة الذين هزموا أمام أخيه في مدينة ((رقادة)) ووضعوه في السجن، وأما الإمام ومن معه فقد واصلوا سيرهم حتى وصلوا طرابلس الغرب (ليبيا)، ولم يذهب إلى القيروان لملاقاة أبي عبد الله حتى لا يقتل الأغالبة أبا العباس، فتوجه إلى ((سجلماسة)) في جنوب بلاد المغرب العربي، إلا أنه أيضاً ما لبث حتى قبض عليه وولي عهده أبي القاسم فلما انتصر أبو عبد الله في ((رقادة)) أسرع إلى ((سجلماسة)) وتمكن من إنقاذ الإمام وولي عهده ومن معه، فساروا من سجلماسة ونزل في رقادة في سنة (297 هـ / 909 م) فقام أبو عبد الله الشيعي وخطب بالناس وقال لمن معه : ((هذا مولاي ومولاكم)) وبعد ذلك بويع عبيد الله (اسمه الحقيقي عبد الله لكن العباسيين أرادوا الحط من شأنه بتصغير اسمه) بالخلافة وتلقب بالمهدي وأقام خلافته التي اشتهرت بالعلوية، والفاطمية منتسبة إلى بيت علي وفاطمة الزهراء مباشرة، ومن ثم نسبت إليه في بعض الأحيان فسموا بني عبيد[37] وتردد بعض كتب الشيعة أن عبيد الله لم يكن الإمام الحقيقي وإنما هو (سعيد الخير) وأن

الإمام ابن عمه علي بن محمد بن إسماعيل الذي مات وهو كان يتأهب للسفر إلى المغرب، فجعل سعيد الخير هذا ـ أي عبيد الله ـ ستاراً لأبنه أبي القاسم بعد موت عبيد الله، الإمام الظاهر الأول، بعد كل أولئك الأئمة المتسترين أو المكتومين، ويذكر ابن حماد في كتابه : (أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم) أن أبا القاسم كان يركب في أيام أبيه بالمظلة شعار أئمة الفاطميين، وقد كانت باسمه تنفذ الكتب والعهود.

ولكن اتخاذ عبيد الله لقب المهدي دل على أنه هو الشخص الذي أظهره الله بالحق ليملك الأئمة الفاطميين الأرض بأسرها، ولكن من الثابت أنه كان مهدياً من حيث الاسم لا من حيث التصور الطوباوي الديني للاسم. وبعد موت محمد بن إسماعيل، قال أحد رجاله وهو المختار وأتباعه : ((إن محمداً لم يمت، لكنه يقيم في جبال الحجاز، وسوف يعود في آخر الزمان)) وقد اعتنقت الإسماعيلية فكرة عودة الإمام باعتباره المهدي المنتظر، وهذه الفكرة قد استمدوها من اليهود والنصارى الذين رددوا في كتبهم التي يقدسونها عن مجيء المهدي في آخر الزمان، ليصلح حال الناس، ويملأ الدنيا عدلاً، ومع أن عبيد الله تلقب بالمهدي، فلا يوجد ما يثبت أنه تمتع بصفات خارقة.. ولقد أطلقت هذه التسمية من قبل على الخلفاء في العصر الراشدي : وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، لأنهم مهديون من قبل الله على السير في سنة الحق، ولقد أطلقها الشيعة أيضاً على محمد بن الحنفية (زوجة علي الثانية بعد فاطمة الزهراء) وتسمى بها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي يعد خامس الخلفاء الراشدين، وكذلك لقب بها أحد الخلفاء العباسيين.

ومما سبق نجد أن الإسماعيلية انبثقت من الشيعة التي تدعو لعلي بن أبي طالب بالإمامة ولأبنائه من بعده إلى يوم الدين وقد اختصت هذه الفرقة بإسماعيل بن جعفر الصادق وهو من بني علي وإليه انتسبت، ثم من الإسماعيلية انشقت الفاطمية التي استمرت على الدعوة الإسماعيلية حتى الإمام الحاكم بأمر الله الخليفة السادس حيث أسس مذهب التوحيد. وبذلك يكون مذهب التوحيد فرعاً من الإسماعيلية وهي بدورها فرع من الشيعة التي هي كذلك فرع من الإسلام، فيبدو واضحاً أن مذهب التوحيد هو من الإسلام.

الفصل الثالث

الصحابة ((رضي الله عنـهم))

1 – سلمان الفارسي (س)

2 – المقداد بن الأسود (س)

3 – عمار بن ياسر (س)

4 – أبو الذر الغفاري (س)

5 – علي بن أبي طالب (ع)

6 – فاطمة الزهراء (ع)

سلمان الفارسي(رضي الله عنه)

أ ــ حياته :[38]

في المدائن، هذا الاسم الذي أطلقه المسلمون على مدينتي طيشفون في الشرق، وسلوقية في الغرب، في إيران (بلاد فارس) ولد أول مؤمن فارسي، وأول مبشر بالنزعة الروحية في الإسلام من أسرة نبيلة من أساورة فارس[39] ويقول عوف الأعرابي أنه ولد في (رامهرمز)، أو في (أرزن) قرب (كازرون) ولا يعرف تاريخ ولادته.نشأ على دين المزدكية، أو كان موحداً منذ ميلاده بمعجزة إلهية. وكان اسمه (مابه بن بودخشان)[40] أو اسمه (روزبا بن مزربان)، وهذا الأقرب للصحة، ثم اعتنق المسيحية بعد رحلة صيد مع أحد الأمراء، سمع في أثنائها تراتيل في إحدى الكنائس، ومواعظ راهب في صومعة، فأعجب بها، وعزم على أن يحيا حياة ديرانية، وأن يمتنع عن اللحوم التي يذبحها المزدكية (التي تذبح بعد تعذيبها) وعن الخمر، فهاجر، وتنقل من مدينة إلى مدينة نازلاً عند شيوخ الزهد. ماراً من حمص، إلى القدس، فدمشق، والموصل ونصيبين وعمورية وإنطاكية، والإسكندرية، ثم غادر الأخيرة لما أن علم بقرب ظهور نبي عربي ((في أرض تيماء)) غير أن أدلاءه في الطريق وكانوا من الأعراب خانوه وباعوه عبداً في وادي القرى إلى يهودي (كما يقول ابن إسحق) قبل السنة الأولى للهجرة.

وهذا اليهودي من بني قريظة هو عثمان ابن الأشهل. ثم بيع إلى امرأة من قبيلة جهينة من الأنصار فقام بحراسة أعنابها، فلما سمع بمحمد ذهب إليه في مكة[41] حيث دلته امرأة من أصفهان، فلاقاه وتعرف فيه العلامات الشخصية الثلاث التي كان يبحث عنها : (رفضه الصدقة لنفسه، قبول

الهدايا الشخصية لمأكله الخاص، ووجود خاتم النبوة عليه، وهو قطعة لحم ناتئة على غضروف الكتف الأيمن).

وقد أعتق نظير غرس ثلاثمائة نخلة لسيده وأربعين أوقية من الذهب، واشترك في دفع هذه الفدية إخوانه في الدين الجديد، وبعد إعتناق سلمان وهو الاسم العربي الذي أطلقه عليه النبي، دخل في الإسلام وكان أول المؤمنين الفرس، وصار أحد الصحابة المقربين من النبي، وقد شارك في الهجرة مع الرسول والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد تآخى مع أبي الدرداء عويمر الأنصاري. وصار سلمان من المقربين للنبي وأهل بيته، واعتبره الرسول من أهل البيت بحديثه : ((سلمان منا أهل البيت)) وهذا الحديث نطق به الرسول سنة (5) هجرية أثناء غزوة الخندق وذلك ان الرسول قد أنهى المنافسة بين المهاجرين والأنصار، وقد تنازعوا سلمان بأن ألحقه بمواليه الشخصيين. وما دام سلمان قد جعل أحد ((أهل البيت))، فقد كان اسمه مذكوراً في ديوان العطاء أيام عمر، وكان يتناول من (4000) إلى (6000) درهم وهو رقم استثنائي لأنه لم يشهد موقعة بدر[42]، وإلى سلمان يعود الفضل في حماية المسلمين البالغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل، حينما غزاهم المشركون من قريش مع الأحزاب بجيش قوامه عشرة آلاف رجل في السنة الخامسة للهجرة، وقد أشار سلمان عليهم بحفر الخندق الذي بلغت مساحته اثني عشر ألف ذراع مربع حفرها المسلمون خلال عشرين يوماً، وهذا الخندق منع المشركين من الوصول للمسلمين، فعادوا خائبين مخذولين، وقد اعترف الرسول والمسلمون بفضل سلمان، وأطلق عليه اسم (سلمان الخير) وقال النبي عنه أحاديث كثيرة منها [43]: ((من لكم بمثل لقمان الحكيم))، ((كان بحراً لا ينزف ولا يدرك ما عنده))، ((أدرك علم الأول، وعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول، والكتاب الآخر))، ((الجنة تشتاق إليه كل يوم خمس مرات)). وقد دخل سلمان مرة على الرسول فرحب به وقربه إليه وقال ((أصبحت يا سلمان موضع سر علمنا، ومعدن سرنا، ومجمع أمرنا، ومؤدب المؤمنين بآدابنا، أنت والله الباب يوَّه علمنا، وفيك ينبأ علم التأويل والتنزيل، وباطن السر، وسر السر فبوركت أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً وحياً وميتاً))[44].

وعندما تحمس أنصار علي ضد خلافة أبي بكر، قال علي : (من شاء نصرتي فليحضر غداً حالقاً رأسه)) فكان سلمان والمقداد والزبير ثلاثة فقط الذين حلقوا رؤوسهم حاملين سيوفهم، وكان سلمان مع علي عندما دفنا فاطمة ليلاً.[45]

ومنذ نهاية القرن الأول للهجرة، كان للعبارة الخاصة بسلمان : (سلمان منا أهل البيت)[46] قيمة دينية لدى المتآمرين على الشيعة بمعنى إنها تفترض مشاركة سلمان في الوحي المنزل على النبي، وهي قيمة لا تزال محتفظة بها حتى اليوم لدى الإسماعيلية والنقابات الحرفية وفيها ربط وثيق بين سلمان وبين النبي في وقت نزول القرآن.

وينسب إلى سلمان عبارة (كرديد ونكرديد) التي نسبتها إليه الأحاديث الزيدية والأحاديث الإمامية والإسماعيلية معاً. وذلك لأنهم يرون أن سلمان لما رأى أن القوم تسرعوا في انتخاب أبي بكر في السقيفة سنة (11 هـ) قال متأسفاً أمام الشهود : (عملتم وما عملتم) وبالفارسية (كرديد ونكرديد) وهي كلمة كثيرة الغموض وغير واضح إن كان نطقها بالعربية، أو الفارسية، وقد أورد البلارزي في كتابه (الأنساب) العبارة السابقة (كرداد وناكرداد) ونقلت إلى العربية (أصبتم وأخطأتم).

أما ابن شبه المتوفى سنة (262 هـ) فقد أوردها : (أصبتم ذا الحسن منكم ولكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم).

ومما سبق تؤكد الروايات أن سلمان قد أثار مشكلة الإمامة الشرعية أثناء انتخاب أبي بكر، وإن مازال الكثير غامضاً وغير مفهوم. ومع ذلك فإن الإسناد السلماني لدى بعض الطرق الدينية : القارية _ البكتاشية _ النقشبندية وبعض النقابات تظهر شخصية سلمان تسيطر على كل شخصية أخرى، فهو الشيخ الأكبر لكل النقابات لأنه هو الذي وكل إليه أمر شد الصحابة (شد الفتوة) فحلق رؤوسهم مبتدئاً بالحسن والحسين.

وهذه الكتب عن النقابات تقول : ((إن جبريل عليه السلام هو الذي أحضر الموس والمسن إلى محمد وحلق رأسه في حجة الوداع، وحينئذ حلق النبي رأس علي، وهذا بدوره حلق رأس سلمان وألقى إليه وظيفة الشد : وسلمان قد شد مؤسسي النقابات الإسلامية)) وبغض النظر فإن سلمان يعتبر شفيع الصناع، لأنهم مثله من الموالي الذين اعتنقوا الإسلام وهو لم يتزوج وكان عارياً عن شهوة الجنس.[47]

ويذكر أن عائشة زوجة الرسول (ﷺ)، قد طلبت مراراً من الرسول وألحت عليه أن يصف لها الوحي الذي ينزل عليه وينقل إليه القرآن. وكان سلمان آنذاك في ساحة الدار، فقال لها : (إنه يشبه

سلمان) وهذا كان مجالاً لافتخار عائشة على باقي نساء الرسول، فقد كانت تقول : إنها رأت جبريل، ولم يره أحد من نسائه غيرها.

ب : دوره التاريخي بالوحي، ومع علي

في سورة يونس الآية (94) ((فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ....)) وسورة الرعد الآية (43) ((وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ...))

دعا النبي إلى المقارنة بين ما أنزل عليه، وبين ما أتت به كتب اليهود والنصارى. لذلك كان سلمان واحداً من الذين أوضحوا الصلة بين الديانات السابقة مع القرآن، وقارن بينها. لذلك نجد في تفسير الضحاك بن مزاحم الهلالي المتوفى سنة (105 هـ) للآية (103) سورة النحل

((وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ))

يقول : ((إن الأعجمي أستاذ محمد (غير العربي) الوارد في هذه الآية يقصد به سلمان))[48] أي أن الضحاك يعتقد أن سلمان أعان النبي على معرفة الكتب الدينية السابقة، على ما أنزل عليه، وهذا محتمل جداً من الناحية التاريخية. وبذلك يكون سلمان قد شهد أول تأويل. لذلك كان لسلمان دور كبير مع الرسول. وقد قالت الإسماعيلية إن سلمان هو في الواقع الذي حمل القرآن إلى محمد، وإن الملك جبريل لم يكن إلا الاسم الذي أطلق على سلمان بوصفه حامل هذه الرسالة الإلهية[49] وعنهم أن التنزيل الإلهي هو من عند الله.

ويذكر ابن إسحق أن سلمان كان أحد الصحابة الستة عشر الذين شاركوا لما بلغوا المدينة في المؤاخاة. وأحد الموالي السبعة عشر للنبي (لكنه أعتق بعد ذلك).... ولسلمان المقام الثاني في ثبت الأربعة والثلاثين من أهل الصفة. وتقول الزيدية : ((إن سلمان اختاره النبي واحداً من النجباء الأثني عشر. وأحد أصحابه الأربعة (سلمان، وعلي وأبي الذر الغفاري، والمقداد) الذين أمر الله النبي بتفضيلهم، وثالث الثلاثة المختارين الذين تشتاق إليهم الجنة (بعد علي وعمار))).

وتذهب الإمامية المعتدلة أن سلمان أحد الحواريين الثلاثة (هو والمقداد و أبي الذر) للنبي كان موضع سره ومستشاره المفضل وقد قام بنفس الدور مع خليفته الشرعي علي. وقد حمله النبي سراً هو وخمسة من الصحابة على أن يظهروا ولاءهم لعلي. فكان الناصح المفضل الذي خلفه النبي لعلي، فيجب أن يعلم المسلمين أن يعرفوا في علي الإمام الشرعي لهم، سراً وعلناً. وكان أحد المخلصين المحتجين (على عدم إسناد الخلافة إلى علي) الذين دفنوا مع علي فاطمة الزهراء ليلاً.

ومنذ بداية القرن الثاني الهجري أدمجت شخصية سلمان التاريخية في النموذج الإلهي الأعلى الذي تجسدته زمناً والذي سيسمى من بعد (سلسل)[50] أو بأول حرف منه (السين) وأما أبو الخطاب المتوفى سنة (138 هـ) فقد أدرك في تلك الفترة رسالة سلمان بكل قوتها : وهو لا يجعله هو نفسه روح الأمر مباشرة، وإنما يوحد بينه وبينها تدريجياً بعملية رفع روحي، وبهذا يرفعه إلى مرتبة الألوهية فوق مرتب الإمام، وهذا عند خماس (أي خمسة أشخاص) : (محمد، علي، فاطمة، الحسن، الحسين) وسلمان هو سلسلة المسجد الأقصى الخاصة، وهي التي عندها يقسم الناس، وهو الذي يقبض الأرواح بأمر الواحد القهار جل جلاله، وذلك في مذهب الموحدين (الدروز) [51] ومنذ ذلك الحين اتخذ سلمان في الغنوص[52] الشيعي صورته النهائية، فهو الحلقة المفقودة الضرورية بين محمد وعلي، وهو المعني الذي يضعه الله في مركز الجماعة، والحجاب المستور الذي يكشف عن حضرة خفية و الجذر الدائم للرسالة والإمامة وأصلها الإلهي الخالد والجسد المتوارث للجنس المختار للإمامة، وهو الأصل الذي ينتقل من ذكر إلى ذكر على مر الأجيال، ولكي يموت المرء على الإسلام الصحيح فمن الضروري الاعتراف به، ومحبته في تجليات ظهوره المتقطعة المتواترة. ويحاول علماء الشيعة أن يثبتوا ان الصحابة (سلمان الفارسي والمقداد بن الأسود وأبا الذر الغفاري وعمار بن ياسر) وهم الحكماء العلماء الذبل الشفاه الأخيار يعرفون بالرهبانية من آثار العبادة[53].

ج _ وفاته : [54]

توفي سلمان الفارسي في علية لأبي قرة الكندي بالمدائن، كما يروي الشعبي المتوفى سنة (103 هـ) فيذكر ابن سعد الواقدي أنه توفي في نهاية خلافة عمر، أو في خلافة عثمان، وقد حدد القاسم بن سلام الأزودي المتوفى سنة (224 هـ) أنه يمكن أن يكون قد توفى سنة (36 هـ) ولا يوجد تاريخ دقيق لوفاته، ومن الجائز أنه قد توفي ما بين سنة (20 هـ) أو(28 هـ).

والأخبار حول موته متنوعة : فمنها ما يروي أنه دعا بمسك وطلب أن ينضح حول فراشه، وحيا أهل القبور، وطلب أن يترك وحده وأن تترك الأبواب مفتوحة على مصاريعها، وكأنه في انتظار رواد مستورين، هذه كانت الروايات السنية، أما الروايات الشيعية فهي تذكر أن هؤلاء ليسوا ملائكة، وإنما هو علي انتقل بمعجزة إلهية[55] وقد أقيم قبر سلمان في المدائن، منذ أن سمحت أول هدنة بين السنة والشيعة تلت الاضطهاد الذي عاناه الشيعة من السنة الأمويين، وكان ذلك ما بين سنة (204 – 232) هجري، وقد سمحت الهدنة للشيعة بأن يقيموا قبوراً لعلي والحسين. وكان الناس والزوار يأتون سنوياً في النصف من شعبان (من القرن السابع الهجري) لزيارة قبره الكائن على الشاطئ الشرقي من نهر دجلة وهو ينحدر صوب بغداد في ناحية الشمال الشرقي بعد قرية (حذيفة) ويسمى قبر (سلمان باك) وهي كلمة فارسية معناها الطاهر.

وكان الزائر إلى قبره للتبرك والدعاء، يناديه قائلاً ((أسأل الله الذي خصك في صدق الدين أن يحييني حياتك ويميتني مماتك. إنك لم تنكث عهداً))[56]

المقداد بن الأسود الكندي(رضي الله عنه)

أول فارس في الإسلام

((أمرني ربي بحب أربعة من أصحابي، وأخبرني أنه يحبهم))، فقيل يا رسول الله، من هم ؟ قال ((علي، والمقداد، وسلمان، وأبو ذر)).

((الجنة تشتاق إليك يا علي، وإلى عمار، وسلمان، والمقداد))

_ الرسول الكريم _

((ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم.. إني والله أحبهم لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله لهم، ويعتريني والله وجد لتشرف قريش على الناس بشرفهم، واجتماعهم على نزع سلطان رسول الله من أيديهم....))[57]

_ المقداد بن عمرو _

أ – حياته ونسبه :

المقداد بن عمرو البهرائي[58] : هذا هو اسمه الحقيقي، واسم أبيه وقبيلته فهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهرائي[59]. وله اسم آخر اشتهر به هو

(المقداد ابن الأسود الكندي) وذلك يرجع إلى ما يلي :

((كان والده عمرو بن ثعلبة من شجعان بني قومه، ويتمتع بجرأة عالية ربما لم تتهيأ لأحد غيره منهم، دفعته لأن ينال فيهم دماً، فاضطر إلى الجلاء عنهم حفاظاً على نفسه، وحماية لها من طلب الثأر، فلحق بحضرموت[60] وحالف كندة التي تتمتع بهيبة مميزة بين القبائل، وهناك تزوج امرأة منهم، فولدت له المقداد[61] نشأ الفتى في ظل أبيه ورعايته، وحنان أمه وعطفها، ضمن مجتمع ألف مقارعة السيف، ومطاعنة الرمح فكانت الشجاعة إحدى سجاياه التي اتصف بها. حتى إذا بلغ سن الشباب، أخذت نوازع الشوق إلى أرومته ومضارب قومه في بهراء تدب في نفسه فتدفعه إلى تخطي آداب (الحلف) غير مكترث ولا مبال فقد أحس أن اغترابه هذا، وبعده عن الأهل والوطن، إنما حدث نتيجة لذنب اقترفه أبوه حيال قومه، وأن الحلف لا يعني أكثر من قيد (مهذب) يضعه الحليف في عنقه وأعناق بنيه بالرغم من براءة ساحتهم.

.. كان هذا الشعور يراوده بين الفينة والفينة، فتستيقظ في نفسه رغبة الانتقام من حلفائه والتمرد على تقاليدهم، لذا فلم يكن هو الآخر أسعد حظاً من أبيه حيث اقترف ذنباً مع مضيفه (وأخواله) فاضطر إلى الجلاء عنهم أيضاً. وقد روي أنه عندما كبر المقداد، وقع بينه وبين أبي شمر بن حجر الكندي أحد زعماء كندة خلاف فما كان من المقداد إلا أنه تناوله بسيفه فضرب رجله، وهرب إلى مكة.

وحين وصل إلى مكة كان عليه أن يحالف بعض ساداتها كي يمنعوا منه أنفسهم، لكن طموحه كان يدفعه إلى اختيار الرجل القوي المرهوب الجانب، فكان يتريث وكان يقول ((لأحالفن أعز أهلها)). ولم يخنع، ولم يضعف فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري[62] فتبناه، وكتب المقداد إلى أبيه بذلك فقدم عليه مكة[63] ومنذ ذلك اليوم صار اسمه المقداد بن الأسود الكندي نسبة إلى حليفه والكندي نسبة لحلفاء أبيه (كندة) وقد غلب عليه هذا الاسم وقد اشتهر به، حتى إذا نزلت الآية الكريمة : ((ادعوهم لآبائهم)) قيل له المقداد بن عمرو.

وكان يكنى أبا الأسود وقيل أبو عمرو، وأبو سعيد، وأبو معبد وهي الكنية الغالبة عليه، ومن ألقابه : (حارس رسول الله) وهناك رواية أخرى حول نسبه وحياته آثرت إيرادها، وهي مقتبسة من السيرة الشعبية، وتقول هذه الرواية :

((إلى قبيلة تنوخ العربية، ومن بهراء بطن منها يرجع نسبه، وبأرض قضاعة القريبة من مكة كان مولده. مات والده عمرو البهرائي القضاعي وهو صغير لا يتجاوز الخمس سنوات، فاغتصب عمه جابر حقه وسلبه أمواله وما كان يملكه. ولم يجد غير خاله يلتجأ إليه وكان اسمه (طراد) فعاش في كنفه وربي في بيته حتى صار شاباً قوياً يعتمد على نفسه، وقد أحب ابنة عمه جابر واسمها (المياسة) لكن والدها لم يكن راغباً بهذا الزواج لذلك غالى بمهرها واشترط عليه أموالا كثيرة، فاضطر المقداد أن يخوض معارك كثيرة ويطوف بلاداً حتى جمعه، وبعد أن جمعه وعاد إلى عمه بالمهر المحدد رفض عمه أن يفي بوعده رغم كل شيء وغدر به، وقاتله المقداد وقتله، ثم توجه وبرفقته ابنة عمه المياسة ووالدته، وخاله قاصدين ديار مكة حيث النبي العربي وكان في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك فدخل في الإسلام، وكان من أول الصحابة الذين تقبلوا الدعوة وكان فارساً لا يشق له غبار معروف بقوته، وبأسه، فعزز الإسلام بقوته وإسلامه، وقضى عمره مجاهداً في سبيل الله)) وتذكر هذه السيرة أنه لم يتزوج من ابنة عمه ولا غيرها فقد كان معصوماً عن الزواج وهو كان أحد الحدود الخمسة في أحد أدواره.

ب _ صفاته وأخلاقه :

كان المقداد (رضي الله عنه) فارع الطول، أبيض اللون، صبيح الوجه، يصفر لحيته، كثير شعر الرأس، أبطن ضخم الجثة واسع العينين مقرون الحاجبين أقنى الأنف جميل الهيئة كان فارساً شجاعاً يقوم مقام ألف رجل وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله (ﷺ) وهو أول فارس في الإسلام كان من الفضلاء النجباء الكبار الخيار من أصحاب النبي سريع الإجابة إذا دعي إلى الجهاد، حتى حينما تقدمت به سنه وكان يقول في ذلك : أبت علينا سورة البحوث : ((انفروا خفافاً وثقالاً...))[64] وكان إلى جانب ذلك رفيع الخلق عالي الهمة طويل الأناة طيب القلب صبوراً على الشدائد يحسن إلى ألد أعدائه طمعاً في استخلاصه نحو الخير، صلب الإرادة ثابت اليقين لا يزعزعه شيء، عظيم القدر شريف المنزلة هاجر الهجرتين، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد[65] تجمعت فيه رضي الله عنه أنواع الفضائل وأخذ بمجامع المناقب من السبق والهجرة والعلم والنجدة والثبات والاستقامة والشرف والنجابة.[66]

ج _ إسلامه

كان المقداد رضي الله عنه من المبادرين الأوائل إلى اعتناق الإسلام فقد ورد عنه أنه أسلم قديماً، وكان من السبعة الأوائل الذين أظهروا إسلامهم.... إلا أنه كان يكتم إسلامه عن حليفه الأسود بن عبد يغوث خوفاً منه على دمه، شأنه في ذلك شأن بقية المستضعفين الذين كانوا تحت قبضة قريش عامة وحلفائهم وساداتهم خاصة، أمثال عمار وأبيه ياسر، وبلال وغيرهم ممن كانوا يتجرعون غصص المحنة، فما الذي يمنع الأسود بن يغوث من أن ينزل أشد العقوبة بحليفه إن هو أحسَّ منه أنه قد صبأ[67] إلى دين محمد ؟؟ سيما وأن الأسود هذا كان أحد طواغيت قريش وجباريهم، وأحد المعاندين لمحمد (ﷺ) والمستهزئين به، لأجل هذا كان المقداد يتحيّن الفرصة لانفلاته من ربقة (الحلف) الذي أصبح فيما بعد ضرباً من العبودية المقيتة، ولونا من ألوان التسخير المطلق.

وفي السنة الأولى للهجرة قيضت له الفرصة لأن يلتحق بركب النبي وأن يكون من كبار صحابته المخلصين، فقد عقد رسول الله (ﷺ) لعمه حمزة لواء أبيض في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعرضوا عير قريش وكان هو وصاحب له يقال له : عمرو بن غزوان، مازالا في صفوف المشركين فخرجا معهم يتوصلان بذلك، فلما لقيهم المسلمون انحازا إليهم[68] فكانت بداية الجهاد الطويل.

د _ بين الرسول الأعظم والمقداد:[69]

في خلال السنة الأولى للهجرة، كان المقداد لا يزال وهو وبعض المستضعفين في مكة وليس من السهل أن يغادرها إلى المدينة، سيما وأنه حليف للأسود فإنه لو فعل كان مصيره القتل بلا أدنى شك، لذا كان يترقب فرصة سانحة يمكنه فيها من الفرار إلى يثرب، واللقاء بالرسول حتى كانت سرية حمزة بن عبد المطلب وكان معها الخلاص. فقد خرج مع المشركين يوهمهم أنه يريد القتال معهم وهكذا انحاز إلى سرية حمزة ورجع معه إلى المدينة.

وكان نزوله في المدينة على رسول الله (ﷺ) في ضيافته مع جماعة من المسلمين، وكانت أوضاع المسلمين الاقتصادية في تلك الفترة صعبة نتيجة لبناء المسجد والنفقات على الفقراء

والمساكين وكان الرسول يوزع المهاجرين اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة على إخوانهم المهاجرين الذين استقرت بهم الدار في المدينة وأصبحوا قادرين على النهوض بأنفسهم، وكان نصيب المقداد أن نزل في بيت الرسول (ﷺ).

وفي حديث مروي عن المقداد، يقول : ((أقبلت أنا وصاحبان لي وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله (ﷺ) فليس أحد منهم يقبلنا)) لا لبخل فيهم بل لأنهم كانوا مقلين ليس عندهم شيء ! ((فأتينا النبي (ﷺ) فانطلق بنا إلى أهله، فإذا ثلاثة أعنز)) فقال النبي (ﷺ) : ((احتلبوا هذا اللبن بيننا)) قال فكنا نحتلب، فيشرب كل إنسان منا نصيبه، ونرفع للنبي (ﷺ) نصيبه، فيجيء (ﷺ) ليلاً فيسلم تسليماً لا يوقظ نائماً، ويسمع اليقظان، ثم يأتي المسجد فيصلي ثم يأتي شرابه فيشرب، قال المقداد (رضي الله عنه) فآتاني الشيطان ذات ليلة، وقد شربت نصيبي من اللبن فقال : محمد يأتي الأنصار فيحتفونه، ويصيب عندهم، مابه حاجة إلى هذه الجرعة، فأتيتها فشربتها، فلما أن وغلت[70] في بطني، وعلمت أنه ليس لها سبيل، ندمني الشيطان (لعنة الله) فقال : ويحك ؟ وما صنعت ؟ أشربت شراب محمد فيجيء فلا يجده، فيدعو عليك فتهلك، فتذهب دنياك وآخرتك !

قال المقداد : وكانت علي شملة، إذا وضعتها على قدمي خرج رأسي وإذا وضعتها على رأسي خرجت قدماي، وجعل لا يجيئني النوم، وأما صاحبي فناما، ولم يصنعا ما صنعت ثم جاء النبي (ﷺ) فسلم كما كان يسلم ثم أتى المسجد فصلى ثم أتى شرابه فكشف عنه فلم يجد فيه شيئاً، فرفع رأسه إلى السماء. فقلت : الآن يدعو علي فأهلك، فقال النبي (ﷺ) : ((اللهم أطعم من أطعمني واسق من سقاني)) قال فعمدت إلى الشملة فشددتها علي، وأخذت إلى الشفرة فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن فأذبحها إلى رسول الله (ﷺ) فإذا هي حافلة[71] وإذا هن حفل كلهن، فعمدت إلى إناء لآل محمد ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه فحلبت فيه حتى علته رغوة، فجئت رسول الله (ﷺ)، فقال: أشربتم شرابكم الليلة ؟، قال: قلت يا رسول الله : اشرب ! فشرب ثم ناولني، فقلت : يا رسول الله اشرب ! فشرب، ثم ناولني فلما عرفت ان النبي قد روي، وأصبت دعوته، ضحكت حتى ألقيت على الأرض فقال النبي (ﷺ) إحدى سوآتك يا مقداد، فقلت : يا رسول الله كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا.

فقال النبي (ﷺ) : ما هذه إلا رحمة من الله. أفلا كنت أذنتني فنوقظ صاحبينا، فيصيبان منها. قال. فقلت : والذي بعثك بالحق ! ما أبالي إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها في الناس[72].

وموقف آخر لأبي معبد مع الرسول (ﷺ) فقد سأله ذات مرة : يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار، فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لازمني بشجرة، فقال : أسلمت لله، فأقتله يا رسول الله _ إن قالها ؟! قال رسول الله : لا تقتله.

هـ _ من مواقفه البطولية :

في معركة بدر كان الوضع غاية في الدقة والحرج، نظراً لفقدان التوازن بين جيش المسلمين الذي بلغ الثلاثمائة، أو يزيد قليلاً، بينما كان عدد المشركين يترواح ما بين التسعمائة والألف، وقاد المشركون معهم مائة فرس، وسبعمائة من الإبل، بينما قاد المسلمون معهم فرساً واحدة يقال لها (سبحة)[73] كانت للمقداد بن عمرو، وسبعين رأساً من الإبل يتعاقب على كل واحدة منها الاثنان والثلاثة والأربعة، حتى أن النبي (ﷺ) كان و وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة يتعاقبون بعيراً واحداً، لذلك ولصعوبة الوضع، كان الموقف يتطلب مزيداً من الثبات والإصرار، وبث الروح الجهادية بين الصفوف، والتسليم المطلق بما يقول النبي. قام المقداد (رضي الله عنه) فقال : ((يا رسول الله، امض لأمر الله، فنحن معك، والله ! لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. والذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه..))[74].

فقال رسول الله خيراً، ودعا له. ويروي ابن مسعود تلك الحادثة فيقول : ((لقد شهدت مع المقداد مشهداً، لئن أكون صاحبه أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)) ثم ذكر كلمة المقداد، ثم قال : ((فرأيت رسول الله (ﷺ) يشرق وجهه بذلك وسره وأعجبه.)) وبعد انتصار المسلمين في بدر، بدأ تقسيم الغنائم فكان لكل مسلم سهم ما عدا المقداد، فكان له سهمان، سهم له وسهم لفرسه (سبحة) وكان يتفاخر بقوله : ((ضرب لي رسول الله (ﷺ) يومئذ بسهم، ولفرسي بسهم)) وبعد وفاة الرسول، واستلام أبي بكر ببيعة السقيفة، ومن ثم مقتل عمر بعد تسلمه الخلافة من أبي بكر كان المقداد

يدعو بأحقية الخلافة لآل البيت، ولعلي بن أبي طالب وقد كان أحد المبرزين الذين لم يكونوا فقط شيعة لعلي، بل نهضوا بالدعوة لعلي (ع) وقد كان يقول : ((واعجباً من قريش، واستئثارهم بهذا الأمر على أهل البيت، معدن الفضل، ونجوم الأرض، ونور البلاد، والله إن فيهم رجلاً ما رأيت رجلاً بعد رسول الله (ﷺ) أولى منه بالحق، ولا أفضى بالعدل ولا آمر بالمعروف ولا أنهى عن المنكر)) فقيل من تعني فقال ((ابن عم الرسول (ﷺ) علي بن أبي طالب)).

كان المقداد من المقربين لرسول الله، وكان يقول عنه : ((المقداد ذاك منا، أبغض الله من أبغضه وأحب الله من أحبه)).

وعن أنس قال : إن النبي سمع رجلاً يقرأ ويرفع صوته بالقرآن ! فقال (ﷺ) : أواب (تائب) وسمع آخر يرفع صوته فقال : مراء ! فنظرنا فإذا بالأول المقداد بن عمرو.

وقد ورد حول قوله تعالى في سورة الشورى الآية (23) (قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)

أن الإمام الصادق قال: فوالله ما وفى بها إلا سبعة أنفار، وعدّ المقداد واحداً منهم.

وجاء في حديث آخر له : فأما الذي لم يتغير منذ قبض رسول الله (ﷺ) وآله حتى فارق الدنيا طرفة عين، فالمقداد بن الأسود، لم يزل قائماً قابضاً على قائم السيف عيناه في عيني أمير المؤمنين علي عليه السلام، ينتظر متى يأمره فيمضي.....

و_ وفاته : (رضي الله عنه)

ثلاثون سنة ونيف قضاها أبو معبد فارساً في ميادين الجهاد، ابتداءً بغزوة بدر وانتهاء بفتح مصر، وقد كانت هذه السنون سني التأسيس لذلك كانت صعبة ومرة وقاسية، كابد المسلمون المصاعب والمتاعب، فكان نصيب المقداد الحظ الأوفر منها، والكأس الأوفى حيث لم تخل منه ساحة جهاد.

فقد ورد في ذلك أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) وبعده إلى أن أدركته الوفاة كانت وفاته في سنة (23 هـ) أو أقل، بعد أشهر من فتح مصر وقد بلغ من العمر سبعين سنة فقد كانت

له أرض في مكان قريب من المدينة يقال لها الجرف[75] وكان يتعاهدها زراعة وسقياً يقضي فيها أوقات فراغه، ما لم يؤذن بجهاد وقد توفى فيها، فنقل على أعناق الرجال حيث دفن في البقيع، وكان قد أوصى إلى عمار بن ياسر فصلى عليه، ولم يؤذن عثمان به فما بلغ عثمان موته، جاء حتى إلى قبره : فقال ((رحمك الله، إن كنت، وإن كنت)) يثني عليه خيراً ! فقال الزبير بن العوام :

لألفينك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زدتني زادي[76]

معرضاً بالعداء الذي كان بينه وبين المقداد فقال عثمان يا زبير، تقول هذا ؟! أتراني أحب أن يموت مثل هذا من أصحاب محمد (ﷺ) وهو علي ساخط، وكان عمار قد صلى على عبد الله بن مسعود ولم يؤذن به عثمان، فساءه ذلك واشتد غضبه على عمار، وقال : ((ويلي على ابن السوداء ! أما لقد كنت فيه عليماً.))[77]

عمار بن ياسر ((رضي الله عنـه))

((أبو اليقظان))

((ما من أحد من أصحاب رسول الله (ﷺ) أشاء أن أقول فيه إلا قلت، إلا عمار بن ياسر فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول :

ملئ عمار إيماناً إلى أخمص قدميه !))[78]

عائشة زوجة الرسول (ﷺ)

((كان بيني وبين عمار كلام فأغلظت له، فشكاني إلى النبي (ﷺ) فرفع رسول الله رأسه وقال : من عادى عماراً عاداه الله ومن أبغض عماراً أبغضه الله))[79]

خالد بن الوليد

((مالهم ولعمار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار إن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي))[80]

رسول الله (ﷺ)

أ _ شاهد الحق :

قال رسول الله (ﷺ) : ((ويح عمار تقتله الفئة الباغية))[81]

إن هذه الشهادة تكررت أكثر من مرة، فحين أخذ النبي (ﷺ) في تشييد مسجده المبارك في المدينة المنورة، جعل المسلمون يحملون اللّبنات لبنة لبنة، وجعل عمار يحمل لبنتين لبنتين، فجعل النبي (ﷺ) ينفض التراب عن رأسه[82] ويقول : ((ويحك يابن سميّة، تقتلك الفئة الباغية)) وتمضي الفترة من الزمن وتأني غزوة الخندق، وبينما المسلمون منشغلون في حفر الخندق، وكان رسول الله (ﷺ) يعاطيهم حتى اغبّر صدره، وهو يقول :

اللهم إن العيش عيشة الآخرة فاغفر للأنصار وللمهاجره

ثمّ يجيء عمار فيلتفت إليه النبي ويقول :

((ويحك يابن سميّة تقتلك الفئة الباغية))[83]

وفي مناسبة أخرى يقول النبيّ (ﷺ):

((عمار على الحق حتى يقتل بين فئتين إحدى الفئتين على سبيلي والأخرى مارقة عن الدين خارجة عنه))

ب _ نسبه :

من بلاد اليمن الخضراء جاء ياسر العبسي القيسي المضري، بحثاً عن أخ له ترك البلاد، واتجه إلى مكة إما لأداء المناسك وإما طلباً للقمة العيش. بعد أن لفّت بلاد اليمن محنة بعد انهيار سد مأرب ولم يذكر هذا الأخ سبب رحيله لإخوانه، فكان بحكم المفقود.

فقدم ياسر إلى مكة ليعيده إلى منزله في مضارب بني عبس مع أخوين يقال لهما : الحرث، ومالك... لكن مكة، يغمر حنانها كل قادم إليها، فيجد نفسه مشدوداً نحوها غارماً في حبها فكان ياسر واحداً ممن استهوتهم فآثر البقاء فيها على الرجوع إلى اليمن، لذلك كان عليه أن يحالف أحد ساداتها ليتمكن من العيش فيها بكرامة، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي وكان شيخاً كبيراً ذا

خبرة محنكاً ومرناً واستطاع أن يتغلب على قسوة الحياة ومرارتها بلين الشيوخ وعقلية المجرّبين لذلك كان سمحاً سهلاً لا يهتم بمغريات الحياة إلى جانب قوته ونفوذه وثرائه وبهذا الحلف أصبح ياسر في غبطة وسعادة.

وكان لأبي حذيفة أمة يقال لها سمية أدبها الغنى وأذلها الرق فكانت على جانب من العقل والوقار إلى شيء من الجمال الهادئ والوديع وهي مازالت في مقتبل العمر، فأحبها ياسر وعلق قلبه بها، فزوجه حليفه إياها، فعاش ياسر مع زوجته بسعادة وهناء يمنحها الحب والحنان والرجاء بعدما كانت عليه من عبودية وذل، وحملت سمية بعمار فأقبلت إلى ياسر تسر إليه البشرى، وكم كان جذلاً فرحاً لكنه كان يتأرجح بين اليأس والرجاء، اليأس أن يكون المولود أنثى، فالأنثى في منظور الجاهليين عار يضاف إلى تعاسة الفقراء، وذل يضاف إلى عز الأغنياء، وبين الرجاء أن يكون المولود ذكراً، فكان كلما حملته قدماه إلى البيت _ بيت الله _ يطوف حوله متضرعاً لله أن يساعده وأن يرزقه ولداً يعينه في هذه الحياة.

ومضت الأشهر التسع، وقدم المولود ذكراً ففرح به ياسر كثيراً وأسماه عماراً وكان يطير فرحاً لولا أن العادة تقضي بأن ابن الأمة، رق مملوك لسيدها الأول، يضاف إلى قائمة أملاكه، حتى ولو كان أبوه حراً سيداً... لكن أبا حذيفة كان يتمتع بإنسانية نبيلة وإحساس مرهف مما جعله يتنازل عن حقه الذي تفرضه العادات، فوهب لعمار حريته، وأرجع لأبويه البسمة والفرح.

ج _ نشأته وصفاته وصحبته للنبي :

لقد حالف ياسر أبا حذيفة المخزومي ليحمي نفسه في مكة، وسرى هذا الحلف إلى ولديه عمار وعبد الله، أما سمية فهي مولاة لأبي حذيفة، تقضي التقاليد بملكية نسلها له أيضاً لولا أن وهبهم الحرية وأعتقهم وبذلك غلب على عمار لقب (حليف بني مخزوم) تارة و (مولى بني مخزوم) تارة أخرى.

وقد نشأ عمار وعاش هو وأبوه وأخوه في ظل حليفهم وبذلك أدرجوا جميعاً في قائمة الضعفاء والدهماء والصعاليك الذين لا وزن لهم ولا خطر، في نظر المجتمع المكي محكومين غير حاكمين، مأمورين غير آمرين.

كانت ولادة عمار في عام الفيل[84] وذلك اعتماداً على قوله (كنت ترباً[85] الله)، ولم يكن أحد أقرب سناً إلى النبي منه كان أسمر اللون كأنما عجنت طينته بمسك، مديد القامة بعيد ما بين منكبيه، أشهل، أصلع في مقدم رأسه شعرات وفي قفاه شعرات، طويل الصمت كأنما تحدثه الملائكة، سديد الرأي لا يخدع عن الصواب، راجح العقل، ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما زكي النفس سخي اليد هياب الحق جريء به لا يلوى فيه ولا يصرف عنه تحلى بأرفع الصفات من عقل ونبل ومروءة وبعد نظر إلى جانب القوة والشجاعة.

كل هذه السجايا[86] الكريمة ساعدته في تخطي ظروفه الاجتماعية الصعبة ليصادق سيد شباب مكة محمد بن عبد الله قبل نبوته، صداقة لا تخرجه عن حدود الأدب وكأنه أدرك فيه سر النبوّة التي غيرت مسار التاريخ.

صاحب محمداً رغم الفوارق الاجتماعية الكبرى بينهما، ومع ذلك كان هناك قاسم مشترك جمع بينهما، عقل عمار ونبله وأمانته وسر النبوة في عيني محمد.

استطاع عمار أن يصاحب محمداً في شبابه وأن يكون أميناً على شؤونه الخاصة، لا يفشي له سراً وكان الوسيط في زواجه من أم المؤمنين خديجة، وإلى جانب هذا كان عمار في تجواله مع النبي (ﷺ) في بطاح[87] مكة وشعابها، وبين الصفا والمروة، وحول البيت يصغي إلى أحاديث النبي وكلماته بمسامع قلبه فقد كان محمد قبل صحوة العقل الإنساني كثير التأمل في ظواهر الكون والخلق، شديد التنديد بآلهة قريش وعابديها والمروجين[88] لها أولئك الذين استحكم الجهل والعمى في نفوسهم فانحرفوا عن المسار الفطري السليم وجنحوا بالإنسانية النقية الطاهرة إلى مهاوي الضلال.

كانت أحاديث النبي وكلماته وتنديداته توقظ الجانب الإيماني في نفس عمار، كما تلهب فيه الشعور بالتقصير، تقصير الإنسان في حق ربه، وتلفته في الوقت نفسه إلى ضرورة العمل في سبيل إنقاذ ذلك المجتمع الغارق في بحر الظلام، يصغي عمّار إلى كلمات محمد (ﷺ) وكأنه يتلقى دورة تدريبية تؤهله للقيام بواجباته في المستقبل القريب الذي ينتظره.

د_ إسلامه :

لم تكن الفرصة لتفوت عماراً الصديق الحميم لمحمد (ﷺ) في المبادرة للدخول في الإسلام فخف إلى دار الأرقم التي اتخذها النبي مقراً لنشر دعوته السرية بداية إلا أنه فوجئ على الباب بصهيب بن سنان الرومي، ويظهر أن كلاً منهما خاف أن يكون الآخر عيناً عليه قال عمار : ما تريد ؟ قال صهيب: ما تريد أنت ؟ قال : أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه، قال صهيب: وأنا أريد ذلك ثم دخلا على النبي فعرضا عليه الإسلام، فأسلما.

ولما كان المشركون لا يستطيعون النيل من الرسول بشخصه لحماية عمه أبو طالب له، لذلك عمدوا إلى الانتقام من أتباعه ممن كانوا تحت قبضتهم وسلطتهم، منزلين بهم أشد ألوان العذاب طمعاً في ردهم عن دينهم الجديد وانتقاماً من محمد في آن واحد، ومن أولئك المعذبين المستضعفين كان بلال بن رباح، الذي عذبه سيده أمية بن خلف فقد كان يطرحه على ظهره في الصحراء، ثم يأمر بالصخرة العظيمة توضع على صدره لكنه . أي بلال . لا يكفر بمحمد ولا يتراجع عن الإسلام، بل يقول : أحد.. أحد، ومنهم حباب بن الأرت، وأبو فكيهة، وياسر والد عمار.

وقد تجاوز الأمر الرجال، وشمل النساء العواجز، فكانت زنيرة أمة[89] بني عدي ولبيبة جارية بن مؤمل، وسمية جارية أبي حذيفة. وقد كانت سمية أول شهيدة في الإسلام، حيث لاقت أشد أنواع العذاب فقد عذبت في نفسها، وزوجها وولدها، وكانت سمية سابعة سبعة في الإسلام، عجوزاً ضعيفة وكانت نفسها أصلب من الحديد وأقوى من السياط التي كالها عليها أبو جهل وبعد رفضها الكفر بدين محمد وإسماعها إياه ـ أي أبي جهل ما يكره عمد إلى طعنها بحربة في قلبها فكانت أول شهيدة في الإسلام وواجه ياسر زوجها المصير ذاته وبين الوالد والأم كانت محنة عمار بالإضافة إلى وسائل التعذيب والقهر التي استعملوها معه فتارة يسحبونه على الرمضاء المحرقة، مجرداً من ثيابه ثم يضعون صخرة كبيرة على صدره ثم يلجأون إلى غمس رأسه بالماء حتى يكاد يختنق ويشرف على الموت.

وكان الرسول الكريم يمر بهم فيمسح جراحهم ويلملم أحزانهم معزياً ومسلياً وحينما كان يمر بعائلة ياسر ينظر إليهم برحمة وإشفاق وشفقة

ويقول : ((صبراً يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة)).[90]

ثم يقبل على عمار ويعزيه ويسليه ويجهش عماراً باكياً، وهو يبث إلى عمار همومه، وأحزانه فيقول عمار: ((يا رسول الله بلغ منا العذاب كل مبلغ)) فيرد عليه النبي (ﷺ) ((صبراً يا أبا اليقظان، اللهم لا تعذب أحداً من آل ياسر بالنار))[91] وكاد عمار أن يلتحق بأبويه لفرط ما واجهه من ضغوط نفسية وجسدية، تترك أقوى النفوس مهزوزة وأقوى الأجساد مكومة، لقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه فقط، فقد أنطقه فرط التعذيب ما لا يدري به حتى تركوه، وحينما سأله النبي ما وراءك؟ قال شر يا رسول الله، والله ما تركت حتى نلت منك يا رسول الله، وذكرت آلهتهم بخير، قال : فكيف نجد قلبك ؟ قال مطمئن بالإيمان، فقال النبي : فإن عادوا، عد. وفي ذلك نزلت الآية الكريمة

(إلا ومن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).

وكان عمار واحداً من الأثني عشر الذين هاجروا إلى بلاد الحبشة، وقد تبعهم بعضاً من قريش والتقوا ملك الحبشة وكان نصرانياً عادلاً، وقد أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي ودعاهم للتكلم عن دينهم الجديد وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب فقرأ على الملك آيات من سورة (مريم) بعد أن حدثه عن الدين الجديد حتى بكى النجاشي وأساقفته وقال ((إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً)) وكان عمار ممن شهد مع الرسول (ﷺ) بدراً وأبلى فيها بلاء حسناً كما ساهم في حرب الخندق وشهد المشاهد كلها مع الرسول، شأنه في ذلك شأن النخبة من الصحابة رضوان الله عليهم.

هـ _ شجاعته وسخاؤه :

إن عماراً واحداً من أصحاب محمد الذين نشؤوا على الفضائل العربية من الشجاعة والشهامة والكرم ويكفي في شجاعته أنه اشترك في حروب الرسول وعرض نفسه للمهالك ولم يعرف عنه أنه أدبر في حرب من تلك الحروب ففي حروب الردة كان يشجع الناس ويحرضهم على القتال وسيفه في يده.

وقال عنه عبد الله بن عمر بن الخطاب في إحدى المعارك ((رأيت عمار بن ياسر في يوم اليمامة على صخرة، وقد أشرفَ يصيح : يا معشر المسلمين ! أمن الجنة تفرون ؟ أنا عمار بن ياسر هلمّوا إليّ وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تذبذب وهو يقاتل أشد القتال)).

وعن سخائه يروي جابر بن عبد الله الأنصاري، فيقول :

((صلى بنا رسول الله (ﷺ) صلاة العصر، وبعد أن انتهى إذ أقبل شيخ من مهاجرة العرب، فقال الشيخ : يا رسول الله، أنا جائع الكبد فأطعمني، وعاري الجسد فاكسيني وفقير فارثيني فقال الرسول : ما أجد لك شيئاً، ولكن الدال على الخير كفاعله، انطلق إلى ابنتي فاطمة، ثم قال : يا بلال قم فقف به على منزل فاطمة.

فانطلق الأعرابي فلما وقف على باب فاطمة نادى بأعلى صوته : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، ومختلف الملائكة ومهبط جبرئيل الروح الأمين، بالتنزيل من عند رب العالمين، قالت : وعليك السلام، ممن أنت يا هذا ؟ قال : من العرب أقبلت إلى أبيك سيد البشر مهاجراً من مشقة[92] وانأ يا بنت محمد عاري الجسد، جائع الكبد، فارحميني يرحمك الله فعمدت فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ كان ينام عليه الحسن والحسين وقالت : خذ هذا عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه فقال: يا بنت محمد، أنا أشكو إليك الجوع فتناوليني جلد كبش فما أنا صانع به في ما أجد من السغب [93]

فعمدت إلى عقد في عنقها أهدتها إياه فاطمة بنت عمها (الحمزة) فقطعته من عنقها ونبذته إلى الأعرابي وقالت خذه : بعه فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه.

فأخذ الأعرابي العقد وانطلق إلى مسجد النبي، والنبي جالس مع أصحابه فقال يا رسول الله أعطتني فاطمة هذا العقد، وقالت : بعه فقال النبي (ﷺ) : بعه، وكيف لا يصنع الله لك به خيراً وقد أعطته لك فاطمة بنت محمد ؟ سيدة بنات أدم، فقام عمار بن ياسر وقال : يا رسول الله أتأذن لي بشراء هذا العقد : فقال اشره يا عمار فلو اشترك فيه الثقلان ما عذبهم الله بالنار !! قال عمار بكم تبيع هذا العقد يا أعرابي : قال : بشبعة من الخبز واللحم، وبردة يمانية أستر بها جسدي، وأصلي لربي عليها، ودينار يبلغني أهلي.

قال عمار : لك عشرون ديناراً، ومائتا درهم هجرية، وبردة يمانية وراحلة تبلغك أهلك، وشبعك من الخبز واللحم.

وكان عمار قد باع سهمه[94] الذي أعطاه إياه النبي من خيبر... ثم قال : (ﷺ) للأعرابي : فأجز فاطمة بصنعها معك خيراً قال الأعرابي رافعاً يديه إلى السماء متوجهاً بالدعاء : اللهم أنت إله

ما استحدثناك ولا إله نعبد سواك، وأنت رازقنا فأعط فاطمة ما لأعين رأت، ولا أذن سمعت. فأمن رسول الله على دعائه، ثم أن عماراً بعد أيام عمد إلى العقد فطيبه بالمسك في بردة يمانية وكان له عبداً اسمه (أسهم) ابتاعه من سهمه في خيبر، فدفع العقد إليه وقال له: انطلق إلى رسول الله بهذا العقد وأنت له مع العقد ففعل العبد.

فقال له النبي: اذهب إلى ابنتي فاطمة، وأنت والعقد لها ففعل العبد وأخبرها بقول النبي.

فقالت : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى، فضحك العبد، قالت : مما تضحك ؟ قال : أضحكتني بركة هذا العقد، أشبع جائعاً، وكسا عرياناً وأغنى فقيراً واعتق مملوكاً.

و _ موقفه من مبايعة أبي بكر :

كان موقف عمار من هذا الأمر، متأثراً بخطوات علي (ع) لأنه يعلم مسبقاً بأن الوصي بعد رسول الله هو علي بن أبي طالب سماعاً من النبي (ﷺ) صراحة في (غدير خم) حين حج آخر حجة حيث قال (ﷺ) : ((من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله)) ولأن النبي خاطب عماراً ذات يوم بقوله

((يا عمار، إن، علياً لا يردك عن هدى، ولا يدلك على ردى، يا عمار، طاعة علي طاعتي وطاعتي طاعة الله عز وجل))[95]

ولذلك أعلن علي موقفه للذين طالبوه بالبيعة لأبي بكر، حيث قال لهم : ((أنا عبد الله، وأخو رسوله أنا أولى بهذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليه بالقرابة من النبي (ﷺ) والآن تأخذونه منا أهل البيت غصباً ! ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم، لمكان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة، وأنا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى برسول الله حياً و ميتاً فانصفونا إن كنتم مؤمنين، و إلا فبوؤا بالظلم وأنتم تعلمون)).

وقد أبدى عمار برأيه طرحاً فقام في المسجد وقال ((يا معشر قريش ويامعشر المسلمين، إن كنتم علمتم، و إلا فاعلموا إن بيت نبيكم أولى به وأحق بإرثه، وأقوم بأمور الدين، و آمن على المؤمنين، وأحفظ لملته، وأنصح لأمته فمروا صاحبكم فليرد الحق إلى أهله، قبل أن يضطرب

حبلكم، ويضعف أمركم، ويظهر شتاتكم وتعظم الفتنة بكم وتختلفون فيما بينكم ويطمع فيكم عدوكم فقد علمتم أن بني هاشم أولى بهذا الأمر منكم، وعلي أقرب إلى نبيكم وهو من بينهم وليكم بعهد الله ورسوله......)).

ز _ في حرب صفين[96]

بعدما غدر معاوية بن أبي سفيان بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وحاول الاستيلاء على حكم المسلمين والتمرد على حكم علي وجمع جيشاً كبيراً خرج علي بجيش كبير إلى صفين ليقاتل الفئة الباغية.... وكان ذلك سنة (37 هـ).

في صفين خرجت الخيول إلى القتال، واصطفت بعضها البعض وتزاحم الناس، وعلى عمار درع أبيض، وهو يقول ((أيها الناس الرواح إلى الجنة)) فقاتل القوم قتالاً شديداً لم يسمع بمثله السامعون، وكثرت القتلى، وحين نظر عمار إلى راية ابن العاص وقد كان في جيش معاوية، قال عمار ((والله إنها لراية قاتلتها ثلاث مرات، وما هذه بأرشدهن)) ثم ارتجز يقول :

نحن ضربناكم على تأويله   كما ضربناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله .

ويذكر الأحنف بعض ما جرى فيقول : ((والله إني إلى جانب عمار بن ياسر بيني وبينه رجل فتقدمنا حتى دنونا من هاشم بن عتبة، وكان في جيش علي، فقال له عمار (احمل فداك أبي وأمي) فقال له هاشم : ((يرحمك الله يا أبا اليقظان ! إنك رجل تأخذك خفة في الحرب وإني إما أزحف باللواء زحفاً، أرجو أن أنال بذلك حاجتي وإن خففت لم آمن الهلكة)) وقد جاوز عماراً آنئذ الثمانين من عمره، وقد قال معاوية لعمرو بن العاص : ((ويحك إن اللواء اليوم مع هاشم ابن عتبة

وقد كان يرقل[97] به إرقالاً، وإن زحف به اليوم زحفاً إنه لليوم الأطول على أهل الشام، فإن زحف في عنق من أصحابه إني لأطمع أن تقطع.)) فلم يزل هاشم يحمل الراية حتى قتل ثم حملها عمار فبصر به معاوية فوجه إلى عمار أقوى الفرسان، وقد حمل عمار ذلك اليوم على صف أهل الشام وهو يقول:

كلا ورب البيت لا أبرح آجي حتى أموت أو أرى ما أشتهي

لا أفتأ الدهر أحامي عن علي صهر الرسول ذي الأمانات الوفي

ينصرنا رب السماوات العلي ويقطع الهام بحد المشرفي

يمنحنا النصر على من يبتغي ظلماً علينا جاهداً ما يأتي

فضرب أهل الشام حتى اضطرهم إلى الفرار.

يذكر عبد خير الهمذاني : ((نظرت إلى عمار يوماً من أيام صفين وقد رمي رمية أغمي عليه فلم يصل الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ولا الفجر ثم أفاق فقضاهن جميعاً بالتتالي)).

ج _ استشهاده[98]

صدق رسول الله (ﷺ) حينما قال لعمار :

((تقتلك الفئة الباغية..... وآخر شرابك من الدنيا ضياح[99] من اللبن))

ففي اليوم الثالث والثلاثين من أيام صفين، استسقى عمار وقد اشتد به

العطش، فأتته امرأة طويلة ومعها إدواة[100] فيها ضياح من لبن... فقال حين شرب : الجنة تحت الأسنة[101] اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات[102] هجر لعلمنا أنا على الحق، وأنهم على الباطل)).

ثم هجم على الأعداء هجمة قوية وقتل منهم خلقاً كثيرين وهجم عليه وقد تعب من شدة ما أبلى، ابن حوى السكسكي وأبو العادية، فأما أبو العادية فطعنه وأما ابن حوى فضربه على رأسه، فسقط أبو اليقظان شهيداً لاحقاً بأول الشهداء وقد لبى شوق الجنة له، فالجنة تشتاق إلى عمار، وكان ذلك عام (37 هـ / 657 م) وقد جاوز الثمانين من عمره وقد دفن بجوار الرقة في شمال سورية. و كثر المتقربون بقتل عمار إلى معاوية وابن العاص، فكان الرجل يدخل عليهما ويقول أنا قتلته فيقول له عمرو وما سمعته يقول ؟ وكأن هناك كلمة سر ظلت مكتومة في نفس هذا الشهيد العظيم لتدل عل قاتله في آخر لحظات حياته، كما تدل في الوقت نفسه على عمق الهدف الذي استشهد من أجله، فكان الرجل يخلط فيعرف عمرو أنه ليس القاتل، حتى أقبل ابن حوى فقال : أنا قتلته ! فقال عمرو : فما كان آخر منطقه ؟ قال : سمعته يقول ((اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه....)) فقال عمرو : صدقت أنت صاحبه _ أي قاتله _ أما والله ما ظفرت يداك ولقد أسخطت ربك.

ويذكر (السدي) في كتابه (عمار بن ياسر) : ((إن رجلين بصفين اختصما في سلب عمار، وفي قتله فأتيا عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ويحكما : اخرجا عني، فإن رسول الله (ﷺ) قال

((ما لقريش ولعمار، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار))، فإن قاتله وسالبه في النار.

وبعد أن هدأت المعركة أخذ علي بن أبي طالب يجول متفقداً من استشهد حتى وصل إلى أبي اليقظان عمار بن ياسر فبكى بكاء شديداً، ثم قال مسمعاً من حوله: ((إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر، وتدخل به عليه المصيبة الموجعة، لغير رشيد رحم الله عماراً يوم أسلم، ورحم الله عماراً يوم قتل ويرحم الله عماراً يوم يبعث حياً)) ثم قال لقد رأيت عماراً، وما يذكر من أصحاب رسول الله (ﷺ) أربعة إلا كان رابعاً ولا خمسة إلا كان خامساً وما كان أحد من قدماء أصحاب النبي (ﷺ) يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين، فهنيئاً لعمار بالجنة)) ولقد قيل إن عماراً مع الحق والحق معه، يدور عمار مع الحق أينما دار، وقاتل عمار في

النار[103] وكان عمار قد أوصى بقوله : ((لا تغسلوا عني دماً ولا تحثوا علي تراباً.. ادفنوني في ثيابي فإني مخاصم !))

قال الحجاج بن عزية الأنصاري، يرثي أبا اليقظان :

يا للرجال لعين دمعها جاري — قد هاج حزني أبو اليقظان عمار

أهوى إلـيه أبو حوى فوارسه — يدعو السكون وللجيشين إعصار

فاختل صدر أبي اليقظان معترضاً — للرمـح قد وجبت فِيْنَالَهُ النار

قال النبـي لـه تقتلك شرذمة — سِيْطلتْ لحومـهم بالبغي فجار

أبو ذر الغفاري رضي الله عنه

من أهم القبائل التي سكنت مكة كانت قبيلة (غفار) وهي إحدى قبائل كنانة التي انحدرت منها قريش واشتهرت كنانة وخاصة غفار بالنشاط الديني الذي عظم قبل ظهور الإسلام وعرف هذا النشاط باسم البحث عن الحنفية وكان كانت لغفار مكانتها المؤثرة بالنسبة لقريش ذلك ان القوافل كانت تمر بديارها.

وعندما قام الإسلام وانتشرت دعوة النبي (ﷺ) إلى خارج مكة وصلت غفار، فاهتم بعض أفراد القبيلة بها، وتفاعلوا معها حتى انتهى بهم الأمر إلى لإسلام وتم ذلك إثر إسلام أحد أفراد القبيلة وهو أبو الذر الغفاري رضي الله عنه.

أ _ إسلامه:

قد اختلف الرواة في تحديد اسمه الأصلي فقيل اسمه عبد الله بن كعب او جندب أو اسمه بريزة بن جنادة وهو مشتق من (برز) أي فاق أصحابه فضلاً وشجاعة[104] وقد كان متبرماً بحياة الجاهلية، وديانتها وأصنامها متطلعاً إلى دين أفضل مما هو عليه وقد اعتنق الحنفية[105] قبل إسلامه بثلاث سنوات.

وقد اختلف الرواة أيضاً في دخوله الإسلام واتفقوا جميعاً إنه كان خامس شخص يعتنق الإسلام وقد جاهر بالدين الجديد بين كفار قريش في مكة دون أن يخشى بطشهم وقد بعثه النبي (ﷺ) إلى قومه لدعوتهم إلى الإسلام فنجح في ذلك.

وفي يثرب (المدينة المنورة)، لزم المسجد عاكفاً على العبادة منقطعاً إلى الله معرضاً عن زخرف الدنيا وزينتها، فقد وجد في الإسلام ما يلائم طبعه من الزهد، وقد فتح الله قلبه وجعل فيه اليقين والصدق وجعل لسانه صادقاً وخليقته مستقيمة وآذانه واعية وعينه بصيرة صريح صادق اللهجة، شجاع وكان النبي يقول عنه :

((ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء، رجلاً أصدق لهجة من أبي ذر))[106]

وقال الرسول له يوماً :

((يا أبا ذر أنت رجل صالح، وسيصيبك بلاء بعدي)).

فقال أبو ذر متسائلاً ((أفي الله بلائي)) قال نعم، فقال أبو ذر مرحباً بأمر الله.

وعندما خرج الرسول من مكة مهاجراً وسار ركبه يقطع السهول والجبال والأودية ويتحمل حر الهاجرة وجهد السير سبعة أيام حتى أمنوا من قريش التي كانت تتبعهم. خرج أبو ذرّ في قبيلتي (غِفَار) و (أَسْلَم) للقاء النبي (ﷺ) فلما دنا منه الركب، أسرع إلى ناقة النبي واخذ في زمامها وهو يكاد يطير فرحاً بلقائه، فأخبره أنّ غفاراً قد أسلمت أكثرها، واجتمع عليه بنو غفار، فقالواله : (يا رسول الله أن أبا ذرّ قد علمنا ما علمته. فأسلمانا وشهدنا أنك رسول الله). وأسرع المتخلفون منهم إلى الإسلام وبايعوا النبي وأعلنوا إسلامهم. ثم تقدّمت قبيلة (أَسْلَم) فقالوا ((إنّا قد أسلمنا ودخلنا فيما دخل فيه إخواننا وحلفاؤنا (غفار)). فأشرق وجه النبي سروراً بنصر الله، ثم قال : ((غِفَارٍ) غفر الله لها، واسلم سالمها الله).

ب _ من مواقفه[107]

لا تنبع شهرة أبي ذر من الدور الذي شغله أيام النبي (ﷺ) لكنه بسبب ما قام به أيام عثمان بن عفان. ففي عصر عثمان حدثت تطورات كبيرة ألّمت بالمجتمع العربي الإسلامي الناشئ، حيث أخذ القوم يجنون ثمرات الفتوح، فملكوا الأموال والضياع وصار بينهم طبقة غاية في الثراء، كما أن البحث عن المغنم والثروة كان هدفاً يلاحقه السادة والحكام. ومعروف أن ثروات الدنيا محدودة، وكلما ازداد ثراء قلّة من الناس، ازداد حرمان جمهور أكبر وزيادة ثراء القلة. فيها إخلال بالموازين

مما يسبب العديد من المشاكل. لقد شهد أبو ذر هذه التحولات، فخاف منها وخشي أثرها المدمر على الأمة، فأعلن صوته مدوياً في رفضها، فلاقى الاستجابة مع ردّات فعل شديدة معادية.

لقد تفجرت المشاكل في كل الولايات الإسلامية، فبلغت أخبارها عثمان وتردد صداها في كل مكان، فكانت البداية عبارة عن أعمال شكوى ونصيحة وتحريض كادت أن تؤدي إلى الثورة، وخشي الولاة من ذلك فقاموا بنفي عناصر الإثارة من ولاياتهم، وفي الشام شارك أبو ذر في أعمال الإنذار والنصيحة والشكوى، وبلغ نشاطه حداً أقلق فيه والي الشام معاوية بن أبي سفيان، وقلقل مكانته، فقد تناول أبو ذر في هجومه معاوية، والخليفة نفسه مع عدد من الصحابة الأثرياء، لهذا كتب معاوية إلى الخليفة عثمان قائلاً :

بسم الله الرحمن الرحيم.

لعبد الله عثمان، أمير المؤمنين.

من معاوية بن صخر، أما بعد : فإني أخبرك يا أمير المؤمنين، بأن أبا ذر قد أفسد عليك الشام، وذلك أن يظهر لأبي بكر وعمر بكل جميل، فإذا ذكرك أظهر عيبك وقال فيه القبيح وإني أكره أن يكون مثله في الشام أو بمصر أو بالعراق، لأنهم قوم صراع إلى الفتن، وأحب الأمور إليهم الشبهات، وليسوا بأهل الطاعةٍ ولا جماعةٍ، والسلام))

فكتب إليه عثمان : ((أما بعد : فقد جاءني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر أبي ذر جندب بن جنادة، فإذا ورد عليك كتابي هذا، فابعث به إليَّ واحمله على أغلظ المراكب، وأوعرها وابعث معه دليلاً يسير به الليل مع النهار حتى يغلبه النوم فينسيه ذكري وذكرك، والسلام))

ونفذ معاوية أوامر الخليفة فأرسل أبا ذر في رحلة قاسية جداً، حتى إذا قدم المدينة كان لحم فخذيه قد سقط، وأُدخل على عثمان، وكان أبو ذر رجلاً داكن البشرة، طويلاً، ضعيفاً، نحيفاً شيخاً، أبيض الرأس ذا لحية بيضاء، فلما رآه عثمان قال له: لا أنعم الله بك عيناً يا جنيدب. فقال أبو الذر : (أنا جندب بن جنادة وأسماني النبي عبد الله) فقال عثمان : أنت الذي تزعم بأننا نقول : ((إن يد الله مغلولة، وأن الله فقير ونحن الأغنياء)) فقال أبو ذر (رضي الله عنه) : (لو كنتم لا تقولون ذلك

لأنفقتم مال الله في عباده المؤمنين أنّي لم أقل ذلك، ولكنني أشهد، لقد سمعت رسول الله (ﷺ) وهو يقول :

إذا بلغ بنو أمية بن العاص ثلاثين رجلاً، جعلوا مال الله دَوَلاً[108] وعباد الله خولاً[109] ودين الله دخلاً[110] ثم يريح الله العباد منهم)

فقال عثمان لمن بحضرته من المسلمين : أسمعتم هذا الحديث من رسول الله ؟ فقالوا : ما سمعناه، فقال عثمان : ويلك أتكذب على رسول الله ؟ فقال أبو ذر لمن حضر : أتظنون أنّي كذبت ولم أصدق في هذا الحديث ؟ فقال عثمان : ادعوا إليّ علي بن أبي طالب. فدعي له، فلما جلس قال عثمان لأبي ذر : أقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاد أبو ذر الحديث، فقال علي : لم أسمع هذا، ولكن صدق أبو ذر. فقال عثمان : وبما صدّقته ؟ فقال علي بحديث النبي (ﷺ)

((ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أحداً أصدق لهجة من أبي ذرّ))

فقال جميع من حضر من أصحاب رسول الله : صدق علي ! فالتفت إليهم أبو ذر قائلاً : أحدثكم أني سمعت هذا من رسول الله (ﷺ) وتتهموني، ما كنت أظن أن أعيش حتى أسمع هذا منكم. فقال عثمان : كذبت، أنت رجل محبّ للفتنة، فقال أبو ذر اتّبع سنة صاحبيك أبي بكر وعمر، حتى لا يكون لأحد عليك كلام، فقال عثمان : ما أنت وذاك لا أمّ لك ؟ فقال أبو ذر : ((واللهِ ما أعرف لي إليك ذنباً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) فاشتد غضب عثمان، ثم قال : أشيروا علي في أمر هذا الشيخ الكذاب فقد فرق جماعة المسلمين ؟ فقال عليّ : أما أنا فأشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون في القرآن الكريم:

((...وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)) (سورة غافر : الآية 28)

فلما سمع عثمان كلام علي اشتد غضبه وقال : التراب بفيك يا علي. فأجابه علي : بل بفيك يا عثمان، أتصنع هذا بأبي ذر وهو حبيب رسول الله، فامسك يا عثمان. وارفضَّ المجلس بعد ذلك[111] وحضر بعد ذلك أبو ذر مجلس عثمان، فعرض إرساله إلى قرية اسمها (الربذة) واقعة في الطريق الواصل بين مكة والمدينة ليقيم بها ووعده بمنحةٍ عدداً من الإبل ليستغلها، فرفض أبو ذر، وقال له : يكفي أبا ذر ما يقوم بأوده[112] وتمتع أنت وأمثالك بدنياكم، ودعونا وربنا وديننا.

وكان عثمان يشرف آنذاك على توزيع إرث الصحابي عبد الرحمن بن عوف، وكان كبيراً، وكان في مجلس كعب الأحبار. فقال عثمان لكعب : ما تقول فيمن جمع هذا المال، فكان يتصدق ويعطي في السبل، ويفعل و يفعل ؟ فقال إني لأرجو له خيراً. فغضب أبو ذر وزمع[113] العصا على كعب، وقال : وما يدريك يا بن اليهودية، ليودّن صاحب هذا المال يوم القيامة لو كانت عقارب تلسع السويداء في قلبه. فغضب عثمان غضباً شديداً، وقال لأبي ذر : أخرج عنا من بلدنا، فقال أبو ذر : ما أبغض إلي جوارك ولكن إلى أين أخرج ؟ فقال عثمان : إلى حيث شئت، فقال : أرجعُ إلى الشام فإنّها أرض الجهاد ؟ فقال عثمان : إني جئت بك من الشام لما تفسد بها عليّ، ولا أحب أن أردك إليها، فقال أبو ذر : فأخرج إلى العراق، فقال عثمان : لا لأنهم قوم، أهل شبهة، وطعنٍ في الأئمة. فقال أبو ذر فإني حيث كنت لا بد من قول الحق ن فإلى أين تحب أن أخرج ؟ فقال عثمان : إلى بلد هو أبغض البلدان إليك. قال : الربذة ؟ قال : فاخرج إليها ولا تعد منها.

وأمر عثمان مروان بن الحكم بإخراج أبي ذر من المدينة على بعير بغير وطاء، فأخرج وتبعه جماعة من الناس يشيعونه[114] ويحزنون لحزنه، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب والحسن والحسين وعمار بن ياسر وغيرهم. فتقدم علي من أبي ذر، فجعل يعزيه فيما قد نزل به، ويطلب منه الصبر والاحتساب[115] إلى وقت الفرج. وضاق مروان بعمل علي.

فأقبل عليه قائلاً : ((أليس أمر أمير المؤمنين أن لا يخرج أحد مع هذا الشيخ، ولا يشيعه أحد من الصحابة ؟)) فرفع علي قضيباً كان بيده فضرب به بين أذني بعير مروان، ثم قال: ((إليك عنا يا بن الزرقاء، أمثلك يعترض علينا في الذي نصنعه؟)).

ومضى أبو ذر إلى الربذة، فأقام فيها في أقس حال وأشده، وصبر على ذلك، وحيث أن الربذة قامت على طريق الحج، فإن المسافرين بين مكة والمدينة كانوا يمرون بأبي ذر، فيعرضون عليه المساعدات فلا يقبل من أحد شيئاً، وكان حيث هو يتابع نقده لعثمان والنكران على أصحاب الأموال، والتبشير بضرورة إحداث التغيير، وكان لهذا صدى كبير وأثر فعالّ.

ج _ وفاته :

استمر أبو ذر مقيماً بالربذة، حتى حضرته الوفاة عام (32هـ) وقيل (25هـ)عن عمر يناهز الخامسة والسبعين، وحين دنت منيته. جعلت زوجته تبكي فوق رأسه، فقال لها ما يبكيك يا أم ذر؟ قالت : أبكي لضعيتك هنا في أرض غربة. وأنا امرأة ضعيفة غريبة وأخاف أن أعجز عن أمرك، فقال لا تبكي يا أم ذر، فإن رسول الله (ﷺ) قد أخبرني أني أموت في أرض غربة، ويلي أمري ودفني قوم صالحون، ولكن انظري يا أم ذر إذا قد مت فاستعيني بمن يذبح لك شاة من غنمي، فاطبخيها، والزمي قارعة[116] الطريق، فإذا مر بك نفر من أهل الإسلام، فقولي لهم : هذا أبو ذر صاحب رسول الله قد قضى نحبه، ولَحِقَ ربه، فواروه رحمكم الله، فإنهم سيلون أمري فإذا فرغوا من أمري، فأطعميهم الشاة، ثم انصرفي إلى المدينة فكوني فيها، حتى يأتيك الموت كما أتاني.

وتوفي أبو ذر، ونفذت زوجته وصيته، ثم وقفت على حادة الطريق، فمر بها ركب من الحُجَّاج، فيهم عبد الله بن مسعود والأحنف بن قيس وصعصعة بن صومان، والأشتر النخعي، فأخبرتهم فقاموا بالتأسف على أبي ذرّ، وتولوا دفنه بشكل لائق، وإثر دفنه وقف الأشتر على قبره، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر نبيه محمداً ثم قال: ((اللهم هذا أبو ذر، جندب بن جنادة الغفاري، صاحب رسولك اتبع ما أنزلته من آياتك، وجاهد في سبيلك، ولم يغير ولم يبدل، ولكن رأى منكراً، فأنكره بلسانه وقلبه فحقر وحرم حتى افتقر وضيع حتى مات غريباً في أرض غربة، اللهم أعطه من الجنة حتى يرضى، وأقصم من طرده، وحرمه، ونهاه عن مجاورة حرم رسول الله محمداً)).

وفي مساء ذلك اليوم غادر الأشتر وصحبه الربذة إلى المدينة ثم عادوا للعراق، ونشط الأشتر وقاد ثورة على بني أمية حيث طرد سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة وقاد الثورة إلى المدينة فحاصر عثمان في داره وقتلوه....

ولأبي ذر مقام في جبل الشيخ بجوار مجدل شمس يزار يعرف باليعفوري، وذلك تحريفاً لكلمة الغفوري أو الغفاري.

علي بن أبي طالب ((كرم الله وجهه))

((أنت مني، وأنا منك.....))

((أنت مني بمنزلة هارون من موسى..........))

((من كنت مولاه فعلي مولاه..... أنت ولي كل مؤمن بعدي.....))

((لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق....))

((الرسول الكريم (ﷺ)))

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتـــــــى إلا عـــــــلي

((جبرائيل عليه السلام))

1 _ نسبه ونشأته وصفاته :

هو الإمام علي بن أبي طالب ((كرم الله وجهه)) ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي..... ويكنى أبا الحسن وهو ابن عم الرسول الكريم، وأول من أسلم من الصبيان وزوج ابنته فاطمة الزهراء الذي انتسب إليهما الخلفاء الفاطميون، ورابع الخلفاء الراشدين تسلم بعد مقتل عثمان، وكان أحق الجميع بتسلم أمور المؤمنين، لولا التآمر عليه الذي منعه من تسلم الخلافة، حتى قتل عثمان وبويع بالخلافة.

نشأ في بيت النبوة، وعاش في كنف[117] الرسول، وكان أقرب الناس إلى قلبه، وأحبهم إلى نفسه فنشأ على الفضيلة والتقى والورع[118]

كان رجلاً ربعة[119]، أدعج[120] العينين، ضخم البطن، عريض المسربة[121]، خشن الكفين، كأن عنقه إبريق، أصلع من خلفه شعر خفيف لمنكبه[122] مشاش[123] كمشاش الأسد الضاري، إذا مشى تكفأ[124] ومار به جسده، لايبين عضده من ساعده قد أدمجت اندماجاً. لم يمسك بذراع رجل قط إلا أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس مائل إلى السمرة قليلاً، أذلف[125] الأنف إذا مشى إلى الحرب هرول، قد أيده الله في حروبه بالنصر والظفر.

وعندا تآمر القريشيون على اغتيال الرسول، بعد أن وصلهم نبأ تحالفه مع أهل المدينة، وانتخبوا من كل قبيلة فارساً مسلحاً ليضربوا الرسول ضربة واحدة يضيع معها دمه، ويتفرق بين القبائل فلا يطالب بنو هاشم بدمه، لعجزهم عن قتال كل القبائل، وأوحى سبحانه وتعالى إلى نبيه بما دبّروا، فاخبر علياً، فقال علي: أو تسلم يا رسول الله إن فديتك بنفسي؟ فقال نعم، بذلك وعدني ربي. فاستبشر علي وانفرجت أساريره ابتهاجاً بسلامة النبي، قبل عليّ عن طيب خاطر أن ينام مكانه تلك الليلة، ورضي أن يبذل روحه فداء للرسول الكريم، ضارباً بذلك أروع الأمثال في التضحية والإيثار، فتقدم إلى فراشه مطمئن النفس، ثابت الجنان، ونام فيه متشحاً ببردة النبي اليمانية. وعندما حان الوقت المحدد لهجومهم، خرج الرسول الكريم قبله بقليل، وكان ذلك في الثلث الأخير من الليل، خرج وهو يقرأ:

(وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)يس (9)

ومر على الملأ من قريش، واخذ حفنة من التراب، وجعل ينثرها على رؤوسهم وهم لا يشعرون ثم دخلوا في الوقت المحدد لهجومهم، فثار عليّ (ع) في وجوههم، فانهزموا منه، ثم سألوه عن النبي فقال : لا أدري. ويروي اليعقوبي في تاريخه، الجزء الثاني، الصفحة (29) :

((.... أن الله تعالى أوحى في تلك الليل إلى ملكين من ملائكته المقربين وهما جبريل وميكائيل _ إني قضيت على أحدكما بالموت، فأيكما يفدي صاحبه ؟ فاختار كل منهما الحياة. فأوحى إليهما : هلاّ كنتما كعلي بن أبي طالب، لقد آخيت بينه وبين محمد، وجعلت عمر أحدهما أطول من الآخر، فاختار علي الموت، وأثر محمداً بالحياة، ونام في مضجعه، اهبطا واحفظاه من

عدوه، فهبطا يحرسانه في تلك الليلة وهو لا يعلم، وجبريل عليه السلام يقول : بخٍ بخٍ[126] لك يا بن أبي طالب، من مثلك يباهي به الله ملائكة سبع سموات..))

2 _ من مواقفه :

لّما نزل الرسول عند بني عمرو بن عوف ونزل بقبا[127] في ربيع الأول، وأراد منه أبو بكر منه أن يدخل المدينة. فقال (ﷺ) : ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن عمي وابنتي _ يعني علياً وفاطمة _ واستقبل الرسول بالتكبير والتهليل، وكان في استقباله من بني عوف نحو من خمسمائة. ثم كتب رسول الله من قبأ إلى عليّ، فلما ورد كتابه إلى عليّ، ابتاع ركائب لمن معه من النسوة، وتهيأ للخروج، وأمر من بقي في مكة من ضعفاء المؤمنين أن يتسلّلوا ليلاً إلى (ذي طوى)، وخرج عليه السلام بالفواطم[128]، وتبعتهم أم أيمن مولاة رسول الله، وأبو واقد الليثي، فجعل أبو واقد يسوق الرواحل سوقاً حثيثاً، فقال له عليّ : أرفق بالنسوة يا أبا واقد، ثم جعل يسوق بهن ويقول :

قال النبـي لـه تقتلك شرذمة   يكفيك ربُّ الناس ما أهمكا

فلما قارب الركب ضجنان[129] أدركه الطلب، وكانوا ثمانية فرسان ملثمين معهم مولى بني أمية، واسمه (جُناح).

فقال علي (ع) لأيمن وأبي واقد : انتحيا بالإبل واعقلاها، وتقدم وأنزل النسوة، واستقبل القوم بسيفه، فقالوا أظننت يا غدار أنك ناج بالنسوة ؟ ارجع لا أبا لك. فقال عليه السلام : فإن لم أفعل ؟! قالوا لترجعن راغماً! ودنوا من المطايا ليثيروها، فحال علي بينهم وبينها، فأهوى له جناح بضربة، فابتعد علي عن ضربته، وضرب جناحاً على عاتقه فقدّه نصفين حتى دخل السيف إلى كتف فرسه. وشد على أصحابه، فتفرق القوم عنه وقالوا : احبس نفسك عنا يا ابن أبي طالب ! فقال لهم : إني منطلق إلى أخي وابن عمي رسول الله، فمن سره أن أفري لحمه، وأريق دمه فليدنُ مني !!

ثم أقبل (ع) على أيمن وأبي واقد، وقال لهما : أطلقا مطاياكما وسار بهما ظافراً قاهراً، حتى نزل ضجنان، فلبث به يومه وليلته تلك، هو و الفواطم يذكرون الله قياماً وقعوداً، حتى طلع الفجر، فلما صلّوا صلاة الفجر، سار بهم حتى قدموا المدينة. وكان قد تفطرتّ[130] قدماه فلما رآه النبي (ﷺ) اعتنقه وبكى رحمة به، ثم تفل في يديه وأمرهما على قدمي عليّ ودعا له بالعافية، فلم يعد يشتكي منهما. ثم آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار وقال لعليّ : ((أنت أخي في الدنيا والآخرة)).

وكان علي الساعد الأيمن للرسول في المدينة، ولثقة الرسول بإخلاصه وشجاعته، كان يسلمه راية الجيش في المعارك الحربية، في معركة أُحد، وبعد انهزام المسلمين لمخالفة الرماة أوامر الرسول، ونزولهم عن الجبل لجمع الغنائم، وبعدما أحاط المشركون بالمسلمين. كان عليّ (ع) مع جماعة من المسلمين يحيطون بالرسول يدرؤون عنه السهام والنبال والسيوف، و يجالدون بين يديه، وقد أصيب الرسول ببعض الجراحات وأغمي عليه. ولما أفاق الرسول من غشيته وفتح عينيه قال لعليّ : ما فعل الناس ؟ فقال عليّ لقد نقضوا العهد، وولّوا الدبر ! وفيما هو يخاطبه ويقص عليه أخبار المنهزمين، وإذا بكتيبة من المشركين اتجهت صوب النبي (ﷺ) فقال : يا عليّ، أكفني هؤلاء، فانقض عليهم كالصقر فانهزموا بين يديه، وفيما هو يطاردهم وإذا بكتيبة أخرى قد اتجهت نحو النبي وكادت أن تبلغه لولا أن علياً سمع النبي ثانية يقول : يا عليّ، اكفني هؤلاء. فانقض عليهم وفرقهم.

وكانت الكتيبة تقارب الخمسين فارساً وهو عليه السلام راجلٌ، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرق عنه، ثم تجتمع عليه وهكذا مراراً حتى قتل منهم أربعة عشر فارساً. فقال جبرائيل عليه السلام لرسول الله : ((يا محمد إن هذه المؤاساة لقد عجبت الملائكة من مؤاساة هذا الفتى. فقال رسول الله (ﷺ) وما يمنعه، وهو مني وأنا منه ! فقال جبرائيل : وأنا منكما.وسمع ذلك اليوم صوت من قبل السماء، لا يرى شخص الصارخ به ينادي مراراً :

لا سيف إلا ذو الفقار   ولا فتـــــى إلا عــــــــلي

فسئل رسول الله عنه، فقال : هذا جبرائيل[131]

وفي غزوة خيبر، لما بلغ الجهد بالمسلمين مبلغاً، بعد أن لم يستطيعوا اقتحام قلعة (القموص) التي اختبأ فيها اليهود وكانوا يقاتلون المسلمين من خلالها. قال رسول الله :(لأعطين

الراية غداً رجلاً كراراً غير فرارٍ، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ولا يرجع حتى يفتح الله على يده القلعة) فتطاولت لها قريش، ورجا كل واحد منهم أن يكون صاحب الراية، وكان علي في تلك الحال أرمد لا يكاد يبصر أمامه، ولما سمع مقالة النبي، قال : اللهم لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. فأصبح رسول الله، واجتمع إليه الناس كل يرجو حاله. ثم قال النبي : أدعو لي علياً، فصاح الناس من كل جانب أنه أرمد رمداً لا يبصر موضع قدمه. فقال : أرسلوا إليه وأدعوه : فأُتي به يقاد. فوضع رأسه على فخذه، ثم تفل في عينيه فقام وكأن عينيه جزعتان[132]، وبرئ من ساعته. وقال له : خذ الراية ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك.

فقال علي : على ماذا أقاتلهم يا رسول الله. قال : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم. ثم دعا له. فانطلق علي يهرول هرولة والجيش خلفه حتى ركز الراية بين حجارة مجتمعة تحت الحصن، فاطلع عليه يهودي من أعلى الحصن، وقال : من أنت ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب. قال اليهودي : علوتم ! وما أنزل على موسى. وخرج إليه اليهود يتقدمهم أبطالهم وفيهم الحارث أخو مرحب، وكان من شجعانهم المعروفين، فحمل بمن معه على المسلمين، فوثب عليه السلام وضربه بسيفه فخر صريعاً ثم كر بأصحابه على اليهود، فتفرقوا بين يديه، وانخذلوا بعد مقتل الحارث وجماعة منهم، وولّوا منهزمين إلى داخل الحصن. فاستعظم ذلك قائدهم (مرحب) بعد أن شهد مصرع أخيه وهزيمة من معه. فخرج يطلب الثأر (وكان هو حقاً سيد فرسان خيبر) لكنه خرج إلى عليّ بطيئاً، في كبرياء وثقة مطمئنة، مهيباً ضخماً، بيده حربة ذات ثلاثة رؤوس، وكل جسده الفارع الشاهق في الزرد، والحديد يغطي رأسه وساقيه وليس في بدنه ثغرة ينفذ منها السيف. فحمل يرتجز :

قد علمت خيبر أني مرحب   شاكي[133] السلاح بطل مجرب

إذا السيوف أقبلت تلتهب   أطعن حيناً، وحيناً أضرب

فبرز إليه عليّ وهو يقول :

وتقدم إليه علي بقامته المعتدلة، وهو بلا درع وفي يده السيف وحده، وتوقع المسلمون واليهود جميعاً أنها نهاية علي (ع) ولكن علياً استطاع أن يستفيد من تخففه من الدرع والزرد، وترك مُرحِباً يتقدم بدرعه وزرده وحربته حتى إذا أوشك سن الحربة يمس صدر علي، تراجع عليّ فجأة، ثم قفز في الهواء متفادياً ضربة مُرحب، ثم اقتحم وأهوى بكل قوته على رأس مُرحب بالسيف فانفلق الحديد من على رأس مُرحب، وسقط علي على الجمجمة فشقها نصفين، وهوى مُرحب وسط ذعر اليهود وعجبهم، وصيحات النصر ترتفع من معسكر المسلمين، ثم اقتلع عليّ باب الحصن، وكان حجراً طوله أربعة أذرع في عرض ذراعين في سمك ذراع، فرمى به إلى خلفه ودخل الحصن هو والمسلمون. وقد تعاون على باب الحصن سبعة رجال فيما بعد لإعادته إلى مكانه.

أما في غزوة تبوك فقد استخلف الرسول (ﷺ) علياً على المدينة ولم يشارك في المعركة، وقال له : ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)).

3 _ توليته الخلافة :

بعد وفاة النبي واجهت الأمة الإسلامية عدة أزمات فيها تحديات كبيرة، وبشجاعة كبيرة أخذت الأمة تشق طريقها، واهتمت بشكل كبير في إيجاد منهجية للإدارة والحكم، وأثناء بحث المسلمين عن منهجية للسلطة تمكنوا من تحقيق معجزة التاريخ الكبرى، ففتح المسلمون الأجزاء المهمة من العالم القديم، ولأول مرة قامت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، تجمع تحت ظل إدارة واحدة ذات شرعة سماوية، شعوباً وقوميات لم تعرف من قبل سوى الصراعات والتباين الشديد، وبعد تجربة السقيفة وتعيين عمر بوصية، ثم اختيار عثمان من قبل الشورى الستة، وبعد مصرع عثمان خلا منصب الخلافة من صاحبه وظل أياماً خالياً أراد فيها الثوار مع بقية السكان تعيين خليفة جديد، ولم يكن أمامهم غير علي بن أبي طالب، بسبب شخصيته ومركزه في الإسلام وسابقته فيه، وقرابته مع النبي وعلاقته به، فهو ابن عمه وربيبه وصهره ووالد الأولاد الذكور من أسرته (وكان مرشحاً لخلافة النبي منذ لحظة وفاته، لكن سنه وظروفاً كثيرة حالت دون وصوله إلى السلطة).

وكانت مسؤولية علي الجديدة على جانب كبير من الخطورة والصعوبة فهو لم يكن يتمتع برضا جميع الأحزاب السياسية، وكان عليه تثبيت سلطته وإيجاد حل للمشاكل التي سببتها الثورة على عثمان، وكان معنى هذا القضاء على القوى المستغلة ذات الثروات، وإبعاد أفراد الأسرة الأموية عن مناصبهم[135] وفي البداية اتخذ عليّ المدينة عاصمة له، مع ان مقتل عثمان برهن على فقدانها لمكانتها السياسية المؤثرة. فمنذ أواخر أيام عمر بن الخطاب تجمعت قوى الدولة السياسية في مراكز ثلاثةٍ رئيسية هي : الكوفة والبصرة، والجابية (الشام)، ومع الثورة على عثمان أخذ كل واحد من هذه المراكز يعمل في سبيل احتكار زعامة الأمة الإسلامية بعد انتزاعها من المدينة.

وهكذا ما أن قتل عثمان وبويع عليّ حتى مضت إلى الكوفة، ومضت إلى البصرة عائشة وطلحة والزبير، وكان قد مضى على وجود معاوية في الجابية قرابة عقدين من الزمن، وسعى عليّ مع العقلاء من الأمة نحو حل الخلافات سلمياً فأخفق نتيجة تعصب أهل البصرة الذين قتلوا عثمان ثم صاروا يطالبون بدمه، محملين علياً دمه بغية إبعاده عن السلطة. وقد أخذ علي بخشونة العيش وجد الحياة، ولم يبال بما فيها من ترف ولا نعيم. كان يأكل من خبز الشعير، تطحنه له زوجته فاطمة (رضي الله عنها) بيدها راضية مرضية مطمئنة، وكانت الأموال تجبى إليه من أطراف الدولة، وفي استطاعته أن يتصرف فيها كما يشاء وأن يحيا حياة الترف والنعمة، ولكنه ظل أبعد الناس عن ذلك وأقربهم إلى خشونة العيش. وقد أرسل علي بن أبي طالب عندما تسلم الخلافة إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة كتاباً، وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها، قال فيه ((أما بعد يا بن حنيف : فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة، دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم[136] مجفو، وغنيمهم مدعو.

ألا وأن إمامكم قد اكتفى من الدنيا بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا إنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا اغتنمت من غنائمها وفرا.....)). (نهج البلاغة)

وكان عليّ واسع العلم بكتاب الله وسنة رسوله، مجتهداً بالرأي بارعاً في القضاء والتقوى والفتوى. وروى ابن سعد قال : ((كان عليّ يقول : والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت. أن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً ناطقاً)).

4 _ حرب صفين :

بعد مقتل عثمان ثارت الفتن مطالبة بدمه، وكان هؤلاء المطالبون بدمه هم من ثاروا عليه وقتلوه، وكان جند الكوفة هو الذي تزعم الثورة على عثمان وقتله، وعيّن علياً، وكانت موقعه الجمل عام (36 هـ) حيث قادت عائشة والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله جيشاً لمقاتلة علي بن أبي طالب، وقد انتصر جيش أمير المؤمنين على جيش عائشة وقتل الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله، وعادت عائشة إلى دارها في المدينة لا تبرحها، وكانت كلما ذكرت يوم الجمل تبكي بكاءً شديداً، ثم تقول : ((يا ليتني لم أشهد ذلك المشهد! أيا ليتني مت قبل هذا بعشرين سنة، ولو لم أشهد الجمل لكان أحب إلي من أن يكون لي من رسول الله مثل ولد عبد الرحمن بن الحارث[137] فإنه كان له عشرة أولاد ذكور كل منهم فارس)).

وبعد انتهاء معركة الجمل، جمع علي عساكره بالبصرة، ثم نادى بالناس وجمعهم، وصعد المنبر، وحمد الله وأثنى عليه. ثم وثب المنذر بن الجارود العبدي، فسأل عن الفتن في الماضي والأيام المقبلة فأخذ عليّ في ذلك يخبره من يومه ذلك إلى أن تقوم الساعة، فذكر الفتن مدينة مدينة، وكيف تخرب ومن يتولى خرابها ثم قال في آخر كلامه : ((يا منذر إنّه لن تقوم الساعة إلا على أشر خلق ربك وذلك في أول يوم من المحرم يوم الجمعة، فافهم عني يا منذر ما نبأتك به ولم أكتمه عن غيرك، والله ولي الإحسان)).

وبعد سنة من معركة الجمل أي عام (37 هـ) قام معاوية وأتباعه من الشام بالثورة على أمير المؤمنين علي، بعد أن جمع جيشاً كبيراً من المهاجرين والأنصار للقضاء على بقية الله في أرضه وليتوج نفسه ملكاً مطلقاً يتوهج بمفاتن الدنيا وبهارج الحياة، وقد أرسل علي (ع) إلى معاوية كتاباً يدعوه فيه لبيعته، لكن معاوية رفض البيعة. فعزم علي على مواجهة معاوية عسكرياً، لذلك جمع من معه من المهاجرين والأنصار، وقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : ((أما بعد فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل الحق، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم)). وقد أجمعوا جميعاً على محاربة معاوية قبل أن يستفحل خطره، فأمر علي الحارث بن الأعور لينادي في الناس، أن أخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة. فنادى، وسار علي بجيشه، ولما نزل بكربلاء صلى بجيشه، ولما سلم، رُفع إليه من تربتها، فشمها ثم قال : واهاً لك

أيتها التربة، ليحشرن فيك قوم يدخلون الجنة بغير حساب. ثم قال ههنا ههنا ! فقال رجل : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ثقل لآل محمد ينزل ها هنا. فويل لهم منكم، وويل لكم منهم. فقال له الرجل : ما معنى هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ويل لهم منكم : تقتلونهم، وويل لكم منهم : يدخلكم الله بقتلهم إلى النار. وكان بقصد أن ولديه الحسن والحسين سوف يقتلان في كربلاء، وكان يقول عنها ذات كرب وبلاء.

ثم انطلق بجيشه نحو صفين، وفي الطريق شعر الناس بالعطش فانطلق علي مع بعض أصحابه حتى وصل إلى صخرة كبيرة، فأمرهم أن يقتلعوها، ففعلوا، فخرج لهم ماء من تحتها، فشربوا وارتووا وسقوا من كان ظمآن من الجيش، ثم أمرهم أن يعيدوها إلى مكانها، وساروا فترة، ثم قال لأصحابه هل يعلم أحدكم مكان الصخرة التي شربتم من تحتها؟ قالوا نعم فانطلقوا إليها. فسار منهم رجال إلى المكان الذي يعتقدونها فيه، فلم يجدوها. وساروا يبحثون حتى وصلوا إلى دير قريب وسألوهم : أين الماء الذي هو عندكم؟ قالوا ما قربنا ماء. فقال صاحب الدير : ما بني هذا الدير إلا بذلك الماء وما استخرجه إلا نبي أو وصي نبي[138]

ثم سار (ع) حتى وصل إلى الرقة، فنزل فيها بمكان يقال له بليخ بجانب الفرات، وكان فيه صومعة فيها راهب، فلما رأى أمير المؤمنين نزل من صومعته وسلم عليه وقال له : إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحاب عيسى بن مريم. أعرضه عليك ؟ قال : نعم، فما هو ؟ قال الراهب : ((بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى، وسطر فيما سطر. إنه باعث في الأمّيين رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة، ويدلهم على سبيل الله، لافظاً ولا غليظاً ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل نشز[139]......

فإذا توفاه الله اختلف أمته ثم اجتمعت ثم اختلفت فيمر رجل من أمته بشاطئ الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقضي بالحق....... من أدرك ذلك النبي من أهل البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادة....)).

ثم قال الراهب فأنا مصاحبك غير مفارقك حتى يصيبني ما أصابك. وبقي الراهب معه وقاتل في صفين حتى قتل. وبعد الوصول إلى صفين في السابع من شهر صفر عام (37هـ) كان

لعلي قلب الجيش في المدينة وفي الميمنة عبد الله بن بديل الخزاعي وعلى الميسرة عبد الله بن العباس، وعمار بن ياسر وقيس بن سعد وبدأ القتال واشتد وطيس المعركة، وقُتل خلق كثيرون، وكان القتال قد بدأ بالمبارزة. فقام علي بعد قتال طويل، ونادى يا معاوية... يا معاوية ! فقال معاوية سلوه ما شأنه. قال : أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة. فظهر معاوية وعمرو بن العاص، فلما اقتربا منه، لم يهتم علي بعمرو ولم يلتفت إليه، وقال لمعاوية : ويحك ! علام يقتل الناس بيني وبينك، ويضرب بعضهم بعضاً ؟ ابرز إلي نتقاتل، فالذي يقتل الآخر يكون الأمر له فالتفت معاوية إلى عمرو بن العاص وقال: ماذا ترى يا عمرو ؟ قال : قد انصفك الرجل، واعلم أنك إن لم تجبه على ما طلب فستجلب عليك وعلى عقبك السّبة والعار ما بقي على ظهر الأرض عربي. فقال معاوية : يا بن العاص، ليس مثلي يخدع نفسه. والله ما بارز ابن أبي طالب فارس شجاع إلا وأرداه وسقى الأرض بدمه. فانصرف معاوية راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه. فلما رأى علي ذلك ضحك وعاد إلى موقعه.

ثم التقى الناس فاقتتلوا قتالاً شديداً. وخرج ما يقارب الخمسمائة فارس من جيش عليّ مدججين بالسلاح، غاطسين بالحديد وخرج إليهم من جيش معاوية ما يساويهم، فتقاتلوا بين الصفين والناس واقفون تحت راياتهم، فأفنوا بعضهم ولم يرجع منهم أحد. وقال نصر بن مزاحم : كان بصفين تلٌ تلقى عليه جماجم الرجال، فكان يدعى تل (الجماجم) وقد قال مسلم الرقاشي من أهل الشام في تلك الحادثة :

ولمْ أرَ فرساناً أشدّ حفيظةٍ   وأمنع منّا يوم تلّ الجماجم

ثم حمل عمار وأصحابه على جيش معاوية، فدنا من عمرو بن العاص فقال : يا عمرو، بعت دنياك فتباً لك، وطالما بغيت للإسلام عوجاً، ثم قال:

صَدَقَ اللهُ وهو للصدقِ أهلٌ   وتعالى ربي وكانَ جليلاً

ربّي عجّل شهادةً لي بقتلٍ   في الذي أحبَّ قتلاً جميلا

ثم أمر علي الناس أن يحملوا على أهل الشام وذلك بعد استشهاد عمار فحملوا عليهم حملة شديدة أزاحوهم عن مواقعهم وفرقوا صفوفهم وقتلوا منهم الكثير. ويذكر المؤرخين أن عدد جيش علي كان حوالي خمسة وسبعين ألفاً وجيش معاوية يضاهيه عدداً تقريباً وأرسل عليّ إلى جميع العسكر أن يحملوا راياتهم ويقاتلوا متجالدين فقاتلوا بالسيوف والرماح، لا يسمع إلا صوت ضرب الهامات كوقع المطارق على السندان[140] وبعد أن هدأ القتال، واستراح العسكر قام الأعور الشني إلى علي فقال : يا أمير المؤمنين زاد الله سرورك وهداك، نظرت بنور الله فقدّمت رجالاً وأخرت رجالاً، عليك أن تقول، وعلينا أن نفعل أنت الإمام، فإن هلكت فهذان من بعدك _ يعني حسناً وحسيناً عليهم السلام _ ثم أنشد يقول :

أبا حَسَنٍ أنت شمسُ النهارْ وهذان في الحادثاتِ القمرْ

وأنتَ وهذان حتى الممات بمنزلة السمع بعد البصرْ

يخبرنا الناسُ عن فضلكم وفضلكم اليومَ فوق الخَبرْ

ثم إلتحم الجيشان من جديد، وعادوا للقتال واستمرت حرب صفين ثلاثة أشهر، فشل في نهايتها جيش علي في إحراز النصر على معاوية وأتباعه، وذلك لأن علي معاوية لجأ الأخير إلى الحيلة والخداع في التحكيم. فعاد جيش علي نحو العراق جيوشاً متحاربة وقد حاول علي إعادة تجميع جيشه فأخفق، وانشغل في حرب القوّات التي انشقت عن جيشه وخرجت عليه واستمر على تلك الحال حتى كان العام (40) للهجرة. وفيه حصل ما حصل.

5 _ نهايته :

اغتيل علي بن أبي طالب سنة (40 هـ / 661 م) من قبل خارجي اسمه عبد الرحمن بن ملجم، فقد ضربه بالسيف غدراً في السابع عشر من شهر رمضان بعد أن بقي في الخلافة خمس سنين وقد بلغ الستين من عمره، فانطوت بذلك صفحة من صفحات المجد والبطولة والعلم والزهد والورع والتقوى لتبقى مناراً في دروب الحياة.

وقد أزاح اغتياله كل العقبات أمام معاوية، فاستولى على مقاليد الخلافة. ولقد كان انتصار جيش معاوية وهزيمة جيش علي بفعل عدة عوامل، وعلى رأسها عدم التكافؤ بين الجيوش المتحاربة، لا من حيث العدد والعدة، بل من ناحية الضغط والربط والنظام والطاعة والإخلاص، ولعل أصدق ما يصور الفوارق بين جند الكوفة، وجند الجابية قول علي: ((لا رأي لمن لا يطاع)) وقول معاوية: ((كان علي في أخبث جند، وأشدهم خلافاً، وكنت في أطوع جند وأقلهم خلافاً))

فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)

سيدة نساء العالمين

(أن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك..)

الرسول الكريم

طفولتها[141] :

هي أصغر بنات النبي (ﷺ) وأكثرهن حزناً وشدة وعزماً، ولدت عام (604 هـ) نضجت بسرعة، وتلقت الأحداث الكبرى بصورة متوالية، فتركت في نفسها أثراً عميقاً ظل يصاحبها طيلة حياتها قصيرة.

ويوم بعث محمد نبيّاً، لهذه الأمة، كان عمرها لا يتجاوز الخامسة، ومنذ تلك اللحظة، جرفها هذا الإعصار الجبار، فالتحمت بكل لحظة فيه وعاشت تفاصيله. وظلت خلف أبيها خطوة خطوة، حتى وصلت إلى لحظة الألم الكبير، يوم ودعت أباها في رحلة لا عودة بعدها. تمزقت طفولتها وسذاجتها وبراءتها بسرعة، دون أن ينتبه أحد لذلك، ودون أن تدري وجدت نفسها محشورة مباشرة وسط أهم أحداث عصرها، فقد تركت من هن في سنها يلعبن ولم يكن لديها لعب، ولا فترات تلهو بها وتسترخي، ومما زاد في شعورها بالحزن والوحدة أنّ أخواتها زينب ورقية وأم كلثوم تزوجن وغادرن منزل أبيهنَّ، وبقيت فاطمة الصغيرة وحدها ومنذ تلك الأيام أحست بالكراهية نحو الزواج،

ولم تمض فترة طويلة حتى رأت ما جرى لأختيها رقيّة وأم كلثوم من زواج وعذاب وطلاق، وقد تزوجت رقية مرة أخرى وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة بعيداً عنهم وبقيت هناك.

كان كل شيء مثيراً بالنسبة لفاطمة، كانت تتألم لما يلقاه أبوها من عنت قريش وظلمها وكانت بحكم سنها تتبعه أينما ذهب فهي ترى وتسمع كل شيء، ولكن مداركها الصغيرة لم تكن تقوى على تفسير ما يحدث. وقد التحقت بأبيها وأمها وأختها أم كلثوم إلى شق أبي طالب وعانت مثلهم من الحصار والجوع طيلة ثلاث سنوات، وحين عادوا إلى منزلهم بعد فك الحصار، بدت فاطمة سعيدة فرحة، وهي تعود إلى مدرج طفولتها الأولى. لكن فرحتها وسعادتها، سرعان ما اجتُزّت بشكلٍ قاس ومؤلم إلى حد كبير بقيت أثاره تلازمها طيلة حياتها، فما هي إلا أيام بعد عودتهم من الشِّعب حتى لفظت أمها خديجة بنت خويلد أنفاسها الأخيرة فدخل الحزن العميق إلى روح فاطمة، وأحست بغصة ووحدة لم تألفها في حياتها أبداً من قبل. الألم والحزن، وقوة الصبر والاحتمال، هذا العمق العاطفي المستوحش، والممزوج بالشدة والحزم، هو الذي كان يعطي لشخصيّة فاطمة لونها ونكهتها الخاصة.

لقد شهدت جميع الأحداث التي مر بها أبوها (ﷺ)، كما شهدت موت أمها العزيزة جداً على قلبها، وها هي ذي تشهد بالتدريج موت أخواتها واحدة بعد واحدة، حتى توجت ألمها وحزنها القاتل، يوم ركعت بين يدي أبيها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، حيث اشتاقت له الجنة ودعاه الخالق ليكون في جواره. وكم كانت فاجعتها كبيرة، وكم كان حزنها وحشياً و قاتلاً للروح.

فاطمة الزهراء هي الوحيدة من بين بنات الرسول (ﷺ) التي لم تتزوج قبل ظهور الدعوة. وقد لعب رفضها للزواج منذ فجر طفولتها، وتتابع وتسارع الأحداث التي أثقلت وعيها وإدراكها، وشغلت كل تفكيرها، وانصرافها التام بعد وفاة أمها، لتدبير شؤون المنزل وتوفر لأبيها الاطمئنان والراحة، بالإضافة لكل شحنات الحزن والألم التي ترسّخت في كيانها بشكل عميق. كل ذلك لعب دوراً كبيراً وبارزاً في طريق تفتح أنوثتها بشكل طبيعي، كما أن فاطمة (ع) الفتاة البريئة العادية، مثل كل البنات لم تعد كذلك بعد ظهور الدعوة، لقد أصبح والدها أشرف وأعظم وأقدس من ولدتهم جزيرة العرب، ومن أبرز زعمائها منذ غابر الزمان حتى اليوم. وها هي تصبح من أكرم نساء العرب وابنة رسول الله، فمن يمتلك الجرأة بعد هذا على أن يجد في نفسه الكفاءة لمصاهرة النبي في ابنته فاطمة الزهراء[142]

2 _ زواجها وحياتها :

في يثرب بلغت فاطمة الثامنة عشرة من العمر، ولم تتزوج بعد، فتقدم أقرب الناس إلى النبي، أبو بكر الصديق لخطبتها، فرده النبي برفق، وعندما تقدم إليها عمر بن الخطاب رده الرسول برفق أيضاً.

إن من هو مهيأ ليكون زوجاً لفاطمة، موجود في مكة معروف، و قريب جداً. إنه علي بن أبي طالب، أشجع الرجال وأذكاهم، وأكثرهم عزيمة، ابن عم الرسول بالقرابة، وأخوه في الإسلام، وأول من آمن بالنبي وأصغر مجاهد في الإسلام، وهو الذي وصفه الرسول (ﷺ) لابنته فاطمة بقوله :

((إنه سيد في الدنيا، إنه في الآخرة لمن الصالحين، إنه أكثر الصحابة علماً، وأفضلهم حلماً، وأولهم إسلاماً))

كان علي لا يكبر فاطمة إلا بأربع سنوات، وقد تربى في بيت النبي منذ كان صغيراً، وآمن به، ورافقه طيلة حياته. ولم يتأخر عن غزوة من غزوات الإسلام، وكان دائماً حامل الراية فيها. وقد كان علي لفاطمة دائماً بمثابة أخ وصديق، فكانت تأنس به وتعجب بشجاعته ورجولته وشهامته ورجولته، وكانت تحس دائماً بقربه منها، وتعلق بها دون أن يبوح بكلمة واحدة، فقد كان علي (ع) فقير الحال، وقد شغله الجهاد عن متابعة أمور التجارة كما فعل الشباب في سنه، وكان فقره عاملاً من عوامل ابتعاده عن الزواج، لكن الأقدار الإلهية كانت قد اختارته ليكون من بيته وذريته، ذرية النبي الباقية بعده. كان زواج النبي من عائشة إيذاناً لفاطمة بانتهاء دورها في بيت النبي، وكانت عائشة تقول : ما رأيت أفضل من فاطمة إلا أباها، كما كان رفض النبي لأبي بكر وعمر يعني إفساح المجال أمام علي ليتقدم، وحين تقدم إليها وافق النبي على زواجه من فاطمة، وحينها باع عليّ الدرع الوحيد الذي يملكه من وقعة بدر، وأشياء أخرى بأربعمائة وثمانين درهماً لنفقات الزواج وقدم صداقاً لفاطمة، وقد أمره الرسول أن يشتري بثلثها طيباً، وثلثا في المتاع. ويذكر البلاذري : ((فلما بلغ فاطمة خطبتها إلى علي بكيت. وكان جهازها فراش من جلد غنم ووسادة جلد حشوها من ليف، وسقاء ومنخل ومنشفة ورحاء، وجرتان)). وتم زواجها باحتفال بسيط قدم فيه النبي لمدعويه وعاء من التمر لا أكثر. لكن عمه حمزة أقام وليمة وأطعم فيها الناس.

وبعد الحفل أرسل النبي زوجته أم سلمة مع فاطمة إلى بيت علي وطلب من فاطمة وعلي أن يشربا من ماء، قد طلبه منهما بعد أن ذهب مساء بعد العشاء إلى بيتهما، وقرأ على الماء بعض السور من القرآن، وبعد أن شربا من الماء، توضأ منه، ونثر الباقي فوق رأسيهما وهو يقول :

((اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما)).

وسارت الحياة في بيت علي بطيئة ثقيلة، مرهقة، فقد كان علي فقير الحال، ولم يستطع أن يحمي فاطمة من الأعمال المرهقة، ولم تخل حياتهما من بعض الخلاف في البداية، لأن فاطمة كانت تشكو من قرينها الشدة، وكان والدها يواسها حين تمرض، وقد زارها يوماً وهي مريضة، فقال لها : كيف تجدينك يا بنية؟ فقالت : إني لوجعة، وإنه ليزيدني أني مالي طعام آكله. فاستعبر[143] :

((أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟))

وزارها يوماً وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى لحالها وقال لها ((تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة)).

وقد كان سلمان الفارسي (عليه السلام) يساعدها أحيانا في إدارة الرحى. ومما زاد في تعبها أن جسمها ظل ضعيفاً لا يحتمل، منذ حادثة البعير التي نخسها الحويرث بن نقيذ، فحين خرجت فاطمة مع أختها أم كلثوم من مكة إلى يثرب، تصدى لهما المشركون، وضرب الحويرث جمل فاطمة وأم كلثوم، فهو صريعاً، وسقطت الفتاتان سقطة مؤلمة على الأرض واضطرتا بعدها ان تتابعا الطريق إلى نحو المدينة سيراً على الأقدام. وقد تألم النبي كثيراً من هذه الحادثة، لم ينسها أبداً، وحين تم فتح مكة بعد عدة سنوات أعطى النبي الأمان لكل الناس، عدا بعض الأشخاص الذي أمر بقتلهم حتى ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، وكان منهم الحويرث الذي تصدى له علي بن أبي طالب وقتله.

وفي السنتين الثالثة والرابعة للهجرة، ولدت فاطمة الحسن ثم أنجبت الحسين، وكان عمر الرسول (ﷺ) آنذاك سبعاً وخمسين عاماً، وقد انشرح صدره لمقدم هذين الحفيدين، بعد مرور أكثر من سبعة عشر عاماً على وفاة خديجة، وخلال كل هذا الزمان، كان النبي قد تزوج خمس زيجات، ولم تتمكن أية واحدة منهن أن تنجب له ولداً، لهذا اعتبر الرسول الحسن والحسين من أبنائه.

وقد ذكر أنس بن مالك :

(أن النبي كان يقول لفاطمة : ادعي لي ابني _ فإذا ما جاءا إليه شمها وضمهما إلى صدره، ودعا لهما.).

ولم تكد السنة الخامسة للهجرة تمضي حتى أنجبت فاطمة بنتاً سميت زينب على اسم خالتها الراحلة، ثم أنجبت بنتاً أخرى أسمتها أم كلثوم، خالتها التي لم تزل على قيد الحياة، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة، كذا عادت عائلة النبي مرة ثانية تجتمع في ذرية علي وفاطمة. وعندما وصل المسلمين إلى ذروة قوتهم، وبدأت الجيوش تجمع لديهم وأذن الله سبحانه، فقد آن الأوان للزحف على مكة وطرد والشرك ونصر الحق، وقد خرجت فاطمة الزهراء مع أبيها وزجها، وشهدت يوم النصر الكبير والوعد الحق. في تلك الليلة الحاسمة، ظلت فاطمة مسهدة لا يعرف النوم سبيلاً إلى أجفانها وهي ترنو نحو قبر أمها خديجة، تتذكر الأيام الخوالي، وأيام طفولتها الأولى، وهي تشهد أيام المحنة وقد ولت، ودخلت مكة في الإسلام كلها.

وبعد شهرين عادت فاطمة مع أبيها وزوجها مرة أخرى إلى المدينة، وسارت الأيام متلاحقة، وهي ترعى أولادها الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم. وكان علي زوجها قد استقامت أحواله، وهو سعيد بذريته التي ستخلف بيت النبوة، خاصة وأن الرسول الكريم كان قد أنجب ذكوراً لكن أحداً منهم لم يكتب له أن يصبح شاباً فقد توفي كل منهم وهو صغير، وبذلك يكون الحسن والحسين هما من عاشا فترة طويلة من آل النبي، على الرغم من أنهما لم يعمرا.

ويذكر الشيخ محمد جواد آل الفقيه : (أنه عندما جاء أعرابي يطلب كساءً وطعاماً ومالاً من الرسول، أرسله إلى فاطمة، فأعطته عقداً لا تملك سواه فباعه فحصل على ما يريد، ثم أُعيد العقد لفاطمة، بعد أن أطعم جائعاً وكسا عرياناً، وأعتق عبداً[144])) وقد طلب الرسول من الأعرابي أن يدعو لفاطمة. فرفع ذراعيه وقال: (اللهم أنت إله ما استحدثناك، ولا إله لنا نعبده سواك، وأنت رازقنا، فاعط فاطمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.) فقال النبي لأصحابه :

((إن الله قد أعطى فاطمة ذلك، وأنا أبوها وما في العالمين مثلي، وعلي بعلها، ولولا علي ما كان لها كفوءاً أبداً، وأعطاها الحسن والحسين وما للعالمين مثلهما سيدا أسباط الأنباء، وسيدا شباب أهل الجنة))

وقال : أزيدكم ؟ فقال سلمان وعمار والمقداد _ وكانوا إلى جانبه _ نعم. قال : ((أتاني الروح الأمين وقال : إنها إذا قبضت، ودفنت يسألها الملكان في قبرها، من ربك ؟ فتقول الله ربي. من نبيك ؟ فتقول : أبي. من وليك ؟ فتقول : هذا القائم على قبري، علي بن أبي طالب. ثم قال : ألا أزيدكم من فضلها ؟ قالوا : نعم زدنا. قال : إن الله وكل بها رعيلاً من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها، وعن يمينها وعن شمالها، وهم معها في حفرتها يكثرون من الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها.)). لكن الأيام الهادئة الجميلة لم تدم طويلاً. فذات يوم جاءت فاطمة تزور أباها، فرحب بها وقبلها، وأجلسها إلى جواره، وأسر لها، أنه يحسب أن أجله قد حان، وحين بكت، هون عليها، وتابع قائلاً : (وإنك أول أهل بيتي لحوقاً بي). وبعد أيام ذكر أن الرسول (ع) يشكو اعتلالاً في صحته، وقد تلقى أغلب الناس النبأ على نحو عرضي، إذ سرعان ما سوف يبرأ النبي ويتعافى، ولكن هذا الخبر وقع على فاطمة كالصاعقة، وتذكرت ما قاله لها أبوها، فأسرعت إليه، وهي تشعر بالنار تشتعل في قلبها، والتحقت بخدمته في منزل عائشة، لكن الأمر لم يطل كثيراً، حتى فاضت روح النبي (ﷺ) وعادت إلى بارئها عام (632 م) وأصبحت فاطمة يتيمة الأبوين. وقد كانت وفاة النبي أكبر فاجعة حلت بفاطمة طيلة حياتها، وكان ما يزيدها حزناً، أن تكون الوحيدة بين جميع أخواتها التي تشهد وفاة والدها، فهي الوحيدة التي فجعت به، ولم يفجع بها، فأحست فاطمة بجبال من الحزن الثقيل ترزح فوق صدرها، تكاد تخنقها وتخمد أنفاسها، وهي تئن من الألم والفجيعة. ولم يمض على وفاة النبي يومان، حتى تمت البيعة من بعده لأبي بكر، وحين وصل الخبر إلى فاطمة، قامت تهرول إلى قبر أبيها، وجلست تبكي وتنتحب، وحين جاء أنس بن مالك، ليخفف عنها، سألته وهي في حالة من الحزن والذهول: ((كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟)) وقد منعها أبو بكر من قرية والديها (فدك) وقيل أنه رفض تسليمها إلى الزهراء حتى لا تستغل إيرادها بالدعوة لخلافة علي. فقد قام رهط كثير من الناس يتحدثون عن أفضلية علي بالولاية، فهو ابن عم الرسول، وأخوه في الإسلام، وزوج ابنته، ووالد أحفاده، وأول من دخل في الإسلام، وأول المجاهدين، وهو الذي خاض المعارك كلها ولم يتخلف عن واحدة. وقد جادلت فاطمة أبا بكر بحقها في ميراث والدها في أكثر من جلسة أمام كبار الصحابة _ حتى اضطرته في إحداها للبكاء طالباً من المسلمين إقالته من بيعته للخلافة وكان مما قالته : (حينما اختار الله نبيه، في دار أنبيائه،

ظهرت خلة النفاق، وسمل[145] جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الآفلين

وهدر فنيق[146] المبطلين، فخطر في عصيانكم، وأطلع الشيطان رأسه من مفرزه صارخاً بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللعزة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافاً وأحمسكم فألفاكم غضاباً، وأنتم الآن تزعمون لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية يبتغون ومن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون أيها المسلمون المهاجرون أأبتزّ إرث أبي ؟؟ أفي الكتاب أن ترث أباك، ولا أرث أبي ؟ (لقد جئت شيئاً فرياً[147]) فدونكم مخطوبة مرحولة تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة. وعند الساعة يخسر المبطلون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)).

وقد دخلت الزهراء رضي الله عنها في معركة علي السياسية مدافعة عن إرث أبيها وحق زوجها، لكن الناس كانوا قد بايعوا أبا بكر، ورفضوا العودة عن بيعتهم خشية الفتنة. ولم يمض وقت طويل بفاطمة، والحزن والألم والفجيعة، تنهش لحمها وعظمها فتذوي بسرعة وتتآكل أعصابها المتمزقة وكأن القدر يرفض أن يمنحها وقتاً، رحمةً بها كيلا تفجع بولديها في كربلاء وبزوجها الذي تناله يد الغدر. وتصدق نبوءة الرسول (ﷺ) فتكون الزهراء (أول أهل بيته لحوقاً به).

3 _ وفاتها :

بعد ستة أشهر فقط من وفاة النبي _ توفيت فاطمة الزهراء ترحمها الله في العام نفسه (632 م) في ريعان الشباب فكانت في الثامنة والعشرين من عمرها، وبموتها التأم شمل العائلة الكريمة في جنان الخلد، وتولى زوجها علي دفنها مع بعض صحابته وشيعته (المقداد، عمار) ليلاً وقد قال الكاتب الهندي سيد أمير علي

((إن فاطمة تمثل أشرف ما في المرأة من قداسة وإنسانية)).

الباب الثاني

الخلافة الفاطمية

الفصل الأول

الدولة الفاطمية

آ: تاريخ الدولة الفاطمية

1 _ دور التأسيس

2 _ دور القوة

3 _ دور الضعف

وليس كل من حفظ شيئاً مــن المعلومـات الدينية

وإن أكثر منـها كـانت نفسه متمددة بالــعقل،

إذاجعـل ذلك للرياء والسمعـة وسبب التكسب

والتلبس والتكبر على الدين والفضل، فأدب الدين

هو فروض التوحيد التي هي الفضائل التي جعلـها البارئ تعـالى

أصــلاً وأساساً لدين التــوحيد والحق والعدل

الإمام حمزة بن علي (س)-الرسالة 86

عند دراسة الخلافة الفاطمية فإننا نقف عند أمر لا نصادفه أثناء دراسة الدول والممالك التي ظهرت بعد ضعف الدولة العباسية. فالخلافة الفاطمية ارتكزت على دعوة شيعية دينية قبل إنشائها ككيان سياسي مستقل عن العباسيين، لذلك فإننا سنقسم هذه الدراسة إلى قسمين هما : الدولة وتاريخها وحضارتها، ثم الدعوة.

أولاً الدولة الفاطمية :

إن نجاح الإسماعيلية في تكوين دولة لهم بالمغرب حدث هام في الإسلام غير من نظمه الشيء الكثير، فإلى هذا الوقت كان الأمير المستقل عن الخلافة العباسية لا يستطيع أن يدعي ذا اللقب، لأن العقلية الإسلامية لم تكن تقبل تعدد الخلفاء. وحفظاً لهيبة الخلافة، وحتى لا تتعطل الأحكام الشرعية، لما لصاحب الخلافة من سلطة دينية وشرعية، لذلك سمي الأمير المستقل بالأمير المسؤول، أي أنه خرج عن طاعة الخليفة العباسي واستأثر بالإقليم لنفسه. فيقلده الخليفة تقليداً صورياً على كره منه. لذلك نجد الأمراء الأمويين الذين التجؤوا إلى الأندلس، وكونوا فيها إمارة إنارة مستقلة بعد سقوط دولتهم في دمشق على يد العباسيين، ومع عداوتهم الشديدة للعباسيين لم يأخذوا لقب خليفة، وتسموا بالأمراء أو أبناء الخلائف، ولكن الفاطميين منذ عبيد الله، خرجوا على هذه القاعدة وتلقبوا بالخلفاء، لاعتقادهم أن الإمامة لا تخرج من أولاد علي، وإن خرجت فبظلم. فكان اتخاذ عبيد الله لقب الخليفة، فاتحة لظهور خلافات أخرى، ففي الأندلس أعلن بنو أمية الخلافة لعبد الرحمن في سنة (317 هـ / 929م) الذي تلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين. وكذلك كان تعددها سبباً في جعل الفقهاء من السنة يقدرون إمكان عقد بيعة لأكثر من خليفة بحجة اتساع رقعة الإسلام، ورغم ذلك فإن خلافة الفاطميين لم تكن تؤمن برأي فقهاء السنة في إمكان تعدد الخلفاء، وأن طاعة المسلمين تكون جزئية وهي ما عبروا عنه بالولاية. ففي اعتقادهم أن خلافتهم وحدها هي التي يجب أن تكون لها الولاية في ديار الإسلام. فالولاية فرض من فروض الدين على المسلمين، وهي أولى دعائمه.

وكان لا بد للخلفاء الفاطميين من أن يخضعوا جميع المسلمين لخلافتهم، ومن أجل ذلك عملوا على التوسع ناحية الغرب متوغلين في أملاك الأمويين، وشرقاً في أملاك العباسيين، ورغم أن الخلفاء الفاطميين لم ينسوا العداء الذي كان بين بني هاشم (بيت الرسول وعلي) وبين بني أمية (أمية، وأبو سفيان) وهو عداء قديم متأصل منذ أيام الجاهلية بين البيتين حول سدنة الكعبة وسقاية الحجاج، وأمور الزعامة والتجارة. فإنهم لم يستعجلوا القضاء على أمويين الأندلس، وذلك بسبب كون الأندلس رقعة صغيرة محدودة من ديار الإسلام، إضافة إلى أنه يفصلها البحر المتوسط عن بقية أممه الكثيرة، وكما أن أمويي الأندلس كانوا نشيطين في قتال النصارى ومحاربتهم، فلم يكن يخاف على المسلمين فيها. وبالرغم من هذا وذاك، فإن الفاطميين قد غزوا أجزاء كثيرة من أملاك الأمويين بالمغرب، واستطاعوا ان يستولوا[148] عليها، فقد وجه الفاطميون جل همهم، ومعظم قوتهم نحو العباسيين الذين كانوا على قرابتهم ببني علي _ أشد عداوة من الأمويين _ قد لاقوا منهم أشد أنواع العذاب، ولضعف العباسيين مما جرأ أعداء الإسلام من اليونان والروم أن يصولوا ويجولوا في أراضي الشام وبلاد الجزيرة العربية، لذلك كان لابد من خلافة فتية قوية في الشرق تقف في وجه الأعداء وتدافع عن ديار الإسلام. ويظهر ويؤكد عزم الفاطميين على سحق العباسيين ما قاله المهدي (عبيد الله) : ((لنملكن أنا وولدي ولد العباس، ولتدوسن خيولي بطونهم))[149] وكان الفاطميون يقدرون عدم إمكان تحقيق الأماني في القضاء على العباسيين ووراثتهم في دار الإسلام. ببقاتهم في إفريقيا (المغرب) ذلك المكان البعيد المنعزل. لذلك وكخطوة أولى نحو تحقيق طموحاتهم وأهدافهم. وضعوا نصب أعينهم غزو مصر _ بعد أن أنشؤوا دولتهم في المغرب وحصنوها _ إذ لم يغب عن بالهم أن فتح مصر معناه فتح بلاد الشام والسيطرة على الحجاز وأنها طريق العراق، بالإضافة إلى أن غناها وثروتها يساعدهم في تحقيق أهدافهم. وغير معلوم قصد الفاطميين من فتح مصر، هل هو للبقاء فيها، أم اتخاذها طريقاً لمشروعاتهم ضد العباسيين. لكن الواضح والذي لا نزاع فيه أنهم أرادوا أن يعودوا إلى المشرق أقوياء بعد أن غادروه ضعفاء ومشردين.

لذلك أرسل المهدي (عبيد الله بن محمد) أول الخلفاء الفاطميين حملات قوية إلى مصر بقيادة ولي عهده أبي القاسم محمد على دفعتين كانت الأولى في سنة (301 هـ/ 913 م) استطاعت ان تملك الإسكندرية والفيوم وبعض قرى الصعيد. والثانية كانت في سنة (302 هـ / 914 م) ولكن قواد العباسيين صدوهم، إذ كانوا من الترك الأقوياء، ومنهم مؤنس الخادم الذي عرف

بالفحل، ومحمد بن طفج الملقب بالإخشيد أو الملك، الذي كون له في مصر دولة استيلاء قوية. وقدرت عساكره بأربعمائة ألف مقاتل.

وبعد موت المهدي سنة (322 هـ / 934 م) تسلم ابنه أبو القاسم محمد الذي تلقب بالقائم، أرسل حملة رابعة على مصر صدها الإخشيد وهزمها وبعد ذلك تمردت القبائل العربية، بتحريض من الأمويين في الأندلس فشغلتهم ثوراتهم معظم أيام القائم من (322 هـ / 934 م) واستمرت حتى (334 هـ / 946 م)، وابنه المنصور من بعده (334 . 341 هـ / 946 . 953 م) وكاد ملك الفاطميين ينهار في المغرب. ولم يتبق لهم فيه إلا مدينة المهدي التي أنشأها المهدي في أول خلافته سنة (303 هـ / 915 م). لذلك تأخرت محاولة فتح مصر إلى عهد المعز لدين الله الفاطمي، الخليفة الفاطمي الرابع الذي تولى الخلافة منذ (341 هـ / 953 م) حينما أرسل قائده جوهر بن عبد الله الكاتب الرومي الصقلي _ إذ أصله من صقلية _ بجيش بلغ أكثر من مائة ألف فارس في ربيع الأول (358 هـ / 969 م) وهذا العدد لم تر مصر له مثيلاً منذ عهد الاسكندر الأكبر و قال الشاعر المعروف محمد بن هانئ في رحيل جوهر قصيدة مشهورة مطلعها :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع   وقد راعني يوم من الحشر أروع[150]

ولم يكن المصريون سعداء في ظل الحكم العباسي، وكانوا يرغبون في مجيء الفاطميين بسبب الفقر والجوع الذي ساد في مصر. وكان جند العباسيين الترك يتحاربون فيما بينهم فقتل خلق كثيرون ونهبت الأسواق والبيوت، وضاعت أموال الناس _ وكما أن شيعة المعز بمصر وجدوا الفرصة سانحة فطلبوا منه إنقاذ العسكر وقالوا له : ((إذا زال الحجر الأسود، ملك مولانا المعز الدنيا كلها)) ويقصدون بالحجر الأسود كافور[151] الخصي الأسود الذي توصل إلى السيطرة في مصر بعد الإخشيد. ولما وصل جيش المعز إلى نواحي الإسكندرية، أرسل المصريون على جوهر وفداً منهم باتفاق جميع طبقاتهم، كالقائد والكاتب والقاضي والتاجر المسلم والقبطي. فكتب لهم جوهر كتاباً طويلاً التزم فيه أن يحترم ملتهم إذ الإسلام شريعة واحد متبعة، وأن يعتني بأحوال بلادهم الاقتصادية، وأن يجاهد الروم الذين غزوا بلاد الشام والجزيرة، وقد سهل المصريون لجوهر

التغلب على بقايا الإخشيدية والكافورية. حيث اضطروا إلى الهروب إلى الشام. وعندما دخل جوهر الفسطاط عاصمة البلاد بطبوله وبنوده، نشر كل من كان عنده بند من المصريين بنداً عليه اسم المعز لدين الله. وبذلك استطاع جوهر أن يأخذ مصر دون مقاومة وانتهى الحكم العباسي في مصر بعد ان استمر حوالي 225 سنة. وقال ابن هانئ الشاعر في هذه المناسبة :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبني العباس قد قضي الأمر

وفي سنة (358 هـ / 969 م) في شعبان _ حزيران بات المصريون في أمان، فلما أصبحوا وحضروا للتهنئة في المكان الذي نزل فيه جوهر وجنوده. وجدوا أنه وضع أساس عاصمة جديدة بما فيها الجامع والقصر. وأنه حفر الخنادق وأدار السور حولها. اختصت كل قبيلة من القبائل التي جاءت معه حارة أو مكان عرف باسمها، وهذه المدينة التي أنشات خلف الفسطاط بجوار جبل المقطم، سماها جوهر[152] أول الأمر المنصورية، ربما تقرباً إلى سيده وخليفته المعز لدين الله وبإحياء ذكرى والده المنصور. وبعد ذلك سميت بالقاهرة المعزية[153] تفاؤلاً بأنها ستقهر العباس. قد بنيت عند ملتقى فروع النيل وقنواته، وكانت العاصمة الرابعة في مصر منذ الفتح العربي بعد فسطاط، والعسكر والقطائع. وكلها تقع عند رأس الدلتا. وبعد سنة أي في (24 جمادى الأولى 359 هـ / 4 نيسان 970 م) وضع حجر الأساس للجامع الأزهر[154] وسمي كذلك نسبة لفاطمة الزهراء. وكان مركزاً لدعوة الفاطميين، وما يزال حتى يومنا هذا أقدم جامعة في العالم.

Image

ولقد أصبحت القاهرة قلعة تقهر أعداءهم، فقد تمكنت من صد اعتداء قبائل عربية كثيرة خرجت من البحرين، بتحريض من العباسيين الذين هالهم انتصار الفاطميين في مصر. وزحفهم إلى الشام. وكان بالبحرين عرب أول أمرهم قد اعتنقوا مذهب الإسماعيلية، على يد دعاته، وعلى

الأخص حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط
حوالي (276 هـ / 889 م)

بحيث عرفوا بالقرامطة نسبة إليه. ولما خلفه أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي بالدعوة تمكن من إنشاء دولة لأتباعه، وبنى مدينة عرفت بالأحساء في (286 هـ / 899 م)، وغزا (هَجَر) مدينة بالقرب منها، بالقرب من البصرة وعُمان، وهدد العباسيين وغزا الشام، ربما لتسهيل خروج المهدي إلى المغرب، وبعد تسلم ابنه أبي طاهر سليمان عمل أشياء تؤكد إخلاصه هو الآخر للفاطميين بعد تكوين خلافتهم بالمغرب، فسار نحو الكوفة، وتوغل في العراق، حتى حدود بغداد، ووصل الشام حتى حدود مصر، ثم تمكن الفاطميون من القضاء على القرامطة الذين تحولوا عن الفاطميين، وقاتلوهم، واشتد خطرهم مما جعل المعز يحاربهم، ويقاتل زعيمهم (الأعصم).

Image

واستطاع أن يهزمه، فانسحبوا إلى الشام مما جعل مصر خالصة للفاطميين، فاستقرت خلافتهم، وثبتت أركانها. واستمر حكمهم، وعملوا على تقويته. وشرعوا بتوسيع دولتهم فاستولوا على جنوب سورية في أيام العزيز بالله، بقيادة جعفر بن فلاح. واستمر التوسع حتى أصبح نفوذهم يمتد من المحيط الأطلسي إلى سوريا الوسطى. وفي سنة (406 هـ / 1015 م) وفي خلافة الحاكم بأمر الله، دخل الفاطميون حلب وغربي العراق. وبعد تسلم الخليفة المستنصر للحكم سنة (487 هـ / 1035 م) حتى سنة (546 هـ / 1094 م) بدأ انقسام الفاطميين على من يخلفه. وكانت نهاية الأسرة الفاطمية سنة (567 هـ / 1115 م) عندما بدأ الوزراء يتحكمون بالخليفة وصار الخليفة مظهراً لا يحكم.

Image

تاريخ الدولة الفاطمية

لفهم تاريخ الدولة الفاطمية يجب تقسيم تاريخها لأدوار ومراحل ثلاث رئيسية. هي:

1 ـ دور التأسيس : وأبرز خلفائه.

2 ـ دور القوة : وأبرز خلفائه، وآخرهم الحاكم بأمر الله وقد أفردت له فصلاً خاصاً لأهميته باعتباره مؤسس مذهب التوحيد.

3 ـ دور الضعف : الذي تميز بضعف الخلفاء وسيطرة الوزراء على الخلفاء، مما جعله دور نهاية الدولة الفاطمية.

أولاً : دور التأسيس

وبدأ هذا الدور من دخول المهدي إلى المغرب عام (297 هـ / 910 م)، واستمر حتى عام (341 هـ / 953 م) وكان من أبرز خلفاء هذا الدور : المهدي، وافرد له فصل باعتباره مؤسس الخلافة الفاطمية.

1 _ المهدي بالله الفاطمي (ت 322 هـ / 934 م)[155]

المهدي عند الإسماعيلية هو: ((الذي يهدي إلى الأمر الخفي، وهو القائم بالحق عند حلول الوقت، بعد انقضاء عهد غيبة الأئمة، بعد استيلاء أهل الظلم والعسف والجور على مقاليد الأمور، وهو حين يخرج، يخرج مغضبا تؤيده ملائكة الرحمن، وتسير أمامه، وتواكبه أينما تحرك، وعلى رأسها جبرائيل (عليه السلام) على فرس أبلق، بسراج من نور،

وعليه سُرج من نور، وعلى جبرائيل تجافيف من نور، معفر من حديد، وبين يديه حربة من نور... في سنان الحربة النصر وفي وسطها الرعب، وفي زجها الظفر، لذلك لا تتولى للمهدي راية إلى بلد إلا قدمه الرعب بين

Image

يديه مسيرة شهر، ولا يهدي بالدلالة أهل بلد إلا وهداهم الله، ومن أبى ذلك رماهم بحجارة الكبريت، يردهم أجمعين إلى هداه، يستسلمون بأجمعهم إليه، ويهدم البيع، ويهزم اليهود،

ويقتل الخنزير وتنقضي دعوة الشرك، وتظهر دعوة الفرج، وتقوم الدعوة بالدين لله خالصاً (وآنئذٍ) يشرب الثور والسبع من حوض واحد، ويخلف الراعي الذئب على غنمه))[156]

والمهدي يجب أن يكون من قريش، ثم من بني هاشم، ثم من بني عبد المطلب من ولد الحسين بن علي، لأن الحسين من ولد فاطمة الزهراء بنت الرسول (ﷺ) واسم المهدي عبد الله مثل اسم أبي الرسول (ﷺ). ففي سنة (909 م) تمت ولادة الخلافة الفاطمية وهي أول وأعظم خلافة شيعية في التاريخ، وحمل أول خلفاء هذه الدولة لقب (المهدي) لكنه كان مهدياً من حيث الاسم لا من حيث التصور (الطوباوي) انتصر بفعل عمل دعوي طويل وجيد التنظيم ثم بفضل استخدام القوة المسلحة البشرية لا بفضل الملائكة، وتأييد السماء.

وكثر الخلاف حول أصل المهدي ونسبه، وغالبية المصادر العباسية تنفي عنه النسب العلوي الفاطمي. وتعزوه حيناً إلى الفرس المجوس، وحيناً إلى اليهود. وتتفق جميع المصادر أن اسمه عندما صار خليفة عبيد الله. إن مسألة الطعن في نسب المهدي الفاطمي مسألة مرفوضة وذلك أن الكّتاب في العراق أخذوا بها مسايرة للدولة العباسية التي عجزت عن التصدي للفاطميين بقوة السلاح، فلجأت إلى وسيلة الطعن بالنسب، واستغلت الثغرة التي قامت بسبب لجوء أبناء إسماعيل بن جعفر الصادق إلى التكتم والتخفي، نتيجة للملاحقة العباسية.

ومـع هذا كلـه فهل كـان اسمه بعد استلامه للخلافـة عبيد اللـه ؟

إن اسم عبيد الله هو مصغر عبد الله، ومن المعلوم أن في التصغير تحقيراً، وقد أرادت السلطات العباسية أن تطعن بنسب المهدي فسعت إلى تحقيره بتصغير اسمه، ذلك أن اسم المهدي في المصادر الإسماعيلية وعلى الصنوج والنقود هو عبد الله، وعثر في القيروان على دينارين ذهبيين، من دنانير المهدي، كانا قد ضربا فيها.

الأول من سنة (302 هـ / 914 م)، Image

والثاني سنة (304 هـ / 916 م).

وكان نقشهما كما يلي :

وبعد تسلم المهدي زمام الأمور من أبي عبد الله الداعي الشيعي، وما أن أصبح أميراً للمؤمنين، حتى أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه، حسب قاعدة الإمامة عند الإسماعيليين، ذلك أن الإمام وحده هو صاحب الحق في التشريع، وقام المهدي بجمع الدعاة، وعمل على إعادة تنظيم الدعوة، وجهد في سبيل إيجاد جيل جديد من الدعاة، ولقد أصاب هذا السبيل نجاحاً كبيراً. وأصبحت الدعوة الإسماعيلية دعوة علنية تدعمها سلطة دولة فتية، ويروى أن المهدي كان قد جلب معه من المشرق كمية من الكتب الخاصة ولعلها تتضمن النتاج الفكري الإسماعيلي، وهذا النتاج هو الذي اتخذ أساساً في العمل الدعوي الجديد، وعليه فقد بقيت الأفكار الظاهرية على حالها وكذلك التأويل الباطني.

وكنتيجة لإعادة تنظيم الدعوة، والمجاهرة بها وبأفكارها، مع ممارسة المهدي للسلطة ومباشرته الحكم بنفسه حدثة ردات فعل إسماعيلية داخلية وخارجية، والأولى نجمت عن حصر المهدي للسلطات، وعمله على إقامة دولة مركزية على غرار الدولة العباسية، وكان هذا حرماناً من الغنائم للذين تحملوا أعباء الدعوة مثل أبي عبد الله الداعي وسواه، ثم كان ذلك في انتكاسة عقائدية وتراجع، ذلك أن إقامة سلطة مركزية شديدة شيءٌ والتصور الوهمي والخيالي الفضفاض لدولة المهدي شيء آخر. ووقف المهدي في القضاء على المعارضة الداخلية، وقام بتصفية دموية لأبي عبد الله الشيعي ومن سانده، وجاء نجاحه نتيجة بذله الأموال وشرائه زعماء قبيلة كتامة.

وكانت المعارضة من الخارج قد بدأت في الأسبوع الأول لنزول المهدي برقادة، حيث كانت قصور الأغالبة على مقربة من القيروان فعندما حلت الجمعة، أمر المهدي الخطيب أن يذكره في الخطبة فيقول : (عبد الله الإمام المهدي بالله، أمير المؤمنين)، فلما صعد الخطيب المنبر وانتهى من ذكر المهدي، قام أحد رجالات المالكية، وعارض ذلك، وأيده علماء القيروان وسكانها، ثم اشتدت المواجهة وتحولت إلى فتنة دامية داخل القيروان، ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من أهل القيروان، وكاد الحال أن يتحول إلى ثورة في القيروان ضد الدولة الجديدة، وقبائل كتامة، وهنا أدرك

المهدي أنه لا يستطيع الاستمرار في الحكم من القيروان لأسباب دينية واجتماعية وسياسية. وفي سنة (300 هـ / 913 م)[157] خرج المهدي بنفسه، يرتاد لنفسه موقعاً أحصن من موقع المهدية، وهو جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند، فتأمله فأعجب به، فأمر ببناء المدينة، فكانت مدينة بغاية الحصانة والإحكام، وذلك أنه أراد أن يمتلك حصناً بحرياً يعتصم به هو، ثم من خلفه حيث أنه أدرك أن شعوب تونس والمغرب لن يمنحوه الولاء صرفاً، ولن يدعوه بينهم إذا ما استطاعوا ذلك[158]

وسمى المهدي مدينته الجديدة باسم المهدية، وهذه حالة شاذة في تاريخ الإسلام، لكن رغم ذلك فإن هذه المدينة لم تخطط وتشيد كمدينة عقائدية مثالية، بل أريد منها ان تكون قوية حصينة، ونظراً لضيق رقعة الجزيرة، قام المهدي بردم جزء من البحر، كما قام بنقر ميناء لها في الصخر يتسع لحوالي ثلاثين سفينة، وأقيم على مدخل هذا المرسى برجان عظيمان للحراسة وصل بينهما بسلاسل من حديد لتحول دون طرق السفن الغربية إلى الميناء، ونقر الأهراءات[159] الكبيرة لخزن الحبوب والمؤن، ونظراً لندرة المياه في الجزيرة فقد أكثر المهدي من بناء خزانات المياه التي تملا بمياه الأمطار، وبنى المهدي لنفسه قصراً وآخر لولي عهده، كما بنى مسجداً كبيراً، ويختلف بناء هذا المسجد عن غيره من مساجد المشرق والمغرب، حيث أن له بوابة كبيرة، قام على مقربة منها برجان غاية في الفخامة وقد جعل هذا الحال واجهة المسجد أشبه بواجهة إحدى القلاع، وجاءت الأبراج مجوفة، حيث كانت تملأ بمياه الأمطار.

وكان الإمام يدخل إلى المسجد من بوابته الكبيرة، ذلك أن حرمه لم يكن فيه مقصورة لها دهليز خاص متصل بقصر الخليفة، كما كانت العادة منذ أيام معاوية، والممر الذي كان يصل البوابة بالحرم، كان مسقوفاً، وذلك مرتبط بأمر المظلة، وما يتعلق بها عند الفاطميين، فمن المشهور أن النبي (ﷺ) كان إذا تحرك تظلله غمامة، كذلك عندما قامت الخلافة الفاطمية اتخذ الخلفاء لأنفسهم مظلة كانت تحمل فوق رؤوسهم، حيث أنه كان من غير اللائق، أو من المحال حمل المظلة داخل المسجد عند دخول الخليفة المسجد.

وعندما تم بناء المهدية، انتقل المهدي إليها مع أركان دولته، ثم أمر بعد فترة أن تحول التجارة إليها، وكان في ذلك مشقة كبيرة على التجار، وعقوبة قاسية لأهل القيروان، لهذا عندما تسلم المنصور إسماعيل حفيده الخلافة، ترك المهدية، وبنى قرب القيروان (صبرة المنصورة) لإرضاء

التجار، وكسب ود أهل القيروان. وقد جعل المهدي أسواق المدينة داخل الجزيرة، وحرم على التجار المبيت في الجزيرة. فكانت بضائع التجار تبقى رهينة داخلها تمنعهم من التحريض، أو المشاركة في أية ثورة تدبر في الليل، وإذا حدث وانفجرت ثورة في النهار، كانت بوابة المدينة تغلق ويبقى التجار وبضائعهم رهائن فيها.ومن المهدية أخذ المهدي بتوجيه الدعاة إلى جميع المناطق الإسلامية في المشرق والمغرب، وكانت الدعوة الإسماعيلية قد قسمت العالم إلى مجموعة من الجزر، وأوكلت شؤون الدعوة في كل جزيرة إلى داعٍ أو أكثر، وحيث أن هدف الدولة الفاطمية الناشئة كان إزالة الخلافة العباسية أولاً قبل كل شيء. فقد نشط الدعاة بشكل متزايد في الشرق، وحققوا بعض النجاحات. وبعدما حقق جيش الدعاة نجاحاتهم، جهز المهدي جيوشه وأرسل أكثر من حملة ضد مصر، وكان نصيب هذه الحملات الإخفاق. ومات المهدي سنة (322 هـ / 934 م) دون أن يحقق حلمه في فتح مصر والاستيلاء على المشرق، لكن رغم هذا فإن ما أرساه من قواعد للخلافة الفاطمية كان متيناً، لهذا عندما تعرضت هذه الخلافة بعده إلى أزمات كبرى، نجت بفضل ما دبره، خاصة ببنائه المهدية التي ما تزال قائمة تشهد له بالخلود.

2 _ القائم[160]

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله المهدي، تسلم بعد والده المهدي، وكان ولي عهده عندما سجن[161] المهدي في سجلماسة وكان معه، صغيراً وقتها. وبعد تسلمه وطد دعائم أمن الدولة واستطاع توسيع رقعة بلاده، فأطلق جيشه لفتح كل البلاد القريبة كجنوب إيطاليا وصقلية وبعض الجزر الإيطالية القريبة منها، لكنه لم يتمكن من القضاء على ثورة الخوارج التي قامت في عهده. تسلم الخلافة بعد موت والده المهدي سنة (322 هـ / 934 م)، ومات سنة (334 هـ / 946 م).

Image

3_ المنصور[162]

هو إسماعيل المنصور بن محمد بن عبد الله المهدي، تسلم الخلافة بعد والده القائم عام (334 هـ / 946 م) واستطاع القضاء على ثورة الخوارج، فنظم البلاد، وحسن أمورها وعمل على إنعاش موارد الدولة، وهيبتها وجيشها، فأنشأ أسطولاً بحرياً كبيراً، وزاد الاهتمام بالجيش وأسلحته وتدريباته وقد أشرف بنفسه على ذلك.

بنى مدينة قرب القيروان أسماها (صبرة المنصورة) أو كما عرفت (المنصورية) لإرضاء التجار الذين كانوا يكابدون المشقة بذهابهم إلى المهدية، وكسباً لود أهل القيروان فكانت هذه المدينة ثاني مدينة يبنيها الفاطميون، وصارت حاضرة الخلافة فاهتم بأسواقها ومساجدها، فعم الرخاء بين الناس وساد الأمن والسلام.

Image

توفي إسماعيل بن محمد المنصور عام (341 هـ / 953 م) وانتهى بوفاته دور التأسيس وبدأ دور جديد في تاريخ الدولة الفاطمية هو دور القوة.

ثانياً : دور القوة :

الدور الثاني الذي مرت به الدولة الفاطمية، وهو دور العزة والقوة والاتساع، وبدأ هذا الدور من عام (341 هـ / 953 م) واستمر حتى عام (411 هـ / 1020 م) وتعاقب على هذا الدور خلفاء ثلاثة (هم) :

1 _ المعز لدين الله

2 _ العزيز بالله.

3 _ الحاكم بأمر الله.

ونأتي على ذكرهم دون توسع، باستثناء الخليفة الثالث من هذا الدور، والسادس من الخلفاء الفاطميين الذي أفردت له فصلاً خاصاً وهو الحاكم بأمر الله، باعتباره أول إمام فاطمي يولد بمصر، ومؤسس مذهب التوحيد الذي نحن بصدده.

1 _ المعز لدين الله[163]

هو معد بن إسماعيل (المنصور بالله)، بن محمد (القائم بالله)، بن عبد الله (المهدي بالله) تسلم الحكم بعد وفاة والده عام (341 هـ / 953 م)، وكان سياسياً وإدارياً ناجحاً قسم الدولة إلى

ولايات وقرب إليه زعماء القبائل، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول، وتوسعت رقعة الدولة في عصره، فشملت إفريقيا والشام والحجاز.

وكانت مصر قبل دخول الفاطميين إليها تابعة للإخشيديين، وقد كانت الأحوال الداخلية والاقتصادية فيها مضطربة، فأخذ الخليفة المعز يعد العدة لفتح مصر. وقبل وفاة كافور الإخشيدي وجه حملة لفتحها، وبعث إلى دعاته فيها أعلاماً، وأخبرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر.

وقد أرسل المعز قائد جيشه. جوهر الصقلي إلى مصر على رأس جيش كبير، فنزل بالإسكندرية، ثم توجه نحو الدلتا، أو ما تقع فيه الفسطاط، عاصمة مصر أيام الفتح الإسلامي، واستقر هناك، وبنى فيها القاهرة، كما مر سابقاً، غادر المعز المغرب متوجهاً إلى مصر، حيث لاقى الترحيب، وبنى الدولة فيها، وتصدى للقرامطة وانتصر عليهم، وبسط سلطان الدولة على الشام و الحجاز، وهذا ما أثار لدى الدولة العباسية المخاوف، لأن استيلائهم على الشام قد يسهل لهم الاستيلاء على بغداد، مما جعل العباسيون يعملون للقضاء على محاولات الفاطميين الهادفة إلى ضم مصر من المغرب، حتى بعد استيلائهم على مصر استمر العباسيون بالتآمر، والتعاون مع القرامطة لمهاجمة الفاطميين توفي المعز لدين الله الفاطمي سنة (365 هـ / 977 م) وكان المعز قد كتب

Image

إلى المارق القرمطي يقول : ((إن الله إذا أراد أمراً قضاه، وإن قضاه أمضاه، وكان من قضائه فينا إنا خلقنا أشباحاً، وأبرزنا أرواحاً، تنتقل في الأصلاب الزكية، إلى آخر الجد الأول، والأب الأفضل سيد المرسلين وإمام النبيين أحمد ومحمد صلوات الله عليه، وعلى آله في كل نادٍ ومشهدٍ. فحسن آلائه، وبان غنائه، وأباد المشركين، وقصم الطالبين، وأظهر الحق، واستعمل الصدق، وظهر بالأحدية، ودان بالصمدية، فعندها سقطت

الأصنام وأوتي بالقرآن، وانتشر الإيمان، وبطل
السحر،

وأنقذ الإسلام، شاهداً بالحق والبرهان، فيه خبر ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم، أنبأنا عن كتب تقدمت، وصحف تنزلت، تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة ونوراً مبيناً)).

2 _ العزيز بالله[164]

اسمه نزار بن معد المعز لدين الله بن المنصور، وكنيته أبو المنصور. ولد بالمهدية سنة (334 هـ / 946 م) وتسلم الخلافة والإمامة بعد والده سنة (365 هـ / 977 م). كان شجاعاً، عالماً، كريماً، محباً للعلم والعلماء، أنشأ عدداً من المكتبات، وزودها بآلاف من المجلدات، وانشأ مدرسة عالية في الأزهر. أرسى قواعد الدولة، وشكل الوزارة على دعائم قوية، ووطد أركان الدعوة الفاطمية في كل بلاد العرب، ووصلت إلى الهند والصين وقد وصف المؤرخ المعروف المقريزي ذلك العهد بقوله : ((.... وكانت أيام العزيز كلها أعياداً وأعراساً)).

وكان من أركان الدولة آنذاك : ابن النعمان التميمي، ويعقوب بن كلس وابن عمار الذي حاول السيطرة على الحاكم بأمر الله بعد تسلمه الخلافة وهو صغير إثر موت والده،

Image

ومن الأركان أيضاً علي بن العداس وأبو الفضل جعفر بن الفرات، وعيسى بن نسطور وبرجوان الذي تكبر وتجبر مما دفع بالحاكم للتخلص منه. أحاط العزيز بالله الخلافة بالأبهة والعظمة، وبنى القصور التي طليت جدرانها بالذهب، وزينت بالأحجار الكريمة. خرج عليه القرامطة فرماهم بقائده جوهر الصقلي فاتح مصر، فزحف عليهم إلى فلسطين، وحاصر الرملة وتقدم منها إلى دمشق، ولما طال

حصار الرملة، توجه العزيز إليها فسقطت
أمامه،

وأسر صاحبها فتكين، وقاده أسيراً إلى القاهرة، وأطاعه عضد الدولة البويهي حاكم شيراز ببلاد اليمن. وقد مدحه شاغل الدنيا بشعره. الشاعر المتنبي بقصائد من غرر الشعر قبل أن يتولى الخلافة[165] وقد تزوج العزيز بالله بامرأة رومية نصرانية، أنجبت له بنتاً سميت (ست الملك) أو (ست الملوك). وكان لأخوالها أثر سيء على الحكم فيما بعد. كما كان للعزيز من زوجته العربية (السيدة العزيزية) ابنٌ هو المنصور أبو علي ولقب بعد تسلمه الخلافة والإمامة بالحاكم بأمر الله. دام حكم العزيز واحداً وثلاثين سنة، وتوفي وله من العمر اثنان وأربعون عاماً، وكانت وفاته يوم الثلاثاء، السابع والعشرين من رمضان سنة (386 هـ / 996 م)

ثالثاً _ دور الضعف :

بدأ هذا الدور من عام (411 هـ / 1020 م) وبدأ الضعف يظهر في أواخر عهد الحاكم بأمر الله آخر خلفاء دور القوة وبرزت عوامل الضعف بعد تسلم الظاهر، حيث تسلم السلطة قواد ووزراء أقوياء أخذوا يتصرفون بالحكم والخليفة كما يريدون بينما كان الخلفاء صغاراً ضعفاء لا يملكون من أمرهم شيئاً وقد انغمسوا في الملذات والترف وقد أنفقوا أموال خزائن الدولة على اللهو، فانتشرت المجاعات بين الناس ومات الكثير جوعاً وانتشر الفساد والتسول والسرقة، حتى أن الخليفة المستنصر نفسه صار يأخذ راتباً (200 دينار) من بيت المال.

عم الفساد والاضطراب والجوع والسرقة والخلفاء والوزراء والقواد لاهون عابثون، وكان كل ذلك يمكن إصلاحه وسهلاً إذا ما قورن بالخطر الذي بدأ يهدد أرض الإسلام، فقد كان خطر الصليبيين يهدد مصر ويزداد يوماً بعد يوم، وكان لابد من التيقظ من الغفلة قبل وقوع الكارثة ولكن التيقظ متأخراً ماذا قد ينفع فالصليبيين صاروا على مشارف مصر يهددون بدخولهم وهدم وحرق وقتل كل حضارة.

ومن خلفاء هذا الدور :

1 _ أبو معد علي بن المنصور الملقب بالظاهر : وقد تسلم الخلافة بعد والده الحاكم بأمر الله، وكان والده قد حرمه البيعة بالخلافة لما عرفه عنه من ظلم وأوصى بالخلافة لابن عمه عبد الرحيم، ولكن بعد غيبة الحاكم استطاع الظاهر وبمساعدة عمته (ست الملك) أن يحصل على الخلافة، وقد نقم على أبناء مذهب التوحيد، وانقلب على الدعوة التي رعاها والده وحماها وعمل على انتشارها، فنكل الظاهر بالموحدين في مصر وأرغمهم على الرجوع إلى الإسماعيلية، وأوعز

لعامله في دمشق صالح بن مرداس الكندي أن يقتل أتباع الدعوة التوحيدية دون شفقة أو رحمة، فنكل بهم ست سنوات وبضعة أشهر وهذه المحنة تعرف في التاريخ عند الموحدين (محنة إنطاكية) وجاء بعد هذا الخليفة الظالم ستة خلفاء فاطميون هم :

1 _ أبو تميم معد الملقب بالمستنصر بالله الفاطمي.

2 _ أبو القاسم الملقب بالمستعلي بالله الفاطمي.

3 _ أبو القاسم الطيب الملقب بالآمر بأحكام الله الفاطمي.

4 _ أبو عبد المجيد الملقب بالحافظ لدين الله الفاطمي.

5 _ أبو القاسم عيسى الملقب بالفائز.

6 _ أبو محمد الملقب بالعاضد، وهو آخر الخلفاء الفاطميين.

واستمر الحال بعد غيبة الحاكم على الضعف والتدهور، كل خليفة يتسلم من خليفة ضعيف فيكون أكثر ضعفاً. فمرت الدولة بمحن كثيرة حتى استلم الوزارة القائد الزنكي (شيركوه) في عهد العاضد، ومن ثم خلفه صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على الخلافة الفاطمية بمصر وكان ذلك عام (567 هـ / 1180 م) بعد أن عاشت (275) سنة تشع نوراً وحضارة على العالم وأخرجت مذهباً توحيدياً غاية بالإيمان والعقلانية.

الفصل الثاني

الحضارة العربية الفاطمة

Image

ازدهرت الحضارة العربية في العصر الفاطمي ازدهاراً واسعاً تشهد عليه آثارها الماثلة إلى اليوم، والتي تجلت بانتشار العلم انتشاراً كبيراً، وبكثرة العمران والمساجد والجوامع إذ بلغ عدد المساجد والجوامع في عهد الحاكم بأمر الله ستة وثلاثين ألفاً في أرجاء مصر. وتنظيم أجهزة الدولة ودواوينها، وتشجيع العلماء وتوافر الثروات، وقد تمتع الخليفة الفاطمي بسلطتين زمنية ودينية.

وكان لخلفاء دور التأسيس والقوة الكلمة المطلقة وقد أحاطوا أنفسهم بهالة من التقديس والأبهة والعظمة عدا الخليفة الحاكم بأمر الله (س) الذي كان زاهداً متقشفاً مترفعاً عن الدنايا، يعاقب كل من يغالي فيه. وكان لابد للخليفة من تعيين ولي عهده قبل وفاته، ولما تطرق الوهن والضعف إلى الخلافة الفاطمية، أصبح اختيار الخليفة بيد القادة وغيرهم من كبار رجال الدولة وكان معظمهم من غير العرب[166]

وكانت الوزارة في عهد الخلفاء الفاطميين الأول وزارة التنفيذ، أي تنفيذ أوامر الخليفة، ولا تستطيع مخالفته، لأن الخلفاء كانوا على جانب من القوة بحيث تمكنوا من إدارة الدولة بأنفسهم، ولكن في عهد الخلفاء الضعفاء أصبحت وزارة تفويض حيث أصبح في أيدي الوزراء أمر تعيين الخلفاء أو عزلهم. واهتم الفاطميون بالكتابة، فصارت تلي الوزارة بالرتبة، وكان الكتاب يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الإطلاع والمعرفة في الأدب والفلسفة والعلوم المختلفة، واهتم الخلفاء بالدواوين، فجعلوا لكل ولاية ديواناً خاصاً بها، مثل ديوان الشام، وديوان الحجاز، وقد قسم الفاطميون دولتهم إلى ولايات كان بعضها يتبع مباشرة للخليفة، وبعضها الآخر يتمتع بنصيب وافر من الاستقلال الذاتي مع التبعية الاسمية للخليفة الفاطمية، مثل أفريقية. وعني الفاطميون بنظام البريد الذي ارتقى وتطور في عصرهم ارتقاء كبيراً، حيث وضع له نظام يكفل ارتباط جميع أنحاء الدولة بشبكة خطوط من البريد البري والجوي عن طريق الحمام الزاجل الذي اعتبر وسيلة لنقل الرسائل، وكان له مكانة بارزة حتى أنهم قد أفردوا له ديواناً خاصاً، وعملوا قوائم بأنساب الحمام كما كان العرب قديماً يفعلون في معرفة أنساب الخيل.

وكان للقضاء مكانة مرموقة لدى الفاطميين، فقد اهتموا به، واكتسب القضاة خبرة واسعة بسبب اشتغالهم بالفقه الإسلامي وكانوا يتمتعون بسمعة حسنة، خاصة في فترة الحكم الأولى للخلفاء الفاطميين.

وارتقى نظام الشرطة والحسبة في العهد الفاطمي ارتقاء لم يعرف له مثيل في الدول السابقة حي كانوا يختارون المحتسب[167] من وجوه المسلمين وكان له نواب ومساعدون يطوفون في الأسواق على أرباب الحرف والتجارة، يراقبون شؤونهم وأعمالهم، والأسعار المحددة وعني الفاطميون بالجيش عناية كبيرة، فكان الجيش يتألف من الأمراء وطوائف الجند، وهي تتألف من عناصر مختلفة. وفيما يتعلق بتنظيمات الجيش فقد اتبع الفاطميون ما كان معروفاً لدى العرب من قبل، أما الأسطول فقد اهتموا به لحماية سواحل البلاد منذ أن كانوا في المغرب وبعد انتقالهم إلى مصر أسسوا دوراً لصناعة السفن خاصة في دمياط وبلغ عدد ما أنشأ المعز لدين الله من السفن (ستمائة سفينة) وكان للأسطول قواعد بحرية، أشهرها (عيذاب) على البحر الأحمر.

وفي المجال الفكري اهتم الفاطميون بالعلم والأدب وكانت مراكز الثقافة في عصرهم تتركز في المساجد والقصور والمكتبات ودور العلم.فالمسجد إلى جانب كونه مكاناً للعبادة، فهو مركزاً لنشر الثقافة ولإدارة شؤون الدولة واتخذ الخلفاء من قصورهم مراكز لنشر الثقافة مما ألحقوا بها من مكتبات فكانت مكتبة القصر الشرقي في القاهرة التي تعد من عجائب الدنيا التي تحتوي مائة وعشرين ألف مجلد.

وكذلك الطب كان متقدماً جداً في عصرهم، وقد كان يدرس نظرياً وعملياً بالبيمارستان[168] وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وبخاصة السريانية واليونانية لأنهما كانتا لغة العلوم آنذاك، إلى جانب إلمامه الكامل بالطب والأدوية. واهتم الفاطميون بالزراعة وكانت الأراضي التي تقطع إلى الأمراء الذين يدفعون عنها الخراج للدولة، كما أنهم اهتموا بنظام الري للاستفادة في صناعة الترع، والمحافظة على الجسور، وقياس منسوب مياه النيل وبخاصة زمن الفيضان، لأن رخاء مصر يرتبط بمنسوب ماء النيل ارتباطاً وثيقاً.

كما تقدمت الصناعة كصناعة السفن والورق والحفر على الخشب وصناعة الزيت، وقصب السكر. وكانت التجارة على نوعين : داخلية بين أقاليم الدولة ومدنها، وخارجية مع الدول المجاورة،

وقد اهتموا بالطرق التجارية البرية والبحرية، وكان النيل من أهم طرق المواصلات المائية، ومن أشهر المراكز التجارية (القرما، دمياط، عيذاب) وكانت الأمور المالية منظمة تنظيماً دقيقاً، ومن أهم موارد بيت المال الخراج[169] والمكوس[170] المفروضة على التجارة والصناعة، وكانت العملة المستعملة في الدولة : هي الدينار الذهبي والدرهم الفضي. ونتيجة كثرة الأموال في العهد الفاطمي والرخاء، وميل الخلفاء إلى الإمعان في الترف[171]،

ازداد الاهتمام بالفنون، فقد بنى الفاطميون مدناً جميلة على الطراز الإسلامي المعماري مثل ((المهدية، المنصورية، القاهرة)) وبنوا المساجد على الطراز المألوف، وأشهر مسجد هو الأزهر، الذي استمر بناؤه سنتين. وانتشر في عهد الحاكم رسم[172] الآدميين، والطيور، والحيوانات والنقش على صواني النحاس، وعلى الأحجار وابتكر الخطاطون الفاطميون خطاً خاصاً بهم وهو فرع من الكوفي، دعي بالمورق، أو الخط الكوفي الفاطمي[173] وأنشأ الفاطميون ديوان العلم، وتضمن كتباً ومخطوطات كثيرة، وكان يجتمع فيه الأدباء والعلماء والفلاسفة معاً.

وكان المجتمع في العصر الفاطمي يتألف من طبقات اجتماعية متعددة، وقد تمتعت المرأة بمكانة رفيعة، حتى أن بعضهن أثرن في الحياة السياسية مثل : (ست الملك) شقيقة الخليفة الحاكم بأمر الله، وكذلك هناك والدة الخليفة المستنصر التي كان لها اثر سيئ على مجرى الأمور في الدولة.وكان الفاطميون يحتفلون بالأعياد الدينية والمواسم مثل : عيد رأس السنة الهجرية، وأول الربيع، وعيد جسر الخليج، وغدير خم. وكانوا يهتمون بالصيد البحري والبري وسباق الخيل وغيرها من الرياضات[174] وكان من معتنقي مذهب الفاطميين : أبو حاتم الرازي، وحميد الدين الكرماني، والفارابي، الذين اشتهروا وبرعوا في الفلسفة، وعلم الكلام، وعلي ابن يونس الذي برع في علم الفلك ورصد النجوم والكواكب. وابن الهيثم الذي تفوق في الفيزياء والبصريات والهندسة . وماسوية وعلي بن رضوان اللذان برعا في الطب. وإخوان الصفا في الفلسفة والعلوم.

Image

الفصل الثالث

النزعات الدينية

الدولة التي كان يحكمها الحاكم بأمر الله لم تكن ثيوقراطية[175] أساسها الدين ولكنها متذهبة لها عقائد خاصة. وقد أصبحت فيها النزعات الدينية مميزة لحكمه بشكل واضح، وكانت الخلافة الفاطمية مذهبها شيعي وتعتقد أنه الدين الإسلامي الصحيح. وكان المصريون منذ عهد الأمويين قد تحول كثير منهم من النصرانية إلى الإسلام وكان إسلامهم على المذهب السني، وأول مذهب انتشر بينهم هو مذهب مالك بن أنس الصحابي المولود في (179 هـ / 795 م) وذلك بسبب توافر أصحابه الذين جاؤوا إلى مصر. ولما جاء مصر محمد ابن إدريس الشافعي في (198 هـ / 814 م) واستقر بالفسطاط. ودفن في المقطم في (204 هـ / 820 م) خص بعلمه أهل مصر فانتشر مذهبه وطغى على مذهب مالك. ومع انتشار مذهب أبي حنيفة وابن حنبل في المشرق لكنهما لم ينتشرا في مصر مثل مذهب مالك والشافعي، ومع ذلك فقد شق التشيع طريقه بأرض مصر منذ زمن مبكر قبل المذاهب السنية. فقد جاء أيام عثمان بن عفان على يد رجل اسمه عبد الله بن سبأ يلقب بابن السوداء وكان يتكلم عن وصاية النبي لعلي في وغديرخم وأحقيته بالخلافة من عثمان. فانتشرت آرائه بين المصريين واعتنقها الكثير، ثم قوي بعد تسلم علي فصارت مصر كلها داراً للتشيع. ثم ضعف زمن حكم العباسيين الذين حاربوه وعملوا على إخراج آل أبي طالب من مصر إلى العراق، فاضطر من كان على رأي الشيعة إلى التستر. ثم عاد التشيع منذ استقلت بحكمها عن الخلافة العباسية في أيام الطولونيين، حيث ظهر رجل من أهل مصر وأنكر أن يكون أحداً خيراً من أهل البيت. وحينما قامت خلافة الفاطميين بإفريقية عملت على نشر مذهبها بين المصريين وعملوا بعد إقامة خلافتهم بمصر على تحويل جهاز الدولة إلى مذهبهم الشيعي، وأدخلوا خصائص المذهب

الشيعي في الجوامع الرسمية وجعلوا الآذان في المساجد الجامعة ((حيّ على خير العمل)) بدلاً من ((حيّ على الفلاح)) وذلك لأنه في رأيهم أن عمر بن الخطاب قد غير الصيغة التي تنوقلت عن النبي.

فقد كان عمر يرى أن الناس إذا سمعوا أن الصلاة خير من العمل تهاونوا في الجهاد وتخلفوا عنه وكان الجهاد أهم عمل في وقته.

وفي صلاة الجمعة جهروا بصوت عالٍ بالبسملة، وزادوا صيغة القنوت في الركعة الثانية التي مؤداها : ((اللهم نحن إليك قانتون)) وعلى النقيض أزالوا ما زاده السنيون في هذه الصلاة من قراءة : ((سبح باسم ربك)) والتكبير بعد الصلاة.

وفي الصيام جعله الفاطميون على حساب لهم ثلاثين يوماً ولا يكون على الرؤية بطلب الهلال. كما ألغوا صلاة التراويح لأنهم لا يرونها مشروعة للجماعة، إذ لا جماعة إلا في فرض.

ثم أخذوا بالاحتفال بأعياد تتعلق بالمذهب الشيعي وذكرياته فاحتفلوا بعيد اسمه غدير خم وهو الذي أوصى فيه النبي بالخلافة من بعده لعلي بمكان بين مكة والمدينة عُرف بهذا الاسم في الثامن عشر من ذي الحجة.

وكانوا يحتفلون بيوم مقتل الحسين بن علي في العاشر من المحرم _ عاشوراء _ سنة (61 هـ / 10 تشرين الأول 680 م) باحتفال رسمي وشعبي كبير فقد كان المصريون الشيعة يحتفلون به قبل مجيء الفاطميين.

فكانت تعطل الأسواق وتغلق الدكاكين ويخرج موكب كبير إلى الجامع الأزهر ليستمعوا إلى قراءة القرآن الكريم ومرثيات الشعراء وبعض الأناشيد الدينية[176]

الفصل الرابع
الدعوة الفاطمية

1_ الدعوة في مصر

2 _ المذهب الجديد

3 _ الإمام حمزة بن علي (س)

4 _ الدعوة في الشام

5 _ الدعوة في العراق

6 _ الدعوة في الجزيرة العربية

7 _ الدعوة في المغرب

8 _ الدعوة في صقلية

لما شعر الفاطميون بتوطيد خلافتهم في مصر، عمدوا إلى نشر عقائدهم بين المصريين بقصد تحويلهم إلى الشيعة، وذلك لأن العباسيين والقرامطة، كانوا يذيعون بين المصريين طعناً يرمي إلى التشكيك في نسب الفاطميين إلى بيت النبي، وهو الأساس الذي قامت عليه خلافتهم بالأصل وينسب تنظيم المذهب وهو ما عرف بالدعوة الهادية إلى وزير الخليفة العزيز بالله بالذات، واسمه يعقوب بن كلس الذي ولد سنة (380 هـ / 991 م) الذي عمل على عمل حلقات لشرح المذاهب ابتداءً من (365 هـ / 975 م) في المسجد الذي بني في عهد المعز لدين الله عام (359 هـ 969م) وتم بناؤه في عهد العزيز بالله عام (361 هـ / 972 م) وعرف باسم جامع القاهرة أو الجامع الأزهر فأقام فيه ابن كلس خمساً وثلاثين رجلاً تنفق عليهم الدولة، ويقيمون بجوار الجامع ليقوموا بشرح المذاهب للناس، وكان كبار رجال الدولة الفاطمية، يقومون بقراءة علوم أهل البيت، فكان المصريون يقبلون على سماع هذه الدعوة ويحضرونها بكل فئاتهم وطبقاتهم.وكان التحمس البالغ للدعوة في مصر وخارجها بلغ أشده في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، الذي اعتبرها رسالة كلف بها. حيث جعل الحاكم للدعوة ولأول مرة رئيساً يلقب بـ (داعي الدعاة) حيث تلقب به الحسين بن النعمان، ولأهمية الدعوة جعل الحاكم بأمر الله (س) منصب داعي الدعاة يتكافأ مع منصب قاضي القضاة. وكان له نواب ومجلس عالٍ من الرؤساء يعرفون بالنقباء ويتكون من أثني عشر نقيباً، مثل عدد الحروف الأثني عشر في عبارة (الرحمن الرحيم) مع أنه لم يكن لهم هيئة كهنوتية، بل جماعة موظفين، استخدمتهم الدولة من أجل تعريف الناس بمذهبها.وكان الاهتمام بالدعوة كبيراً حيث وصل الدعاة إلى جميع أنحاء البلاد المصرية، حتى القلزم على البحر الأحمر[177] وفي خارج مصر قسمت الأقاليم

إلى اثني عشر إقليما موزعة كما يلي : إقليم العرب وشمل بلاد الشام والرافدين، والجزيرة العربية، واليمن، وإقليم البربر في بلاد المغرب، وإقليم الزنج، وإقليم الحبشة، وإقليم الخزر وإقليم الصين، وإقليم الديلم (الفرس) وإقليم الروم، وإقليم الهند (أفغانستان الحالية) وإقليم السند، وإقليم الصقالبة.

أ ـ الدعوة في مصر

لقد اتخذت الدعوة في مصر أهمية خاصة حيث أصبح يطلق عليها ((مجالس الدعوة أو مجالس الحكمة)) ولم تقتصر الدعوة على الرسميين بل تعدتهم إلى خاصة الناس وعامتهم من الرجال والنساء. وقد خصص للدعوة يومان في الأسبوع، ثم ثلاثة فكان لعامة الرجال يوم الأحد وللنساء يوم الأربعاء، وللأشراف وذوي الأقدار يوم الثلاثاء. ثم أصبحت تعقد كل يوم، فكان مجلس للخاصة ومجلس للموظفين ورجال القصر، ومجلس لعامة الناس ومجلس للطارئين على البلد، ومجلس لعامة النساء، ومجلس لحريم القصر. وكانت الدعوة تقرأ في أماكن متعددة لا في مكان واحد فكان في قصر الخليفة، واحد للرجال في الصالة ذات الأعمدة أو (الإيوان) والثاني للنساء في رواق خاص اسمه (المحول) وفي الأزهر الذي كان أول مكان تلقى فيه الدعوة زمن العزيز. وبنى الحاكم مكاناً تلقى فيه مجالس الدعوة عرف بـ (دار الحكمة) أو ((دار العلم)) سنة (395 هـ / 1005 م) وزوده بالكتب من كل نوع في العلوم والآداب والعقائد جاء بمعظمها من مكتبة القصر التي أنشئت في عهد العزيز، وكانت دار الحكمة أعظم مكتبة في التاريخ، ويقولون عنها أنها من عجائب الدنيا فقد كانت تحتوي على مليون وستمائة ألف كتاب، وضمت أيضاً كافة العلوم، وفيها ألفان وأربعمائة مصحف مخطوط بالذهب المكحل باللازورد. كما زودها الحاكم بالمحابر والأقلام والأوراق، وجعل لها البوابين والخزان وكان لها طابع حر، فدعي إليها الفقهاء من المذهب الشيعي، وأشرف عليها داعي الدعاة ليدل على طابعها المذهبي. وكان الحاكم يذهب إلى هذه الدار ويستمع إلى محاضراتها ويتناظر العلماء بين يديه ويكافئ الجميع ويرعاهم.

وأسس عدة جوامع منها جامعه المعروف بجامع ((الحاكم)) أو ((جامع الأنوار)) أو ((الجامع الكبير)) وجامع آخر هو جامع الخطبة الذي أنشئ في عهد العزيز ولكنه توفي قبل إتمامه

فأمر الحاكم بإتمامه واستمر بناؤه عشر سنين. ومنها أيضاً ((جامع راشدة[178] الذي كان في الأصل كنيسة على النيل جنوب مصر فحولت إلى جامع، ومنها جامع ((المقس[179] على شاطئ النيل.

وقد أحصيت الجوامع بمصر فكان عددها ستة وثلاثين ألف مسجد. وكان الحاكم يحمل إليها القناديل والمصاحف والبخور والستور والحصر والإضاءة الخاصة بشهر رمضان، وأنفق المال الكثيرة على الجوامع ودار العلم والقوامين عليها من قراء ومؤذنين وخدام.

وقد كانت الدعوة قبل زمن الحاكم دعوة ظاهرة تتعلق بشرح التشريع الشيعي أو تفسير القرآن والحديث بمعناه المبسط (الظاهر)، ولكن منذ عهد الحاكم تميزت الدعوة بظهور التأويل أو ما عرف بعلم (الباطن) وذلك للذين لا يقنعون بالقليل من الظاهر، ويرغبون في معرفة حقيقة الدين أو المذهب. ونعرف أن الإسماعيلية كانوا يرون أن لكل ظاهر باطناً، وذلك من قوله تعالى الآية (20) من سورة الأنعام

((وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ))

وقد اعتبر علم الباطن ملكاً للإمام ومعجزته فهو العلم اللدني الذي نقله النبي[180] إلى علي ليتوارثه الأئمة من بعده وذلك من قول النبي :

((أنا صاحب التنزيل وعلي صاحب التأويل)) (متفق عليه).

وقوله : (أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب)(متفق عليه).

وكان علم الباطن[181] يتم تحت إشراف الإمام نفسه خوفاً من التغيير فيه، وكان داعي الدعاة يتلوه على الإمام ويأخذ علامته بظاهره قبل قراءته على الناس. وتميزت الدعوة بتوسعها بالعلوم الفلسفية (علم الحقائق) حيث وهب الدارس قوة في الجدل والاستدلال والبحث والنقاش، وذلك لأن الفلسفة الإسلامية كانت في أوجها في عصر الحاكم : ففي وقته وجد الفيلسوف الشيخ الرئيس ابن سينا (370 هـ / 980 م _448 هـ / 950 م) والكندي فيلسوف العرب (القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي). لذلك عمد مفكرو الإسماعيلية إلى مجاراة العصر، والمزج بين عقائدهم والأفكار الفلسفية، ولو تصفحنا كتاب (راحة العقل) لشيخ فلاسفة الإسماعيلية زمن الحاكم حميد الدين الكرماني (م[182]411هـ/1020م) لوجدنا أن له نظرة فلسفية في العقائد الدينية والمذهبية لا يختلف

عن غيره من الفلاسفة المسلمين مع بقاء طابعها الشيعي، فأوجد لعقائد المذهب حلولاً في أقوال فلاسفة المسلمين وفلاسفة اليونان أمثال أفلاطون في الفلسفة ومثل أرسطو طاليس في المنطق والعلوم الطبيعية، وأفلوطين وفيثاغورس في تقديس العدد وتكلم في الآخر عن العقل والأول، والسماء والنفس والوحي والمعجزة.

وكان النشاط الفلسفي عند الإسماعيلية سابقة عريقة، فقد ظهرت في رسائل إخوان الصفا (أئمة الشيعة وعلمائها) أمثال (النخشبي) في كتابه ((المحصول)) والرازي في كتابه ((الإصلاح)) والسجستاني في كتابه ((النصرة)) وبلغ عدد الرسائل التي ألفوها اثنين وخمسين رسالة، عدا الرسالة الجامعة، التي هي بمثابة موسوعة للمعارف، وقد قسمت الرسائل على أربعة أقسام : رياضية تعليمية، جسمانية طبيعية، نفسانية عقلانية، ناموسية إلهية، ولو نظرنا إلى الرسالة الثامنة، القسم الثاني منها لوجدنا فيها الإنسان المثالي : ((الفارسي النسبة، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السير، الملك الأخلاق، الرباني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني)).

وقد ترتب على التعمق في دراسة المذهب بظهور علم الباطن وفلسفته، أن الدعوة لم تعد محاضرات أو دروساً مبسطة علنية، وإنما أصبحت عدة دعوات متدرجة عددها سبع أو تسع، دعوة بعد دعوة تتسم بالسرية خوفاً من اختلاطها أو التغيير فيها، ولم يكن المستجيبون لها ينتقلون من الدرجة السادسة فيها إلا إذا درسوا كل نواحيها ومعانيها الباطنية والفلسفية.... وجعل لها عهد خاص على المستجيبين يأخذه داعي الدعاة بنفسه، وهو شهادة أن لا إله إلا اله وأن محمد رسول الله، والإيمان بالبعث والساعة، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، والجهاد في سبيل الله وستر المستجيب لكل ما سمعه، وألا يقول إلا الصدق وألا يتفق مع أعداء المذهب، وأنه إذا خالف عهده فنساؤه طوالق وكل ما يملك حرام، وأن يحج ثلاثين حجة ماشياً حافياً، ثم تقبل توبته.

وقد أقبل المصريون على الدعوة رجالاً ونساءً ومن مغارب الأرض ومشارقها. وقد عمل الحاكم على تطبيق المذهب وتشدد فيه، فأعاد صلاة القنوت التي كان أبوه قد تساهل فيها، واستمر في قطع صلاتي التراويح والضحى، وجعل المؤذنين الشيعة يضيفون إلى صيغة الآذان _ إذا شاءوا _ عبارة : ((أن محمداً وعلياً خير البشر)).

وأمر بالتثنية في الدعاء ونظم أوقات الصلاة، ولم يجبر أحداً على اعتناق المذهب، فيقول الحاكم بأمر الله ((إن كل واحداً حر في اختيار مذهبه، وأن يظهر ما في ضميره))[183] وقد كان الحاكم متسامحاً فقد عين قضاة ليسوا على مذهبه. ومنع سب أعداء المذهب، ولم يعامل بالمثل الذين كانوا يلعنون علياً على منابرهم كالعباسيين والأمويين في الأندلس فقال ((لا يسب السلف لقول بعض آبائه الأئمة _ ولا تكونوا سبابين ولا عيابين)). وقد أصدر سجلاً ليقرأ في كل مكان في رمضان (398 هـ / 1001 م) يمنع فيه سب السلف جاء فيه : ((بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله ووليه أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين إلى كل حاضر وباد. أما بعد :

فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين (لا إكراه في الدين) مضى أمس بما فيه، وجاء اليوم بما يقتضيه. الصلاة والإصلاح بين الناس أصلح، والفساد والإفساد بينهم مستقبح إلا من شهد الشهادتين أحق ألا تنفك له عروة، ولا توهن له قوة. بحي على خير العمل يؤذن المؤمنون ولا يؤذنون. ويخمس المخمسون، ويربع المربعون في الصلاة على الجنائز، ولا يعترض أهل الرواية فيما هم عليه صائمون، ولا يشتم السلف، ولا يبغي الخالف من قبله خلف، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون. معشر المؤمنون، نحن الأئمة وأنتم الأمة، عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم تعملون، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد، وآله الأكرمين)).

كذلك أخذ على عاتقه أن يقوم بالحسبة، وهي اصطلاح إسلامي تعني الأمر بالمعروف عندما يكون مهملاً والنهي عن المنكر عندما يكون علناً، وقد راقب الحاكم بأمر الله التجار وأصحاب الحرف والصناعات مراقبة وثيقة لمنع الغش، وكان يعاقب المخالف عقاباً صارماً، ويصدر عدة أوامر حسب الأحوال، منع أكل وبيع بعض المأكولات التي ترتبت عليها مضار صحية وأمراض في عصره، فمنع الناس من أكل وبيع الملوخيا (الملوكية) والجرجير والقرع، والتوكلية، ومثل الدلينس (وهو نوع من الصدف يؤكل نيئاً مملوحاً) والترمس العفن وأمر بقتل الخنازير، ومنع عجن الدقيق بالرجل.

والدولة الفاطمية منذ بدايتها ومجيئها إلى مصر، ولكي تجتذب المصريين إلى جانبها، بالغت في ترك الحرية لهم، فكان المصريون مع إسلامهم يشربون الخمر مثل النصارى نفس الخمرة التي تعود عليها زمن الفراعنة، وكان الناس يشربون الخمر في الشوارع والحوانيت وكانت بيوت

الفساد والفجور تملأ أنحاء المملكة، وانغمس الناس في الإباحية، ولكن الحاكم أجبر الناس على وضع حد لهذا المجون وأمر محتسبه (غَين) الذي كان رئيساً للشرطة بمنع شرب الخمر وصنعه وتتبع السكارى. وكل ما يدخل في صنع الخمر، فقطعت كروم الجيزة، وبلغ ما قطعه مائة ألف كرم، وديس العنب في الطرقات تحت أرجل البقر، وغُرِّق بعضه في النيل، وكسرت جرار العسل ودنانها، ونهى التجار عن بيع الزبيب كي لا يحول إلى خمر. وكان يقيم الحد لمن يشربها ولو في الستر.

وصوناً للأخلاق المهددة، نظم الحاكم دخول الحمامات التي انتشرت في مدن الإسلام، فمنع الناس من الدخول إليها عرايا بدون مئزر، ومنع اختلاط الرجال والنساء، وقد ضرب الحاكم بيد من حديد على العناصر الفاسدة، ووضع حداً للهو، وأصدر أوامر بإزالة المواضع الفاسدة. ومنع الغناء وأحرق آلاته وأصدر أوامر ترمي إلى وضع حد لسفور النساء ومنعهن من الخروج في الليل وكشف وجوههن وراء الجنائز.

وفي عهد الحاكم كانت مراقبة أهل الذمة ضمن واجبات الحسبة لإظهار ما في الإسلام من العزة وقد رجع الحاكم إلى الشروط العمرية، لأن أهل الذمة قد اشتد بأسهم بين المسلمين منذ أيام نزار العزيز بالله. وكان الحاكم أشد وطأة على القبط الملكانية على مذهب بيزنطة (الروم) دون بقية أهل الذمة : كالنسطورية واليعقوبية، لأن العزيز تزوج من نصرانية ملكانية أنجبت له (سيدة الملك) أخت الحاكم وعين أخويها في مناصب عالية، فاستبدت هذه الطائفة، لذلك نفذ الحاكم الشروط العمرية مع أهل الذمة، وأصدر الأمر إلى أهل الذمة بالتميز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بـ (الغِيار)، بوضع زنانير ملونة جُلها أسود حول أوساطهم، ولبس العمائم السود على رؤوسهم، وتلفيعات سوداء (طيالس) وجعل القبط يحملون صلباناً، واليهود يحملون الخشب إشارة إلى رأس العجل، ومنعهم من ركوب الخيل، وأجبرهم على ركب البغال والحمير، بركب من خشب وسروج ولجم من سَيْرٍ[184] سود غير محلاة بفضة، وأمرهم ان يتميزوا في الحمامات عن المسلمين، ثم أفرد لهم الحمامات على حدة، وراقبهم في أعيادهم / عيد الغطاس / وهو ذكرى تعميد المسيح في فلسطين و/ النيروز / عيد رأس السنة القبطية، وغضب الحاكم على أهل الذمة لرفضهم إطاعة أوامره بلبس الغيار وتشبههم بالمسلمين فنادى بينهم أن يلتزموا بما أمر، أوأن يُسلموا أو يخرجوا من مملكته، وخيرهم في الهجرة إلى بلاد الروم أو الحبش أو النوبة. وأمر بهدم الكنائس والبيع والأديرة في مصر منذ سنة (403 هـ / 1012 م) وصادر أملاكهم وبنى مكانها مساجد. ولكن الحاكم في

آخر سنة من حكمه عدل عما زاده على الشروط العمرية واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار. وأمر بإعادة بناء الكنائس ورد أوقافها.

وفي آخر سني حكمه حدث شرخ كبير في المذهب الفاطمي هدد كيانه بالانهيار، وجعل الحاكم لا يهتم بأي شيء غير إصلاحه، واعتبرت هذه الفترة عصيبة وسميت (بالمحنة) ومعروف أن الشيعة تعتقد أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله يختار من عباده للنبوة والرسالة، كذلك يختار كمن يشاء للإمامة، ومع أن الإمام لا يوحى إليه إلا أنه يتلقى التسديد الإلهي، إذ هو وارث العلم اللدني. فكان الإمام في نظرة الشيعة في مرتبة دون النبي فوق البشر، ولذا أُعتبر معصوماً عن الكبائر والصغائر، وكان هذا الاضطراب المذهبي يأتي غالباً من الغلو في عصمة الإمام والخروج بمرتبته عن الدرجة الوسطى بين النبوة والبشر.

وكانت تقوى الحاكم البالغة، وقيامه في الدعوة الفاطمية بما لم يقم به أحد من قبله، وعمله على إنجاحها مما جعل أتباعه يبالغون في تقديرهم لشخصه. وممن غلا في ذات الحاكم رجل فارسي اسمه ((الحسن بن حيدرة الفرغاني) المعروف بـ (الأخرم) الذي غالى في تأليه الحاكم، وظلم باسمه، وحذف اسم الله والنبي وأضاف اسم الحاكم مكانها. وقد ظهر هذا الرجل في سنة (409 هـ / 1018 م) وقد استدعى الحاكم داعياً آخر وهو حميد الدين الكرماني للرد على غلواء الأخرم. وظهر داعية آخر اسمه محمد بن إسماعيل في (408 هـ / 1017 م) وهو أعجمي أو تركي واسمه ((أنوشتكين)) أو ((هشكين)) ولقب بالدرزي، فقربه الحاكم منه أول الأمر حتى عُرف أنه غلام للحاكم، وارتفع مركزه في الدولة، وكان أنوشتكين يؤمن بالتجسيم ويرى أن روح آدم جاءت علياً، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز والد الحاكم ثم انتقلت إلى الحاكم، ودعا الناس إلى أن يعتقدوا أن الحاكم الإله الذي صنع العوالم وصنف كتاباً شبهه بالقرآن الكريم أسماه (الدستور)، وجعل له أتباعاً بلغ عددهم ستة عشر ألفاً، كانوا يأتون بأمور مبتذلة، وقد اختلف في نهاية الدرزي، والمرجح أنه قتل في وادي التيم حيث ألقت به امرأة في تنور للخبز بعد أن كبلته، وسميت المرأة وأولادها من بعد آل كبول، وكان ذلك سنة (410 هـ / 1019 م) ولم يقف الأمر عند أتباع المذهب بل تعداه إلى العامة، فقد كان لسيرة الحاكم الزاهدة أن يعتقد البعض أن الحاكم قد يكون المسيح الذي سيأتي في آخر الزمان لإقامة العدل، إضافة إلى أن شخصية الحاكم كانت مؤثرة، بشكله المتصوف، وصوته الجهير، وجسمه الفارع... ولكن الحاكم لم يدعِ الألوهية إطلاقاً وفي أول الأمر استخدم الحاكم الشدة وقتل دعاته الذين غالوا فيه أو لم يدافعوا عنه تهمة التأله. ولكي يبعد عن علوم أهل البيت كل

شبهة أمر ألا ينجم أحد ولا يتكلم في صناعة النجوم بل أمر بنفي المنجمين، وقد دفع الغضب بالحاكم إلى أن يعرض عن أهل دعوته ورجال دولته، والناس جميعاً لتجاسرهم على مثل هذه الدعوة بألوهيته، فأمر ألا يدخل عليه في قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلاً أسماهم، وأن يدخل الكتَّاب والقراؤون والأطباء والمأذنون وخدام القصر. وألغى ما جرت عليه العادة من مواكب الصلاة في الجوامع وألغى كل ما يتعلق بالمذهب من الاحتفال بأعياده مثل عيد العزيز، وأبطل مجالس الدعوة العامة والخاصة. وذلك لتمييز المؤمنين بالإخلاص وبقاء المنافقين في الحيرة.

وكان قد بلغ به اليأس أمام دعوة تألهه أنه اعتزل الناس وجلس في مكان مغلق لا يدخل عليه أحداً، يوقد الشموع ليلاً ونهاراً، أو يخرج لوحده هائماً بالفلوات، أو يذهب إلى جبل المقطم يقبع فوقه ويتقرب إلى الله ويناجيه، لكن ذلك لم يطل. ثم ما لبث الحاكم أن دفع اليأس وشمر عن ساعد الجد في سبيل إنقاذ المذهب، وعمل على استدعاء رجال من أتباع المذهب موثوق في عقيدتهم.

فكان أول من استخدمه لذلك رجل فارسي اسمه ختكين الضيف الذي كان يعتقد في إمامة الفاطميين، فعينه الحاكم داعية الدعاة، ورد مجالس الدعوة بعد أن قطعت ثلاث سنوات من عام (400 هـ / 1009 م) إلى عام (403 هـ / 1019 م) ومنحه لقب الصادق الأمين. وقد بذل ختكين جهده في تنوير الدعاة بحقيقة الدعوة، ومنزلة الإمام الحاكم فيها. فأرسل إلى المدينة يبحث عن كتب جعفر الصادق جد أئمة الفاطميين في سنة (410 هـ / 1019 م) فوجدت في دار جعفر كتب كثيرة عن الأئمة.

كذلك استخدم الحاكم داعية آخر هو أحمد بن عبد الله في سنة (408 هـ / 1017 م) الملقب بحميد الدين الكرماني نسبة إلى كرمان بإيران، وهو يعتبر شيخ فلاسفة المذهب. وقد عينه الحاكم رئيساً لدار الحكمة. وقد بذل الكرماني جهداً كبيراً في سبيل تقويم ما اعوجَّ من الدعوة، وكتب في ذلك رسائل عديدة بلغ عددها تسعاً وعشرين بعضها لم يصلنا.

وفي رسالة الكرماني (مباسم البشارات) يبين ظروف المحنة، وسوء حالة الدعاة وظهور المنافقين، وصدق إمامة الحاكم وحقيقتها، وأن ما حدث هو بإرادة الله لامتحان عباده. وقد رد الكرماني على دعوى الفرغاني الأجدع في رسالته المشهورة بعنوان : ((الرسالة الواعظة)) تجمع موعظة وأجوبة عن مسائل المارق في الدين حسين الفرغاني الأجدع. حاول فيه الكرماني بالمنطق

وغيره أن يثبت عقيدة الإسماعيلية في الله الذي لا إله إلا هو، وإظهار الحاكم كشيعي مثالي يعبد الله، ويساعد الناس على فهم دينهم، ومن بعض ما جاء فيها، موجهاً كلامه للأخرم[185] :

((... وأما قول أصحابك : إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين _ سلام الله عليه _ فقول كفر، تكاد السماوات يتفطرون منه وتنشق الأرض، وتخر الجبال، هذا أن دعوا للإله المعبود غيراً، فيا لجسارة على الله تعالى حين جعلوا له تعالى شريكاً ما أعظمها! ويا لجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى ما أفظعها، ولقد قالوا عظيماً، وافتروا إثماً مبيناً، وإنْ ذلك إلا كفر محض، فما أمير المؤمنين عليه السلام إلا عبد الله، خاضع وله طائع، ، يسجد لوجهه الكريم، ويعظمه غاية التعظيم، وباسمه يستفتح، وعليه في أموره يتوكل، وأمره إليه يفوض، والله تعالى قد فضله على خلقه، وجعله من جهة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، خليفة له في أرضه، ووسيلة لعباده إلى جنته وأوجب طاعته على عباده، وهو سلام الله عليه، يتبرأ إلى الله تعالى ممن يعتقد ذلك فيه، وكيف يكون معبوداً وهو جسم ذو أبعاض مؤلفة، ونفس ذات قوى مكلفة، يأكل ويمشي، وينام ويستيقظ، وينطوي علي الأحوال المتضادة من رضا وسخط، وغم ومسرة، وسقم وصحة، كغيره من البشر، وهو سلام الله عليه ينفي ما تنسبه أنت وأصحابك إليه عن نفسه، كلا إن المعبود ليس إلا الله الإله الذي يسجد له أمير المؤمنين سلام الله عليه ويوحده ويسبحه، وعن النعوت والصفات يقدسه، وله سجد من النبيين والأوصياء، والأئمة المتقين وتابعيهم، وإياه يعبد وله يسجد من يخرج إلى الكون منهم، مادام عقل، وفاض عدل، الذي خلق السموات بأفلاكها، والنجوم بأنوارها، والأركان بطبائعها والمواليد بأجناسها،

(لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)..))

ب _ المذهب الجديد

وبعد كل ما تقدم اتخذ الحاكم بأمر الله سلام الله عليه خطوة جديدة في سبيل إنقاذ المذهب وأتباعه وذلك بالقيام بحركة إصلاحية في عقائد المذهب نفسها، مما أدى إلى ظهور مذهب جديد، جعل هذا المذهب الحاكم من أصحاب النحل (المذاهب) وفي سبيل ذلك استعان بداعية فارسي، كان قد هاجر إلى مصر، اسمه حمزة بن علي بن أحمد الملقب باللباد[186] ربما لأنه كان في بدء أمره يشتغل بصناعة اللباد، وإن اشتهر بالزوزوني نسبة إلى مقاطعة زوزون بفارس. وقد اختلف في وقت ظهوره فقيل أواخر سنة (407 هـ / 1016 م أو أوائل سنة (408 هـ / 1017م)[187] ولم يعلن الحاكم بنفسه نشأة المذهب الجديدة، ربما خوفاً من زيادة بلبلة الخواطر وجعل تكوين المذهب وظهوره على يد حمزة.

فكان الحاكم يكثر من زيارة حمزة الذي اتخذ له مكاناً خارج القاهرة في مسجد اسمه : ((البتر، أو البتن، أو الجيزة)) وعرف قديماً باسم (البئر) وتعمد الحاكم تقوية المذهب الجديد، فأطلق يد حمزة في عقد مجالس الدعوة، للرجال والنساء، ومكاتبة رجال الدولة الرسميين بما فيهم ختكين داعي الدعاة، وابن أبي العوام قاضي القضاة، وعبد الرحيم ولي العهد. ومنع الحاكم غير حمزة من الكلام في المجلس، وقد نجح حمزة في تكوين المذهب الجديد فصرنا نسمع عن طبقات جديدة للدعاة في مصر تشبه بدء الدعوة الإسماعيلية، وعلى رأسهم الإمام الذي يأمر لهم، والناطق الذي ينطق في كل عصر وزمان بالحق، ، والداعي الجد لأنه جد في طلب العلم من الإمام، والمأذون لأنه يفتح باب العهد والمكاسر الخيال الذي يلوح بعلمه. وكان من ينضم للمذهب الجديد يؤخذ عليه (الميثاق) يلتزم به ملء إرادته وتمام عقله، ولا يكتب الميثاق إلا على كل واحد بمفرده لأنه سوف يسأل عن التزامه به.

وقد تلقب حمزة بالهادي، أو هادي المستجيبين، وسعى المذهب الجديد إلى إظهار الإيمان المطلق، أو ما عرف بالتوحيد، الذي اضطربت حقيقته بين الدعاة لا سيما بظهور دعوة الأخرم والدرزي.

لذلك عرفت الدعوة إلى المذهب الجديد بالتوحيد، ولعل أمحوتب العلامة الذي اختصر الحكمة، والذي بنى هرم السقارة كان أقدم معلم رجع إليه عقلاء التوحيد، واعتبروه الأسمى حتى التقديس، ولقب اليونانيون أمحوتب بـ ((هرمس الهرامسة)) أي عالم العلماء، وقد غلب اللقب على الاسم الأصل حتى صار علماً له. وذكر في بعض الكتب أن هرمس = المثلث بالنبوة والحكمة والملك هو الذي أمر بالدعوة إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق، وتخليص النفوس من العذاب والحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل وقيل في هرمس أيضاً : هو النبي إدريس الذي قص القرآن الكريم قصته. إذاً لقب المذهب الجديد بالتوحيد، وسُمي المستجيبون له من الرجال بالموحدين، ومن النساء بالموحدات. ويؤيد قصد المذهب الجديد في تنقية الإيمان ما ورد في رسالة حمزة (س) المعنونة : (رسالة التنزيه) إلى جماعة الموحدين التي يتكلم فيها التوحيد بما فيه من ظاهر وباطن. ومن الطبيعي أن يكون المذهب الجديد ضد كل ما يمس نقاء عقيدة التوحيد، ولذلك هاجم حمزة النصيرية وهي فرقة قديمة للغلاة في الشام ادعت على علي بن أبي طالب بالألوهية. وهاجم حمزة الدرزي ومغالاته، ويبدو أن الدرزي كان من أتباع حمزة أول الأمر إلا أنه سار على نسق المغالين، فغالى في ذات الحاكم. ويقول حمزة في رسائله أن الدرزي كان ينطق بغير معرفة ولا علم، وأنه ألف كتاباً _ الدستور _ بدون إذن الإمام، ويبين حمزة في كتابه المعنون ((الغاية والتضحية)) ظروف خروج الدرزي على عقيدة التوحيد : ((قد سمّى نفسه بسيف الإيمان، فلما أنكرت عليه ذلك، وبينت له أن هذا الاسم محال، وكذلك لأن الإيمان لا يحتاج إلى سيف بعينه، بل المؤمنون محتاجون إلى قوة السيف واعتزازه، فلم يرجع عن هذا الاسم وزاد في عصيانه، وأظهر فعل الضدية في شأنه وتسمى باسم الشرك وقال : أنا سيد الهادين، يعني أنا خير من إمامي الهادي)) ومن المؤكد بعد كلام حمزة هذا أنه من الخطأ أن يسمى مذهب الحاكم الجديد بالدرزية نسبة إلى الدرزي وخاصة وأن العيني يسمي مذهب الحاكم بالفرقة الحاكمية نسبة إلى الحاكم مباشرة وكي لا تختلط عقيدة المذهب مع عقائد أخرى. نفى حمزة عن المذهب الدعوة إلى التناسخ، أو إلى ألوهية الحاكم، وأورد قولاً قاطعاً ضد مغالاة المغالين بقوله : ((ولا تعتقد بأن مولانا جل ذكره الإمام بل الإمام عبده ومملوكه، لا يقدر على دفع مضرة، ولا جر منفعة، إلا بقوة مولانا جل ذكره)) ويقول

أيضاً في رسائله : ((الله ومحمد وأمير المؤمنين وآيات القرآن الكريم)) وقد سمى نفسه : (هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين والمنافقين والناكثين بسيف مولانا أمير المؤمنين). وقد نفى عن المذهب إباحة استحلال الفروج أو نكاح الأخت، أو شرب الخمر، أو لعب الميسر كما حاول بعض أعداء المذهب تشويهه بهذه الأباطيل بل دعا النساء إلى التجمل بالخلق الفاضل بقوله : ((.... والتبري من كل عيب ودنس، وأن يجنبن أنفسن عن الشهوات والشبهات، وارتكاب الفواحش والمنكرات، لينتفعن بإيمانهن)) ولكن نجاح المذهب الجديد جر إلى صراع شديد مع أنصار للمذهب القديم بعد أن استجاب لمذهب الجديد عدد كبير من رجال ونساء في مصر والشام ونواحي وادي التيم، وبلاد صيدا وبيروت وحلب. لكن الحاكم طالبهم باحترام إمامهم والامتناع عن سماع الترهات، وتوعدهم بعقوبات قاسية إن لم يدركوا الشر الذي يقترفونه ويتركوه، ويعملوا الخير والمعروف.

وأما أتباع مذهب حمزة اليوم وهم المسمون بالدروز خطأً فقد اقتصروا في العالم الإسلامي على منطقة حوران بالشام التي أصبحت تعرف بجبل الدروز (جبل العرب) وشمال سوريا وفي لبنان وفلسطين والأردن ولا مجال للشك بأتباع حمزة اليوم هم مسلمون، ودينهم هو الإسلام ويشاركون في كل مظاهره، لكنهم تميزوا في أخذهم بالتصوف وهذا يدل على أثر الحاكم القوي فيهم، فهم في أغلبهم لا يعددون الزوجات، ومنهم من ينقطع كلاً عن الزواج، ومنهم من يصوم الدهر أو يضرب عن أكل اللحم طوال حياته، وهم يقتصدون في الطعام والشراب وجميع ملاذ الجسد والنفس، ولا يتناولون الخمر، كما إنهم يميلون إلى الخلوة والتأمل شأن الحاكم، إلا أنهم مثل الشيعة الإيرانيين يؤمنون برجعة الحاكم في آخر الزمان، وأنه هو المهدي المنتظر لا محالة، ويحلفون الآن بغيبته ورجعته. جاء في فقرة على لسان المعز لدين الله _ جد الحاكم في كتاب (المجالس والمسايرات) وجهها إلى الداعية النعمان بن حيون ويخاطب فيه المغالين في الاعتقاد الفاطمي : يقول عن نفسه وآبائه :

((إنه هو وأسلافه الماضين وأحلافه الباقين، مخلوقون امتداداً ومربوبون اقتساراً، لا يملكون لأنفسهم لا موتاً ولا حياة ولا يخرجون عن قضية الله تعالى)) ويقول: ((إنه قدم لهم إنذاره بالتوبة إلى الله تعالى من كفرهم، ولما يعتمده من الإبقاء على الجماعة _ الدعاة _ ومن أتى ذلك منهم وأقام على كفره، فسيف الحق يستأصله)).

ج _ الإمام حمزة بن علي سلام الله عليه

هو أبو الفضل حمزة بن علي بن أحمد الزوزوني، وعرف باللّباد ربما لأنه كان في بدء أمره يشتغل في صناعة اللباد. وإن اشتهر بالزوزوني نسبة إلى مقاطعة زوزون بفارس (إيران حالياً) ولد ليلة الجمعة في الثالث عشر من ربيع الأول عام (375 هـ / 985 م) وتخرج من جامعة نيسابور عاصمة خراسان، قدم إلى القاهرة عام (395 هـ / 1005 م) وله من العمر عشرون عاماً. فدخل معلماً في دار الحكمة وبعد مدة طلبه الحاكم بأمر الله، وبحث معه في مختلف الأمور الدينية والفلسفية، فاقتنع الحاكم بصحة آرائه وسلامة تفكيره وحسن إسلامه، واهتمامه بالإصلاح المنشود بعد ما انتشر الفساد إلى دعوة الفاطميين الأولى فرفع الحاكم من درجته، وأذن له بنشر أفكاره التوحيدية وتعليمها باعتبارها كانت موافقة لأفكار الخليفة وتفكيره. فبدأ حمزة العمل بمهمة لنشر دعوة التوحيد، وقد سلمه الحاكم الإمامة في أول محرم سنة (408 هـ / 1018 م). الإمامة[188] التي كان متظاهراً بها تقديراً لما أظهره من إخلاص ووفاء، وما بذله من جهد في بث الدعوة، ونشرها، والدخول في غمار الجدل الديني والفلسفي للمذهب الذي يدعو إليه حتى لقب بهادي المستجيبين لمكانته العظيمة عند الحاكم. فقام بتنظيم الدعوة على أصول جديدة اختلفت عن دعوة الفاطميين الأولى التي كان هدفها ضم الناس إليها دون اختيارهم بينما تركزت الدعوة الجديدة على الصادقين في إيمانهم. وقد قسم حمزة الدعاة إلى مراتب ودرجات وبدأ بتوجيه الرسائل إلى المستجيبين لدعوته ابتداء من نفس العام (408 هـ / 1017 م) وكان من دعاة المذهب الجديد : الشيخان أبو إبراهيم إسماعيل التميمي وقاضي الإسكندرية بهاء الدين علي بن أحمد السموقي. اللذين وجها رسائلاً مماثلة للمستجيبين تشرح المذهب وترشد المستجيبين لأصول المذهب وعلاقاتهم ببعض واتصالاتهم بغيرهم من الناس. وكان العام الأول (409 هـ) بطيئاً في انتشار المذهب ولا نعرف السبب. وعند حلول عام (410 هـ) كان التنظيم الجديد في قمته وغايته، وكانت الدعوة للمذهب قد بلغت ذروتها

وقد وجهت الرسائل إلى مختلف الممالك والأمصار كالشام والعراق وإيران والحجاز واليمن والهند والبحرين وأراضي الروم وأقطار المغرب العربي.

وكانت مراسيم تنصيب الدعاة وكيفية الدعوة وأصولها ومناهجها من اختصاص حمزة بن علي الذي كان يقلد كبار الدعاة مناصبهم، موكلاً إليهم شؤون المستجيبين الذين يدخلون الدعوة ويكتبون على أنفسهم المواثيق، وقد خصص جانباً من دار الحكمة لاجتماع الدعاة وأخذ الميثاق. وكان رسل الدعاة إلى مختلف البلدان مصحوبين برسائل تشرح المذهب وأهمية الدعوة، وكان جهاز الدعوة مكوّناً من مائة وأربعة وستين عالماً حافظين القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه، ومتفقهين بأصول الدين وكان لكل منهم اختصاصه ومهامه.

فكان على الأوائل الخمسة وضع أصول الدعوة، وهم الحدود الخمسة المعصومون لدى الموحدين، أبو الفضل حمزة بن علي، أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد التميمي وهو بطل من أبطال تميم وكان يقوم بأصعب المهمات وأخطرها وهو يلي حمزة بالمرتبة وبعده بالمنزلة أبو عبد الله محمد بن وهب القرشي، وبعده أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري، ثم بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموقي فكانوا يحررون تعاليم الدعوة خلال رسائل يتناقلها المستجيبون بواسطة الدعاة المختصين بنشر الدعوة في مختلف البلدان، ومنهم الماذنون والمكاسرون والحجج. وعند بلوغ المستجيب[189] الدرجات العليا في علم الدين، يوضح له ما غمض عليه من أن السابق هو سيد الوجود والتالي منبثق منه، وهما متلازمان كالعلة والمعلول أو السبب والنتيجة.

أما الدعاة المبشرون بالدعوة لاستمالة الناس فإنهم مع الماذنونين والمكاسرين يأتون بعد الحدود في التنفيذ لا في التقديس مستمدين سلطتهم من التالي، وهم ليسوا خالدين في منزلة روحية كالحدود لكنهم يتحلون بالفضيلة والمعرفة والتقوى. وقد اختار حمزة كبير الدعاة المقرب من الخليفة شيوخاً متبحّرين في دراسة القرآن الكريم، والكتب الدينية والأحاديث النبوية والفقهية لبث دعوة التوحيد التي كان يشرف عليها من مجالس الحكمة التي يؤمها المؤمنون. والداعي في هذه المراحل يجهد في أمور المستجيبين حتى يبلغهم الدرجات العالية في التطور. فالإسلام باب الإيمان، والإيمان باب التوحيد. فأهل الظاهر والباطن مؤمنون وأهل قائم الزمان موحدون، وقد سجل الحدود الخمسة رسائل لتثقيف أتباعهم وإرشادهم لأصول مذهب التوحيد، فقلد الإمام حمزة صفيه الشيخ أبا إبراهيم إسماعيل التميمي أكبر منصب بالدعوة، بمرسوم خطي فصار يل الإمام حمزة بالمكانة

والمرتبة. ثم قلد بمرسوم آخر الشيخ بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموقي بتاريخ شعبان سنة (411 هـ).

وفي الرسالة (29) أمر الإمام حمزة بتعيين موظفين لإقامة حدود العقاب على من وجبت عليه، مثل الزاني والسارق والقاذف، وشارب الخمر. وفي الرسالة المؤرخة في ربيع الأول سنة (410 هـ) ذكر أنه : ((كانت تعلق على باب زويلة، وباب الفتوح المستحقين للعقاب من المجرمين الكبار)).

والرسائل المحفوظة لداعي الدعاة حمزة قليلة لدى الموحدين، وكذلك رسائل الشيخ إسماعيل التميمي. أما الشيخ محمد القرشي الذي كان له الأمر والنهي على جميع المستجيبين في القاهرة وأخبارها وأعمالها. كما جاء في الرسالة (22) فلا يوجد شيء من رسائله. ولكن الشيخ بهاء الدين علي السموقي فمعظم رسائله متواجدة محفوظة. وقد استمر يدعو لهذا المذهب حتى منتصف العقد الرابع من القرن الرابع الهجري. وكان يوجه رسائله إلى السكان في غرب آسيا وأواسطها. ففي شهر رجب عام (422 هـ) أرسل يدعو إلى مذهب التوحيد جميع من بالشامين الأسفل والأعلى. ومن بالصعيد والحجاز وأرض اليمن والجزيرة والعراقين الأبعد والأدنى من رؤساء العرب من أهل المنازل والرتب، ويذكر أسماء حسان بن مفرج وعشيرته وزماح وجابر ورافع بن أبي الليل، وجامع بن زايدة وأسرته ودفاع بن نبهان و ذويه وجماعته وعميرة بن جابر وآله وإخوته وشبيب بن وثاب ومن في جزيرته، وأولاد المسيب قرواش ورافع و ذويه....

وفي عام (422 هـ) بعث برسالة إلى الشيخ ابن سومر راجبال وإلى جميع الموحدين في الهند وهندستان، وفي الرسالة (42) يقول إن الإمام حمزة قد أرسل له كتاباً رسم له فيه وضع الكتب وقراءتها على أهل البصائر، وأجاز له الكلام في سائر الأقاليم والجزائر لإيضاح ما أشكل على الطائفة من العلوم، وإشهار ما علمه من الفرائض والرسوم، أهمها صدق اللسان، وحفظ الإخوان، مؤكداً بأن الصدق هو التوحيد بكماله، والكذب هو الشرك والضلالة. وفي عام (423 هـ / 1032 م) أرسل إلى معد بن محمد ومن معه بالقاهرة رسالة رقم (43) ورسالة أخرى إلى الشيخ أبي الكتائب بالبيضاء، وجميع بلدان الصعيد وكان الإمام حمزة يكتب إليهم وإلى أهل الإنصناء حيث توجد رسالة مؤرخة في سنة (411 هـ / 1020 م). وقد وجه رسالة إلى اليهود يندد بهم لما ارتكبوه من جرائم وموبقات وعصيانهم لأنبيائهم الذين نقموا عليهم لما قاموا به من أعمال شريرة وجهلهم

لحقيقة الدين وطمسهم لمعالم الحق والحقيقة، كما يذكر في رسالة أخرى فقرات من الإنجيل التي تدين حكام المسيحيين وأشرارهم. ثم يوجه رسائل توبيخ إلى الأشرار مثل : (سكين[190] ولاحق وابن البربرية، وابن أبي حصبة، وسهل، وحسن بن معلا، والخائب محلاً) وفي رسالة خاصة يرد على المنجمين ويفند خطأ المعتقدين بهم بقوله : ((وأنا أذكر خلل عقل من جعل للنجوم والجمادات أحكام بتقدير سعد ونحس، وأن له في أرزاق العالم وقسمتها تدبيراً وتأثيرا، إلا أن قائل هذا قد باين الرد على الباري في إبطال علم النجامة))، وفي رسالة (86) يقول : ((وليس كل من حفظ شيئاً من المعلومات الدينية، وأن أكثر منها كانت نفسه متمددة، بالعقل إذا جل ذلك للرياء والسمعة وسبب التكسب والتلبس والتكبر على الدين والفضل، فأدب الدين هو فروض التوحيد هي الفضائل التي جعلها الباري تعالى أصلاً وأساساً لدين التوحيد والحق والعدل)).

وقد أرسل رسالة إلى جبل السماق يثني فيها على سكانه أهل الصدق والفضل والوفاء ورسالة إلى آل عبد الله، وآل سليمان، وآل أبي تراب كما وجه رسالة إلى الإحساء و رسائلاً كثيرة إلى أشخاص وجهات مختلفة داعياً فيها إلى مذهب التوحيد، محذراً من كل شرير عنيد. وفي عام (435) هجري انتهت كتابة الرسائل، وقد تقبل الدعوة فئات إسلامية من مختلف الأمصار التي تدين شعوبها بالإسلام، وتهتدي بهدي القرآن. وقد عرفت كل منطقة باسم الداعي الذي تقبلوا منه الدعوة، أو باسم صاحب الدعوة. ففي تركيا عرفوا باسم (الحمزاوية). وفي ألبانيا والعراق وفارس واليمن والهند عرفوا بأسماء متنوعة. وفي بلاد الشام عرفوا بالدروز، لقب أطلقه عليهم الأتراك ليشوهوا أمجاد هذه القبائل العربية التي كانت تنتصر على جيوشها الجرارة في معارك جبل لبنان، ثم جبل (حوران)، وكان الموحدون قد قتلوا أنوشتكين الدرزي عام (410 هـ / 1019 م) في وادي التيم قرب جبل الشيخ لأنه رفض الانصياع لأوامر الإمام، وجرب إفساد تعاليم مذهب التوحيد بتحريف الرسائل. وفي شمال الباكستان[191] فوق مدينة جلجات في زاوية منفرجة بين الجبال الشاهقة، على حدود الافغانستان تعيش قبيلة (الهونزا) التي لها عقائد تشبه الإسماعيلية والتوحيد الدرزي. وجماعة من قبائل بني عيسى التي تقطن بعض القرى الجبلية التي تقع في الشرق من مدينة مكناس في المغرب، يؤمنون ويعتقدون مثل دروز سوريا. وكذلك في جزيرة جربا في تونس توجد جماعة يقال أنها دروز. وفي إيران عدة ملايين يدينون بهذا المذهب المعتقد بأن المؤمنين بهذا المذهب في العالم يتجاوز عددهم عشرات الملايين.

ويقال أنه عندما غادر الإمام الحاكم مصر وتوجه إلى سجستان شرقي بلاد فارس على حدود الهند، والتحق به حمزة بعد فترة ومن هناك أرسل حمزة إلى بهاء الدين في سنة (439 هـ / 1045 م) تأملات صوفية أملاها الحاكم، وجمعت في سجل (سرائر الأول والآخر) وعندما أراد الحاكم أن يغيب أحضر علي الظاهر وجماعة معه وأخذ عليهم العهد بنسخة أحلاف بين رسائل الحكمة، لكن الظاهر نقض العهد عندما تولى الخلافة، ولم يمض أربعون يوماً على غيبة الحاكم، فقد بدأ بالاضطهاد للموحدين، والتعذيب والقتل والمطاردة، مما جعل الموحدين يختفون ويتسترون، وقد دامت هذه المحنة سبع سنوات، ومن ثم شنت الحرب من إنطاكية إلى الاسكندرونة، واشتدت في حلب وجوارها وقتل خلالها آلاف من الخلق، وارتد كثيرون عن دعوة التوحيد فثبت الصامدون الصابرون. فكتب حمزة رسالة (الغيبة) ليطمئن الموحدون في غيبة الحاكم، ويوصيهم بالثبات على الميثاق الذي أخذوه على أنفسهم.

استمر حمزة بالقاهرة ولم يعرف مكانه، باستثناء بهاء الدين والحدود الثلاثة، وسكنت الدعوة طيلة سنوات المحنة، وفي سنة (418 هـ / 1027 م) تلقى بهاء الدين كتاباً من حمزة يأمره أن يؤلف الرسائل، وينشر الدعوة، فبدأ بهاء الدين بكتابة الرسائل ونشر الدعوة علناً، بعد أن مرت بسنوات كانت فيها سرية، فاستمرت دعوته سبع عشرة سنة حتى عام (434 هـ / 1042 م) ثم أقفل باب الدعوة.

وتعتبر الرسائل التي كتبها بهاء الدين، وما ألفه حمزة، وما كتبه إسماعيل التميمي ثاني الحدود إضافة لرسائل الحاكم بأمر الله وتأملاته هي كتب الموحدين (الدروز) الدينية المقدسة والمشرفة، وتدعى (الحكمة الشريفة)، وعددها مائة وإحدى عشرة رسالة مجموعة في ست كتب، ويقال أن كتب الحكمة الشريفة مؤلفة من أربعة وعشرين كتاباً وليست ستة فقط، لكن تشتت معظمها عندما غاب الحاكم وبدأت المحنة، ومنها ما أتلف ومنها ما أخفي وهناك مكتشفات جديدة تظهر مثل (المنفرد بذاته)، والرسالة الموسومة (الشريعة الروحانية) وقد ذكر كل منهما في كتب الحكمة الشريفة.

د _ الدعوة في الشام

كانت الشام أهم مكان ظهرت فيه سياسة الحاكم، إذ انه بالنسبة لحكام مصر المسلمين منطقة أمان، لملاصقتها أرض مصر، وميداناً لجهاد أعداء الإسلام، لوجود الثغور الإسلامية على حدودها الشمالية. ولقد صادف الحاكم في الشام نفس الصعاب التي صادفها المعز والعزيز قبله، إلا أن الحاكم يرجع إليه الفضل في توطيد حكم الخلافة الفاطمية فيه. وقد كانت الصعاب تأتي غالباً من قبل أهل الشام أنفسهم، وهم سلالة عربية تتوزعهم قبائل كبيرة سكنت الشام قبل الفتح، مثل الطائيين والكلبيين، وقبائل جاءت مع القرامطة حينما غزو الشام ومصر، مثل سُليم وهلال. ولم يكن عرب الشام يرحبون بالفاطميين لأن معظمهم كان على المذهب السني المعادي للفاطميين، ولاعتماد الفاطميين منذ البداية على عساكر من المغاربة الذي اعتبروا أعداء تقليديين لعرب الشام، لذلك تحالفت قبائل الشام مع القرامطة في طرد الفاطميين عندما غزو الشام في سنة (359 هـ / 970 م). وفي الشام تواجد الحمدانيين في شمالها والجزيرة المجاورة[192] وهم أسرة أرستقراطية[193] من قبيلة تغلب _ أظم قبائل ربيعة _ ولم تكن معروفة أيام الأمويين، ولكن ظهرت أطماعهم بضعف العباسيين فسعوا للحصول على إمرة الأمراء في بغداد ثم أقطعتهم الخلافة العباسية نواحي شمالي الشام والجزيرة للتخلص منهم، على أن يحموا المسلمين والثغور فيها. ولكن الحمدانيون كانوا في حالة سيئة، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن ثغور الإسلام كما يجب، لسبب التنازع فيما بينهم، وانغماسهم في حياة الترف، فكانوا يبنون قصوراً فخمة، مثلما فعل سيف الدولة مؤسس دولتهم بالشام، الذي حول نهر قويق _ نهر مدينة حلب وأطافه بقصره[194]، وكانوا يتخذون الجواري الجميلات من بنات الروم، وكان يجتمع في بابهم مثل المتنبي، وأبي العتاهية وشيوخ العصر ونجومه، وبرز منهم الشعراء أمثال أبي فراس. ولذلك عندما سير المعز جوهر الصقلي لفتح مصر

والشام حذره من بني حمدان، بأنهم غدارون لا ثقة فيهم. فهم في رأيه : ((أنهم يتظاهرون بثلاثة أشياء، وليس لهم فيها نصيب، يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة، وشجاعتهم للدنيا لا الآخرة)).

وعداء الفاطميين للحمدانيين يرجع على أن الحمدانيين ساعدوا القرامطة في غزوهم للشام ومصر. وبضعف الخلافة العباسية نتيجة لغزوات القرامطة في العراق والشام، بدأت الدولة النصرانية البيزنطية تحركها لاسترداد ما فقدته من أملاكها ففي عهد نقفور فوكاس وجه الروم كل همهم لحرب المسلمين فغزوا الشام غزوات متتالية منذ (351 هـ / 962 م) واستولوا على أهم الثغور وعلى حلب، فاضطر سيف الدولة إلى ترك حلب والهروب وبعد موته انتهز نقفور فرصة تنازع قوات الترك للوصاية على أبي المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة فدخل الشام ووصل إلى طرابلس وأقام شهرين ثم رجع وأخذ أسرى كثيرين، وأجبر الكثيرين على التنصر ولكن نقفور لقي حتفه في (359 هـ / 969 م) على يد أقرب الناس وهي زوجته ثيوفانو على يد زمسكيس الذي تولى الحكم من بعده وهذه الغزوة البيزنطية أفهمت العزيز الذي تولى بعد المعز بضرورة احتلال الشام، فأرسل جوهر ليقاتل أفتكين التركي والعرب، فاستدعى أفتكين الحسن الأعصم زعيم القرامطة وهزموا جوهراً فذهب العزيز بنفسه للقضاء على أفتكين والقرامطة، فتمكن منهم في (368 هـ / 979 م)[195] وحتى وصل جنوب الشام دمشق. ثم وجه همه للقضاء على الحمدانيين الذين قبلوا حماية بيزنطة فكان أميرهم سعيد الدولة بن سعد الدولة يحمل والمال و الهدايا إلى الروم فأرسل العزيز نحوهم قائده التركي (منجوتكين) في (382 هـ / 992 م) على رأس العسكر المصري، فهاجموا حلب وحاصروها، فاستنجد لؤلؤ وصي سعيد الدولة التركي بالروم وكتب إليهم ((متى أخذت حلب، أخذت إنطاكية، ومتى أخذت إنطاكية أخذت قسطنطينية)) فانتهز باسيل الثاني عظيم الروم الفرصة لاستعادة الشام فدخل الشام في جيش كبير عدده مائة الف مع أسطول كبير فسلمت له حلب وحمص، لكنه اضطر للانسحاب لظروف داخلية وخارجية. فلما سمع العزيز بزحف الروم جهز أسطولاً كبيراً في ميناء القاهرة (المقس) ولكن بعض مراكبه أحرقت في ظروف غامضة فاستعجل ببناء أسطول غيره ونادى بالنفير العام، وكتب إلى أهل الشام بالسير نحو ملك الروم. وذهب على رأس عسكر مصر إلى ببليس شرق الدلتا في طريق الشام، لكنه توفي فجأة قبل تحرك العسكر في (386 هـ / 996 م) وقد حدثت مصادمات عنيف في أول وصية برجوان على الحاكم، بين الروم وجيش الحاكم وأسطوله وأحرز جيش الحاكم انتصارات هائلة وتمكنوا من الوصول إلى صور،

والاستيلاء عليها والتوغل في أرض الروم في منطقة الثغور لكن برجوان لرغبته ولانشغاله باللهو سعى إلى الصلح مع الروم وأرسل أريسطس بطريرك بيت المقدس وخال ست الملك إلى القسطنطينية فعقد هدنة لمدة عشر سنوات في (402 هـ / 1000 م) وهذه الهدنة هيأت للحاكم الفرصة ليسيطر على الشام سيطرة تامة مع أن عرب الشام قد ثاروا على الحاكم في (402 هـ / 1011 م) واستمرت إلى (404 هـ / 1013 م) ولكن مع استفحال خطرهم أرسل الحاكم نحوهم جيشاً قوياً بقيادة علي بن جعفر بن فلاح فتمكن من القضاء عليهم وعلى زعيمهم المفرج بن دغفل بن الجراح كبير قبيلة طيء. وتمكن الحاكم من أخذ حلب لكن لؤلؤ الذي تعامل مع الحاكم لفترة عاود الخصومة وقطع الدعوة الفاطمية وحارب والي طرابلس كذلك شجع ضد لؤلؤ زعماء بني كلاب المحيطين بحلب وهم المرادسيون، فبدؤوا يغيرون على بلاد لؤلؤ بقيادة صالح بن مرادس الكلابي وبعد موت لؤلؤ في (399 هـ / 1008 م) خلفه ابنه مرتضى الدولة، فحاربه الكلابيون واستولوا على نصف بلاده وجعلوه يفر إلى الروم وفي (404 هـ / 1013 م) وبذالك زال ملك بني حمدان، وقد نجحت سياسة الحاكم في الشام حيث سيطر عليها من حدود مصر إلى الفرات. وقد كانت الشام تربة معادية للفاطميين فأصبحوا في عهده بفضل نشر الدعوة للمذهب الجديد تربة صالحة للدعوة الشيعية بحيث أن الشام لا يزال مركزاً من مراكز الشيعة إلى وقتنا هذا[196] وبعد غياب الحاكم بأمر الله أرسل حمزة بن علي دعاة إلى الشام لنشر دعوة مذهب التوحيد، فنجحوا في الجنوب وتوافد المستجيبون على الدخول في الدعوة.

هـ _ الدعوة في العراق

كان هدف الفاطميين منذ تكوين دولتهم في المغرب تدمير خلافة العباسيين في العراق، عدوهم اللدود، ولكنهم عندما انتقلوا إلى مصر وفتحوا الشام قد أحجموا عن ذلك بسبب هجمات الروم في الشام وتعاونهم مع القرامطة، ولأن العباسيين في فترة كانوا قد سيطرت عليهم دولة شيعية هي الدولة البويهية، حيث أصبح العراق مكاناً للتشيع[197] فقد كان العباسيون في فترة احتضار، وأصبح الخليفة العباسي أشبه بشبح لا سلطان له تحت وصاية المتقلبين عليه من الأتراك الأقوياء الذين كانوا قادة متمكنين متسلطين وذلك منذ عهد المعتصم، وازداد الأمر سوء بأن سيطرت أسرة بني يويه على السلطة وصارت تورث عن وارث وهم غير عرب فاصلهم من الديلم الفارسيين الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين. وقد بقوا زمناً طويلاً على مجوسيتهم ثم تحولوا إلى الإسلام وذلك منذ عام (250 هـ / 864 م) وظهرت لهم مطامع، فقد استطاعت الأسرة البويهية تكوين دويلات بزعامة أفرادها في فارس بسبب ضعف الخلفاء العباسيين، ثم استولت على بغداد من الأتراك الذين كانوا يسيطرون على الخلافة، فكان بنو بويه أشد وطأة على الخلفاء العباسيين من الأتراك وأصبح واحدهم يسك العملة باسم (شاهنشاه) أي ملك الملوك ويقرن اسمه باسم الخليفة العباسي في الخطب على منابر المساجد، وكان البويهيون متشيعين على عس القواد الأتراك السنة، بسبب أن الحسين بن علي كان قد تزوج من (جهانشاه) ابنة الملك يزدجرد، لكن تشيعهم كان على أساس المبدأ الزيدي نسبة إلى الإمام زيد بن علي السجاد[198] بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فكان الزيديون يعترفون بخلافة العباسيين، إلا أنهم كانوا يقبلون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، فقالوا بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، كما قالوا أن الإمامة غير واجبة شرعاً وأنها تقليد يمكن الاستغناء

عنه، وأن الخلفاء يمكن أن يكونوا عوضاً عنها، لذلك لم يكن لهم إمام حاضر، وفقه مذهبهم لم يصل إلى درجة الفقه الإسماعيلي في التعمق بالفلسفة والعلوم المنطقية والدينية.

وعندما نقل الفاطميون خلافتهم من المغرب إلى مصر، كان في بغداد ان تشيع صاحب قوة هم البويهيون، فتقاربوا فيما بينهم وحاول معز الدولة البويهي الكشف عما بقلبه بالبيعة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله لولا الخوف على سلطانهم، ولكن العلاقات الحسنة بينهما لم تكن قوية مثلما كانت بين عضد الدولة البويهي والعزيز بالله نزار الفاطمي وقد رد العزيز بالله على رسالة عضد الدولة برسالة انتهزها عضد الدولة ليذل الخلافة العباسية، فقد قرأ الرسالة أمام الجميع وجاء فيها : ((وبعد، فإن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك، فأدى ما تحمله من إخلاصك في ولاء أمير المؤمنين ومعرفتك بحق إمامته، ومحبتك لآبائه الطائعين الهاديين المهديين[199].....)).

ثم ذكر كلاماً طويلاً في المعنى، أما بقية الرسالة فيستدل منها على أن العلاقة بينهما لم تكن مجرد تبادل عبارات المودة والصداقة، بل تعدتها إلى تبادل الرأي والمشورة، فيما يحيط بهما في العالم الإسلامي من خطر على الإسلام من الروم وضعف الحمدانيين. وهذا التعاون أدى إلى عمل العزيز على محاربة حمداني الشام، وعمل عضد الدولة على القضاء على حمداني الجزيرة، ولكن بعد موت عضد الدولة في (376 هـ / 986 م) ضعف البويهيون وتغير الموقف بين الفاطميين والعباسيين، وذلك لقوة العباسيين وضعف البويهيين لاعتمادهم على الأتراك وانقسامهم. ومن مظاهر ضعف البويهيين في العراق أن السنيين أقاموا فيها مشاهد لأعداء العلويين : مثل الزبير بن العوام أحد أعداء علي الذي حاربه في موقعة الجمل. وأقاموا أعياد تقابل أعياد الشيعة مثل (يوم الغار) جعلوه بعد ثمانية أيام من يوم الغدير في السادس والعشرين من ذي الحجة. وجعلوا إزاء يوم عاشوراء الذي هو إحياء لذكرى موت الحسين بن علي كان يوم مصرع مصعب بن الزبير، وصار الخليفة العباسي يتدخل في أمور السياسة في بغداد، وأظهر حقده للشيعة، وعمل الخليفة القادر بالله الذي تولى بعد الطائع في (381 هـ / 991 م) على منع الشيعة في الكرخ والطاق ببغداد من الاحتفال بيوم عاشوراء، وأظهر الخليفة العباسي ما يكنه من حقد للفاطميين ووقف بالمرصاد لبني عقيل في الجزيرة، الذين سعوا للتقرب من الفاطميين، وكان بنو عقيل قد هاجروا من البحرين إلى الموصل، وأصبحوا من رعايا بني حمدان، ولكن لما استولى البويهيون على دولة بني حمدان تمكن

العقيليون من الاستقرار مكانهم وعندما تولى قرواش بن المقلد، الملقب بمعتمد الدولة أعلن الخطبة في الموصل والكوفة والمدائن للحاكم في سنة (401هـ/1011م) كما ضرب اسم الحاكم على البنود وذكر أبو المحاسن ما جاء في الخطبة. وقد ختمها معتمد الدولة بقوله ((اللهم واجعل نوامي صلواتك، وزواكي بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان، وحصن الإيمان، وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية، عبدك ووليك المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين، وأكرمت أجداده المهديين، اللهم وفقنا لطاعته، وأجمعنا على كلمته ودعوته، وأحشدنا في حزبه وزمرته، اللهم أعنه على ما وليته، واحفظه فيما استرعيته وبارك له فيما آتيته، وانصر جيشه، وأعلِ أعلامه في مشارق الأرض ومغاربها، إنك على كل شيء قدير.))

ولما علم الخليفة العباسي القادر بذلك حرض الترك على مهاجمة العقيلين وأرسل عسكراً كبيراً مما اضطر قرواش أن يلغي الخطبة للحاكم. وكان لضعف البويهيين أثر في أن القادر بالله هاجم الفاطميين، وطعنهم في نسبهم إلى فاطمة وعلي وعلى أساسه ترتكز سلطة الدولة الفاطمية. ويرجع هذا الطعن كما يرى ابن خلدون في مقدمة كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر....) في الصفحة 16 _ 18 ((إن هذا الطعن يرجع إلى كره الدولة الفاطمية لمشاركتهم في دولتهم)) ويقول الأمير الهولندي مامور ((mamour)) في مقالة شيقة يناقش فيها سبب ظهور الطعن في عهد الحاكم وذلك في كتابه المعنون :

((polemics on the origin of the fatimicali phs))

ويلخص هذه الأسباب في :

1 _ الكراهية المتأصلة في العباسيين من نسل علي وفاطمة.

2 _ المرارة من مقاسمة الفاطميين أملاكهم، وذلك حينما هددوا سلطانهم.

3 _ الحقد الذي تولد امتداد سلطانهم لما بقي من أيديهم والخوف على المتبقي.

4 _ الحقد الذي تولد من منافسة القاهرة قاعدة الفاطميين لبغداد قاعدة العباسيين، كمركز للعلم والثقافة والفن والأدب الإسلامي.

5 _ الفرصة مؤاتية لاختلاف العلويين، وتفرقهم بين فرق مختلفة.

6 _ إمكان التأثير على بعض العلويين في بغداد، وضمهم لجانبها.

7 _ كذلك البويهيين لا يمانعون، لأنه قد نالهم الضعف فقدروا الخطر الفاطمي حق قدره.

8 _ إمكان إثارة العناصر السنية التي توجد في البلاد التي امتلكها الفاطميون.

9 _ إعلان هذا الطعن من شأنه أن يضعف من نفوذ الفاطميين وليس له ضرر على العباسيين.

10 _ ملائمة الوقت لوجود خليفة متعصب للشيعة، ومعاد للسنة كالحاكم.

وقد أظهر أثر هذا الطعن الرسمي في سكان أملاك الفاطميين. ويقول أبو المحاسن: ((إن الحاكم هان في أعين الناس، بحيث أنه لما شاع عن الحاكم دعوى الألوهية. ازداد سخرية الناس منه، فكان يرد على ذلك ويذكر نسبه في كل جمعة. وهو على المنبر يخطب)) ووجه جهاد الدعوة الهائل لاجتذاب ملوك البويهيين، وعين في العراق والجزيرة حميد الدين الكرماني الذي وصف بحجة العراقيين. وقد استطاعت دعوى الحاكم اجتذاب أهل الأماكن البعيدة. فكانت دعوته في الهند قوية جداً وقد كان الفاطميون يرسلون إليها الدعاة منذ زمن الدعوة الأولى أيام ابن حوشب كبير دعاتهم في اليمن. وكون الشيعة في الهند دويلات أشهرها الملتان[200] وكان حكامها يرسلون الهدايا والأموال إلى أئمة مصر الفاطميين ولكن عندما قامت دولة الغزنويين السنة على حدود الهند (أفغانستان) ثم توسعت باستيلائها على إقليم ما وراء النهر من السامانيين، غزا الغزنويون دويلات الشيعة بما فيها الملتان في (396 هـ / 1005 م) فحاول الحاكم استمالة حكام الغزنويون لكنه فشل لأن محمود الغزنوي كان يميل للسنة فصار يطارد الشيعة ويقتلهم في الهند.

و _ الدعوة في الجزيرة العربية

1 _ اليمن

سياسة الحاكم نحو بلاد الجزيرة العربية اتسمت بالنشاط والنجاح، لأن أهلها كانوا في عداء للعباسيين لاعتمادهم على الفرس والترك دون العرب فمنذ وقت مبكر انتشر التشيع الإسماعيلي في اليمن ن وذلك حوالي سنة (268 هـ / 881 م) على أيدي أكبر دعاتهم ابن حوشب الذي نزل جنوب صنعاء وعلي بن الفضل الذي نزل قرب البحر الأحمر. فزحفا بالجيوش، وفتحا المدن فاشتهر ابن حوشب بالمنصور أو منصور اليمن لسيطرته فيها. وأطلق عليه الشيعة فجر الدعوة المتنفس، والذي منع العباسيين من إنقاذها من الفاطميين بعدها عن مركز الخلافة العباسية ووعورة طرقها، وثم خرج الدعاة من اليمن إلى السند والهند ومصر والمغرب. فأبو عبد الله الشيعي الصنعائي خرج من اليمن إلى المغرب. وكان الخلفاء الفاطميون يفكرون بالاستقرار في اليمن وتكوين خلافتهم فيهاً بدلاً من إنشائها بالمغرب. لكن الدعوة الشيعية باليمن لم تستمر في نجاحها. لأن علي بن الفضل خرج على ابن حوشب ودعا لنفسه، فحارب ابن حوشب وانتصر عليه. ومات ابن الفضل مسموماً ومن ثم مات ابن حوشب حوالي سنة (303 هـ / 915 م) ثم انقسم أولاد ابن حوشب على أنفسهم، ومنهم من دعا على العباسيين. حيث أن جعفر بن منصور اليمن هرب إلى المهدي بالمغرب لسوء سياسة إخوته وخروجهم على الدعوة الفاطمية.

وبالرغم مما سبق فهذا لا يعني أن الدعوة زالت من اليمن، لكنها خرجت من بيت المنصور، وتحولت سرية في مناطق الجبال الوعرة، فطوال عهد الخلفاء الفاطميين بالمغرب ومصر. كان كل داعية في باليمن يحافظ على حسن العلاقة بينه وبين الإمام الفاطمي، ويحرص أن يأتيه التعيين

الرسمي منه، ويرسل له مال المستجيبين للدعوة وقويت الدعوة قبل عهد العزيز وخطب له باليمن[201]

2 _ في البحرين :

قد نجحت الدعوة الإسماعيلية في البحرين، وهي البلاد الواقعة بين البصرة وعمان وعلى الخليج العربي، وقد بلغت الدعوة غاية نجاحها على يد القرامطة الأوائل، مثل أبي سعيد الجنابي وابنه أبي طاهر. ولكن في أيام أبي طاهر نشأ بين القرامطة فريق ناهض الفاطميين وعاداهم، وقوي بعد موت أبي طاهر الذي لم يترك إلا عشرة أبناء صغار، فقام أحمد بن أبي سعيد الجنابي المسمى أبا المنصور الوصاية على سابور بن أبي طاهر، حيث ظلت علاقة القرامطة بالفاطميين غير واضحة زمن وصايته حتى سنة (358 هـ / 969 م) عندما غزا المعز لدين الله مصر. حيث قبض سابور على عمه أحمد، الذي توفي بتدبير من شيعة سابور. ثم قام الحسن بن أحمد المعروف بالأعصم، بقتل سابور في سنة (359 هـ / 970 م) وأوقع بأتباع الفاطميين، وخرج في حملة على الشام ومصر، حيث صدهم المعز وعلى الرغم من أن المعز قد كتب إلى الأعصم كتاباً يدعوه للموادعة والطاعة لإمامه. فإن الأعصم استمر في عدائه. وعندما حارب العزيز بالله أفتكين في الشام، استنجد أفتكين بالأعصم القرمطي ضد جوهر قائد جيش العزيز وهزمه فلما خرج العزيز بنفسه على رأس جيش كبير هزم أفتكين و القرمطي الذي هرب إلى الرملة بأرض فلسطين _ فأرسل العزيز الذي صالح أفتكين واستماله إليه بعرض الصلح على القرمطي بمبلغ ثلاثين ألف دينار يحمل من العزيز، فعاد الأعصم إلى الإحساء بالبحرين، وقد كان المال يحمل إلى القرمطي كل سنة إلى وفاته عام (366 هـ / 977 م) وقد نجم عن هذا الصلح أن عاد القرامطة إلى الفتنة ضد العباسيين حيث أنه بعد موت الأعصم اشترك بنو أبي طاهر من شيعة الفاطميين مع بني أحمد بن أبي سعيد في حكم البحرين وكانوا يعرفون بالسادة فهاجموا البصرة[202] في العراق

3 _ في الحجاز :

وفي الحجاز وسط الجزيرة العربية فقد كان هم الفاطميين أن يدعى لهم في الحرمين، بسبب أن أمير المؤمنين الحقيقي هو من كان ملكاً للحرمين، وذلك لأن الحجاز كان قبلة المسلمين جميعاً، ولم يلق التشيع الإسماعيلي النجاح نفسه الذي لقيه في اليمن أو البحرين وإنما ظهرت في الحجاز أسر شيعية غير إسماعيلية. فقد ظهر بنو حسن أو (الحسنيين) أو ما يعرف بالطالبين بمكة حيث كونوا فيها دولة (السليمانيين) نسبة إلى سليمان بن داوود بن حسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فخطبوا لأنفسهم في خلافة المقتدر العباسي في (301 هـ / 913 م) ولكن القرامطة الإسماعيلية استولوا على مكة في (317 هـ / 929 م) ثم عادت إلى نفوذ العباسيين لانشغالهم بالسيطرة على أماكن أخرى. ثم استطاع بنو حسن أن يستولوا عليها وأن يؤسسوا دولة فيها عرفت بالموسوية نسبة إلى موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب. لكنهم كانوا يدعون للعباسيين.

وفي المدينة المنورة تأسست فيها دولة الحسينين العلوية على يد محمد بن طاهر من نسل الحسن بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب في (360 هـ / 971 م) ونتيجة للنزاع بين بني الحسن وبني الحسين صار الحج في فوضى لذلك حاول المعز أثناء استعداده لغزو مصر من المغرب أن يوقف فوضى الحج. فأرسل الأموال إلى الفريقين لشراء ديات المقتولين، وعقد بينهما السلام، ومهد للدعوة للخليفة المعز في الحرمين، وإسقاط الدعوة للعباسيين، فأصبحت الكسوة تذهب من مصر إلى الكعبة، ويصف المقريزي الكسوة التي أرسلها المعز وتسمى بالشمسية، وهي من الحرير الأحمر ثبتت فيها الأهلة من الذهب، وكتبت فيها آيات الحج بزمرد أخضر، ورصعت بالدرر كبيض الحمام والياقوت الأحمر والأصفر والأزرق وبخرت بالمسك وقبل إرسالها نصبت في أعلى مكان في قصر المعز بالقاهرة، وكان الخلفاء الفاطميون يبالغون في تجهيز قوافل الحج، فأنفقوا عليها الأموال الطائلة وبلغت أحياناً مائة وعشرين ألف دينار، وأحياناً مائتي ألف.

وقد كان الحجاج ينزلون قبل مسير القافلة في منطقة بركة الحجاج، فلا يسيرون حتى يأتي الخليفة ليودعهم بنفسه.

ولكن الحج خرج عن السيطرة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله حوالي سنة (400 هـ / 1009 م) عندما أعلن أمير مكة أبو الفتوح بن جعفر الحسيني الخطبة لنفسه وتلقب بأمير المؤمنين

الراشد بالله، ونزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة وضرب نقوداً باسمه. كما استولى على المدينة المنورة من الحسينيين وذلك بتحريض من الوزير علي بن الحسين المغربي الذي غضب عليه الحاكم لسوء تصرفه، فهرب إلى مكة واجتمع بأبي الفتوح وحمله على الخلاف. ولكن الحاكم أسرع إلى العمل لاستمالة العرب، فولى الحاكم الحرمين أحد بني عم أبي الفتوح ويعرف بأبي الطيب وأرسل الشيوخ بني الحسن مالاً وثياباً ثم بعد رجعة أبي الفتوح خلع نفسه وأشهد أن الإمامة للحاكم، وطلب العفو من الحاكم فصفح عنه وأما الوزير المغربي فإنه هرب إلى العراق، ثم أرسل قصيدة إلى الحاكم يطلب منه الصفح، فصفح عنه، لكنه مات قبل أن يحضر[203] إلى الحاكم الذي دعاه للحضور وفي آخر سني الحاكم الذي وجه كل همه إلى إصلاح عقائد المذهب وما شابه من الانحراف كان لا يهتم بما يحدث في مكة فاضطربت كثير من الأمور فيها. [204]

ز _ الدعوة في المغرب

كان هدف الفاطميين المُشرِق، وقد تركوا المغرب مسرعين إلى مصر بعد تنفيذ خططهم في المغرب بعد الانتقال إلى مصر، هو أن يحكمه أبناء من المغرب، مخلصين له، بعد أن كان المغرب على مر الأيام تحكمه أسر تأتيه من الخارج، من الخوارج والشيعة. فأراد المعز أن يعبر عن جميله للمغاربة الذين أنشؤوا دولته، بأن يترك لهم شؤون المغرب، ولم يولِ المعز حاكماً من قبيلة كتامة المقربين له لأنه أخذ معظم كتامة إلى مصر وقد ولى المعز المغرب لقبيلة صنهاجة الكبيرة، فقد كانت تؤلف شعباً عظيماً يتألف من حوالي سبعين بطناً[205] وكانت على قسمين : أحدهما قرب الساحل، والآخر في جنوب المغرب حتى السودان وقد أظهرت هذه القبيلة إخلاصاً أيام نشأة الدولة الفاطمية فقد اختار المعز علي أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي الذي كان أبوه زيري قد أظهر إخلاصاً للفاطميين أثناء ثورات البتر، وكان يلقب بـ بلكين أو بلقين، ومنحه المعز لقب أمير إفريقيا في (361 هـ / 972 م) وكان يوسف بن زيري هو مؤسس الدولة الزيرية. وعندما غادر المعز فرض عليه أن يبقى القضاء والخراج تابعين له، والعملة باسم الخلفاء الفاطميين، وفصل طرابلس عنها وجعل عليها أحد الكتاميين. وقد أبقى بلكين على سياسة الود للمعز، بعد انتقاله الخلافة لمصر واستمر على إخلاصه للعزيز، فأعلن بلكين الطاعة وأرسل هداياه، وكان بلكين يغزو البتر حتى استولى على أغلبهم. وبعد وفاة بلكين وافق العزيز على تولية المنصور بن بلكين في (374 هـ / 984 م) وبعد أن توفي المنصور الذي استمر في إخلاصه للفاطميين في العام نفسه الذي توفي فيه العزيز في (386 هـ / 999 م) وصل سجل التولية من الحاكم لأبي مناد باديس ولقبه الحاكم بنصير الدولة.

ولكن بدأت تظهر بوادر الفتور من الأملاك التي كانت تحت نفوذ الزيديين في برقة وطرابلس. وكانت هذه المنطقة خاضعة لحكام مصر منذ الفتح العربي وسكنتها قبائل بربرية _ مغاربة _ من السنة. مثل : مزاته، وزناته، ومغراوة. وكان والي برقة أيام المعز أفلح بن ناسب، ووالي طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي[206] ولكن بلكين الذي كان والي المغرب طلب من العزيز بالله أن يضيف إليه ولاية طرابلس في (367 هـ / 977 م) فأجابه العزيز إلى طلبه. ولكن أيام الحاكم تعصب برجوان الذي كان وزيراً ووصياً على الحاكم في صغره، تعصب ضد المغاربة فأثار اضطراباً في هذه الولاية. وحينما أراد حاكم طرابلس من قبل باديس واسمه عوصلة بن بكار تسليم طرابلس بدون علم باديس إلى الحاكم. فأذن الحاكم لعوصلة بالالتجاء إلى مصر، وقد شجعت هذه الحالة القلقة أحد الثوار من أعداء الفاطميين على الثورة في برقة، وهو الوليد بن هشام الذي انتسب إلى بني أمية فهو الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل. ولكن عندما قبض الوزير المنصور بن أبي عامر على السلطة في عهد المؤيد الخليفة الأموي الأندلسي بدأ يتعصب ضد أهل المؤيد. وكان أبو ركوة (الوليد) ممن هربوا من الأندلس وذهب إلى برقة، ولقب الوليد بأبي ركوة لأنه كان يظهر النسك ويحتفظ بركوة معه على عادة الصوفية. واستطاع أبو ركوة أن يجمع عناصر غاضبة على الفاطميين من البربر السنيين، وقبائل زناته من البتر، وقد انضم أهالي برقة له، في حربهم مع عسكر والي الحاكم في جمادى الآخر سنة (395 هـ / 1005 م) وقد بدأ أبو ركوة حركته في برقة بالاستيلاء على عدة بلاد، ثم ذهب إلى قرنة التي حاول أهلها الدفاع عنها، لكن القبائل البربرية اقتحمتها وقتلت من فيها، وهدمها أبو ركوة ثم سار نحو برقة فقاتله عسكرها قتالاً شديداً، ودفعوه أول الأمر، لكنه عاود الحصار ثانية واستمر الحصار شهوراً طويلة وحاول الحاكم أن يستدرجه، فأمر بعض المغاربة بالكتابة إليه ولكن دون جدوى، فجهز الحاكم جيشاً من المشارقة والمغاربة بقيادة (ينال) أحد قواد الأتراك. فلما سمع أبو ركوة بأخبار وصول ينال أضرم النار بالمنجنيقات والعرادات وترك الحصار قاصداً ينال، ولم يكن ينال على علم بطبغرافية الأرض التي يحارب عليها حيث ضلله أتباع أبور كوة، وساروا به بين التلال، حيث هاجمه أبو ركوة في موضع يعرف بعيون النظر، وألقوا الصخور من التلال، ومن جهة كان حماس المغاربة قليلاً لأنهم يقاتلون تحت راية قائد تركي. ولأن جيش أبي ركوة كان كله من المغاربة، فتخاذل مغاربة ينال وفروا، فوقع ينال أسيراً في يد أبي ركوة الذي أمره بلعن الحاكم، فلما رفض، بأن بصق في وجه أبي ركوة، أمر بقتله فقطع إرباً. وقد نجم عن هزيمة ينال، أن أهل برقة المحاصرون أسلموها إلى أبي

ركوة، وكان ذلك في ذي الحجة سنة (395 هـ / حزيران 1005م) أما رجال الحاكم وواليه (صندل) في برقة فخرجوا منها عن طريق البحر وبعضهم توجه إلى مصر، والآخر إلى المغرب، وعند دخول أبي ركوة برقة انتقم من الشيعة فيها، فقتل منهم الكثيرين ونهب البيوت، وأعلن المذهب السني، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر للدين، ونقش على عملته اسمه وغادرها، وترك رجلاً بربرياً اسمه (ابن ماواس) عليها، الذي أساء الحكم، وانتشر الظلم وعم بين الناس الاضطراب وانتشر في كل مكان الخراب. مما اضطر سكانها إلى الهروب بسرية وتوجهوا وأولادهم ونساءهم إلى الاسكندرية. فأرسل الحاكم نحوه جيشاً معظمه من المشارقة بقيادة (فاتك) فلما سمع به أبو ركوة أرسل إليه جيشاً قاتله وهزمه في مكان اسمه (الحمام) وبعد ذلك دفع الحماس أبا ركوة وانصاره إلى أن يتوجه إلى مصر في رمضان (396 هـ / حزيران 1006 م) ومعه عساكر من كل البقاع وقبائل طامعة بمصر، حيث أن أبا ركوة منح جنوده حق النهب واستباحة الحرمات في مصر. فتوجه أبو ركوة بجنوده إلى الإسكندرية لحصارها. لكن عساكر الحاكم خرجوا له فهزموه، فانهزم بجنده وانتشر في قرى مصر ينهبونها وقد قوي حاله واستفحل أمره حينما انضمت إليه قبائل من العرب في ريف مصر مثل بني قرة في الإسكندرية الذين حاربهم الحاكم بعساكره وحبس منهم الأعيان وقتل بعضهم في (395 هـ / 1004 م) وانضم إلى أبي ركوة عرب جاؤوا مع القرامطة مثل سليم وبني هلال الذين نقلهم إلى الصعيد في زمن العزيز. ويبدو أن العرب جميعهم قد اتفقوا ضد الحاكم لاقتسام ملكه، فقد كان يطمح أبو ركوة بأخذ مصر مع المغاربة، ويعطي العرب الشام. وتداركاً لخطر أبي ركوة الذي صار قوة كبيرة وأصبح خطراً يهدد وجود الدولة الفاطمية، فقد جهز الحاكم جيشاً كبيراً من عرب الشام أعداء البربر، وكثيراً من الديلم والأتراك والسودان بقيادة الفضل بن الحسن بن صالح، وقد تنازل الحاكم في شدته مع المصريين في شؤون الحسبة حتى انضم المصريون إلى جيشه ولأنهم غضبوا من تخريب أبي ركوة لقرى مصر، ووضعوا أموالهم تحت تصرفه وتوقف ارتفاع الأسعار[207] وقد كان لشجاعة الحاكم وثباته الدور الكبير في هذه الحرب الحاسمة، فكان يدعو الناس للجهاد ويخطب على المنابر وكان يسير وحده في القرى والصحارى دون مرافقة أو حراس، ونتيجة هذه الظروف تمكن جيش الحاكم من هزم أبي ركوة في الفيوم، لكنه انسحب إلى الجيزة ليحتلها، لكن واليها تمكن من هزمه فعاد إلى الصعيد منتظراً أن يأتيه المدد وثم رجع إلى القاهرة ليقاتل الفضل ابن الحسن في موقعه فاصلة في مكان يعرف برأس البركة حيث منع الفضل العرب من الاشتراك فيها فانهزم أبو ركوة ومن معه من العرب وقتل أكثر البربر، وتفرقت الطوائف التي

انضمت إلي أبو ركوة تائبة طالبة العفو من الحاكم، الذين لم يبق منهم إلا عدد قليل من النساء والصبية فأطلق الحاكم سبيلهم ولاسيما أنه كان قد تفشى فيهم الجدري والوباء.

وأما أبو ركوة فقد هرب إلى النوبة، وهي بلاد تقع بين الصحراء الليبية والمصرية. لكن روفائيل حاكم تلك البلاد سلمه إلى الفضل بناء على هدنة (البقط) التي تتضمن تسليم الهاربين منذ أيام عمرو بن العاص. وكان الفضل يريد تقديم أبو ركوة حياً إلى الحاكم فتركه يكتب إلى الحاكم يطلب منه العفو، وأحسن معاملته فلما وصل الفضل ومعه أبو ركوة إلى القاهرة، احتفل الحاكم بهذا النصر المشهود من مكان مرتفع، فشهر بأبي ركوة على جمل، وقد ألبسه طرطوراً[208] طويلاً وخلفه قرد وبيده درة[209] ولكن حينما أنزل أبو ركوة من على جمله كان ميتاً فقد روحه، وكان ذلك في جمادى الأخرى (397 هـ / 1007 م) وبذلك تخلص الحاكم من خطر أبو ركوة. وفي تلك الهجمات كان موقف الزيريين غامضاً، فلم يسمع عن مجيئهم لنصرة الحاكم، وكأنهم كانوا يرغبون في ضياعه، وسعيهم للاستقلال بدولتهم. ويروي المؤرخون أن باديس وصل إلى القاهرة في طريقه للحج أثناء قيام ثورة أبي ركوة في (396 هـ / 1005 م) فسأله الحاكم عن أبي ركوة، فعظم حاله، وذكر قوته، وكثرة جموعه. وعاد باديس من الحج إلى مصر، واستأذن الحاكم بالعودة إلى دياره، وكان الحاكم قد انتصر على أبي ركوة، فأخره ليشهد احتفالات النصر، ولإرهابه بطريق غير مباشرة، أو على الأقل على عتابه على عدم نصرة الحاكم في هذه الحرب الطويلة، ورغم كل شيء بقي المغرب مرتبطاً برباط الود التقليدي للحاكم. ففي سنة (400 هـ / 1009 م) ذهب باديس إلى طرابلس واستولى عليها وأخرج مها زناته عدوة الفاطميين[210] وفي سنة (401 هـ / 1010 م) أرسل الحاكم هدية إلى باديس وابنه المعز تلقاها بالبنود والطبول. وفي سنة (404 هـ / 1013 م) وصلت سجلات من الحاكم بإضافة برقة وأعمالها إلى باديس، وخطاباً يبين له أنه عين في ولاية عهده ابن عمه الرحمن وليس ابنه علياً وبعد وفاة باديس تسلم ابنه المعز الذي عقد صلحاً مع بني حماد الذين دعوا للعباسيين على أن يقتصر حماد على ما بين يديه.

ولكن في عهده بدأ الفتور من الزيريين نحو الفاطميين، مما مهد إلى رجوعهم إلى المذهب السني. ولأن أهل تونس قبل الفاطميين كانت على مذهب أبي حنيفة، ولكن سحنون بن سعيد الذي قدم القيروان في (191 هـ / 807 م) وألف كتاباً في المذهب المالكي اسمه (المدونة) أصبح يضارع كتاب (الموطأ) لأبي حنيفة، عمل على زرع المذهب المالكي، وبعد رحيل الفاطميين بعد

نشر مذهبهم في تونس، عاد أهلها إلى السنة في المذهب المالكي وكان من مظهر الفتور بين الزيريين والفاطميين حدوث مصادمات بين الشيعة والسنة، حيث أن ابن عذاري يذكر أن الدم جرى غزيراً في القيروان. فكان السنة يهاجمون الشيعة في الأسواق، ومع ذلك لم يصل الفتور إلى حد المقاطعة لأن الزيريين كانوا يعتمدون على الفاطميين ضد بني عمومتهم الحماديين الذين اعتمدوا على العباسيين.

ويبدو أن عوامل الانفصال بين المغرب والمشرق، أو كما سماه أحد المؤرخين الحديثين بالطلاق بين المغرب والمشرق، قد ظهرت بوادرها في عهد الحاكم إلا أن دبلوماسية الحاكم الرشيدة أخرت وقوعها إلى ما بعد حكمه.

ي _ الدعوة في صقلية

صقلية جزيرة مثلثة الشكل تقابل الساحل المغربي، قريبة من إيطاليا. وقد سعى المسلمون إلى السيطرة عليها، منذ أن فتحوا المغرب. وقدروا أهميتها الجغرافية، ولا سيما أن الروم كانوا قد اتخذوا من موانيها قواعد للقرصنة. ولكن الأغالبة قبل مجيء الفاطميين الذين استقلوا بتونس عمدوا إلى الاستيلاء على صقلية فقد انتهزوا وجود ثورة فيها، فقاموا بغزوها في سنة (212 هـ / 827 م) واستولوا على مالطة في (221 هـ / 835 م) وعلى جنوب إيطاليا التي سماها العرب (قلورية) واستولوا على روما في سنة (231 هـ / 846 م) التي يسكنها البابا الذي هو رئيس النصرانية الغربية (الفرنج). فدخلوا نهر (التيبر) وأحرقوا المدينة، ونهبوا كنائس القديسين : بطرس (pietro) وبولص (paolo) واضطر البابا ليون الرابع (lio iv) أن يختبئ، وبفضل هذا التوسع، أصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية، فكانت السفن النصرانية لا تسير فيه. وعندما أسس الفاطميون خلافتهم في إفريقيا بعد قضائهم على الأغالبة، استولوا على صقلية ومالطة، وقلورية، وكان الفاطميون متشوقين لجهاد الروم الذين قد هددوا المسلمين في ذلك الوقت بسبب ضعفهم. واستولوا على أكبر جزائر البحر المتوسط التي فتحها المسلمون في آوائل عهد الفتوحات مثل (قبرص، أفرش، كريت، رودس) فهاجم الفاطميون السواحل الشمالية، وفتحوا (جنوة) في عام (333 هـ / 945 م) وغزوا (سردينية) وسواحل بلاد الروم[211] وكانت صقلية هي الميدان الذي استطاع فيه الفاطميون أن يؤدوا فيه الجهاد أداء لم يتهيأ لهم مثله طوال أيام دولتهم. وعندما انتقل المعز بدولته إلى مصر لم يتنازل عن حكم صقلية للمغاربة بل فصلها عن حكم المغرب، وجعلها خاضعة له مباشرة فجعل حكمها لأسرة الحسن بن علي الكلبي الكتامي، الذي تولاها منذ سنة (336 هـ / 982 م)، وبعد أن حكمها اثنتي عشرة سنة تم تسليمها إلى العزيز يوسف بن عبد الله بن محمد بن أبي

الحسن، فلما أصابه فالج استتاب ابنه جعفر في سنة (388 هـ / 998 م) وقد بقيت صقلية خاضعة للحاكم بعد العزيز، بفضل أساليب الحاكم الماهرة فقد منح يوسف لقب (ثقة الدولة) وابنه جعفر لقب (تاج الدولة) وقد بقي جعفر نيابة عن أبيه ضابطاً للبلاد، وخاضعاً للفاطميين، وذلك على الرغم من ثورات المغاربة الذين كانوا قد تنكروا للفاطميين في كل مكان، فلما قام المغاربة بفتنة كبرى في (405 هـ / 1014 م) تغلب عليهم جعفر ونفاهم إلى إفريقيا،

ولكن المغاربة ما لبثوا أن أجبروا يوسف على نفي ابنه جعفر إلى مصر في (410 هـ / 1019 م) فأرسله يوسف إلى الحاكم ومعه أموال كثيرة وولى بدله ابناُ آخر وهو احمد المعروف بالأكحل الذي بقي على ولائه للفاطميين، وعلى الرغم من استمرار ثورات المغاربة ضده، مما اضعف سيطرة الفاطميين على صقلية.

Image

الفصل الخامس

الحاكم بأمر الله سلام الله عليه

1 _ توليته

2 _ طريقة حكمه

3 _ نهايته

الإمام الحاكم بأمر الله   سلام الله عليه

أصبحت لا أرجو وأتقي   إلا إلهي وله الفضل

جدي نبي وإمامي أبي   وديني الإخلاص والعدل

أ _ توليته [212]

هو المنصور أول إمام فاطمي، ولد في أرض النيل بالقاهرة المعزية. ليلة الخميس في الساعة التاسعة من الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة (375 هـ) الثالث عشر من آب سنة (985 م)، وكني بأبي علي ولده الأول. والده نزار العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر، وجده المعز لدين الله، مؤسس الخلافة وأمه السيدة العزيزية، وهناك خلاف كبير حول أصلها وديانتها.

هذبه والده وأحسن تعليمه، ليعده للمنصب الخطير بعده. ورث عن أبيه أسراراً ومعارف، ونصبه والده في ولاية عهده، وهو في سن الثامنة، في شهر شعبان سنة (383 هـ) تشرين أول (993 م) ولما توفي العزيز بالله، يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (386 هـ) الثالث عشر من تشرين الأول (996 م) أفضت الخلافة إليه وهو صبي عمره أحد عشر عاماً وبضعة شهور. وجرت مراسيم بيعته بالخلافة يوم الخميس (30) رمضان.

وأصبح إماماً اقتداءً بإمامة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي كان أول من اتخذ هذا اللقب. وتلقب بأمير المؤمنين لأن فيه صفة روحية. واختير له لقب مثل من سبقه فلقب بالحاكم

بأمر الله، ولما كان الحاكم صغير السن جداً حاول رجال طامحون السيطرة عليه عن طريق السيطرة على الجيش، لأنه كان يعتمد على عناصر متعددة حتى يوجد تنافس بينها في خدمة الخليفة. وكان المغاربة وهم العنصر البربري في المغرب، مقسومين إلى طوائف متعددة مثل : (زويلة، كتامة، البرقية، المصامدة، صنهاجة). وكان المعز يقرب طائفة كتامة، ويعطي شيوخها وظائف الخلافة الكبرى، ولكن بعد استقرار الملك، بحث الخلفاء عن عناصر أخرى كي لا يستبد بهم البربر ، فاستخدموا الديلم والأتراك في عهد العزيز _ ولما تولى الحاكم _ الصغير السن _ الخلافة طمعت طوائف المغاربة في استعادة نفوذها، فدخل على الحاكم مقدمو كتامة، وهددوه بالمعصية والقتل إذ لم يبعد المشارقة عن الحكم ويعين شيخ كتامة ابن عمار ، فاتخذ ابن عمار لقب أمين الدولة ويعني ذلك سيطرته على السلطة الزمنية، وأما السلطة الدينية فبقيت للحاكم لأنه الإمام، فكان ابن عمار مثل الخليفة ينقش اسمه على الملابس الرسمية، وإن موه بإضافة عبارة : عبد أمير المؤمنين. وفرق الأموال على طوائف المغاربة، وقرب كتامة وشيوخها، وأسند إليهم الوظائف، وأساء معاملة المشارقة. مما جعل المغاربة يعتدون على الوظائف الأخرى، وينشرون الفساد في البلاد وابن عمار يتغاضى عنهم. كذلك ابن عمار فقد طغى وتجبر ، فقد كان يدخل قصر الحاكم راكباً، و يتعرض لجواري القصر بالبيع والأخذ كأنها ملك يديه وقد أشير إلى ابن عمار بقتل الحاكم، إلا أنه لم يفعل ذلك احتقاراً له واستصغاراً. ولكن رجلاً آخر قوياً نافس ابن عمار واسمه أبو الفتوح برجوان، وهو من الصقالبة البيض وكان طموحاً اشتهر بالدهاء والمكر والسياسة، فحرض المشارقة في الشام لمحاربة المغاربة، لكن ابن عمار جهز جيشاً هزمهم قبل أن يدخلوا مصر ، لكنه عاد من جديد وحرض المشارقة الذين تمكنوا من هزم ابن عمار ، الذي هرب واختفى ولم يمض على وساطته[213] عام، وذلك في رمضان (387 هـ / 997 م) فلما تم النصر لبرجوان، بايع الحاكم مجدداً لكنه ما لبث أن نزع إلى طغيان مثل ابن عمار ، فلم يعد يقيم اعتباراً لأي شيء، وكان يعتبر نفسه الخليفة الحقيقي، فيخرج من دون الحاكم في مواكب رسمية على رأس طوائف الجيش، واستصغر الحاكم بحيث أن الحاكم لما استدعاه يوماً وهو راكب معه، فسار إليه وقد ثني رجله على عنق فرسه. في وضع يسيء الأدب أمام الحاكم. واستغل منصبه في جمع الأموال لنفسه، فكون ثروة هائلة وتشاغل عن أعمال الدولة بملذاته، ومال إلى اللهو والغناء وأصبح له مغنون من الرجال والنساء، فتعطلت أعمال الدولة وفسدت السياسة.

وفي غفلة طغيانه نسي أن الصبي قد طوى مرحلة الصبا، وبدأ يدخل مرحلة الشباب، فقد أشرف على الخامسة عشرة، ومن كان في سنه لا يحتمل الإهانة، ولا سيما إذا كان الخليفة وتميل نفسه إلى الفضائل. وكان الحاكم فطناً فلم يصرح بما يجول بخاطره، وأرسل إليه ينبهه بقوله : ((إن الوزغة[214] صارت تنيناً كبيراً)) وكان برجوان قد سماه به في صغره. ورغم هذا التنبيه فإنه استمر متجاهلاً غارقاً في ملذاته. وبدأ الحاكم يفكر بالتخلص من برجوان عاماً كاملاً ثم وضع خطة محكمة. فقد اعتمد على أحد رجاله المخلصين، وبعض خدم القصر من الصقالبة، فدعى برجوان إلى مقابلته في البستان الكافوري المطل على الخليج، والذي يوصل إليه بسراديب مبنية تحت الأرض من القصور إليه، يسيرون فيها راكبين، ولا تراهم الأعين، فلما طاف برجوان في البستان تقدم إليه أحد رجال الحاكم المخلصين ويدعى (زيدان) يقبل رجله ويعتذر إليه بانشغاله في خدمة الحاكم، وهو يتحسس ثيابه خوفاً من أن يكون لابساً درعاً حديدياً فلما تأكد من عدمه، طرحه أرضاً وضربه بحديدة على قلبه، وأقبل الحاكم وطعنه برمحه، وأكمل عليه بقية الخدم بسيوفهم، وكان ذلك في يوم الخميس (26) ربيع الأخر سنة (390 هـ)، (5) نيسان سنة (1000 م) وفي اليوم التالي أصدر الحاكم سجلاً إلى المصلين في جوامع القاهرة ومساجدها، وعامة مصر يبرر فيه قتله برجوان، جاء فيه ((معاشر المسلمين، إن برجوان كان فيما مضى عبداً، ناصحاً، أرضى أمير المؤمنين حيناً، فاستخدمه كما يشاء فيما يشاء، وفعل به ما شاء، ولقد كان أمير المؤمنين ملكاً فلما أساء ألبسه النقم ... كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى)) ثم نصح معاشر التجار والرعية بالعودة إلى أشغالهم دون الاهتمام بما حدث.

وكان لا مناص من قتل أعوان برجوان من رجال الجيش والقصر ليخلص له حكم مصر. ثم أعد كميناً لقتل ابن عمار زعيم كتامة، فحرض عليه الأتراك فقتلوه في يوم السبت الخامس من شوال سنة (390 هـ) الثامن من أيلول عام (1000م)[215] كما أفنى أعوانه فخاف الكتاميون، وأتوا إلى قصر الحاكم كاشفين الرؤوس مستغيثين به طالبين العفو والإيمان، فقبل الحاكم توبتهم وكتب لهم سجلاً يطمئنهم فيه. وهكذا استطاع الحاكم أن يسترد سلطانه المسلوب من أيدي الطامعين فيه ودل تصرفه على انه يفوق أعدائه دهاءً وسياسة فقبض بيد من حديد على مقاليد الحكم، وخضعت له طوائف الجيش جميعها بما فيها المغاربة والمشارقة.

ب _ طريقة حكمه : [216]

على الرغم من حداثة سن الحاكم، عندما استرد سلطانه من مغتصبيه، كانت له أهداف في أن يكون الخليفة المثالي في الخلق والحكم. وان في سيرته تشابهاً مع سيرة العمرين[217] وتظهر مثاليته فيما أخذ به من تقشف وزهد / مع ما ورثه من الملك العظيم، والعز والنعيم، مثل جده المعز الذي كان يقيم في المهدية في حجرة متواضعة فرشت بالصوف والشعر،فرفض الحاكم كل النعيم الذي تركه له أبوه وجده، فأخرج من قصره جماعة من حظاياه، واعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور، وحررهم لوجه الله تعالى. كما أخذ من والدته وأخته وخواصه من النساء أملاكهن وعقاراتهن لبيت المال. وكان أول من تزيا بزي آبائه من الثياب المذهبة، والعمائم التي فيها الجوهر، ولكنه على التدريج انتقل إلى لبس غير المذهب، ثم لبس الملابس الخشنة من الصوف، ولون ثيابه البياض شعار الفاطميين، ثم أصبح السواد مع عمامة بيضاء، أو زرقاء، ثم جعلها سوداء زيادة في التقشف.

وكان يركب في عيد الفطر والأضحى في غير زينة أو أبهة، وليس معه سوى عشرة أفراس تقاد بسروج ولجم ولا زينة عليها، ومظلة بيضاء بغير ذهب / ولبس ثياباً بيضاء غير مذهبة، وعمامة دون جوهر. وزاد في التقشف فقد كان يركب في الموكب الحمير لا الخيل. ويتزيا بثياب صوف وعمامة سوداء على رأسه. ولم يكن يقيم ولائم العيدين ببذخ. وكان يخرج في مواكب الصلاة أيام الجمع من شهر رمضان في الجوامع المعروفة مثل جامع القاهرة المسمى بالأزهر، وجامع الحاكم المسمى بالأنور، وجامع عمرو، وجامع راشدة وكان الجامع يوم الجمعة يبخر بالمسك ويعلق عن يمين المنبر ويساره ستران، في الستر الأيمن مكتوب سورة الفاتحة، وسورة الجمعة، وفي الأيسر سورة المنافقين فإذا أذن للجمعة صعد الخليفة على المنبر، ومعه قاضي القضاة تشريفاً له فيلقي الخليفة الخطبة من ورقة تأتيه عادة من ديوان الإنشاء، فيقرأ فيها آية من القرآن الكريم، ثم يصلي على محمد جده، وعلى أبيه، ويعظ الناس بما قل ودل، ويذكر من سلف آبائه حتى يصل إلى نفسه فيقول هذه الجملة التي تبين تواضعه نحو الخالق : ((اللهم وأنا عبدك، وابن عبدك، لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً.)).

ثم يتوسل إلى الله بدعوات فخمة. ويختم الخطبة بقوله : ((اذكروا الله يذكركم)). وكان الرسم أن يقرأ الخليفة في الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر الأيمن، وفي الثانية ما هو مكتوب على

الستر الأيسر، وعندما ينطق التكبير ينقله قاضي القضاة إلى المؤذنين الذين يسمعونه بدورهم للناس، فإذا انتهت الصلاة عاد الخليفة إلى قصره.

وكذلك واظب الحاكم على الركوب في كل سنة وقت الفيض للنيل لفتح الخليج الذي عرف باسمه (الخليج الحاكمي) ويقع غربي القاهرة آخذاً من النيل إلى البحر الأحمر، فيكون فتحه إيذاناً بفتح السدود لإرواء أرض مصر. وقد نهى الحاكم عن تقبيل الأرض بين يديه، وتقبيل اليد والانحناء بالسجود إلى الأرض. ففي رأيه أن الانحناء إلى الأرض لمخلوق من صنع الروم. كما نهى عن مخاطبته بمولانا. وأن يكون السلام مقصوراً على قولهم فقط (السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) وقد جرت العادة أن تذكر في المكاتبات الرسمية عبارة مميزة عند ذكر اسم الإمام تحت هذه الصيغة (صلى الله عليه وسلم) وأصلها في الدعاء لإبراهيم خليل الله وآله في الصلاة. وتدل على اعتقاد الفاطميين في طبيعة أئمتهم الإلهية. فنجد الحاكم يأمر بألا يصلى عليه في مكاتباته، ويقتصر على الصيغة التالية : (سلام الله وتحياته، ونوامي بركاته على أمير المؤمنين) وكان الحاكم مثل أئمة الفاطميين قبله يظهر غاية التواضع، والخضوع لله، فكان يسبق اسمه في المكاتبات بعبارة : (عبد الله ووليه). أما في الصلاة فإنه منع المؤذنين من أن يسلموا عليه وقت الآذان. فصار الخطباء يوم الجمعة يقولون : ((اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وسلم على أمير المؤمنين علي المرتضى، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك)).

وقد كان شديداً في حكمه، لإصلاح المعوج من الناس، وأصدر عدة سجلات تطمئن الناس بأن المقصود بهذه الشدة هو إصلاح الفاسد والمعوج. وقد ورد في سجل أعطي لأهل الأسواق :

((إنكم من الآمنين بأمان الله، الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا علي خير الوصيين وآبائنا الذرية النبوية المهديين، صلى الله على الرسول / ووصيه عليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال، والدم والمال، لا خوف عليكم، ولا تمد يد سوءٍ إليكم، إلا في حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك، وليعول عليها إن شاء الله تعالى. وكُتِبَ في جمادى الآخر من سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة. والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين، وعلى خير الموصين، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة، وسلم تسليماً كثيراً)) وقد منح الحاكم لرجال دولته المال ليتفانوا في الإخلاص ويمتنعوا عن الرشوة، ولم تظهر في عهده تسمية

الوزير، وإنما وسيط بين الخليفة والرعية، ومع حرصه على اختيار وسطائه، كان يراقبهم مراقبة شديدة ويضعهم تحت التجربة، ثم جعل الحاكمُ حسينَ بن جوهر الذي تولى ديوان البريد والإنشاء أيام ابن عمار وبرجوان، قائد القواد، ثم ولاه في الوساطة وحده ثم صرفه في شعبان (398 هـ / 1008 م) لأنه لم يكن مهتماً بعمله، لأنه كان وارثاً مالاً كبيراً عن أبيه، ثم عين صالح بن علي الروزباري ولقبه بثقة ثقات السيف والقلم، وكان يحاسب كل واحد بشره، ويمنعه من استغلال منصبه، ويطلب منه الإخلاص في العمل. وكذلك حاسب رجال الدواوين بشدة، ومن ثبتت عليه السرقة يعاقبه، ويقطع أيدي بعضهم من وسط الذراع، أو يعلق جماعة منهم بأيديهم أياماً يذوقون البرد والحر. وقد سار الحاكم على سياسة أبيه الحازمة في شغل الوظائف الديوانية بالمسلمين. واعتمد على نظر المظالم[218] لتطهير دولته من الفساد. وقد بذل الحاكم جهده في القضاء على مظالم رعاياه في كل وقت ومكان، فكان يأتيه المتظلمون عند أحد أبواب قصره المعروف بباب الذهب، حيث خصص لهم مكاناً عرف بالسقيفة _ موضع له سقف _ فيقف المتظلم تحتها ويقول بصوت عال عقيدة الفاطميين : (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله) فيسمعه الخليفة الذي يجلس كل ليلة، فيأمر بإحضاره إليه ليسمع شكواه، وكان يواصل الركوب ليلاً ونهاراً على حماره الأشهب المعروف باسم القمر كأنه المخلص من الظلم. في وقت انشغاله كانت رقاع المظالم ترفع إلى قاضٍ خاص عرف بقاضي المظالم، أو للقاضي العادي، أو لولي عهده ثم ترفع إليه ليختم عليه بختمه أو توقيعه : ((بنصر الله العظيم الولي، ينتصر الإمام أبو علي)). ولم يكن الحاكم مثل ملوك زمانه يعمل على امتلاء خزائنه، بل كان يفرقها على الفقراء والمساكين، وكان في خروجه اليومي يحمل في كمه شيئاً من المال يفرقه، وكان من عاداته أن يجلس في شباك من شبابيك القصر في وقت محدد ليوزع الصدقات، فيأتيه الفقراء الذين يعرفون وقت جلوسه، وكان يوزع الكساء بكثرة، فظهر في عهده ما عرف بطراز العامة الذي طغى على طراز الخاصة. ولم يكتف بتوزيع الأموال على أهل مصر فقط بل على كل الناس في مشارق الأرض ومغاربه وعندما توقف ناظر له عن الصرف خوفاً من اختلال ميزانية الدولة كتب له الحاكم :

((الغربة مذلة الأعناق، والفاقة مرة المذاق، والمادة من الله الرزاق، فأجرهم على عوائدهم في الإنفاق. ما عندكم ينفد وما عند الله باق))[219] ويشهد له المؤرخون بأن يده لم تمتد لأخذ مال أحد إطلاقاً بحيث أن أحدهم وهو نصراني قال : (لعمري إن أهل مملكته لا يزالون في أيامه آمنين على أموالهم) فكان التجار يتركون حوانيتهم مفتوحة ولا يخافون عليها. وفي مرة وقع من شخص كيس

فيه ألف دينار عند جامع ابن طولون فاستمر في مكانه أسبوعاً كاملاً لا يجرأ أحد على أخذه حتى مر به صاحبه فأخذه. ونادراً ما كان يسرق شيء من الناس إلا وجده الحاكم لهم وذلك ما أدهشهم. وكان الحاكم يخفف عن رعاياه من الضرائب ما استطاع، ولا سيما ضريبة أسواق بغيضة لأهل مصر تعرف بالمكوس التي فرضت على كل السلع والناس، وأن الهواء وحده أخلي سبيله وبقي حراً، فأسقطها الحاكم.

واستحدثت في عهده قصبة لتقدير مساحة الأرض عرفت بالحاكمية تبلغ ستة أذرع، والذراع يساوي ست قبضات، والقبضة أربع أصابع وكذلك حاول الحاكم التخفيف من المجاعات التي وقعت في عهده بين عامي (395 هـ / 1004 م و 399 هـ / 1009 م) بسبب أن النيل قصر عن الصعود ولم يزد ارتفاعه عن خمسة عشر ذراعاً، وكان الناس منذ إحساسهم بأن النيل لم يصل إلى مستواه يقومون بالتخزين، مما يؤدي لارتفاع الأسعار لكن الحاكم زمن المجاعات عمل على تثبيت الأسعار، وكان يوزع على الناس الأموال بنفسه وقد عاقب بالسوط من يخزن أو يستغل المجاعات وحاول أن يقيم سداً على النيل، واستدعى ابن الهيثم، وأكرمه لكنه لم يستطع أن يقوم بشيء، فاعتذر عن عجزه فأبقاه الحاكم عزيزاً مكرماً إلى وقت وفاته. وكان الحاكم يختار القضاة جيداً ويراقبهم، ويحضر مجالسهم، ويناقش تصرفاتهم، ويثني على العادلين المنصفين ويعاقب الظالمين ويرشد المخطئين ... هذه هي طريقة حكمه، فيها مثالية نادرة وليدة إيمانه بمسؤولية نحو رعاياه، وعمله على اقتلاع الفساد من جذوره.

ج _ نهايته :

ومن العجب العُجَاب أن نهاية الحاكم مأساة مؤثرة، مثل نهاية العمرين، اللذين ماتا أحدهما مقتولاً بخنجر وهو ابن الخطاب، والآخر ابن العزيز مدسوساً له السم. ولكن اختلاف المؤرخين في نهاية الحاكم، جعلها لغزاً محيراً إلى الأبد.

وتوجد روايات كثيرة ترجح أن نهايته كانت نتيجة لجريمة مدبرة من أعدائه الكثيرين فقد كان له أعداء من رجال الدولة المحترفين الذين قتل أغلبهم. ومن السنة الحاقدين على أهل بيته، الذين كانوا يسبونه وأهل بيته حتى في المساجد، ومن القبط الذين كرهوه لما اتخذه نحوهم من شروط مشددة، ومن أتباع المذهب الشيعي نفسه الذين رفضوا دعوته إلى المذهب الجديد، ومن شعوب

مملكته من العرب والبربر والفرس والترك، والمصريين وحتى من أهل بيته لطموحهم، أو لأن تصرفاته لم تعجبهم، ولكنهم اختلفوا في قاتله، وإن نسبت معظم الروايات السنية والقبطية قتله إلى أخته السيدة الشريفة (ست الملك) والمسماة أيضاً (ست النصر) ولكنها روايات باطلة افتراها عليها بعض السُنّة، وادعوا ان سبّب قتلها له، هو أنها كانت تمنع الحاكم من تصرفاته وتنهاه، ولكي تقتله كما زعموا ادعوا أنها استعانت بأحد قواد الجيش الفاطمي، واسمه حسين بن دواس من شيوخ كتامة الذي كان يخاف نقمة الحاكم، فذهبت إليه ست الملك ليلاً فلما دخلت عليه قبل الأرض بين يديها وأخلى المكان فاستحلفته واستوثقت منه وقالت: (أنت تعلم ما يقصده أخي منك، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك وكذا أنا، وقد ادعى الألوهية وهتك ناموس الشريعة، وناموس آبائه، وزاد جنونه) وأنها تخاف أن يؤدي ذلك إلى أن تنقضي الدولة أقبح انقضاء. ووعدت ابن دواس لقاء مساعدتها في قتل أخيها بأن تجعله رئيس الجيش بكل طوائفه، كما وعدته بالاقطاعات والأموال، أما هي فليس لها قصد إلا أن تعيش بسلام. فأعلن ابن دواس قبول قتل الحاكم بسهولة، بسبب أنه كان يحب الخروج إلى جبل المقطم، وكان له قوم ينتظرونه كل ليلة على باب القصر، فإذا ركب ركبوا، ولما يصل إلى الجبل يرد جميع من معه عدا الركابي أي حارسه فتعمدت ست الملك مراقبة أخيها من قصرها، الذي كان أمام قصره، فلما خرج أرسلت وراءه العبدين، بعد أن زودتهما بخنجرين حادين جداً كمبضع الجراحة فأجهز العبدان على الحاكم وهو في الجبل، بان قطعا ذراعيه إلى الكتفين، وشقا جوفه، فحمله ابن دواس مع العبدين إلى ست الملك التي دفنته عندها.

ولم تقف المؤامرة عند ذلك بل عملت ست الملك على قتل ابن دواس أيضاً بأن أشارت إلى عبيد الحاكم بأن ابن[220] دواس هو قاتل الحاكم، فقتلوه....

هذه القصة الملفقة على ست الملك لا يمكن تصديقها لأن ست الملك كما يؤكد المقريزي[221] كانت تعيش في رغد وسلام أيام خلافة أخيها، فقد كانت تسكن القصر الغربي الذي بناه أبوها العزيز يخدمها فيها أربعة آلاف جارية بين بيض وسود ومولدات، غير مال عظيم وجوهر وقماش وتحف لا تحصى. كما كانت لها طائفة من الجند تقوم بحراستها، تعرف بالعطوفية نسبة إلى عطوف أحد خدام القصر السود. وفوق ذلك كله لم تكن ست الملك في مرحلة الشباب حتى تكون مهيأة لغواية مثلما شنع بها السنة والقبط، فكان عمرها وقت اختفاء الحاكم اثنين وخمسين سنة، وتوفيت في الخامسة والخمسين عام (415 هـ/ 1024م).

وينقل المقريزي عن المؤرخ المسبحي المعاصر للحاكم رواية مختلفة عن خبر قتل الحاكم فقد قبض على رجل من بني حسين بالصعيد الأعلى أقر بأنه قتل الحاكم في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد وأظهر قطعة من جلد رأس الحاكم، وقطعة من الفوطة (العمامة) التي كانت عليه، فقيل له لمَ قتلته ؟ فقال غيرة لله والإسلام، فقيل له كيف قتلته ؟ فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده وقتل نفسه. وكثرت الروايات عن خبر مقتل الحاكم، فمنها أن ابن دواس قتله لأسباب شخصية[222] وأخرى من قتله هم جماعة من المصامدة وهم مغاربة بإيعاز من حكام الأندلس[223] أو هم جماعة من عربان مصر من بني قرة أو من العرب السويديين المنتسبين إلى زعيم اسمه سويد بن الحارث..... ولكن طائفة من الشيعة ترى بأن الحاكم لم يقتل _ وهذا الأقرب للصحة _ وإنما ذهب في غيبة أبدية، وأنه يرجع في آخر الزمان. وقد تنوقل _ أن بعض أئمة الشيعة الإسماعيلية قد غابوا وقتاً ما، مثل : محمد بن إسماعيل الذي اختفى لما جاء رجال الرشيد إلى المدينة ثم عاد وظهر، ثم اختفى من جديد لتكتمه، ولم يسمع عنه أي شيء بعد ذلك كما أن المعز جد الحاكم قد اختفى في السرداب عاماً كاملاً[224] إلا أن الحاكم هو الإمام الإسماعيلي الأول الذي ذهب في غيبة أبدية فكانت غيبة الحاكم تشبه غيبة إمام الشيعة الأثني عشرية وهو المهدي المنتظر محمد بن الحسن العسكري[225]، الذي اختفى في السرداب خوفاً من العباسيين، وقال أتباعه أنه مازال حياً إلى الآن، وأنه سيخرج من سردابه يوم القيامة، ليملأ الدنيا عدلاً.

ولا يبدو أن غيبة الإمام ورجعته تناقض الدين، فهي رأي الشيعة من قبل نزول عيسى من السماء، والإيمان ببعض ما ذكره القرآن الكريم من الجنة والنار بقصد إظهار قدرة الله. وقد ترك حمزة بن علي (رضي الله عنه) داعية الحاكم نسخة سجل بخط اليد، بتاريخ ذي القعدة سنة (411 هـ / 1021 م) يعرف بالسجل المعلق على المشاهد في غيبة الإمام الحاكم:

ولا يزال الدروز وهم أتباع مذهب التوحيد، يعتقدون برجعة الإمام الحاكم، وأنه المهدي الذي سيعود في آخر الزمان لإقامة العدل ويحلفون بغيبته.

وقد كان رجال الدولة الفاطمية والناس في وقته يعتقدون برجعته، فكانوا يخرجون يتلمسون رجوعه، ويخرجون فرساً مسرجاً يسمى بفرس النوبة ليعود به وهناك رواية أخرى عن اختفاء الحاكم، تروي أنه توجه ناحية حلوان، فنزل عن حماره الذي كان راكبه وتقدم على الركابي الذي معه بأن يعرقب الحمار، ودخل الحاكم البرية وحده ولم يرجع ولا يعرف إلى أين توجه إلى يومنا هذا. وقد

كان اختفاء الحاكم لليلتين بقيتا من شوال سنة (411 هـ) الثلاثاء (13) شباط (1021 م) وعمره يومئذ سبع وثلاثون عاماً، بعد أن أمضى في خلافته خمساً وعشرين سنة وستة وعشرين يوماً. وأنجب ثلاثة أبناء هم : أبو الحسن علي الذي تسلم الخلافة من بعده، وعرف بالظاهر، ولد سنة (395 هـ / 1004 م) وآخر اسمه الحارث توفي في حياة الحاكم سنة (400 هـ / 1009 م) وابنة اسمها ست مصر.

وقد كانت إشاعة غيبة الحاكم ورجعته سبباً في أن بعض المغامرين جعلوا يستغلونها لحسابهم الخاص، وجعلوها وسيلة لابتزاز الأموال فكان أناس يتسمون بالحاكم، ويتزيون بزيه، ويظهرون في أنحاء البلاد، ويأخذون الدنانير، فقد ظهر قبطي اسمه (شروط) بجبال الصعيد تسمى بالحاكم، وأخذ في ابتزاز أموال الناس، ولم تتمكن الدولة من القبض عليه[226]

وكذلك في عام (434 هـ / 1043 م) خرج إنسان مدعي اسمه (أسكين) أدعى أنه الحاكم ورجع بعد موته، ودخل هو وأتباعه القصر الفاطمي، ولكن قبض على أسكين وأصحابه وقد رموا بالنشاب حتى ماتوا وصلبوا. وفي أيام الحاكم نفسها كان قد ورد من الشام إلى مصر إنسان من أهل عكا يتزيى بزي الأمراء، وجلس في جوار قصر الحاكم، يبيع المداد والأقلام وكان شبيهاً بالحاكم فوقف به الحاكم، وسأله عن أمره فذكر له أنه اخوه من جارية أخرجت من القصر حبلى من العزيز والده، ثم تعمد الحاكم الوقوف معه في بعض الأحيان ومحادثته فلقبه المصريون بالشبيه فلما اختفى الحاكم، قبض عليه، واعتقل مدة وأحضره الظاهر بن الحاكم ليشاهده فشكا إليه حاله، وأخذ يخاطبه بابن أخي، فتنكر الظاهر له، وأعاده إلى الاعتقال، ومات بعد أيام[227].

تلك كانت سيرة أعظم خليفة فاطمي وإمام شيعي ترك أثراً بالغاً، لا تمحوه السنون، في التاريخ، وفي قلوب أتباعه الذين يقدسونه، ويعتبرونه فوق مستوى البشر لكنه لم يبلغ مرحلة الألوهية عملاً بأقوال الحاكم ووصاياه نفسه ومن يفعل غير ذلك فهو يخالف تعاليم الحاكم سلام الله عليه .

الفصل السادس
السادة الحدود سلام الله عليهم

1 _ السادة الحدود

2 _ أدوار السادة الحدود

((سبحانك يا مبدع الأشياء لا من شيء كان، ولا من مادة، ولا بآلة ولا بمعين، ولا بصورة معلومة عنده، بل بوجوده وعلمه ومشيئته))

رسائل الحكمة الشريفة

السادة الحدود سلام الله عليهم

كان مؤسسو المذهب التوحيدي خمسة من علماء الدين والشريعة وهم : من المسلمين المؤمنين الموحدين، عملوا بقيادة الإمام الحاكم بأمر الله (ع) ويعرفهم الموحدون بالحدود الخمسة (س) درسوا العلوم العقلية وتفهموا الفلسفة الدينية، وسبروا أغوار النفس الإنسانية وتعاونوا على البر والتقوى فأوجدوا مذهباً دينياً إصلاحياً، كتبوا وجادلوا كافحوا ونافحوا عن دعوة التوحيد، معتمدين العقل في جميع أفعالهم وأقوالهم وسموا مذهبهم مذهب العقل والتوحيد، أَولّوا آيات القرآن الشريف على قواعد الفلسفة الأفلاطونية وما أضيف إليها وشرحوا ما أغلق فهمه منها على غيرهم، وأظهروا حقائق علمية وعقلية وتاريخية، وأبانوها، ولم تكن معروفة من قبل، ووضعوا فروضاً دينية جديدة في أمور الدين والدنيا لم تزل موضع تقدير وإعجاب علماء هذا العصر، وأهم هذه الفروض أحكام العقل التي تتعالى عن الغيبات الدينية وأوهامها، وعلموا قواعد وصفات اجتماعية تحلى بها الموحدون كالشجاعة والصدق والحمية والنخوة، وإغاثة الملهوف وإجارة الجار وغيرها من السجايا الحميدة التي اشتهر فيها الموحدون.

والسادة الحدود مرتبون حسب درجات، وهم خمسة يضاف إليهم ثلاثة في بعض كتب الحكمة الشريفة، ولكل منهم رمز روحاني ولون يرمز إليه وهم :

الأول : كبير الحدود (س) : حممزة بن علي[228] بن أحممد الزوزوني

جادل علماء زمانه بصحة آرائه وأقواله وناظر الفقهاء في علوم الدين وانتصر عليهم في مواقف عديدة كتب كثيراً وصحح أقوال الفلاسفة في العقل والنفس، ورفض قول أفلاطون أن للنفس

وجود منفرد في عالمها، ونفى وجود عالم خاص بالأرواح، وقد أثبت أن النفس لا تظهر إلا باتحادها مع الجسد، كما رفض قول أرسطو بأن الروح تنتقل بالتقمص من الإنسان إلى الحيوان كما تنتقل إلى الإنسان. وأثبت أن روح الإنسان تنتقل إلى الإنسان فقط.[229] وقد صادقت العلوم العقلية البصرية على صدق قوله، فالإنسان الذي يخطئ وبعقل راقٍ لا يعاقب أو يثاب بنقله إلى من لا يعقل، ولا يعرف العقاب والثواب. قاد دعوة التوحيد بحكمة فائقة، وجدارة نادرة حتى أوصلها إلى قمة التفكير السليم والتعقل الحكيم، لقبه الروحاني عند الموحدين هو (العقل) ولقب بهادي المستجيبين لمنزلته لدى الحاكم بأمر الله (س) ويرمز إليه باللون الأخضر.

الثاني : الشيخ المجتبى أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي (س)

كان عالماً وشاعراً وقائداً، قاد جيوش الخليفة الحاكم بأمر الله في كثير من ميادين النصر والفخار، كما كان اليد اليمنى لكبير الحدود (س) وكتب كثيراً من رسائل الحكمة الشريفة، وفي كل كتاباته روح الإسلام وبهاء القرآن. له الشعر المعروف باسمه (شعر النفس) وله كتاب (تقسيم العلوم) وكان له مقدرة إنشائية فائقة، خاض بحار المعاني السامية وشرح الأحاجي النفسية وجلا غوامضها، وله أبحاث في التوحيد والتنزيه والتجريد بأسانيد عقلية وعلمية توحيدية رفعته إلى المرتبة الثانية بين الحدود. لقب روحانياً (بالنفس الكلية) والحجة الصفية الرضية، وأخنوخ الزمان، وهرمس الهرامسة، ويرمز له باللون الأحمر.

الثالث : الشيخ المرتضى أبو عبد الله محمد بن وهب القرشي (س)

ومن عائلة الرسول الكريم، كان عالماً معروفاً، بالصدق موصوفاً، دعاه كبير الحدود حمزة بن علي (س) للمشاركة بتنظيم المذهب التوحيدي، وقلده بتقليد عظيم أبان فيه قدر علمه، ومتانة إيمانه في شهر شوال من عام (410 هـ) ولقبه بـ (الكلمة) _ كلمة الله _ وسفير القدرة وفخر الموحدين وعماد المستجيبين وكلمة الموحدين العليا، ويرمز له باللون الأصفر.

الرابع : الشيخ المصطفى أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري (س)

لقب بـ السابق تكريماً وإجلالاً، كان فارساً مشهوراً وعالماً كبيراً، قوي الإيمان غزير المعرفة، رسائله قليلة الوجود بين أيدي الموحدين، سمي بنظام المستجيبين وعز الموحدين، والجناح الأيمن، ويرمز له باللون الأزرق.

الخامس : الشيخ المقتنى أبو الحسن بهاء الدين بن أحمد السموقي (س)

وهو أكثر المؤسسين عملاً واجتهاداً في سبيل الدعوة التوحيدية كتابة وتوضيحاً. فقد كتب معظم رسائل الحكمة الشريفة وكان كاتباً لبقاً غزير المادة لدرجة نالت إعجاب كبير الحدود حمزة بن علي (س) فقال له في تقليده المرتبة العالية سنة (411 هـ) : ((لقد أعجبني لفظك، ومعجز تنميقك، وإحكام تأليفك، فكأني نظرت إليك قديماً وعرفتك بالذكاء والفطنة، فاستحقيت بذلك علو المنزلة ورفيع الدرجة))[230]

وكان على اتصال دائم بالموحدين وبحمزة بن علي (س) وقت اختفائه سنة (409 هـ) كما كان يكتب الرسائل المشجعة للموحدين المعذبين في بلاد الشام ويعدهم بقرب زوال المحنة، وبقي حتى سنة (434 هـ) يكافح في سبيل الدعوة التوحيدية ثم أمر بإقفال أبوابها تفادياً القضاء على الموحدين آنذاك، لقبه الروحاني (التالي)، ولقب لسان المؤمنين وسند الموحدين والناصح لكافة الخلق أجمعين ويرمز له باللون الأبيض.

وتذكر بعض رسائل الحكمة الشريفة أن السادة الحدود (س) هم ثمانية فعدا الخمسة المعصومين السابق ذكرهم هناك ثلاثة مكرمين هم : الجد الذي جد في طلب العلم من الإمام والمأذون الفتح الذي يفتح باب العهد، ثم المكاسر الخيال الذي يلوح بعلمه. وترد أسماؤهم متشابكة بأسماء الحدود الخمسة، وهذا التشابك بالأسماء والألقاب كثير في كتب الحكمة الشريفة ويمكن أن نأخذ قول ثاني الحدود (س) في شعر النفس دليلاً على ذلك التشابك وهذا الشعر مطلعه :

إلى غايةِ الغاياتِ قصدي وبغيتي   إلى الحَاكم العَالي على كُلّ حاكمِ

غدا الســابقُ السامي إليه وتالِه   مع الجَدِّ والفَتْحِ والخَيَالِ المُلاوِمِ

أدوار السادة الحدود

أولاً كبير الحدود وأوّلهم : العقل (س) =

في دور العلي تعالى اسمه العقل الكلي (س)

في دور البار   اسمه شطنيل (س)

في دور نوح (ع)   اسمه فيثاغورس (س)[231]

في دور إبراهيم (ع) اسمه سليمان بن داوود (س)

في دور موسى (ع) اسمه شعيب (س)

في دور محمد (ع) اسمه سلمان الفارسي (س)

وقت إسماعيل اسمه قارون (س)

وقت إسماعيل بن أحمد اسمه عبد الله (س)

وقت الكشف اسمه أبو الفضل حمزة بن علي بن أحمد (س)

ثانياً : ثاني الحدود : النفس (س) =

في دور العلي تعالى   اسمه النفس الكلية (س)

في دور البار   اسمه أخنوخ الزمان (س)[232]

في دور نوح اسمه سقراط (س)

في دور إبراهيم (ع) اسمه صالح صاحب الناقة (س)

في دور موسى (ع)   اسمه إيليا   (س)

في دور عيسى (ع) اسمه يوحنا المعمدان (س)

في دور محمد (ع)   اسمه المقداد بن الأسود الكندي (س)

في دور محمد بن اسماعيل   اسمه   أبو سعيد الملطي (س)

في دور أبي يزيد   اسمه أبو طاهر القرمطي (س)

وقت الكشف   اسمه أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد التميمي (س)

ثالثاً : ثالث الحدود : الكلمة (س) =

في دور العلي تعالى   اسمه سفير القدرة (س)

في دور البار اسمه شرخ (س)

في شريعة موسى (ع) اسمه أشعيا وأرسطاليس[233]

في شريعة محمد (ع) اسمه أبو ذر الغفاري (س)

زمن الكشف   اسمه أبو عبد الله محمد بن وهب القرشي[234]

رابعاً : رابع الحدود : السابق (س)

في دور العلي تعالى   اسمه الجناح الأيمن (س)

في دور البار   اسمه يوشع بن عمران (س)

في شريعة موسى (ع)   اسمه أرميا (س)

في شريعة عيسى (ع)   اسمه مرقص (س)

في شريعة محمد (ع) اسمه عمار بن ياسر (س)

وقت الكشف   اسمه أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري (س)

خامساً : خامس الحدود : التالي (س)

في دور العلي تعالى اسمه ناصح الخلق   (س)

في دور البار   اسمه داويد   (س)

في زمن موسى   اسمه مخاييل (س)

في زمن عيسى (ع) اسمه لوقا (س)

في زمن محمد (ع)   اسمه رفاعة بن مضعون (س)

وقت الكشف   اسمه أبو الحسن بهاء الدين علي بن أحمد[235] (س)

الباب الثالث
مذهب التوحيد

الفصل الأول
مقتطفات من مذهب التوحيد

1 . فلسفة المذهب

2 . أركانه

3 . دعائمه

4 . فرائضه

5 . محرماته

6 . صلاته

لطالما وقف جيل الشباب من الموحدين عاجزين عن الإجابة عن تساؤل قد يردهم عن عقائدهم ومذهبهم الذين هم في فلكه سائرون، وسوف عنه يسألون ساعة يسألون يوم الحشر العظيم. سواء أجاء هذا التساؤل من نظيٍر يريد الاستفهام والاستزادة، أم غريب شاء الاستعلام والاستفادة، وكوني من هذا الجيل الشاب فقد كنت أَسأَلُ وأسأل، أسأل بحثاً عن معرفة وحباً في التعمق في هذا اليم العظيم، فلا تصل الإجابة إلى قلبي المتلهف وعقلي المتشوق إلا ما يتيسر من صفحات الكتب الصعب الحصول عليها للسرية في هذا المسلك الذي سيتم توضيح سببها بين دفتي هذا الكتاب . وأسال وأجيب بقدر ما اجتمع في عقلي الأدنى من شذرات حول ماهية هذا المذهب وأستاره.

ولكم أثارت إعجابي، وفتحت عيون بصيرتي، كتابات مؤلفين مبدعين في هذا المجال، أناروا السبيل لمن أراد السير فيه، وأخص بالذكر المرحوم الشهيد كمال جنبلاط الذي جال الدنيا بقلبه قبل جسده بحثاً عن أسرار هذا المذهب، وتحقيقاً وتسجيلاً لها. والدكتور سامي مكارم الذي ساعدتني كتاباته وشروحاته فيما أبغي.

ولكن تلك الكتب والشروحات كانت وما زالت صعبة المنال، عسيرة التداول بين أيدي القراء والشباب موحدين وغيرهم. وإني وإذ أعرض مقتطفات من هذا المذهب، فإنما أختار غيضاً من فيض علها تغني السائل إن قرأ وتشبع الجائع للمعرفة، وتروي ظمأ نفوس تهفو للحقيقة والعرفان، وترشد كثيرين حادوا عن ميثاق كتبوه على أنفسهم في أدوار سابقة... والله أسأل المغفرة، إن أخطأت والبشر يخطئون، والتوبة إن أذنبت والتوبة من صفات الصالحين، وإني والله يشهد لنقي السريرة فيما أفعل، صادق النية في نشر ما يسمح نشره، وتوضيح ما استطاعت نفسي وعقلي إليه سبيلاً

أولاً : فلسفة المذهب

فلسفة المذهب التوحيدي عميقة وشاقة الفهم على غير الدارسين المتعمقين، لذلك نقتطف منها ما يمكن تسهيله للقارئ المبتدئ، ومما نقتطف مايلي :

1 _ السرية في المسلك وسببها :

من القواعد المألوفة المكرسة في مسالك الحكمة والعرفان، أن يحافظ المؤمنون على السرية لسبب جوهري فقد جاء في الكتب المقدسة : ((تَحْظُر الكتب المقدسة على الصديقين الروحانيين أن يتحدثوا عن الحقيقة كما هي إلى الأفراد الذين يسيطر عليهم فكرهم (أي الزمنيين) لأن الحقيقة تتأذى من جراء ذلك. لأن أولئك الأفراد يفهمونها من مواجهة العرضية العادية التي يعيشون فيها دون سواها، فيجدون من المستحيل التوفيق بين الحقيقة وبين هذه المواجهة. وإذ ذاك يباشرون الهزء بالحقيقة ذاتها، وهذا الهزء يجرهم إلى التهلكة فيجب أن نتجنب مثل هذه الكارثة مهما كلفنا الأمر)).

وهذه السرية كانت منذ القديم نهج حكماء الهند ومصر القديمة، والصين وإيران واليونان واستمرت ودامت بديمومة هذا المسلك المتجدد دائماً لأنه يستمد ديمومته من نبع لا ينضب ((قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً))[236]

والسبب الجوهري لهذه السرية ليس هو (التقية) أو الخشية من الآخرين على الرغم من أن أصحاب هذا المسلك كانوا دائمي التعرض للأذى وتشويه على كل جانب من حضارتهم وطيب أخلاقهم، ويحاول بعض أعدائهم الوصول إلى عقائدهم، ودس التحريف فيها، مما جعل السرية في هذه الحال ضرورة اقتضها حماية العقائد. ومع ذلك ليست السرية في المسلك لهذه الأسباب وإنما

هي صفة ملازمة لهذا العرفان ذاته، الذي هو محض اختبار، ولا يتحقق إلا في سر البصيرة العقلية والخاطر، لا يرتقي إلى هذا المقام علم العقل والمادة والعَرَض، بل ذوق عرفان هذا المقام.

2 _ المسلكان الرئيسان للعرفان والتوحيد[237]

منذ القديم القديم، حيث وجدت الحكمة ومسلك العرفان، كانت مذاهبه في نهجين أو مسلكين رئيسين ومازالا حتى الآن هما مسلكا العرفان الرئيسين وهما :

* **النهج أو الطريق الكوني** (THE COSMOGONIC WAY) : أي التعرف إلى الذات الجوهرية من خلال تحليل الكون ومفهوم الخالق والخليقة، ارتفاعاً من الكثيف إلى اللطيف ومن المفهوم الفكري لروح الكون الذي نسميه المولى أو الله (جل جلاله) إلى الجوهر الفريد الساطع بكلية مجده : البرهمان أو الحق نقدّس اسمه.

* **النهج أو الطرق المباشر** : الذي يقصد التعرّف إلى الحق، تنزّه وتعالى عن كل تنزيه واعتلاء، من خلال الإنسان ذاته ومن معراج الروح الإنسانية التي يسكنها الحق تعالى أو الإيمان العظيم كما يسكن العالم بأسره.

3 _ العقل الأدنى والعقل الأرفع :

العقل المقصود هنا، ليس هو العقل في المعنى العادي للكلمة، فالعقل ليس هو تلك الأداة التي نستخدمها للقياس والمقارنة، والتمييز بين أغراض الحواس، ومقولات الفكر. ليس هو ذاك العقل الذي قد يفقده صاحبه فيحيد عن الصواب، وإن كان يسمى عقلاً فلتمييز الإنسان عن سائر المخلوقات.

العقل المقصود بحديثنا هو العقل الأرفع، هذا الفيض اللطيف والصورة البسيطة النورانية المتجلية في كل حين، وهو الأداة الإشراقية الرفيعة، أو كما يسميها بعض الحكماء القدماء

((THISS UPREM ORGANON)) فالعقل العادي يتوجه إلى الخارج، ويسترشد في منطقة باختبارات الحواس وما تعكسه من معقولات عن الدنيا، فالعقل العادي يستهدي بنور الدنيا واختباراتها. أما العقل الأرفع فيستهدى ويستوعب بالحقائق الثابتة، وبالاستطلاعات الأزلية المشرقة، والاختبارات والتأملات من الجوهر الكامن في غلاف العقل الظاهر. وخير مثال يوضح العقل الأرفع ما قاله (شري شنكاراشريا) في (وهج التوحيد) الصفحة (4) : ((هذا على كل شيء الشاهد، هذا نور ذاته، في غلاف العقل، على الدوام يسطع)) ،

وهذا العقل الأرفع هو في صلة واتصال دائم بهذا الجوهر الفرد الفريد، لأنه مداه وامتداده، وفيضه ونوره فينا، لا ينفصل عنه ولا يجانبه ولا يستتر في مكاشفته لحظة... بينما العقل العادي يتناول في اختباراته العرض والظاهر الذي يتبدل و ويتحول ويفنى في كل وقت.

* العقل الأرفع والولاية :

ولا تكون ولاية، ولا تقوم هداية، ولا تستوي إمامة روحية أو زمنية إلا بالاسترشاد ويفيض هذا النور الأول وتنزلاته في بيوت قلوبنا، وفي معارج هذه النفس الشريفة التي أبدعها من نوره، كقبس مبعث من الشعلة الجوهرية السرمدية [238] لا تنفصل عنها وإلاّ ضلت وامحقت ولحقها العدم

* الكيفية والجوهر :

العالم العرفاني يقصد بتبيان جوهر الشيء. وكان هرمس الهرامسة (عليه السلام) منذ آلاف السنين يقول : ((يا نفس تيقني، وخذي معرفة الأشياء بآنياتها وماهيتها، ولا تحتفلي يا نفس بمعرفة كيفياتها وقدرها)) ويقصد بكلمة تحتفلي أي لا تفرحي وتبتهجي، فالمعرفة الحقيقية الصائبة هي معرفة جوهر الأشياء وماهياتها لا كيفياتها، وهو يميز بين العلم (العرفان) وبين التعلم بقوله ((واعلمي يا نفس أن الإنسان لم يخلق لمعنى من المعاني إلا للعلم والعمل به))

4 _ العِرفان في جميع المعتقدات وديمومته :

ولد الإنسان على وجه الأرض، وتوفرت له المشاهدة العيانية بعين البصيرة، لما تدركه الأبصار، منذ مصر القديمة التي عمرت في الألف الثالث قبل المسيح بأمثال أمحوتب أو (ذي أمحت به) كما جاء اسمه في بعض المخطوطات العربية (عليه السلام) الذي بنى أول هرم مدرج من الحجر في مدينة الشمس هليوبوليس (HELIOPOLIS) في سقارة بالقرب من القاهرة الحديثة والذي بنى الهيكل الرائع المدهش. وقد أطلق اليونان بعد ذلك على أمحوتب لقب (هرمس الهرامسة) أي (حكيم الحكماء) وهو ذاته النبي إدريس (ع) كما ورد في القرآن الكريم. وذلك الهيكل الرائع قد قصده الحكيم أفلاطون وعاش فيه سنوات متعبداً، وكذلك عاش في مصر القديمة حكماء عرفانيون مثل فتاحوتب (PHATAHOTEP) ومنحوتب بن حابور (AMENHOTEP FILS DE HAPO) وفي بلاد اليونان القديمة ظهر حكماء أمثال فيثاغورس (PHYTAGORE) الذي زار مصر وعاش في هياكلها سنين طويلة، وسقراط وأفلاطون وأرسطو وديموقريطس وبرميندس وإيامبلي وأفلوطين عليهم جميعاً سلام المهيمن وصلواته. مروراً بجبريل النصرانية ويسوع المسيح عبوراً بجبرائيل المحمدية، وسلمان الفارسي، في كلتا الحالتين كان جبرائيل الوحي أو العقل الأرفع صلوات القدوس عليه.

متوقفين عند بعض الصحابة أمثال (المقداد، وعمار، وأبو ذر) والصفوة المتحققين الأبرار من الحكماء والعارفين المتصوفين المسلمين أمثال الحلاج والسهروردي. ولن يكون تصوف عرفاني بدون رضا وإسلام وتسليم إلى أن تأذن ألواح المقادير مجدداً، وتبزغ شمس سلمان آخر رائع عجيب _ وهنا تبزغ شمس حمزة بن علي (سلام الله عليه) وهو دون أدنى شك سيد من أسياد المسلك الحكمي التالد ومن أغز ر وأخطر الشخصيات الفكرية والقيادية الروحية.

و تتوضح الصلة بين مسلك التوحيد (الدرزي) بحكماء الهند والسند من خلال المخطوطات القديمة التي تم العثور عليها في أهرامات مصر القديمة. إذ أن الموحدين كانوا على حق فيما يعتقدون بأنهم في هذه الديار هم الوجه الباطن الظاهر للحكمة الإنسانية الشاملة وامتداد لكل المسالك السابقة للعرفان.

*** مذهب التوحيد والإسلام :**

إن الإسلام من حيث انحصاره في القرآن وعدم خروجه عنه، هو مدار مذهب التوحيد، وهو يفسر آياته على طريقته الخاصة، يفسرها تفسيراً عرفانياً، ويترك التفسير الظاهري والباطني وهذا

المذهب لا يقول بتأليه الأشخاص أو بالتجسيد، مثلما حاول نشتكين الدرزي (لعنة الله عليه) أن يحرف في دعوى الإمام الحاكم، ويدعي ألوهيته. (انظر في الفصل / 4 _ ب2 / _ المذهب الجديد _ ص(162) وإنما مذهب التوحيد يؤمن بالتجلي والإشراق على طريقة بعض المسالك الصوفية العرفانية القديمة.

5_ الجبر والمقدر :

إن المقدر الذي يقول به الموحدون ليس هو الجبر (الإجبار) ولم ينسب إلى معتقد التوحيد أبداً أنه قال إن الإنسان مجبر على أعماله وتصرفاته في هذا العالم، وإلا لو كان لما وجد مبرر لحسابه على أعماله، بل الإنسان في فلسفة التوحيد يملك حرية الاختيار المطلقة في الأصل والمبدأ، وليس للإرادة العليا علاقة بأعمالنا البشرية، باستثناء الموت والحياة، فهما المقدران على الإنسان، وإن الله تعالى يراها بسابق علمه للأشياء وحرية الاختيار هذه التي منحت للإنسان هي عملياً محدودة بما تراكم على الإنسان في أجياله السابقة والحاضرة من أعمال اختارها لنفسه، وجعلت نطاق حريته محدوداً فقدر أثرها ونتائجها على نفسه.

وما جاء في رسائل الدعوة يطابق ما جاء في (المنداكا أو بانيشاد) الهندية التي تقول : ((لقد قيدتهم وألزمتهم أفعالهم فيرهقهم هذا القيد الذي لا يفطنون له بسبب تعاميهم في هواهم))[239]

وكلما تطهّرت النفوس لفعل هذا الاختيار في حقل الخير والترفع اتسع مجالها في الممارسة الخيرة، وفي توجهها نحو الأفضل، وتكمل الإرادة العليا التي هي العقل الكلي على أنه في كل حال تلحقنا نتائج أعمالنا إن خيراً وإن شراً إلى أن تنفذ في تتميم العلة بالمعلول[240]

6 _ العمر المحدود :

في معتقد الموحدين أن الإنسان ذا عمر محدود، لا يزيد ولا ينقص، شأنهم شأن كل مذاهب الإسلام الكثيرة والله جل جلاله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ولا يقدمها، فكل إنسان له عمر محدد

تبدأ نهايته ساعة الولادة، وهو أشبه بحفنة رمل تبدأ ذراتها بالتناقص لحظة انتزاعها من مصدرها، وكل ذرة تسقط لا يمكن أن تعود بقول الله تعالى في الآية (34) من سورة الأعراف:

((وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ)).

وبما أنَّ هذا معتقد الموحدين، لذلك تراهم يقتحمون الصعاب بإيمان وقوة. ونجد المتدين منهم يكون شجاعاً صادقاً، متعففاً لا يهاب ولا يخاف غير الخالق المعبود. فالمؤمن الديان بتوحيد مولاه، شجاع غير جبان وكل مقاتل منهم لا ضير إن قتل وانتصر قومه، فتلك هي الشهادة وهي الطريق إلى جنات الفردوس. لذلك فالصبر والقبول بقضاء الله تعالى وقدره سمة من سماتهم، وخاصة المتدينين، فهم لا يبكون على رؤوس موتاهم مهما كان الفقيد، ولهم بالأمير السيد عبد الله التنوخي أسوة حسنة حين صبر وتعوض بالله عندما فقد ابنه عبد الخالق[241] أما من يجزع ويبكي فهو بذلك يعبر عن معاندة الخالق في قضائه وقد لزم عليه الإثم، ومن صبر على القضاء فله الأجر وخف عنه المصاب.

7 _ التقمص :

في عقيدة الموحدين أن الذين تقبلوا الدعوة، دعوة الإمام الحاكم بأمر الله (س)، وتعرفوا إلى الحقيقة في الماضي، لا يزالون يولدون عند من تقبل الدعوة. وهذه الولادة لا تعني تطوراً للروح في هذا الدور وإنما تقلباً للروح في شتى الأحوال من غنى وفقر، مرض وصحة، جنون وعبقرية لكي يتسنى لهذه الروح أن تختبر كل الأحوال، ومن لم يتقبل نداء الحق لا يمكنه إلا أن يحصد نتيجة أعماله في حيواته التالية، والأمر نفسه لمن تقبل هذا النداء واستجاب إلى الحقيقة وتعرف إليها.

وما الجسد البشري إلا ثوباً للنفس أو الروح (قميص) تتقمصه الروح عند الولادة. وتنتقل منه بالموت فوراً إلى جسد آخر. والذكور يولدون ذكوراً وكذلك الإناث إناثاً، وهذه الروح المنطلقة من جسد إلى جسد (قميص) لا تبلغ أعلى مراتب الدين في آخر الأدوار. إذ أن العقل الأرفع أو الكلي هو مصدر انبثاق جميع المخلوقات، وهو أصل بقائها في هذا الوجود، ومنه وبه ابتدعت، فهي لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها، من حيث هو العلة وهي المعلول في تنزيل فعل الخالق، فالعقل الأرفع يحل في سر أسرار جميع الكائنات، على احتجاب شبه كلي أو جزئي، أو وعي متفاوت لا

يبلغ أقصاه إلا في جوهر عقل الإنسان بوصفه أرفع هذه الكائنات وأقربها من استيعاب نور الحق الذي انبثقت منه. وهذا العقل الأرفع هو واسطة الكشف والمعرفة، وأداة المشاهدة في كل نفس مؤمنة، به يتم الشهود لجوهر الذات الفرد، دون أن يرتفع الإنسان من درجته وَحْدِّهِ إلى كينونة هذا العقل الأرفع، الذي هو الأصل الوجودي والحد الأول، ويذكر الداعي أبو يعقوب اسحق السجستاني في كتاب (الينابيع)[242] أن الإنسان مهما تسامت روحه ونقيت سريرته فلن يصل إلى مرتبة العقل الأرفع. يقول : ((إذا كان العقل الأول هو المُبْدَع الذي لم يسبقه شيء من وجهة الإبداع ونيله الفضائل التامة، من هذه الجهة كان بلوغ أحد إلى هذه المرتبة محالاً ممتنعاً. أن يصير شيئاً مبدعاً أولاً بعد السابق الذي يعرف بهذه الفضيلة فينال الفضائل التامة التي نالها السابق فإذاً بلوغ شيء إلى مرتبته ممتنع.

وأيضاً إن العقل بارز الذوات التي هي الأشياء الماضية والمقيمة والمنتظرة كما تبلغه الذوات، فجميع ماله ذات سواء الماضي والمقيم والمنتظر. فإذاً النفس هي زوجة العقل لا تبلغ مبلغه، فما دونها من الأشياء أحرى وأولى أن لا يبلغ مبلغه. وأيضاً فإن العقل بارز الهلية والنفس بارزة المائية،فقط، والمائية موجودة من الأجناس، والأنواع والفصول الصانعة والأنواع والأجناس والفصول فيما احتوى عليه الطبع والهلية في المحتوى للطبع والخارجة عنه فالنفس إذاً لا تبلغ مبلغ العقل، إذ المائية لا توجد حيث توجد الهلية وما وجدت مائيته فهليته موجودة فيه مضافة إليه.

وأيضاً فإن في النفس عقلاً، ولا يقال إن في العقل نفساً، وما هو من جهة ذاته غير مضاف إليه، فإن النفس لا تبلغ مبلغاً بكلمة البارئ المبدع الذي نزه كلمته عن النفاد في قوله تعالى: ((لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً))

وما لا نفاذ له لا يمكن البلوغ إليه لأن البلوغ إليه نفاذه، وقد نفى المبدع عنه النفاذ كما بينا فاعرفه...)).

وقد أكد سقراط بقاء الروح بعد فناء الجسد بالموت، وإنها شاعرة محسة وقد كان سقراط عليه السلام وقديساً حدث أبناء أثينا في الوعد والوعيد والثواب والعقاب والخطيئة والمغفرة، وكان يحدثهم عن التوحيد نفسه، وكانت النزعة الفيثاغورسية غالبة عليه لأنه كان من تلاميذه. وأول من تكلم عن التقمص هو فيثاغورس الذي أكد وقال إنه كان في أحد حيواته السابقة أحد أبطال طروادة، وقد

استطاع أن يتعرف على درعه الذي كان ترتديه حينما كان يعرف باسم (يوفوربوس) ذاك البطل الطروادي الذي قتل في إحدى المعارك بين طروادة وأثينا.

وأما أفلاطون فيرى أن خلود النفس يبرهن بحقيقة المعرفة ذاتها، إذ أن المعرفة لا يمكن تفسيرها إلا إذا كانت النفس قد تأملت المنال في حياة سابقة، والنفس وجدت قبل دخولها إلى حياة الجسد، وإن مصيرها غير مرتبط بمصير الجسد. إذ أن الروح خالدة وهي تهب البدن حياته وجماله ومميزاته، أي يدركها الآخرون وهي صفات تختلف عن صفات الروح كالوعي والتذكر وبعد موت الجسد تستمر صفات الروح وتنتقل من جسد لأخر.

وفي القرآن الكريم آيات تحمل هذا المعنى وتتحدث عن انتقال الروح بعد موت الجسد ومن هذه الآيات قوله تعالى ((إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ))[243] وقوله ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ))[244] وقوله تعالى ((كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ))[245] ومن خلال النظر إلى هذه الآيات، وتفسيرها نجد أنها تشير إشارة واضحة إلى تقمص الروح وانتقالها من جسد لأخر عند الموت، فالذي يؤمن بالعدالة الإلهية، لا شك يرتقي إليه في تقمص روح الميت لجسد مولود جديد، أو ليس الخالق المبدع الأكوان والإنسان بقادر على نقل الروح التي هي جزء من الروح العليا من قميص فان إلى آخر. ((وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[246] وفي مصر القديمة نجد أن المصريين اعتقدوا بالآخرة والجزاء في العالم الثاني، وحشر الأجساد، ومحاسبة الأرواح، وقد اعتقدوا أنه عند الموت سيتم وزن قلب الميت رجلاً كان أم امرأة من قبل مجلس الآلهة ليقروا فيما إذا كان هذا القلب ممتلئاً بالخير والحقيقة، ويترأس مجلس الآلهة هذا ملك العالم السفلي (أوسيرس) أو المشهور ((أوزوريس))، وكانت الإلهة (إيزيس) أخت وزوجة الإله (أوسيرس) في هذا المجلس، فإذا قررت طقوس وزن القلب أن صاحبه كان خالياً من الخير والعدل، فإن قلب وروح هذا الشخص الميت ستلتهم من قبل الوحش أو (الهولة) التي تدعى (حميت) وبعد الحساب سيدخل الأخيار حياة الآخرة، التي تدعى (النواة) وقد اعتقدوا أن النواة (الجنة) صورة منعكسة عن وادي نهر النيل، مليئة بالحقول الخضراء والأسماك والطيور والمنازل والحدائق. واعتقدوا أنه عند الموت فإن جزءاً من روح الإنسان التي تدعى (با) سيطلق سراحها على شكل طائر برأس إنسان، وتتطلب هذه (البا) تقدمة وصلوات لتنجوا وتشارك في الحياة الأخرى.

واعتقدوا ان روح الإنسان تتركب أيضاً من (الكا) والتي هي روح الإنسان الخالدة والتي تمثل روح الأجداد، وأجداد الأجداد والتي تجسدت ثانية في أجيال المستقبل.

ورأى المصريون القدماء أنهم مجبرون على تحنيط الأموات، وذلك لتوفير مقر (للبا) فكانوا يثلمون الأطراف بقصد إزالة بعض أعضاء الجسم. وقد تستغرق عملية التحنيط هذه سبعين يوماً وكانوا يضعون الكبد والرئتين والمعدة والأمعاء في أربعة جرار خاصة مزدانة برؤوس الآلهة ويبقى الرأس والقلب مكانهما. واعتقدوا أن (البا) تحتاج إلى أدوات وألبسة في الحياة الثانية، كما تحتاج إلى الطعام يوضع داخل القبر، وقد يكون حقيقياً أو أشكالاً وتماثيل صغيرة للطعام. ووضعوا آلات موسيقية وحجارة وتعاويذ من الخزف داخل أغطية المومياء لجلب الاحترام والحماية لها....

8- النُّطق :

في عقيدة الموحدين إن الروح عند انتقالها من قميص بالٍ (جسد الميت) إلى قميص جديد (جسد مولود جديد) قد تحمل معها بعض المعلومات عن الدور (الجيل) الذي كانت فيه، فتنطق وتحدث عنه بما تعيه الذاكرة من أحداث وأمور هامة كان لها أثر كبير في ذلك الجيل. وقد يذكر المقتول اسم قاتله في ذلك الجيل وقد ينتقم منه بعد مرور سنوات طويلة تكون الأمور قد تناست فيها.

والأكثرية الساحقة من الموحدين الذين يعتقدون بالتقمص ويؤمنون به، لا شك أنهم يعتقدون بالنطق، وفي الحياة مئات بل قل آلاف من قصص النطق حيث يتعرف الشخص الناطق على أهله في ذلك الجيل، وقد يكونوا في بلدة بعيدة لم يعرفها من قبل ولم تطأها قدمه، ومع ذلك نجده يذهب إلى بيته في تلك البلدة ويتعرف على أهله وكل ما بقي في ذاكرته من ذلك المكان.

وقد تعدى الأمر هذا نطاق الموحدين إلى سواهم من البشر، ومنهم من اهتم بهاتين الظاهرتين (التقمص والنطق) ودرسها وبحث فيها عقائدياً وعلمياً فالمؤلف البريطاني هورنيل هارت ((HORNELL HART)) قد أصدر في لندن عام (1959) كتاباً يدرس هاتين الظاهرتين ويحللهما ويحاول تفسيرهما عقائديا وعلمياً وهذا الكتاب بعنوان ((THE ENIGMA OF SURVIVAL)). (لغز الخلود) أو (لغز البقاء) ولا يزال الكثير من العلماء ممن تشدهم هذه

الظواهر يبحثون في هذين الموضوعين، ويكتبون، ويكتبون دراسات علمية وأبحاثاً تستحق الاهتمام والمتابعة، ومن أولئك العلماء والباحثين الدكتور إيان ستيفنسون (IAN STEVENSON) وهو رئيس دائرة الطب النفسي في جامعة فرجينيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد نشر عدة مقالات علمية بهذا الموضوع، وقد درس فيها حالات عديدة من النطق حدثت في مختلف أنحاء العالم، وحاول كثيرون تصوير الروح عند الممات ولكنهم فشلوا، فأنى للعبد وما أوجد أن يرقب الخالق فيما أوجد. وأطباء آخرون قد وصلوا دماغ الإنسان إلى أجهزة معقدة كثيرة قبل موته وشاهدوا أنه عند الموت قد انطلقت من الدماغ إشارات لم يفكوا رموزها أسموها الروح.

وفي تعاليم اليوغا، التي هي رياضة روحية فكرية تأملية تعطي صاحبها قوة عجيبة، ما يشبه عقائد الموحدين، فلديهم _ أي ممارسي اليوغا من الكهان والعابدين _ أن الروح تبقى بعد الموت وتتقمص جسداً آخر، وقد جاء في تعاليمهم : ((أن الإنسان لا يخاف الموت إذ جاءه لأنه روح دائم الحياة، صامد للزمن، وعندما يحين وقت الموت، فإن الروح ستترك الجسد البالي وستلبس لباساً جديداً...)). ونجد هذه العقيدة لدى الإسماعيليين مع بعض التناقض والاختلاف فعندهم أن الإنسان كثير الشر والفساد إن مات يغضب الله عليه، لذلك فإن لا يولد إنساناً من جديد بل يلبسه جسد حيوانات عقاباً له.

ونجد عند إخوان الصفا هذه العقيدة، أيضاً فيها بعض الاختلاف مع عقيدة الموحدين في التقمص والنطق.

وفي الفلسفة العربية الإسلامية نجد الفيلسوف الرئيس ابن سينا، الذي تعمق في فلسفة أرسطو وتأثر بالأفلوطونية الجديدة يذكر خلود النفس التي هبطت من عالمها العلوي السرمدي، ثم ألفت هذا الاتصال بالجسد، لذلك فهي تنفصل كارهة عنه. ويصف ذلك في قصيدة فلسفية صوفية طويلة منها :

هَبَطَتْ إليكَ مِنَ المحلِّ الأَرْفَعِ   ورقاءُ ذاتَ تعزّزٍ وتمنُّعِ

وصلَتْ على كرهٍ إليكَ وربّما   كرهَتْ فراقكَ وهي ذاتُ توجّعِ

وأظنُّها نسيَتْ عهوداً بالحِمَى   ومـنازلاً بفراقها لم تقنعِ

ويتحدث القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى بن زكريا) عليه السلام عن روح الإنسان وانبعاثها من الروح العليا لتنير نفس الإنسان يقول : ((.... الروح هي النور الذي ينير كل إنسان يأتي إلى العالم...)).

وبذلك يمكننا القول أن منطق التقمص والنطق لا يتعارض مع تذكر الماضي وخاصة عندما ندرك أن نزعات الفكر اللطيفة _ حسب عقيدة التوحيد تنطوي عند الموت في أعماق النفس المتنقلة من جسد، إلى جسد وهذه النزعات والأفكار اللطيفة هي بذور انطلاقة الحياة التالية، وهي التي تحدد وضع التقمص المقبل، مع التأكيد على أن الذكر لا يولد إلا ذكراً والأنثى لا تولد إلا أنثى والإنسان يولد إنساناً خيراً كان أم شريراً. ولابد لبعض الأذهان إذا صادفت حالات مناسبة أن تذكر جزءاً من الماضي المباشر الذي كانت تعيش فيه وهذا هو النطق. ولهذه العقائد في الموحدين أثر كبير فهي السبب الذي يكاد يكون الأساس في شجاعتهم ونقاء دمهم، فهم لا يتزوجون إلا من بعضهم، ويولدون عند بعضهم، وهي تدفعهم للقتال بكل قوة وشجاعة دون خوف من الموت أو وجل، وكيف يخاف المرء من الموت وهو مقدر عليه؟ وهل يعصي المؤمن إرادة الخالق القهار لعبيده بالموت وكيف يخاف الموت وهو يعلم علم اليقين أنه سيولد من جديد في شكل جديد وجسد جديد وأنه لن يخرج من إطار الموحدين؟ ويوضح ذلك عبارة قالها أحد الشيوخ الموحدين، يظهر مدى شجاعتهم وقوتهم وإيمانهم العميق : ((خيولنا غوارة وأرواحنا دوارة........)) وملخص القول أن هناك من الأدلة العلمية والعقائدية التي لا يمكن لذي عقل وبصيرة وبعد كل ما قدموه من أدلة واقعية، أن يعاند ويكابر عقله في تصديقها، وتبقى مسألة القناعة أمراً شخصياً لا يمكن أن نفرضها على أحد فكل وما شاءت له نفسه، طالما أنه لن يسأل إلا عنها يوم الحساب العظيم.

9 _ اللاهوت والناسوت :

يحتل التجلي مركزاً هاماً في عقيدة الموحدين. والناسوت من اللاهوت هو الخط من المعنى، وكما أن فكر الإنسان المحدود بالكيفية والإضافة والزمان لذلك هو لا يستطيع أن يدرك المعاني

مجردة من الخط أو الصورة أو الصوت، كذلك لا يمكنه أن يدرك اللاهوت بوجه من الوجوه، وإنما يتجلى الله تعالى في الناسوت، ويكون هذا الناسوت قد تنزه عن كل ما ليس هو في حقيقته وشموله، فأضحى تشخصاً للإنسان الكامل، أي ناسوتاً مجرداً متطهراً مثالياً، متنزلاً، يتجرد الباقي السرمدي فيه عن التوهم والفناء. وهذا هو التأنيس بالنسبة للآخرين، بغية التعرف من خلاله إلى حقيقة الموجود في سعي بعضهم وتقربهم، وطلبتهم للمشاهدة، والتوحيد الأخير، ولأجل العبادة على هدي المبصرين المتحققين الأولين، بالنسبة لسائر الموحدين المؤمنين، وهذا هو معنى الكشف ودلالته لحقيقة الحقائق، وهذا الانكشاف في السر لمجلى الحقيقة هو ذاته تحقيق العارف لإنسانيته على وجه كمالها أي بتحقيقه إنساناً كاملاً.

واللاهوت هو الهوية المتعالية، هو لا ينحصر في الناسوت، وإنما يتجلى خلاله، ويتقارب. واللاهوت لا تدركه العقول، ولا تقيسه الأفهام إنه متعال عن الزمان، متسام عن المكان، خارج عن الحد والمحدود لا ينحصر في علم، ولا يرى في وهم. ويوضح الشيخ ابن عربي (قدس الله سره) في كتابه (الفتوحات المكية) في الجزء الرابع، الصفحة (443 _ 444) فيقول : ((الأنوار شهادة، والحق نور، ولهذا يُشهَدُ ويُرَى والأسرارُ غيبٌ، فلها الهُوَ فلا يظهر الهُوَ أبداً فالحق من حيث الهو لا يشهد وهويته حقيقته، ومن حيث تجليه يشهد ويرى، ولا يرى إلا في رتبة الرائي، وهو ما يعطيه استعداده، واستعداده على نوعين :

استعداد ذاتي، وبه تكون الرؤية العامة، واستعداد عارض، وهو ما اكتسبه من العلم بالله، وتحلت به نفسه من نظره العقلي، فيكون التجلي تابعاً لهذا الاستعداد الخاص، وفيه يقع التفاضل)). ومن خلال قول الشيخ ابن عربي نستشف أن اللاهوت هو ذلك (الهو) كما اصطلح تسميته والله أو الحق من حيث (الهو) أو اللاهوت لا يمكن لعين مشاهدته، ولا يظهر أبداً، أما من حيث تجليه في الناسوت فهو يشهد ويرى بقدر ما منح المشاهد من علوم وتقرب من الناسوت[247] وهذا الموضوع نفسه، يتحدث عنه الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي، فيقول ((.... لقد أمكن أن نروي القصة إلى هنا. ولكن ما بقي مخبوء لا يمكن التعبير عنه بكلام ولو انك حاولت شتى الطرق للتعبير عنه، لأبت صفر اليدين، ولظل السر حيث هو في غموضه....))[248]

ولذلك فالإنسان لا يمكن له بوجه من الوجوه أن يدرك اللاهوت، فالناظر الكثيف وإن نظر إلى النور لا يرى إلا بمثل ما فيه من كثافة ولكنه لا يستطيع ذلك إلا بواسطة اللطافة الموجودة فيه.

والتي تنزلت إليه من جذوة العقل الأرفع، مصدر النور وأصل جميع الكائنات.

10 _ ناموس السببية [249] :

قديماً وحديثاً كان العلم في سعي دائب للكشف عن أسباب الأفعال والأحداث، وإن نجح حيناً فقد قصر أحياناً، ولذلك نجده يعود إلى فلسفة القدماء ليكشف علل الوجود. وفي معتقد الموحدين : الشيء لا يوجد إلا بأربع علل (أسباب) وهذه العلل هي التي وصفها أرسطوطا ليس في كتاب (الطبيعة)، ومنها وعنها أخذ المفكرون والفلاسفة المسلمون. وشيخ الفلاسفة أبو علي ابن سينا يشرح هذه العلل الأربع ويوضح ارتباطها ببعضها وتلازمها في (الرسالة العرشية) وفي الصفحة الثالثة والرابعة منها يقول :

((العلل أربع : ما منه وجود الشيء، وهو العلة الفاعلية. وما لأجله وجود الشيء، وهو العلة الغائية والتمامية، وما فيه وجود الشيء، وهو العلة المادية، وما به وجود الشيء، وهو العلة الصورية)).

وتبدو هذه العلل غامضة رغم شرحها، وهي تحتاج لكثير من الفلسفة والمنطق لفهمها، لذلك آثرنا أخذ مثال واقعي كي نقرب الصورة من عقل القارئ غير المتبّحر، ونأخذ البناء مثالاً توضيحياً فقط ثم يمكن إلباس النتيجة على الكل من الكائنات. فلكي نبني بناء ما نحتاج إلى مجموعة من المواد كالأحجار، والحديد و الخشب وغيرها وهي التي تجمع وتختلط ببعضها لوجود البناء وهي ما يمكن أن نسمِّيها (العلة المادية) أي السبب المادي لوجود البناء، أو مكوناته : التي تجمعت لوجوده، والتي يكون البناء موجوداً بقوتها وتماسكها وليس بفعلها فهي لم تقم بأي فعل من حيث هي جوامد، والتي تدخل في قوام البناء وجزء أساس منه. ثم هذه المواد التي كونت البناء، لابد لها من أن تتناسق وتنتظم وتتآلف فيما بينها لتأخذ شكلاً نهائياً، وصورة البناء هي (العلة الصورية) فتلك المواد لو بقيت على حالها دون تناسق وتنظيم ولو لسنوات طويلة لما تغير فيها شيء ولما حصلنا على البناء. إذاً فتلك الصورة أو الشكل الذي نسقت بموجبه المواد (العلة المادية) والتي ارتسمت في ذهننا وإن أردنا أن نصف البناء دون رؤيته نرجع إليها في الذهن هي علته الصورية وهي داخلة في قوام البناء وجزء منه. وهذه المواد لم تكن لتتناسق وتنتظم لتأخذ صورتها النهائية من تلقاء نفسها، فهي جوامد لا تتحرك، ولابد أن هناك فاعل نظم هذه المواد، بعضها بعضاً، ونسقها ورتبها لتأخذ

صورتها النهائية وتصبح ذلك البناء، وهو ما نسميه (العلة الفاعلية)، فهذا الفاعل أو البناء الذي منه ومن فعله وجد البناء ليس جزءاً منه ولا يدخل في قوامه فهو علة خارجية عنه، ومع ذلك فليس هو الذي صمم البناء وإنما هو المنفذ له الذي أوجده بفعل منه ولا يمكن لهذا البناء أن يبني عبثاً، دون غاية واعية معينة، مدبرة ومصممة مسبقاً، هي التي دفعت بالفاعل كي يجمع المواد ويؤلف بينها على تلك الصورة. ولولاها ما سعى الفاعل إلى ذلك ولما فعل ما فعل وإنما هي هدته. ولولاها لما وجد البناء ولو كثرت المواد والبناؤون أو تلك الغاية من البناء هي لإيواء النفس والسكنى فيه :فهي (العلة الغائية أو التمامية) لأن البناء قد تم بها وواضح أيضاً أنها لا تدخل في قوام البناء وليست جزءاً منه. والموحدون يضيفون إلى هذه العلل الأربع علة أخرى هي (علة العلل) وفي مثال البناء، فذلك الباني هو من أوجد البناء بقوته لكنه ليس هو الذي صممه ورسم مخططاته، وإنما هو أداة تنفيذ بيده، فهو أي المصمم صاحب العقل، وواضع التصميم، وقد أوجد الغاية من الشيء وهو وضعها، فهو يختلف عن الفاعل، وهو أيضاً خارج عن البناء، ويوضح الشيخ بهاء الدين علي بن أحمد الطائي (س) وهو أحد واضعي فلسفة التوحيد في إحدى رسائله : ((إن الفاعل للبناء، وإنما هو مستخدم بين يدي المصمم له، مأمور في فعله، مقصور على ذلك صحيح أن هذا المصمم ليس علة في البناء، ولكنه هو معلّلُ عِلَلَهِ الأربعِ ومُدَبِرُها ومصمّمُها)).

إذاً فالعلل الأربع هذه هي خلف كل مصنوع وكائن. وجميعها ما عدا العلة التمامية التي يوجد لأجلها الشيء، كلها موجودة لأجل وجود الشيء. ويقول الشيخ بهاء الدين أن الصورة المنقوشة في نفس المهندس، التي ثبتت القواعد والآلات، هي الكمال والتمام للبناء وهي شبيهة من هذه الوجهة بالمهندس، إذ كانت قد قبلت منه حقيقة التأثيرات. وذلك المثال كان للتوضيح والتنسيط، وما ينطبق على البناء، ينطبق على الإنسان بتحقيقه لإنسانيته على وجه كمالها، وإنما يكون قد عاد في استبطانه وتحققه أن الصورة الناسوتية المثالية والعلوية الأصلية التي أبدعها المهيمن[250] وكان بها متجلياً قبل الخلق والإبداع وبعده كمن يشاهد نفسه ويرى صورته في المرآة. ويقول الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي : ((الخلق ظهور مشهود للحق، والإنسان سر الله مكشوفاً مبيناً في خلقه. ولكن لما كان الإنسان لا يستطيع أن يدرك كل ما يتطلب الإدراك، من تلقاء نفسه، لأن لعقله حدوداً لا يعدوها، فهو لا يعبر إلا عن جزء من العقل الإلهي. وليس له أن يقول أنا الحق فليس هو الحق ولكنه حق))[251]

إذاً علة العلل هي المخلوق[252] الأول الذي خلقه الله تعالى، وهو مخلوق وليس خالق ومبدع وليس مُبْدِعاً، ومعل علة العلل هو الله تعالى خالق الأكوان ومبدع كل شيء، تعالت قدرته عما يصفون.

11 _ الله الحاكم والحاكم بأمر الله :

قبل الخوض في مفهوم التجلي، أجد علي لزاماً أن أوضح صورة قد فهمت خطأ، وحاول الكثيرون ولأسباب مغرضة تكريسها، وحاربوا كل من حاول توضيحها أو كشف حقيقتها وإزاحة الستار عنها. هذه الصورة هي الخلط بين شخصية الحاكم بأمر الله (س) الخليفة الفاطمي، والإمام التوحيدي والبشر المخلوق والعقل الصدوق، وبين كلمة الحاكم التي يرد برسائل الموحدين، وهي تعني أحد المقامات التي تجلى بها الخالق سبحانه للبشر بشكله الناسوتي، وإنني إذ أؤكد عليها لأهميتها في مذهب التوحيد إضافة إلى كونها شركاً بالله سبحانه لا يقبله عقل، ولا تستسيغه نفس، كما سيتم توضيحها اعتماداً على أدلة وشواهد من رسائل الموحدين ذات المرجعية الصادقة عند الجميع ولا يستطيع أحد نكرانها أو التشكيك فيها إضافة لبعض آيات القرآن الكريم، وبعض رسائل الإنجيل المقدس وكتابات أشهر المتصوفين العرب.

في العهد الفاطمي وقبل بدء دعوة التوحيد، كان التأليه يلقى قبولاً عند عامة، الناس وكان الاعتقاد الذي دعا له بعض المغالين أن الخلفاء الفاطميين وأئمة الإسماعيليين هم مقامات إلهية تجلى الخالق سبحانه من خلالها للبشر، وهذه الفكرة خالفها وحاربها الخليفة الفاطمي الرابع والإمام التوحيدي الأول الحاكم بأمر الله، إذ أصدرت سجلات كثيرة تؤكد على رفضه التأليه، وأمر بقتل دعاته لما فيه من افتراء على الخالق وشرك به ولما وردت كلمة الحاكم وكان المقصود بها أحد مقامات تجلي الخالق سبحانه التبس على الكثيرين بينها وبين اسم الحاكم بأمر الله (س) حيث أن كلمة (الحاكم) التي وردت في رسائل الموحدين كانت بديلاً لكلمة الله التي وردت في آيات القرآن الكريم ضمناً وليس لفظاً، ويقول الإمام حمزة بن علي (س) عقل مذهب التوحيد موضحاً هذا الالتباس :

((ما أدراك ما حقيقة الحاكم، فيجب على الموحدين الكشف عن حقيقة الاسم وحقيقة الحاكم وقول الحاكم بأمر الله، وحقيقة الاسم ومعناه المولى جل ذكره. فالحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأن مولانا جل ذكره ابن العزيز، أو أبو علي، لأن مولانا سبحانه هو هو في كل عصر و زمان)).

((الحذر الحذر معاشر المؤمنين من الشك في مولانا جل ذكره، أو الشرك به سبحانه، لا شريك له، لا معبود سواه، واعلموا أن ليس منكم أحد إلا ويشرك ولا يدري، وذلك لقول القائل منكم بأن مولانا سبحانه صاحب الزمان أو إمام الزمان، أو قائم الزمان، أو ولي الله، أو خليفة الله، أو ما شاكل ذلك من قولكم بالحاكم بأمر الله)).

((إنه جل ذكره منزه عن الأسماء والصفات وكل ما يقال فيه من الأسماء مثل الإمام وصاحب الزمان وأمير المؤمنين هي كلها لعبيده. وهو أعلى وأجل مما يقاس ويحد أو يوصف ولكن بالمجاز لا بالحقيقة ضرورة)).

وجاء في الرسالة الثالثة عشرة من رسائل الحكمة : ((سبحانه الذي أظهر لنا حجابه الذي هو محتجب فيه ومقامه الذي ينطق منه، وحجابه في كل عصر وزمان باختلاف الصور والأسماء)). وفي الرسالة التاسعة عشرة : ((لا يتشخص بجسم ولا يقع عليه اسم بل ينظر إليه كل إنسان من حيث هو مبلغ عقله)) وجاء في الرسالة السابعة عشرة : ((توكلت على مولانا البار العلام، العلي الأعلى حاكم الحكام، لا يتكل عبده على مخلوق من البشر، ولا يعبد شخصاً ولا صور، بل لاهوتياً كلياً، وإلهاً أزلياً)). وفي الرسالة الثامنة ((التقديس والآلاء، والحمد للمولى، الفرد الصمد، المنزه من حيث هو عن الصفة والنعت والحد، إله البرية، الحاكم بذاته، المنفرد عن مبدعاته)).

ولو تأملنا بعقلنا، وقلبنا ما جاء في الرسالة الثانية عشرة لأغنتنا عن كثير الكلام، ولفصلنا القول والجدل، ولأقمنا الحجة على عقول جامدة ترفض القبول وذلك لسيطرة ظلمة الضد عليها. جاء فيها : ((لمولانا الحمد والشكر على ظهور نور الأنوار وخروج ما كان مدفوناً تحت الجدار، وقد أنعم علينا وعليكم بمباشرته في البشرية وظهوره لكم في الصورة المرئية لتدركوا بعض ناسوية الإنسية، ولا أقول ذاته أو نفسه أو صورته أو معناه أو صفاته أو حجابه أو مقامه أو وجهه إلا ضرورة على قدر استطاعة المستجيبين، وما يفهمه المستمعون وتعيه عقولهم))

وقد وردت كلمة (الحاكم) في القرآن الكريم كبديل عن كلمة (الله) تعالى رغم أنها لم ترد كاسم من أسماء الله الحسنى. قال تعالى في سورة الحج الآية 99 : ((بسم لله الرحمن الرحيم * فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) وفي سورة القصص 88 : ((وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)) وفي سورة يونس الآية 109 ((وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)) وكما أن تسمية الله سبحانه بالحاكم جاءت أول ما جاءت على لسان نبي الله إدريس (ع) إذ يقول في إحدى مناجاته : ((نحمدك أيها العلي الأعلى، بعلمك تلقينا نور معرفتك، اسم مكرم قدوس، تعطينا النور لمعرفتك، والإدراك لنبحث عنك، والعقل لنحصل على السعادة بأن نفهمك لقد عرفناك نوراً كبيراً.. أنت الذي لا يتحسس بغير العقل وحده. أنت المولد الكامل لكل الطبيعي الأزلي الدائم.. لم نطلب إليك سوى الحفاظ علينا في الحب لمعرفتك.. إن الله ليس شيئاً لكنه كل شيء وهو مجد كل الأشياء... إنه ليس العقل لكنه علة العقل.. إنه ليس النور لكنه علة النور. إنه الخير وليس شيئاً آخر.. إنه الحاكم الأول لكل ما يتلقى الحياة، ولكل ما يعطيها، والموزع الأزلي لحياة العالم))

وفي الكتاب المقدس وخاصة إنجيل يوحنا إشارة إلى وجود (الأب) الخالق في حالة اتحاد مع مخلوقاته إذ جاء فيه : ((ليكون الجميع واحداً كما أنت أيها الأب في، وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا)).

وكذلك أشار القرآن الكريم إلى وجود الله سبحانه مع مخلوقاته وكائناته واتصاله الدائم بهم، وقربه منهم، قرب حبل الوريد للإنسان. لذا يتوجب على الإنسان أن يفتش عن الله سبحانه داخله في قلبه الصغير الذي اتسع للخالق الذي لا يسعه الكون. لا أن يفتش عنه داخل جدران معبد أو صومعة أو كنيسة أو مسجد أو مجلس حكمة، وهذا يذكر بقول الشيخ الكبير ابن عربي في كتابه ((فصوص الحكمة)) : ((اللسان ترجمان الجنان.. والجنان متسع الرحمن، وهو له بمنزلة المكان، فما وسع الرب إلا القلب))((ف4 _ 363)) والفكرة ذاتها ينشدها الحلاج ابن منصور المتصوف الإسلامي إذ ينشد ((أنا من أهوى ومن أهوى أنا. نحن روحان حللنا بدنا فإذا أبصرتني أبصرته، وإذا أبصرته أبصرتنا)).

وهذا معنى قول السيد المسيح (ع) : ((أنا والأب واحد، فمن رآني رأى الأب)). وهذا ما جاء في الأوبانيشاد، حكمة الهند الخالصة، عندما ذكر في سفر كاث أوبانيشاد ((kath oparishad

)) ((هو رب اليوم ورب الغد، ولكن القلب الذي بحجم إصبع الإبهام مقر له ومكان، من يعرفه في صميم قلبه، لا يعرف الخوف والأحزان)) وجاء في القرآن الكريم

((بسم الله الرحمن الرحيم * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)) سورة ق الآية 16

((وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)) الزخرف / 84

((هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) الحديد /3

وإن تجلي الخالق سبحانه للخلق، يقع تحت آخر مجالي الربوبية، كما أوضح الشيخ المتصوف عبد الكريم الجيلي، فالرب والمريد والقهار والمعز والحاكم هي أسماء يتطلبها وجود المخلوقات، فإن الربوبية هي ظاهر الألوهة ، مثلما الذات هي بُطون الألوهة، والربوبية بمختلف الأسماء والصفات التي تطلبها وجود كافة المخلوقات هي لتقريب الصورة لعامة البشر (الدهماء) يقول الجيلي في كتابه (الإنسان في معرفة الأواخر والأوائل) ص48 ((الربوبية اسم للمرتبة المقتضية للأسماء التي تتطلبها الموجودات، فدخل تحتها الاسم : العليم والسميع والبصير والمريد والملك وما أشبه ذلك[253] لأن كل واحد من هذه الأسماء والصفات يطلب ما يقيم عليه، فالعليم يقتضي المعلوم، والقادر يقتضي مقدوراً عليه، والمريد يطلب مراداً وما أشبه ذلك، واعلم أن من الربوبية تجليات، تجل معنوي وتجل صوري، فالتجلي المعنوي ظهوره في أسمائه وصفاته على ما اقتضاه القانون التنزيهي من أنواع الكمالات، والتجلي الصوري ظهوره في مخلوقاته على ما اقتضاه القانون الخلقي للبشر)).

وكما أن المتصوف ابن عربي يبني نظريته الصوفية على التجلي حيث يعتبر كل ما هو موجود في عالم الظواهر هو عبارة عن مجلى أو مظهر إلهي، فالحق يتجلى في الأشياء أي يظهر فيها فيكثر دون أن ينقسم. فالله سبحانه يظهر في الممكنات التي يدعوها ابن عربي ((الأعيان الثابتة)) إلى الوجود المحسوس ويعطيها وجودها باسمه الظاهر، فهو الظاهر في كل صورة، والمتجلي في كل وجه، وهو الوجود الواحد، والأشياء موجودة به، معدومة بنفسها. يقول ابن عربي في الفتوحات المكية ((فهو تعالى المتجلي في كل وجه، والمطلوب في كل آية، والمنظور إليه بكل عين، والمعبود في كل معبود، والمقصود في الغيب والشهود، لا يفقده أحد من خلقه بفطرته وجلبته،

فجمع العالم مصل له وإليه ساجد)) ويذهب ابن عربي في القول بتلازم التشبيه والتنزيه مذهباً يوصله إلى القول بأن كل المعبودات التي توجه إليها البشر في كل مكان وزمان لم تكن في واقع الحال إلا مجالي أسماء الله، وأن التوجه إليها بالعبادة لم تكن إلا طريقاً لمعرفة الذات الإلهية الحقة، لأن الله تعالى قال في كتابه ((وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ))[254] ولم يقل : وأمر بك ألا تعبدوا إلا إياه فكل عبادة تتوجه في هذه الحالة لغير الله مآلها إليه. وابن عربي يجد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تقرن التنزيه بالتشبيه ومنها : ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)) [255]). يقول في كتاب الفصوص : ((وبالجملة فلابد لكل شخص من عقيدة في ربه يرجع بها إليه ويطلبه فيها. فإذا تجلى له الحق فيها أقر به، وإن تجلى له في غيرها أنكره فلا يعتقد معتقد إلهاً إلا بما جعل في نفسه. فالإله في الاعتقادات بالجعل، فما رأوا إلا نفوسهم وما جعلوا فيها.)) (ف.1 / فقرة 13). وما سبق من قول ينطبق على عامة الناس الآخذين بظاهر الدين وشريعته أما من قطع شوطاً في مسار العارفين يجب ألا يتقيد بصورة دون أخرى. بل عليه أن يقبل جميع الصور وما هو فوق هذه الصور. يقول أيضاً[256] ((فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه. فكن في نفسك هيولي لصور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد، فإنه يقول فأينما تولوا فثم وجه الله)).

ومن خلال ما تقدم كله لا بد أن الحقيقة الواضحة لم تعد تحتاج إلى توضيح، فثمة فارق كبير بين الحاكم بأمر الله (سلام الله عليه) الإمام الصادق والعارف المستنير الذي أحيا مذهب التوحيد، البشر المخلوق، وبين (الحاكم) الخالق المعبود الدائم الوجود المنزه عن الأسماء والصفات والحدود. فكن أخي الإنسان على أي دين كنت أو مذهب أو طريقة على ثقة أن ليس سوى العرفان طريقاً لخالقك المطلق، الواحد الأحد، الحاكم المتعالي على كل الحكام، براهمان الحقيقة كما تذكر رسائل الحكمة المقدسة ((لا يتكل عبده على مخلوق من البشر ولا يعبد شخصاً ولا صور بل لاهوتاً كلياً، وإلهاً أزلياً)) وكما تخبرنا (المنداكا أوبانيشاد) بالعقل الصافي وليس العقل التحليلي. العقل بكليته بعد أن يتخلص من قدح زناد الفكر وإعمال الذهن، إذ تقول :

((أكبر من أي كبير نتصور، وأصغر حتى ذرة الهباب، فابحث عنه في أعماق ذاتك ليكن الأوبانيشاد قوسك، والعقل سهمك والأحاسيس وتراً لك. شد وترك وصوب نحو براهمان، هدفك

الوحيد... لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الكلمات، لا تحيط به الكلمات، لاتصل إليه بالأضحية والتكفير بل بالمعرفة التي تجلو العقل، بتأملات العقل الصافي وحده، يتجلى لك براهمان في كليته))

opanishad.ch 1/1-7 ch2 2/2-3:mundak

12 _ التجلي بالصورة الناسوتية :

إن في معتقد التوحيد ما هو امتداد وتوضيح واستقطاب آيات القرآن الكريم وانطلاق منها بشكل يتفق وروحية التفسير التوحيدي للوجود، ولذلك عد هذا المعتقد مسلكاً جديداً، يتجاوز الظاهر والباطن إلى العرفان أو الحكمة والتوحيد، وهو يسعى إلى مرحلة التحقق حيث تمحي (الأنا) فيبلغ العارف مرتبة المشاهدة.

وهذا التحقق عبر عنه الشاعر الصوفي الكبير فريد الدين العطار في كتابه (منطق الطير) (the conference of the birds) حيث يتحدث عن مجموعة من الطيور تسعى لمقابلة ملكهن، ويتعرضن للمتاعب والمشاق الكبيرة في طريقهن وتصل مجموعة منهن هي التي يتاح لها المشاهدة السنية يقول في الصفحة 129_ 132 ((أخيراً بلغ عدد قليل من هذه الجموع الغفيرة، ذلك المكان السني الذي قادهن إليه الهدد. ألوف من الطير كن قد هلكن، منهن في المحيط ومنهن على قمم الجبال العالية، بعد أن قاسين ما قاسين من العطش. منهن من احترق جناحاه، وقلبه يبسته نار الشمس، ومنهن من افترسته النمور والفهود، ومنهن من مات إعياء في الصحارى والقفار، شفتاه انسفعتا، وجسمه أفناه اللهيب، بعضهن جن جنونه فاقتتل لأجل حبة من شعير، وبعضهن وقد أضناه العذاب والكلال، سقط في الطريق لا يقوى على المضي، ومنهن وقد أخذ بما رأى، توقف في مكانه مصعوقاً، وكثير منهن كان قد قاده الفضول وطلب اللذة، هلك دون أي علم بما تسعى إلى إدراكه الطيور. وهكذا من بين ألوف الطيور أولئك، ثلاثون طائراً فقط، بلغن نهاية المطاف، وحتى أولئك كن مشدوهات متعبات مكتئبات، لا ريش عليهن ولا جناح، ولكن هاهن الآن على باب تلك الجلالة التي لا يمكن أن توصف ولا يمكن لذاتها أن تدرك.

هذا الكائن الذي يتعالى عن العقل الإنساني وعن المعرفة. وإذ برق الاستغناء يومض، فَتُلْتَهَمُ مئة من الأكوان في لحظة رَأَيْنَ ألوفاً من الشموس، كل شمس منها أزهى من الأخرى، ورأين

ألوفاً من الأقمار والنجوم، كل قمر، وكل نجم منها جميل كالآخر، وإذ رأين ذلك كله ذهلن واضطربن، كما ترقص ذرة من تراب. فصرخن : (يا من يشع أكثر من الشمس، لقد اختصرت الشمس ذرة، كيف يمكن أن نمتثل أمامك ؟ آه....! لماذا تحملنا في طريقنا دون جدوى كل هذه المشاق ؟ لقد نكرنا ذواتنا وكل شيء، والآن لا نستطيع أن نحصل على الشيء الذي سعينا إليه، فسيان هنا وجدنا أم لم نوجد)

ثم عرفت الطيور وقد انخلعت قلوبهن، حتى أصبحن كالديك المحتضر في بحرٍ من اليأس)). ثم يخرج إلى الطيور حاجب العزة ممتحناً. وبعد أن يتقين الحاجب صدقهن وإخلاصهن وسعيهن يفتح لهن الباب : ((وإذا أخذ يزيح مئة ستار، الواحد بعد الآخر، انكشف عالم جديد من وراء الحجاب. وإذا بنور الأنوار يتجلى، فاستوين جميعهن على المسند، أريكة الجلالة والعزة، وأعطين لوحاً وطلب منهن قراءته. وإذ قرأنه بإمعان، استطعن أن يعين حالهن. وعندما سكن روعهن وتحررن من كل شيء تنبهن إلى أن (السيمرغ) بينهن، وبدأت حياة جديدة مع السيمرغ، وأمحى كل ما كان قد فعلنه قبلاً. وأشعت شمس الجلالة، وفي انعكاس وجوه كل منهن، تأملت طيور العالم الخارجي الثلاثون (سي مرغ)[257] وجه سيمرغ العالم الداخلي. وقد أذهلهن هذا حتى أنهن لم يدركن إذا كن لم يزلن أنفسهن أم أنهن قد أصبحن السيمرغ، وأن السيمرغ هو الطيور الثلاثون (سي مرغ). وعندما كن يشخصن بالسيمرغ كن يرين أن السيمرغ حقيقة هو هناك، وعندما كن ينظرن إلى أنفسهن وإلى السيمرغ معاً، كن يرين أنهن و السيمرغ كائن واحد لم يسمع أحد في العالم قط بما يعادل ذلك. ثم أنهن استسلمن للتأمل، وبعد قليل وبدون أن يفهن بكلمة، سألن السيمرغ أن يظهر لهن سرَّ سرِّالوحدة والكثرة في الكائنات. وبدون أن يتكلم أيضاً أجابهن السيمرغ : (إن شمس جلالتي مرآة، فمن رأى نفسه فيها رأى روحه وجسده، ورآهما كاملين. وإذ جئتن ثلاثين طائراً (سي مرغ) رأيتن في المرآة ثلاثين طائراً. ومع أنكن قد تغيرتن تماماً الآن، فإنكن ترين أنفسكن كما كنتن في السابق)...)) إلا أن هذه الصورة الناسوتية التي ينعم بمشاهدتها الأعراف المتحققون وكأنهم ينظرون إلى وجوههن في المرآة، لا تعني حلولاً في ذات الله، فالله عند الموحدين يتعالى عن ذلك ويتنزه، إنما هو واحد أحد لا يشاركه في عزته وملكوته وآحديته مشارك. وإنما يتجلى ويتدانى وينكشف للعارف بقدر ما يقدر له تهيؤه وصفاؤه وتخلصه من أنيته، وتوجهه إلى العلي الأعلى واستغراقه في جلال عزته تعالى وقدسه وملكوته، وبقدر ما يغيب بذاته عن وعي ذاته، فتفنى كل أنية في حضرة ذلك التجلي والانكشاف.

هذه المشاهدة التي تتم للعارف المتحقق، عندما يتحرر من الترابية الموجودة فيه ويتخلص من ظلمة الكثيف. (فكما أن المرآة المغشاة بالطين) كما تقول الأوبانيشاد، ((تتألق من جديد بكل رونقها عندما تجلى جيداً، كذلك الكائن المتجسد، عندما يتأمل في طبيعة الذات الحقيقية، ويستعيد الوحدة ويدرك الهدف، يتحرر من الألم)).

ولكي يبلغ العارف المتحقق مرحلة المشاهدة، لا بد من أن يتخلص من كل ما يشده ويربطه بالعالم المادي، من شهوات ورغبات تقتضيها الحواس، ولا بد من أن يتحرر من كل قيود الجسد كي يصبح في مرحلة الصفاء التام. وهذا ما ذكره السهروردي في رسالة (أصوات أجنحة جبريل)، وهي رسالة فلسفية صوفية يصعب فهمها على القارئ العادي ولو قرأتها لأول مرة تظن أنها حكاية عادية بل أقل من ذلك، لذلك يجب تفسير كل كلمة فيها كي تصل إلى جوهرها، وهذا ما يجعل الهامش مساوٍ المتن، ولكن لابد من ذلك إن أردنا فهمها.

13 _ الثواب والعقاب :

كثرت الأحاديث والأقوال، واختلف الناس حول نوعي العقاب والثواب الذي ينتظره الإنسان من حياته على وجه البسيطة. وقد بولغ في النعيم والرفاهية ولذاته المتنوعة، وعذاب الجحيم وآلامه المختلفة، وكل هذه الأحاديث وغيرها لترغيب الإنسان بالأعمال الخيرة وترهيبه من الأعمال الشريرة ليبتعد عنها. فالنفوس الشريرة والنوازع الأثيمة جرت أصحابها للمساوئ والآثام فاستحقوا عليها عذاب جهنم ونار السعير خالدين فيها أبداً، أما أصحاب النفوس الخيرة والأعمال الطيبة الحسنة، فبقدر حسناتهم يكون لهم درجات الجنة والنعيم، فيكون ثوابهم عادلاً، لأن الله عادل وحكيم منح الناس القدرة على الحركة وعلى السكون، ومنحهم القدرة على النظر العقلي (البصيرة) وتحكيم العقل في كل شيء، كما هداهم الله تعالى السبيل لاكتساب هذه القدرات، وعلى هذا الأساس الكامل من المسؤولية الفردية كل إنسان يسأل عن نفسه : (لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.)[258] فلا الأب يسأل عن أعمال أولاده ولا الأم تسأل عن أعمال أولادها، ولا الأبناء سيألون عن أعمال آبائهم ولا إخوانهم. وقد بعث الله تعالى الأنبياء والرسل وزودهم بالرسالات السماوية لهداية البشر كي لا يبقى للإنسان حجة على خالقه يوم القيامة، فلكل أمة أرسل رسولاً يدعوهم للخير وينهاهم عن الشر ومعصية الخالق. وقد منح الله تعالى الإنسان العقل (عقل الإنسان محدود القدرات وهو جزء من العقل الأرفع، لكنه

جزء غير كامل المعارف) ليكتشف الطريق الصحيح، وبهذا ميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، وكان الإنسان أكثر المخلوقات جدلاً، قال تعالى:

((إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُورا))[259]

وفي كتب الحكمة الشريفة جاء : ((إن الباري حلت آلاؤه منزه عن الظلم، لم يهمل عباده ولم يخليهم في كل عصر وزمان من داعٍ إلى كلمة التوحيد، فأمر الباري عرض وتخيير، ونهيه عظة وتحذير ليقوم العدل بالتخيير في الخليقة ويصح الثواب والعقاب الموعودان في يوم القيامة)).

فلو كان أمره حتماً، ونهيه جبراً لسقط التفاضل ولما صح الثواب والعقاب في يوم الحساب، يوم تجد كل نفس ما عملت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ليكون العدل بالتخيير وحاشا أن يحاسب الله تعالى على أفعال هو مجبر عليها. ولولا التخيير، لكانت العبادة جبراً وقسراً ولتساوى أهل الأرض جميعاً، ولكان العالم مجبراً لا مثاباً ولا معاقباً. لأن المجبر لا يثاب ولا يعاقب. والله تعالى قد كلف ملاكين يراقبان كل إنسان، يلازمانه ويكتبان كل أعماله صغيرة أو كبيرة، خيرة أو سيئة، ولا يغادران شيئاً من أعماله، قال تعالى :

((فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ {7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ {8}))[260]

ويحاسب تعالى كل نفس بالعدل ولا يظلم أحداً ((وما ربك بظلام للعبيد)) وفي هذا الصدد يقول الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي (قدس الله سره) : ((إن الله تعالى مع علمه وإحاطته بكل شيء، لم يجبر أحداً على معصية، ولا حتم عليه بالطاعة والمعصية، المخيرون الخلق فيهم المستطيعون للجهتين كقوله : [وإن العالم مخيرون في أفعالهم مستطيعون ما يشاءون يفعلون] فتخييرهم حقيقة العدل، والخلق مفطورون على قبول الطاعة والمعصية بما في ذاتهم من النور والظلمة المتساويين، ولولا ذلك ما ثبت)) فالإنسان هو الذي يجلب المعصية على نفسه، وليست مفروضة عليها، بل هو من يختارها بنفسه، قال تعالى :

((مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ))[261]

وقال الحسن البصري حول هذه الفكرة : (الخير من الله والشر من العبد). فالموحدون يعتبرون اتقاء الله، وعمل الخير، وتطهير النفس من المعاصي، والابتعاد عن الملذات التي ينبذها

طلاب الكمال هي الفضيلة، وكلما ازدادت تقوى الإنسان عظم جزعه وخوفه من الله تعالى، يقول الشيخ المقتنى بهاء الدين (سلام الله عليه) : ((إن العقاب يحل بالقائلين بالتوحيد بظواهر ألسنتهم، المخالفين لأوامره بالنهي عن الفساد)) كل نفس تجادل يوم القيامة عما فعلته، فينطق كل عضو بالجسد عما فعله عدا اللسان فلا ينطق. قال الله تعالى

((يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)) [262]
((يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ))[263].

فالإنسان في الحياة الآخرة سيظل إنساناً كما كان في الدنيا من جسد وروح، وإن تكن القوى الروحية هي الغالبة، وأما وجود الحساب في الآخرة فهو من جهة العقول الإبداعية والانبعاثية بما يسري من روح القدس في الأنفس، فيسعد السعيد ويشقى الشقي. ففي القيامة ترتفع الحجب عن النفوس، فتعطى قوة تدرك بها جميع معارفها وأفعالها السابقة، وتصبح الأزمنة عندها كأنها يوم واحد، فتجازى كل نفس بما اقترفت، يوم يتذكر الإنسان ما سعى قال الله تعالى :

((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً))[264]

((مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً))[265].

وغاية الحياة أن تسعى النفوس لتعود إلى التمتع بالمشاهدة الإلهية عن طريق تطهير النفس، لذلك وجب عليها أن تجرد ذاتها من الشهوات البدنية والميل الحسي بممارسة الفضائل الأربعة ((العفة، العدالة، الشجاعة، الحكمة)) والشيخ إسماعيل التميمي (عليه سلام الله) يذكر ان ((الجنة بمعناها الحقيقي هي الدعوة الهادية المهدية، وثمارها هي العلوم الإلهية يتخلص بها الموحدون من الجهل ويشفون بها من داء الجهل، فمن اهتدى بتعاليم العقل وحدوده، واستجاب لدعوة الحق واهتدى بذلك النور الإلهي، وتلك التعاليم التي ستوصله إلى الخير وتضعه في حالة من العرفان. إذ ذاك يدخل دار الخلود ويفوز بالجنة ويبلغ النعيم الموعود)) ويقول الشيخ المقتنى[266] بهاء الدين (عليه سلام الله) : ((إن الثواب هو إدراك المعلومات الإلهية، واكتساب الفضائل البرهانية، تلك هي السعادة القصوى التي هي الغرض التي يسعى إليه الإنسان)).

ويذكر المستشرق الألماني بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) إن معتقد الثواب والعقاب هو سرمدي دائم غير منقطع، وهما يتصلان بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة، وهو يصف مجريات يوم القيامة فيقول ((يوم القيامة تزلزل الأرض في الحال، وتسير الجبال كالسراب، أو تتطاير، فهي تمر مر السحاب فتنقلب هباءً منثوراً، وعندئذ أيضاً تفجر البحار وتدور الشمس على محورها، ويخسف القمر وينشق، وتنتثر الكواكب، وتفتح السماء فهي واهية، لتكشف عن العالم الآخر وتعرضه على أعين البشر. وفي سور القرآن الكريم وصف لبعض ما يجري حين تقوم الساعة ومنها :

((في يوم الحشر يفتح الكتاب الإلهي الذي ينتظم بين دفتيه جميع أعمال البشر، ويبدأ الحساب على هذا الأساس، فيتلقى كل امرئ بياناً بأعماله ليقرأه بنفسه بصوت جهير، حتى الجاهل الذي لا يعرف القراءة فهو سيلهم القراءة ليقرأ ما قد اقترفته يداه، ومن أوتي كتابه بيمينه فهو من أصحاب الميمنة في عيشة راضية، فهو سعيد والبشرى في وجهه لأن الجنة جزاؤه، وأما من أتي كتابه بشماله فهو من أصحاب المشأمة، فيأسف على ماضيه ويندم ساعة لا ينفع الندم، وترى المجرمين مشفقين يقولون يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ويحاولون أن يجدوا لأنفسهم الأعذار لكن رسلهم الذين بعثوا في زمانهم يشهدون عليهم. وبعد انتهاء الحساب يأتي الثواب والعقاب فيساق المؤمنون الصالحون الذين اتقوا ربهم إلى جنة عدن حيث فيها ما وعدوا به، تدخل عليهم الملائكة تقول سلام عليكم بما نلتم، فيها أنهار من عسل وعيون جارية تطيب لهم الحياة الخالدة : يقول تعالى

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً {30} أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً {31} [267]

وفيها سرر من ذهب مرفوعة ونمارق مصفوفة حولها.وفي الجنة يرتع الصالحون ووجوههم تطفح بشراً، وعليهم ثياب خضر من سندس واستبرق ومناطق من فضة. ويشربون من عين مزاجها كافوراً وزنجبيلاً أو من رحيق مختوم بالمسك.

وتحيط بالجنة أشجار دانية الظلال، مذللة القطوف، فهم يتخيرون من فاكهتها الكثيرة ما يشتهون فإذا أرادوا عنقوداً من العنب أو غيره، انقضب من الشجرة بمشيئة الله وحملته القدرة إلى

فيه، وأهل الجنة يلقون بأصناف التحية وآخر دعواهم إن المجد لله رب العالمين. وينعمون بمصاحبة الأبكار الحور العين اللواتي وهبهن الله شباباً سرمدياً. بعضهن تخرج من أشجار إذا ما قطف المؤمن من ثمارها تخرج إليه حورية بديعة الجمال. قال تعالى

((يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ {53} كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ {54} يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ {55} لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ{56}))[268]

((وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ {52}))[269]

((وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ {24}))[270]

((يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ {17} بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ {18}))[271]

((وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ {20} وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ {21}))[272]

وهذه المباهج من الجنة تتوجه إليها أخيلة الرجال أما النساء فقد وعدن بالتحرر من البغض والحسد، وبمتعة الأحاديث الدينية، ورضوان من الله أكبر.

وأما أصحاب المشأمة الكفار فيساقون إلى جهنم و بئس المصير، وهي هوة سحيقة مليئة بالنيران الحامية، يقول تعالى

(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ {19})[273]

وفيها عين آنية يشرب المجرمون من حميمها المنتن فيقطع أمعاءهم ويقدم إليهم نبات كريه الرائحة لا يسمن ولا يغني من جوع من شجرة الزقوم. قال تعالى

((إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ {64} طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ {65}))[274]

وفي الجحيم موطن فيه سلاسل وأغلال لتعذيب الكفار تشرف عليه تسعة عشر من الملائكة (الزبانية) تحت إمرة قائدهم، وإلى جانب عذاب الجسد يلقى أهل النار عذاب الروح واتهام الذات واللعنات والتوسلات في سبيل النجاة، وعقوبات الجحيم سرمدية لا خروج منها، ولا يموت فيها

الكفار وإنما يذوقون العذاب وتحترق جلودهم وتتحطم عظامهم ويشعرون بالألم الكبير ويبدّلون غيرها كي يستمرون في العذاب دائماً.

هذه بعض ما يلاقيه الفائزون والمؤمنون من نعيم الفردوس وجنات عدن وما يلاقيه الكفار والخاسرون من عذاب سقر والجحيم. وقد منح الله سبحانه العقل كي يختار ما يشاء بعد أن عرف ما يلاقيه من عذاب أو خير، قال تعالى

(({ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً {29})) [275]

فلسفة المذهب في الخالق وبدء الخلق :

قالت فلسفة التوحيد بقدمية الكون، مخالفة بذلك أقوال غيرها من فلسفات الأقدمين، ومثبتة أن الكون وجد قبل آدم بملايين السنين وحين جاء علم طبقات الأرض بعد مئات السنين مؤكداً على أقوالها مصادقاً على قولها : ((وجد الكون قبل آدم بسبعين دور، وبين كل دور ودور سبعون أسبوعاً، وبين كل أسبوع وأسبوع سبعون عاماً، والعام ألف سنة مما تعدون))[276] وهذا الحساب يعطي ثلاثمائة وثلاثة وأربعين مليون. وقالت فلسفة التوحيد أن الله لا إله إلا هو خلق الأكوان بإرادته ومشيئته قال (كن) فكانت، بشهادة الآية الكريمة

((إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {82})) [277]

وفي التوراة بسفر يهوديت قول يؤيد الآية السابقة ويثبتها، وهو ((فلتعبدك الخليقة بأسرها لأنك قلت كوني فكانت. وأرسلت روحك فخلقت)) وقالت فلسفة المذهب ((إن الله جلت قدرته معل علة العلل، مبدع الأول)) وفلاسفة اليونان مثل سقراط وأرسطوطاليس وأفلاطون وفيثاغورس قالوا بمثل هذا القول مع اختلاف بسيط فقد قالوا ((إن الله هو الخالق الموجد كل شيء وإنه أزلي أبدي، وهو علة العلل)) بينما إذا نظرنا إلى فلاسفة المذهب في هذا الاتجاه تسميه معل علة العلل أي خالقها ومبدعها، وهذا أقرب إلى العقل وأصح لبناء فلسفة دينية فإذا كان الله تعالى هو علة العلل فلا يكون منزها عنها، إذ لا يجوز أن يكون المخلوق مثل الخالق، ولا المفتوق مثل الفاتق، فعلة العلل منبثق من نور الله المعل وعلة، مادة، كل شيء. وبقي الله منزهاً عن كل شيء، وهذه

الحقيقة لم يسع أشد العلماء الماديين تمسكاً بالمادة إنكارها. وقد اعترف الكثيرون منهم بعد اللف والدوران بأن للمادة موجداً رغم قولهم أنه وجد بواسطة المادة وتفاعلها واصطكاكها ببعضها.

وقالت فلسفة التوحيد : ((إن الله لا يدرك بوهم ولا بخاطر وليس له شبه ولا مماثل، فالأسماء والصفات والنعوت واللغات كلها هي للدلالة عليه فقط، لأنه سبحانه وتعالى يجل عن الأسماء واللغات والأفراد والأزواج، فهو فرد صمد لا قائم ولا جالس ولا نائم ولا ساهر ولا ذاهب ولا مار ولا لطيف ولا كثيف ولا قوي ولا ضعيف ولا له شبه، حقيقته لا تدرك))[278] وقالت فلسفة التوحيد عن الله تعالى ((إن الله لا قديم ولا أزل لأن القديم والأزل مخلوقان وهو خالقهما، وإن حقيقته لا تدرك بالعقل المعلول ولا بالفكر المخلوق، ولا بالوهم ولا بالقياس فالعقل لم يعطَ الكمال الإلهي ليدرك حقيقة مبدعه)) وقالت ((إن الله ليس له مكان معروف فتخلو بقية الأمكنة منه، ويخلو منه مكان، وإنما سبحانه وتعالى لما بدع العقل لم يكن زمان ولا مكان، ولا دهر ولا أوان، ولا شهور ولا أعوام ولا حواس ولا أوهام، ولا ناقص ولا تمام، ولا قفار ولا حجار ولا فلك دوار، غير أن البارئ الخالق المبدع من نوره وإرادته خلق كل شيء، وإلى عظمته وسلطانه يعود كل شيء))[279] وقالت أيضاً : ((إن قبل آدم كانت مخلوقات كثيرة مختلفة الأسماء والأجناس والألوان. كما يقال لأهل جيلنا هذا إنس)).

والدليل الصادق على هذه الحقيقة أنه قبل آدم كانت مخلوقات، هو قول ورد في التوراة يقول : ((إن قايين بعد ما قتل أخاه وكان لا يوجد غيرهما في الدنيا، ذهب وتزوج من بنات الناس))[280] قال العلماء الماديون الطبيعيون إن الكون بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد هو تفاعل الطبيعة أو المادة واصطكاكها وتلاقحها بحركاتها، وأنها ستبقى هكذا إلى الأبد. وهذا القول لم يقبله العقل وكذلك العلم لم يثبت هذا القول. فالروح المنبثة من نور الله تعالى ليست مادة، ولا يمكن أن تكون مادة لتخضع لاصطكاك المادة وتلاقحها، وإذا قبلنا جدلاً أن الروح هي مادة وسلمنا بذلك، فلا بد أن يكون لهذه الروح (المادة) موجد، إذ لا وجود بدون موجد وإلا فكيف ومن أين وجد. ورب معترض يقول : (كيف وجد الله موجد الروح) فلهذا المعترض نقول إن العقل _ عقل الإنسان الأدنى _ أو العقل الكلي _ لم يعطَ صفة الكمال، ولا كمال الإدراك الإلهي ليعرف ويدرك كيف وجد الله لكنه _ أي العقل الكلي والجزئي والباطني والظاهري _ أدرك المادة بجواهرها مفردة وهي واقعة تحت بصره يلمسها ويحللها ويفتتها ويركبها ولا يمكن أن تكون وجدت بغير موجد. فبدايتها عرفت من

تحليلها وتحويلها فلا يمكن مثلاً أن تتجمع أجزاء المادة من تلقاء ذاتها، فلابد لها من عقل ينظمها ويعطها صورة أو شكلاً نهائياً. فتصير باخرة تمخر عباب البحار أو طائرة تقطع أجواز الفضاء وتجوز أفلاكها، أو قاطرة تجر الأثقال، إذن فالمادة يقودها العقل في عملها ويسيرها على القواعد التي وضعت لها لكنه لم يخلقها، فخالقها وخالقه هو الله تعالى وهذا الكلام من وجود عقل ينظم سير المادة لم ينكره عقلاء الماديين، فالجسد يموت ولا تموت الروح، ويفنى الدماغ ولا يفنى العقل، ويفنى هنا بمعنى يفنى ويصير تراباً، إذ لا فناء في المادة، بل انحلال وتركيب حسب مشيئة الله، قال تعالى في محكم تـنزيله : ((ولن تجد لسنة الله تبديلاً)).

فلسفة المذهب في العقل والنفس :

قالت كتب الحكمة الشريفة : ((إن البارئ سبحانه وتعالى أظهر من نوره الشعشعاني صورة كاملة صافية، وهي الإرادة، وهي هيولي كل شيء وبها تكوينه، وسمى تلك الصورة عقلاً فكان العقل كاملاً بالنور، تاماً بالفعل، اجتمعت فيه الطبائع كلها، وأُحصي به جميع ما هو كائن إلى ما لا نهاية))[281] وقالت أيضاً ((وكان أول ما أبدعه البارئ سبحانه سماه _ علة العلل _ فكان عقلاً كاملاً بالقوة تاماً بالفعل، حليماً بالسكون، قادراً بالحركة وأصل نقطة البيكار، هيولي الطبائع، لطيف شفاف، مدبر لجميع العالمين والعاليين)) هذا ما قالته فلسفة المذهب التوحيدي في كتبه الشريفة عن العقل _ علة العلل وأصل جميع المخلوقات والكائنات. هو مدبر جميع العالمين من نوره يقتبسون، ومن بحره يستقون، وعلى أحكامه يسيرون، ومن إلهامه يتغذون. وقالت أيضاً ((العقل نور البارئ وإرادته وحلمه وتواضعه)) فمن النور أبدع الظلمة، ومن الإرادة أبدع المعاندة، ومن الحلم أبدع الجهل ومن التواضع أبدع الاستكبار، فكانت أربع طبائع مذمومة منبثقة عن أربع طبائع محمودة. ولذلك جاء القول : ((فقام بإزاء كل آلة منها دينية آلة ضدية))، وهذه الطبائع المحمودة والمذمومة، هي التي كونت منها النفس فالمحمودة هي النور والإرادة والحلم والتواضع، والمذمومة هي الضدية التي يشار إليها بالشيطان الرجيم. وجاء في قول آخر : ((إن نور العقل لا ظلمة فيه، والمعرفة لا شبهة فيها، والمشاهدة لا حجاب دونها، والطاعة لا معصية معها، والدرجة لادرجة فوقها، وقوته الفيضية هي قوة القبول، وقوة الإطلاع، وقوة الصور، فبقوة النور والفيض شمل جميع المخلوقات، والعقل منه برزت جميع الكائنات)).فالعقل مخلوق لا خالق، ومبدَع من نور الله تعالى لا مبدِع، به

عرفنا الله وأدركنا أن لنا خالقاً مبدعاً تجب عبادته وطاعته، والعمل بأوامره ونواهيه، والرضى والتسليم لقضائه. ولولا العقل لما اهتدينا إلى الحق القويم، وإلى صراط مستقيم، فمذهبنا سمي مذهب العقل لاعتماده على العقل قبل كل شيء ثم التوحيد والإيمان.

وبحثت فلسفة المذهب أيضاً في النفس (الروح) وناقش بعض الفلاسفة الذين قالوا إن النفس هبطت من العالم العقلي المجرد إلى عالم المادة لتبلى وتمحص، ثم لتعود إلى العالم العقلي بعد الموت لتسعد أو لتشقى. فتقول فلسفة التوحيد في مناقشة هؤلاء الفلاسفة : ((زعموا أن النفس هبطت إلى هذا العالم ظلماً، لا علم عندها لزلة سبقت منها في عالم ذكروه، فإن كانت أهبطت لتزكى وتطهر، فالعدل الإلهي يوجب أن يكون الموضع الذي تتزكى فيه وتطهر أشرف من الموضع الذي تزل به وتتنجس. وإن كانت أهبطت مجازاة لزلتها وعقوبة لها لما سبق منها لتكون في موضع يشاكل زلتها فلا معنى للعبادة، لأن أهبطت للعذاب والعقوبة لتكون في الموضع الذي يشاكل دنسها وزلتها ونجسها، وإن موضع النجس ليس بمحل للعبادة، ولا يجب أن يكون فيه من يستحق منزلة الإفادة، فإذا كان كذلك فهي لا تخرج منه وإن هم أقروا بأنها في هذا العالم زكت وتطهرت، وبعد جهلها علمت، صح قولنا أن الموضع الذي تتزكى فيه النفس وتطهر أولى مجاورتها من الموضع الذي تزل فيه وتتنجس، والعقل يشهد أنه لا يساغ في عقل أحد ممن أنصف نفسه أن يحكم لنفسه أنها لم تزل ولم تخطئ في هذا العالم)).

وتقول كتب الحكمة الشريفة أيضاً في الفكرة ذاتها :

((وبطل قول المقصرين أن للنفس عالماً آخر غير هذا تتحد فيه وترجع إليه لسمو رفعته مجاورة للبارئ تعالى، إلحاداً فيه وحصراً له وتحديداً لباهر قدرته، ولم يفرقوا بين رفعة العالم المادي وبين جوهر النفس المتعالي عن كدر المادة)). وعن مفارقة الأنفس للأجساد تقول فلسفة مذهب التوحيد مناقشة : ((إذا كان الشيخ الفاضل _ تقصد الفارابي _ عني بانفراد النفس في ذاتها وآرائها وأحوالها وهيئاتها، وأن الأعراض ترتفع عنها في ذاتها وجوهرها وهي موجودة في الجسد، أو تكون سلبت منها الأفعال الجسدية مع إثبات وجودها أو يكون عني صعوبة تفهم نسبتها إلى المفارقة وهي متحدة بالجسمانيات، مفارقتها بجوهر ونزاهة أفعالها العلمية عن الهيوليات. فقد زاد الحكماء المتقدمين، وأغرق في طلب معلوم الدين. وقد أقر المتقدمون أن النفس تبلغ كمالها وهي متحدة بالجسم الذي بلغت فيه كمالها الأخير، وأشرف وألطف من كمالها بمفارقة الجسم، لأنها وهي متحدة

بالجسم مالكة العالمين فتحكم بكمالها وقوة ذاتها على الطبيعيات. ومن ادعى غير هذا فليثبت فعلاً من أفعالها بعد المفارقة. فحجاب النفس (الروح) هو الجسد الذي تظهر فيه أفعالها، وبدون الجسد لا يكون للروح فعل)).

فالنفس كما تقول فلسفة التوحيد كونت من طبائع مختلفة. فهي مكونة من نور وظلمة وطاعة ومعصية، وحلم وجهل، وتواضع واستكبار، وخير وشر، يغلب عليها الجهل كما يغلب عليها العقل ولما كانت الروح مركبة من جوهر يفعل ولا ينفعل، وجوهر يفعل وينفعل وعرض ينفعل وليس بفاعل إلا بآلته فإنه يحتاج إلى محرك يستخرج معرفة الجوهر من العرض.

وما سبق ذكره كلام فلسفي عميق يعجز الإنسان غير المتعمق بالفلسفة من استيعابه وفهمه، ولذلك لفهم هذا الشرح، يمكن لكل واحد منا أن يعود إلى ما يحسه ويعيه، ويتأكد منه بنفسه، فقوة الإلهام الكامنة في النفس تختلف بأحاسيسها حسب الطبائع التي كونت منها. فبينما نرى أن اليد تمتد لتعطي الصدقة وتواسي الفقير والمحتاج، وتفعل الخير بكل أشكاله ومعانيه وصوره، نجد أنها ذاتها تغمد الخنجر في الصدر فتقتل، وتعتدي وتظلم وتسرق وتنهب، وذا برهان واضح على تركيب النفس من طبائع متضادة.

ثانياً _ أركان مذهب التوحيد

كل مذهب صغير أو كبير لابد له من قواعد تضبطه وأركان يقوم عليها، تحدد هويته بين غيره ومذهب التوحيد يقوم على أركان خمسة تميزه عن غيره. وهذه الأركان الخمسة هي :

الركن الأول :

التوحيد : وهو الاقتناع الوجداني التام بوحدانية الله تعالى الخالق المبدع والإقرار بها دون شك أو إشراك أو مشاركة. لا بالفكر ولا بالوهم ولا بالخيال ولا بالتصور، ولا بالقول ولا بالفعل، فالشرك إحساس دقيق عميق يقع فيه الإنسان أحياناً بدون قصد. فيشرك من حيث لا يدري. وقد وصفته كتب الحكمة الشريفة بقولها : ((إنه أخفى من دبيب نملة سوداء على مسح[282] أسود في ليلة ظلماء)).

والتوحيد أعظم وأمتن ركن بني عليه الإسلام، فالشهادتين وجميع الفرائض والأوامر والنواهي في الإسلام قامت على التوحيد بكل أثقال الإيمان. وكل تلك الأمور جمعها الإسلام بعبارة توحيدية محضة بشهادة : (لا إله إلا الله) والتوحيد كالشمس نورها يكسف الظلام ويحيي الإنسان وهو غذاء الحقيقة، وينبوع الإيمان ومنار الطريق للموحد، فلا يعثر في طريق ولا يضل والتوحيد يرافق العقل، ويحرر الفكر، ويجلي الغموض، ويهدي إلى الاقتناع بالحق ويوصل إلى الحق. والتوحيد أنس الموحدين، ونور المؤمنين ونعيم المستجيبين. وقالت الحكمة الشريفة عن الوحيد ((...... معاشر الموحدين إن الإسلام باب الإيمان، والإيمان باب التوحيد)).

ولأنه الركن الأول والأساس في المذهب. نسب إليه. وسمي بنو معروف بالموحدين لأنهم يوحدون الله.

الركن الثاني :

الإسلام : وهو التسليم للبارئ تعالى في جميع الأمور، والرضى بإرادته وتقديس مشيئته وقبول جميع أحكامه، سارة كانت أم ضارة، وعدم الاعتراض عليها. قال الأمير السيد عبد الله (قدس الله سره) حول التسليم بأوامر الله تعالى وأحكامه : ((طوبى لمن قبل أوامر الله طاعة.... وجعل من حق الموت أمانة الرضا بتسليم الوداعة، أيجوز أن يعترض العبد على ربه، أو يحجر عليه في قبض ما أودع ؟ أو يعصى قول الله فيما أنبأ به وهو يسمع، أو يظن أن حكم الله وقدره له قاهر ومدقع)).

فالموحد الحقيقي هو الذي يسلم لله ويرضى بقضائه وقدره عليه فما هو إلا عبد مخلوق والله تعالى مبدع خالق، فكيف يمكن له أن يعترض على خالقه فيما يقضي.

الركن الثالث :

الإيمان : هو الصفة الشريفة للإنسان. بل هو من أشرف الصفات للموحد المؤمن، فالله تعالى يخاطب الناس في كتابه العزيز : ((يا أيها الذين آمنوا....)) ويقول الإمام علي بن أبي طالب (ع) : ((الإيمان عقد في القلب، وصدق في اللسان)) فالإيمان مصدر سعادة الإنسان الروحية، وينبوع راحته الجسدية.بالإيمان تشتد العزائم وتتمتن العقائد وتطهر العبادة وتقبل الصلاة. والإيمان يصقل الذهن ويجلي الفطنة ويغذي النفس ويوصلها إلى الحقيقة المقدسة فهو أساس العبادة وركن التوحيد، ودعامة الصدق ولا يمكن للإنسان دونه أن يصل إلى عبادة صادقة، ولا يدرك الفضائل ويعمل بها لتصفى روحه ويستحق النعيم. ولولاه لما عرف الإنسان خالقه ولا قدر عظمته وجبروته ومراحمه الكثيرة. فالمؤمن الحقيقي هو الإنسان الصادق إذا وعد وفى، وإذا تكلم صدق، يعمل بالمعروف ويبتعد عن المنكر، يحب جميع الناس ويخدم الإنسانية، ويجعل الفضيلة حرفته والإيمان بالله واليوم الآخر شريعته، ويعمل مع علمه أنه قادم على حساب ثواب وعقاب.

الإيمان كالنور يرى ولا يلمس، وكالطيب يشم ولا يمس، وهو هدف الرسالات السماوية كلها وغايتها القصوى وهو أساس كل عقيدة وركن كل يقين. فاسع أيها الموحد أن تجعل إيمانك خالصاً لله وصادقاً بعيداً عن كل شرك.

الركن الرابع :

العبادة : وهي عبادة الله وحده الذي لا شريك له، له الملك، يعز من يشاء ويزل من يشاء. وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد أولاداً، ولم يولد من أب، ولم يكن له كفوءاً أحد. لا معبود سواه ولا يشرك في حكمه أحداً، منزه عن الأزواج والعدد، خلق الإنسان ليعبده ويتقرب منه ويستقيم على طريقه.

الركن الخامس :

الصلاة : وهي الصلة الروحية بين الخالق العظيم (الله جل جلاله) وبين المخلوق الذليل الضعيف (الإنسان) وهي فرض على كل مؤمن موحد، مسلم أمره لله، يعبده دون سواه، فيجب ألا تهمل ولا تؤجل، فهي تطهر القلوب وتزكي النفس، وتمتن الإيمان، وتحيي الآمال، وتغذي الروح، وتقوي شعورنا بمراقبة الله عز وجل لنا فلا نخطئ، وهي تقربنا من الله تعالى، وتحبب الخير لجميع الناس دون تمييز، وتعرف الإنسان أن لا فرق بين إنسان وآخر إلا بمدى تقواه وإيمانه وعبادته وتوحيده مهما يكن دينه أو مذهبه، طالما أن جميع الأديان تنبع من معين واحد وتتجه إلى مكان واحد وهدف واحد.

ثالثاً _ دعائم مذهب التوحيد

يقوم مذهب التوحيد على دعائم سبع ورد ذكرها في كتب الحكمة الشريفة وهي الخصال التي تدعو الموحدين للتحلي بها وهي :

الدعامة الأولى :

صدق اللسان : فالصدق رأس الفضائل جميعها وقد قالت الحكمة الشريفة ((إن الصدق هو الإيمان والأمانة والتوحيد بكامله)) كما هو التصديق بألوهية الخالق وحده لا شريك له. وهو يرفع الإنسان عن الدنايا والشبهات. لأن الصادق يفي بالوعد والعهد، لا يكذب ولا يسرق ولا يشهد الزور، ولا يقتل ولا يضر أحداً ولا يأتي أمراً إداً[283] فالصدق هو التوحيد والكذب هو الشرك والكفر والضلالة.. يقول الله تعالى في وصف عباده الصادقين الصالحين في سورة الفرقان:

((وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً {63}))

((وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً {72}))

الدعامة الثانية :

حفظ الإخوان : والحفظ معناه الصيانة والحراسة والرعاية. ويؤمر الموحدون بأن يحسنوا معاملة جميع الذين يعيشون بينهم مهما كانت معتقداتهم، والتكافل من أولى واجبات الموحدين، فهم إخوة وأخوات يسعون لتقوية الألفة فيما بينهم، والتزاور لزيادة الرابطة بين الأهل، جاء في المعلوم

الشريف : ((عليك أن تنظر لإخوانك، والإنسان أخو الإنسان أحب أم كره)) وقال المعز لدين الله الفاطمي ((لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يقيم مؤمناً مثله)) فالموحد يحفظ عهود الإخوان، ويقضي حاجاتهم، ويحرس مقامهم ويرعى حقوقهم ويواظب على نفعهم، ويصون ذمامهم. ويزرع محبتهم في العقل والجنان، ويدافع عنهم بالمال والنفس واللسان. فمن كان ذا علم فيجب أن يهدهم بعلمه، ومن كان ذا مال يبرهم بماله، ومن كان ذا عز يكنفهم بعزه، فهم أشقة لا يجوز لأحد منهم أن يميز نفسه عن أخيه، ولا يرى لنفسه فضيلة عليه بمال ولا بنسب ولا بآلٍ، إلا بالعلم والعمل والعفة والتقوى. فإذا أخطأ أخوه عاتبه ووعظه، وإذا تمادى في غيه لامه و عنفه. وإن طال به السفه[284] هجره، فكن لإخوانك أخاً صالحاً، محباً صادقاً، متسامحاً معهم، مصالحاً بينهم. إن اختلفوا، فكن مع المظلوم على الظالم حتى يرجع عن ظلمه. قال تعالى :

((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ))[285]

فابذل أيها الموحد فيهم مالك وعلمك، وإياك والنميمة والغيبة لا تنم عليهم ولا لهم، واذكر أفضالهم، وانشر محاسنهم، واستر عيوبهم، واحتمل الأذى منهم، وكن معهم ولهم في أفراحهم وأتراحهم، يرحمك الله وهو أرحم الراحمين.

الدعامة الثالثة :

التبرؤ من المعتقدات الشركية : التي تتنافى مع التوحيد وترك عبادة الأوثان فالترك هنا يعني التخلي عن الشيء والذي لا فائدة منه والتنحي عن الذي لا خير يرتجى منه. فالأوثان والأصنام والنيران والنجوم ومختلف الحيوانات التي عبدها الناس في مختلف العصور والأزمان، وكأنها آلهة تحيي وتميت وتعطي وتمنع وتقسو وترحم، هي أشياء لا فائدة منها ولا تضر ولا تنفع ولا تستطيع دفع الضر عن نفسها فكيف ستدفعه عن غيرها فعبادتها هي الشرك المحرم المنهى عنه. لذلك نجد أن الموحدين يبتعدون عن عبادة الأوثان ولا يضعون في مجالسهم صوراً وتماثيلاً ولا شيء يلهي العابد عن عبادته، وإن حاول بعض المضللين تصوير صورتهم المشرفة بالتوحيد والادعاء بأنهم يعبدون عجلاً. فذاك افتراء وكذباً يمكن لكل ذي عقل ومطلع على حقيقة مذهبهم أن يكذبه ويظهر بطلانه حتى وإن لم يكن من الموحدين فالحقيقة واضحة كالشمس لا تحجب بغربال.

الدعامة الرابعة :

التبرؤ من الأبالسة و الطغيان : القائلين بتلك المعتقدات الشركية، والأبالسة هم أتباع إبليس الشيطان [286] لعنة الله، والطغيان هم. فريق الضلال الذين عبدوا الصنم والحجر والشمس والقمر فالبراءة منهم واجبة وعلى الموحد أن يبتعد عن أولئك الضالين ويحاربهم جهد إيمانه وتكون محاربتهم بالانضباط الذاتي حيث لا يسمح لهم أن يسيطروا عليه ويهدي إخوانه فيحميهم من أولئك الكافرين المارقين.

يقول حمزة بن علي (س)

((من نهى نفسه عن الشهوات البهمية كان أفضل من الملائكة المقرّبين)) فعلى الإنسان الموحد دائماً أن يكون مؤمناً بقدرة الله، موحداً له، إذا شكت عينه مرة يوماً بالله قلعها وإذا شكت يده يقطعها.

الدعامة الخامسة :

توحيد الباري تعالى في كل زمان و مكان : والاعتقاد بأن مذهب التوحيد كان في كل زمان ومكان، فالتوحيد مشتق من الواحد، وهو البارئ جل ذكره. انفرد بالوحدانية والتنزيه والتجريد، وانفرد بالقوة والعظمة، وهو موجود في كل زمان ومكان، لذلك توحيده فرض على المؤمن في كل عصر وزمان ودهر وأوان.

الدعامة السادسة :

الرضى بفعل الله : فالله خالق الأكوان، ومبدع المبدعات يعز من يشاء ويذل من يشاء، يهدي لنوره من يشاء ويضل من يشاء ومن يذله الله تعالى لن تجد له من ينصره ومن يعزه الله لن تجد له من يذله والله على كل شيء قدير. والإنسان المؤمن الصادق، والموحد الحقيقي عليه الرضا بفعل الله والإيمان بأفعاله، وقبول أوامره دون معصية أو رفض. يقول الشيخ الفاضل قدس الله سره :

((... الرضا بأحكام الرب سبحانه وتعالى في كل ما يريد، ثم التسليم لأمره والتفويض وإلقاء المقاليد إليه في كل وقت جديد...))

الدعامة السابعة :

التسليم لأمر الله : الله خالقنا، يفعل بنا ما يشاء، علينا أن نسلم لأوامره، نسلم أجسادنا وأنفسنا وهي له، فإن ابتلينا بمصيبة فنقول إنا لله وإنا إليه راجعون، قدر الله وما شاء فعل. مقتنعين بالعدل الإلهي، وجاعلين من ساداتنا قدوة لنا في التسليم بأمر الله. ومن الأمير السيد مثالاً لنا وقد ابتلى بمصيبة فقد ولده، فقابل أمر الله بالطاعة والرضا والتسليم وبدأ يوعظ الناس ويرشدهم وهو المبتلى وهو يقول: ((يطوي العمر الجديدان[287] لافوت من الموت.... ونحن وإياكم في قبضة مالك، وهو المنجي برحمته من كل هالك، قبول أوامر الله طاعة وصبرا، والإنابة إلى رحمته عزا ونصرا)). وفي الدعامة السادسة والسابعة يقول الإمام حمزة بن علي (س) : ((الرضى والتسليم نهاية العلم والتعليم)) وجاء في الحكمة الشريفة : ((معاشر الموحدين كونوا راضين مسلمين فمشيئة المولى نافذة...)).

رابعاً _ فرائض مذهب التوحيد

فرض مذهب التوحيد قبل كل شيء الصدق ولو تحت شفار السيوف وأسنة الرماح، فالصدق أفضل مكارم الأخلاق وأعلى الفضائل الإنسانية ورأس الإيمان في كل دين و مذهب ولذلك نجد الصدق عن الموحدين من أقدس الواجبات ولهم فيه عزائم صادقة كانت مضرباً للأمثال. وثباتاً نادراً يصل إلى درجة المستحيل. فالموحد الجيد والحقيقي يصدق بالقول وبالعمل، بالعهد والوعد. إذا قال صدق، واعتبر قوله أصدق من حجة مسجلة لا يحيد عنه ولو كلفه ذلك حياته.

ويفرض المذهب أيضاً العبادة الصادقة، الخالية من الرياء والنفاق، فالموحد الحقيقي يعبد الله في كل مكان، وليس فقط في مجالس الحكمة. عبادته يجب أن تكون صادقة، منزهة عن الأوثان والأصنام والتماثيل وأشكالها لتبقى العبادة خالصة لوجه الله تعالى وحده، ومجردة عن كل شبه ورمز. ومن الفرائض الابتعاد عن كل حرام ولو بالشبهة، والابتعاد عن شرب الخمر مهما كان جنسه وشكله واسمه. وقد حّرم الإمام الحاكم بأمر الله (س) وعاقب شاربه وحامله وناقله، وكذلك فعل السادة الحدود (س) حيث وضعوا الحد على شارب الخمر، وكذلك أمر السيد عبد الله حيث نهى عن شرب الخمر وحامله وناقله وعاقبهم حتى ولو كانوا من أعز الناس عليه ، وقد أصدر الإمام الحاكم سجلاً بتحريم الخمر ليقرأ على كل الموحدين.

وكذلك يفرض المذهب الابتعاد عن الميسر[288] باختلاف أشكاله وأسمائه، والربا والأنصاب[289] والأزلام[290] والابتعاد عن التدخين بجميع أجناسه حتى السعوط [291] تقول الآية الكريمة :

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ))[292]

ويفرض المذهب الرضا والتسليم لأحكام الله، والنظر لجميع الناس كأخوة عملاً بقول الرسول الكريم (ﷺ) ((الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره)) وقوله : ((لا يتم الإيمان حتى يريد لأخيه ما يريد لنفسه))، و ((الخلق كلهم عيال الله، وأفضلهم عند الله من آمن ووحد)).

وفرض المذهب الاحتشام باللباس وخاصة النساء. فالمرأة لا يحسن أن يبان منها إلا وجهها ويديها، ويفرض الاحتشام في الجلوس والحديث بانتقاء الألفاظ المهذبة، نساءً ورجلاً ومخاطبة الناس بلطف ولياقة وعدم لعن أحد، لأن اللعنة نقص في الدين وضعف في الإيمان وعيب في التهذيب، وقد حرم الإمام الحاكم (س) في أكثر من سجل اللعن وشتم السلف، على نقيض ما فعله بعض الناس إذ نجد بعضاً منهم فمن اتصف بالجهالة شرع يسب بعض الأنبياء والأئمة معتقدين أنهم بعيدين عنهم مخالفين بذلك تعاليم الإمام والسادة الحدود (س) وأصول التوحيد في توحيد الله وأنبيائه. وهذا كفر بالله والدين والتوحيد، ومذهب التوحيد بريء منهم. الموحد[293] يجب أن يكون مخلصاً لله في السر والعلن مسلماً أمره لربه، راضياً بأحكامه، شاكراً ما أعطاه وما منعه، صابراً على بلواه ساتراً عيوب الناس، مقراً بعيبه، صادق اللسان وفياً لجميع الناس مخلصاً، أميناً عفيفاً، رحيماً، صادق المودة،ة بعيداً عن الكذب والغيبة والنميمة والطمع والتكبر، حافظاً للعهد، وافياً بالوعد آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، يجير المستجير، ويعين قاصده ويثيب طالبه ولا يريد للناس ما لا يريد لنفسه.

ويفرض المذهب على النساء أن لا تتبرج لغير زوجها، وأن تقوم بصلاتها كاملة، وتجنب نفسها من كل عيب ودنس ورجس، وفرض على الداعي أن لا يقرأ عليها وهي وحدها، بل بحضور نساء كثيرات أقلهن ثلاث ومن وراء حجاب، وهن منقبات[294] غير سافرات وفرض أن يكون مع المرأة من يكون له حق الولاية عليها مثل والدها أو زوجها أو أخيها أو ابنها وفرض ألا ينظر إليها الداعي ولا يكلمها ولا يتسمع عليها وفرض ألا تضحك المرأة أثناء الصلاة أو تبكي من جزع. ولها الحق أن تسأل الداعي عما خفي عليها من المعاني الدينية فيشرح لها إذا طلبت. وإن وجد شيئاً لا يعرفه يسأل من هو أعلى منه في المرتبة، ويعلمها في سبيل إكمال دينها وتمتين عقيدتها

خامساً: محرمات مذهب التوحيد

حرم المذهب التوحيدي الشرك والكفر والتجديف[295] والكذب والاغتياب، والغش والتنجيم والمال المشبوه، والظلم والخداع والسرقة والقتل والزنى وشهادة الزور، والتجسس والخيانة والخمر[296] والميسر والربا، والاعتداء، وكل ما يضر بالناس بأموالهم وأرزاقهم وحياتهم. وبنوع خاص حرم أكل مال اليتيم وحرم الزواج بالأم والأخت بالرضاعة وأم الرضاعة وابنة الأخ وابنة الأخت، وأم الحليلة والبنت التي تربى في حجره. وعموماً فقد حرم المذهب كل ما حرمه الإسلام وذكره القرآن الكريم، وهناك محرمات كثيرة وذكرنا السابقات على سبيل المثال لا الحصر. والموحد المؤمن لا تفوته معرفتها للابتعاد عنها ليبقى شريفا عفيفاً مؤمناً صادقاً، موحداً يستحق الانتساب لمذهب الموحدين الذي يعرف الحلال من الحرام والمعروف من المنكر، كيف لا وهم من أولاد معروف والعرفان يعملون وفق فرائض المذهب وأركانه وتعاليم إمامه وسادته سلام الله عليهم جميعاً.

سادساً _ صلاة مذهب التوحيد

1 _ الفاتحة :

وتقرأ في صلاة الجنازة، وعند الزواج وفي كل صباح ومساء وهي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ {1} الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {2} الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ {3} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ {4} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {5} اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ {7}

2 _ صلاة الصباح :

بسم الله الرحمن الرحيم _ ربي إليك توجهت وعليك اتكلت، وبقوتك استعنت، فامنن علي برضاك، وأعني على عبادتك، وتعطف علي وعلى والدي برحمتك، أنا عبدك اللائذ بحرمك، الشاكر نعمتك، المستجير بك يا ولي الصالحين، وغاية الطالبين، وأنس العارفين، ورجاء الموحدين، بك اهتدينا، وعليك اتكلنا، وبنورك أبصرنا، إنك رب المغفرة، لك الحمد يا مولانا، وإنك النصير المعين.

3 _ صلاة ثانية للصباح

بسم الله الرحمن الرحيم _ ربي ها أنا متوجه إليك، ومعتمد في النجاة عليك، هب لي قوة الإيمان بتوحيدك، وقوة أتغلب على نفسي، وأهدني أفضل الطرق، وأوسع لي أبواب الرزق، ونجني

من مكايد الخلق، ربي عاملني برحمتك لا بعَدْلك، وارحمني وسهل أموري وسامحني، واغفر ذنوبي، إنك الغفار الرحيم وعلى كل شيء قدير.

4 _ صلاة المساء :

بسم الله الرحمن الرحيم سبحانك يا مبدع الأشياء لا من شيء كان، ولا من مادة ولا بآلة، ولا بمعين ولا بصورة معلومة، بل بإرادته ومشيئته، أجراها وأنشأها، وأنشأ كل شيء منها بتقدير محكم، وفعل متقن، سبحانك يا خالق العقل والنفس وجميع الأشياء الموسومة بالشيء، سبحانك يا من تعاظم أن يكون له شبه أو مثل أو يحده وصف أو واصف في قليل أو كثير، آمنت وصدقت وأيقنت أنك الواحد الأحد، القادر القاهر، المحيي المميت، تعطي من تشاء وتحرم من تشاء، لا مرد لحكمك، ولا نجاة من قضائك، أسألك يا إلهي بجلال قدرك وبهاء نورك أن تمن علي بخالص توحيدك، وعبادتك والثبات على دينك وطاعتك، وتجنب نواهيك، سامحني يا إلهي، واغفر ذنوبي وارحمني وارحم والدي، إنك غافر الذنوب و فارج الكروب، لا إله غيرك، ولا معبود سواك، إليك آويت، وعليك توكلت، ولمشيئتك استسلمت، فتقبل صلاتي وارحمني إنك أرحم الراحمين.

5 _ صلاة ثانية للمساء

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله القادر القاهر، العالم بما في السرائر، وما تكنه الضمائر، الواحد لا من عدد،المنزه عن الوالد والولد، المبدع لكل صفة المشار إليه بكل معنى ولغة، لا يدرك بوهم ولا بخاطر، ولا تحوط به العقول ولا النواظر، أقبلني يا ربي وباركني وهبني قوة الصبر على البلوى، أنا عبدك العاصي جئت منيباً إليك، متذللاً بين يديك، خاضعاً خاشعاً طالباً عفوك ورحمتك، تجاوز عن معصيتي، واقبل عبادتي، وارزقني قوة تتسع بها نفسي في معرفة توحيدك،ويشتد بها شوقي إلى نعيمك وجنانك، يا إله الأولين والآخرين. إليك التجأنا،وعليك توكلنا، فاقبل دعاءنا، وتقبل صلاتنا، وبارك أعمالنا واجعلها كلها في سبيل رضاك ورحمتك وطلب عفوك. يا أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين. آمين.

6 _ صلاة الجماعة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لمن لا يحيط به اسم ولا ينحصر في العلم، ولا يتصور في الوهم، الواحد الأحد، الفرد الصمد، مصدر الأنوار العلوية، والعزة الفردية الصمدية، من عجزت العقول عن إدراك ماهيته وحارت الألباب في كنه معرفته، مبدع المبدعات بقدرته، وموجد الأشياء بمشيئته، كرروا أيها الموحدون صلاتكم تسعدوا واحمدوا ربكم الذي إليه ترجعون، واحرصوا في طلب العلم ومصاحبة أولياء الفهم، فقد فاز من ملأ بالصلاة فكره وقلبه وأفاض من نعم الله عقله ولبه، هلموا إلى روح الحياة وبادروا إلى سفن النجاة، فالنفس الصالحة هي كالفضة الصافية كلما زادتها النار في حماها زاد جوهرها وصفاها، لا تزهدوا في الطلب وانظروا لمن قبلكم قد ذهب،استيقظوا من غفلة الكرى، ولا ترجعوا القهقرى، فقد ظهر البرهان لمن يرى، وتأكدت الحجة على الورى،فاعتصموا بالحجة والميثاق، وشمروا في طلب الحكمة عن ساق، ولا ترجعوا بعد الإيمان إلى النفاق اسمعوا نداء من ناداكم وأجيبوا الداعي إذا دعاكم، فمن سلم أموره إلى خالقه وأقر بوحدانية مبدعه، خلص من الشبهات، وسلك طريق الخير في الحياة ارتقبوا الساعة الآتية التي لا ريب فيها، وإياكم والغفلة عما فيها، فلا ترقدوا بعد اليقظة، ولا تقصروا بعد النهضة، واظبوا على الصلاة واستتروا بالمألوف عند أهله،فمن قلت ثقته بالله، وخشي من أحد سواه، أوقعه الله بما خشي منه، فالأَوْلى أن تكون خشيتكم من الله القادر القاهر، فالموحد شجاع غير جبان، ومن خشي من بشر مثله سلطه الله عليه، فلا تخشوا على تمزيق أقمصتكم، وتغيير صوركم، فلا تصح الديانة إلا بعد الامتحان، وإنما تنال الدرجات بالصبر والتقوى، فمن صبر على المكاره نال المسرات.

حاذروا غلبات النفس فإن هي قهرتكم أورتكم غير مصادر، وأوقعتكم في المحاذر، تيقظوا من نومكم فالحوادث تقع عند النوم، والنائم لا يرى الحادثة فيقع بها والمستيقظ يرى الحادثة فيتجنبها، فأنتم أشهدتم على أنفسكم في مواثيقكم،وثبتم الحجة عليكم،فلم تبق لكم معذرة،كونوا ممن رضوا وسلموا،فمن سلم أمانته عن رضى واختيار، أثيب وكتب مع الأبرار،فإن الله غني عن عبادتكم، لا يزيد في ملكه طاعة من أطاعه، ولا ينقص من ملكه معصية من عصاه، وإنما هي أعمالكم ترد إليكم، ربنا تقبل منا صلاتنا. إنك التواب الرحيم،واعف عنا يا كريم، وقنا عذاب الآخرة، وبلاء الدنيا، واكتبنا مع الذين أمنوا وعملوا الصالحات إنك الغفور الرحيم.

7_ صلاة ثانية للجماعة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الصمد الأزل، ومعل علة العلل، العالي بلا شبه ولا مثل، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوءاً أحد، أحمده في السراء والضراء، وأشكره في الشدة والرخاء يفعل ما يشاء بلا اعتراض على حكمه ، لا راد لقضائه، كونوا أيها الموحدون على صدق توحيدكم، واعلموا أن مشيئة المولى نافذة فكونوا راضين مسلمين. فلا تعترضوا ولا تجدفوا، بل ارضوا وسلموا، فالله يعلم سركم ونجواكم.

وأينما كنتم يراكم، حاذروا غلبة الوَثن، وعبادة الصنم، واجتنوا ثمرات الحكمة من جنانها وانهلوا ماء الحياة من ينابيعها، فلا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، وقالوا آمنا وهم لا يؤمنون، فقد هبت رياح الرحمة من جميع جهاتها، وهطلت أوابل الحكمة على جميع أقطارها، فأصاب غيثها سهولها وجبالها، ورسخ في الأرض الذكية ماؤها. ورجع عن الأرض السبخة الرديئة لقلة قبولها، فتدبروا هذه الأمثال، واقبلوا على مجالس الصلاة، فإن سبل الحق واضحة للقاصدين، وأبواب الرحمة قد فتحت للطالبين، فالحذر الحذر، قبل نزول القدر، وقبل أن تحل بالمقصرين الحسرة، ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً، فلا ينفعه قوله، ولا يقبل عذره، معاشر الموحدين لا يكون مثلكم مثل مسافر من بلدة يريد وطنه وقد توانى في حفظ زاده، زاد التقوى، ففرغ زاده في الطريق، فأراد الرجوع إلى البلدة التي خرج منها فلم يقدر، ورام الوصول إلى وطنه فلم يستطع، أيها الموحدون من قلت ثقته بربه، وخشي من بشر مثله أوقعه الله فيما خشي وحذر، تيقظوا من الغفلة، وتداووا قبل تمكين العلة، فمن كانت عبادته جبراً لم ينل منها فائدة، واعلموا أن الضد يظهر من بيت الولي، فقد أفلح من آمن وعمل الصالحات، والخلق كلهم عيال الله، وخير الناس من نفع الناس،فلا تريدوالغيركم ما لا ترضونه لأنفسكم، فالإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، وكلكم راعٍ وكل راع مسؤول عن رعيته، اللهم اختم لنا بالخير والرضى وسامحنا واعف عنا،إنك أرحم الراحمين .

8 _ صلاة الاستغاثة

بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم أغثنا بغوثك، وأعنا بعونك،وأنجدنا بقدرتك، وساعدنا على الخلاص من محنتنا، اللهم خذ بيدنا، ونجنا مما نحن فيه من الضيق والبلوى، إنك الكريم الوهاب، المعطي بلا حساب، تقبل دعائنا واسمع إغاثتنا، ونجنا وارحمنا يا أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

9 _ صلاة السفر

بسم الله الرحمن الرحيم. ربي أهدني أفضل الطرق،وافتح لي أبواب الرزق، وقني شر العابثين.. ربي باسمك تسلحت وعليك توكلت. كن لي بعونك وتوفيقك، واشملني بعنايتك، في سفري وعودتي، وفي كل أيام حياتي، إنك السميع المجيب.

10 _ صلاة وقوع المصائب

بسم الله الرحمن الرحيم. قل لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ومن صبر على بلواه أثابه الله، ربنا اعطنا نعمة الصبر على هذه المصيبة، وامنحنا قوة لاحتمالها، وخفف عنا أثقالنا إنك فارج الهموم، ومزيل الكروب، يا محول الأحوال حول حالنا وحقق آمالنا، وأفرج همومنا، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة كفيل جدير..

11 _ صلاة انفراج المصائب

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الباسط عدله، الوارف ظله، فارج الكرب، ومنيل الأرب،الذي فرج همومنا، وقبل مطلوبنا،ومنحنا القوة على احتمال مصائبنا، له الحمد الذي لا يحصى،والشكر الذي لا يفنى،والحمد لله رب العالمين.

12 _ صلاة تعويذة

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ {1} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ {2} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ {3} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ {4} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ {5}

صدق الله العظيم

13 _ صلاة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ {4}

صدق الله العظيم[297]

الفصل الثاني
الأمير السيد
جمال الدين عبد الله التنوخي

1 _ حياته وأخباره

2 _ وفاته

3 _ شروحاته

4 _ قوله في النفس

((.. أيها الناس ! يطوي العمر الجديدان، ولافوت من الموت. ولكم عند الله من الخير وتكثرون، ومن الشر وتكسبون، ونحن وإياكم في قبضة مالك، وهو المنجي برحمته من كل هالك....)).

((... أيها الناس ! أنتم كطير مسجون في قفص الإرادة، متحرك في طلب هواه، فلا يجد مطاراً، ولا فراراً ولا زيادة...))

((.. طوبى لمن قبل أوامر الله طاعة، وجعل مدة الحياة ساعة، وركب جواد القناعة، وعلق في الحكمة الربانية فكرة لماعة وقيد النفس بالوراعة وجعل من حق الموت أمانة الرضا بتسليم الوداعة)).

**** الأمير السيد ****

الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي
(820 هـ _ 1417 م / 884 هـ _ 1471 م)

1-حياته وأخباره :

عندما يذكر اسم الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي[298] يقول الموحدون (قدس الله سره))فهو يلي الحدود الخمسة من حيث المكانة والتقدير والتقديس ويرجع نسبه إلى ملك الحيرة اللخمي المنذر بن ماء السماء. وأما نسبته فهو :

الشيخ الإمام العالم، العامل، اللبيب، السيد الكبير، أمير الأمراء النجبا، جمال الدين والدنيا، عبد الله بن سليمان، بن بدر الدين محمد، بن صلاح الدين جمال الدين حجي، بن شمس الدولة كرامة، بن أبي العشائر ناهض الدولة بحتر، بن شرف الدولة علي، بن الحسين، بن أبي اسحق إبراهيم، بن أبي عبد الله محمد، بن علي، بن أحمد، ابن عيسى بن جمهير، بن سعد، بن طي، بن تميم، بن

Image

النعمان، بن المنذر ملك الحيرة اللخمي[299]
عاش يتيماً مع والدته،

فظهرت عليه دلائل التقوى والورع والصدق والإيمان وهو صغير. كان مولده في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من سنة ثمانمائة وعشرين هجرية، الموافقة ألف وأربعمائة وسبع عشرة ميلادية.

كان معتدل السمرة والرأس، بعينيه بعض الغور[300]معتدل القامة، قليل اللحم في الصلب والأوراك، قوي البدن، يديم الجلوس، كثير اليقظة، عذب المنطق، فصيح اللسان، وقوراً في مجالسه، ثابتاً في مواقفه، قليل الكلام في غير الحكمة، لا يرى بهجة إلا لربه ولا يبذل مسعاه إلا لقربه، إذا مر أغضى طرفه، وإن مشى أوسع خطاه، ونصب قامته،صحيح العقل، سليم الذات، قليل الهفوات، درس القرآن الكريم وختمه، وتلاه غيباً بأكمله، وفسر معناه وكان يطوف القرى في طلب العلم والحديث وهو صغير السن، وتورع يافعاً لا تصل إلى ورعه[301] الكهول من أولي العلم، ومما نقل عنه أنه تجنب كثيراً أقاربه الذين عرف عنهم مخالطة رجال الدولة،وجباية الأموال وكان يحضر إليه المصباح وبه زيت مشبه[302] فيطفئه ويجلس على الظلمة ولم يذكر عنه أنه قرأ في الكتاب العزيز وكتب الحكمة الشريفة على نور مصباح فيه زيت مشبه. ولما ثبت جنانه، طرح الدنيا، واشتغل بعبادة الرحمن فدرس كتاب الله العزيز، وكان يدرس كل يوم إلى حد معلوم، يقرأ درسه غيباً دون أن يمنعه من حوادث الدنيا مانع، ولو عرض له أي عارض[303] أكمل درسه بعد انقضائه ولو كان بعد منتصف الليل، ختم المكرم الشريف وتمكن من دراسته وبلغ فيه مبلغاً حتى شاع عنه وتحقق أنه كان يقرأ الكتاب جميعه من أوله إلى مقلوباً، وذا أمر معضل على الكثيرين، إذ يحتاج مقدرة فائقة من الذكاء وذاكرة عظيمة وخيالاً خصباً ومثال ذلك الحفظ قولنا في سورة الفاتحة ((آمين. الضالين ولا، عليهم المغضوب غير عليهم أنعمت الذين صراط، المستقيم الصراط أهدنا، نستعين وإياك نعبد إياك، الدين، يوم مالك، العالمين رب لله الحمد، الرحيم الرحمن الله بسم)) وقد بسط العلوم الواسعة، وشرح غوامضها، وتكلم في علم الفقه[304] والحديث وصحيح الأخبار، ودافع عن الحق، ورفع له مناراً وكان له كرامات[305] و أسرار. وقد ارتفعت أعلامه وظهرت أحكامه بين الناس فأنصف الخصوم، وقهر الظالم، ونصر المظلوم، وكرر الآيات وأوضح المشكلات، وأمر بعمارة المساجد في القرى، وتجديد الجوامع، وأنشأ الأوقاف، وجلب الفقهاء إلى النواحي ليعلموا الناس ويوضحوا

غوامض الأمور، وأقام الخطب في الجوامع يوم الجمعة، ونهى عن شرب الخمر وجميع المسكرات. بمختلف أوصافها وأشكالها وأنواعها، وكان يقيم الحد[306] على شارب الخمر، والقاذف[307] فتابت الناس على يديه، واستجابت لأوامره وقطعت الكروم ونصبت أشجاراً أخرى، وكان يكره بيع الزبيب إلى ديار مصر وذلك احتساباً أنهم يعصرونه خمراً، فقد نهى وعاقب بائع الخمر وشاربه، وعاصره وناقله، وحامله. فأطاعته الخليقة واقتدت بأوامره، ورضيت بأحكامه الخصوم، وأطاعته أكابر النواحي ومشايخ البلاد، وكان له تلاميذ كثر في أماكن متعددة، يقولون ويأمرون بأمره وينهون بنهيه في الخيرات والأمور الشرعية والحقوق والواجبات.

وقد جعل له من أيام الجمعة يوماً معلوماً تجتمع فيه أكابر الناس والتلاميذ ذوو الفقه والعلوم بسبب الإفادة والمباحثة في غوامض العلوم الفقهية والروحانية والأخبار النبوية. حتى أطلق عليه الناس لقب (معلم الخير) ثم جعل لمن ثبت عليه ذنب من الذنوب العظيمة أمراً بنفيه عن بلده،ويمتنع الناس عن مكالمته،ومن جرت عليه هفوة صغيرة يحاسبه عليها و يوعظه، ومن كذب أو التمس[308] شيئاً من أشياء الناس يساوي دانقاً[309] أو شرب مسكراً أو أخطأ في أموره يمنعه من حضور تلك المجالس التي رتبها.

ومن أحكامه أنه ظهر له عن بعض من يعز عليه وأقرب الناس إليه أنه تعاطى منكراً فأشهر ذلك بمحضر من الناس وفضحه وضربه الحد بحضور جماعته. وقد كانت الخصوم تأتيه من أقصى صفد إلى أطراف حلب إلى حدود طرابلس إلى الشوف وبعلبك إلى أطراف دمشق وهو في مكانه في (اعبية) ولم يعلم من أين هم ولا من أي بلد قدموا عليه، فيرجع الجميع في غاية الرضا بما وفقه بينهم شاكرين ثانين لكل جميل. ولم يكتف بإصلاح الخلافات بين المسلمين والموحدين وإنما تعداهم إلى اليهود والنصارى فقد كانوا يتوافدون عليه لاختلاف بينهم في أمر من أمور الدنيا فيسمعون له ويمتثلون لما يشير به، فيرجعون راضين بأوامره وأحكامه لأنّه كان إذا أحضرت الخصوم عنده، يبتدئ بالمواعظ، ثم يأخذ العهد على الأخصام أن يسمعوا أقواله، ثم يلاطف بينهم بما يراه مناسباً، فيجيبون إلى قوله من غير إكراه ولا إجبار لأنه كان بعيداً عن الميل إلى جهة إحدى الخصوم.

ولو كان من أقرب الناس إليهم وأعزهم عنده. ومن أخباره ما ذكره ابن سباط في كتابه (صدق الأخبار) :

((كان رجل يخاف[310] السبيل وكان الأمير عبد الله في أول عمره، يسعى إلى طلب العلم وحده في النواحي، فمر في مكان مخيف، فصادفه ذلك الرجل، وكان لصاً، فأخذ منه ما كان معه، ولم يكن يعرفه، فلما عرفه اللص بعد مدة، أعاد ما أخذه واعتذر له. فقبل اعتذاره.... مرت الأيام، وتناست الأشياء وبعدت المدة. وضرب الدهر ضرباته أن ذلك اللص تشاجر مع ابن عم له، وكان من تلاميذ الأمر عبد الله ويقول بقوله في كل الأمور، تشاجر اللص مع ابن عمه وزادت بينهم المنازعة، وكان الحق معه، فشكا ذلك اللص ابن عمه ظالمه، فقيل له، لماذا لا تشكوه إلى الأمير عبد الله فإنه لا يرائي[311] على أحد عن الحق ؟ فقال اللص : وأنى ذلك ؟ وقد سبق مني إليه ما هو كذا وكذا قديماً، وكيف ينصرني على ابن عمي وهو عنده أعز أهل بلده،مع ما سبق مني إليه ؟ فقيل له : يا مغرور إنه لا يحوله[312] حال في الحق ولا يغيره مغير، فإنه يكشف الحق جهده.

ثم قدم اللص عليه وشكا حاله إليه، فأحضر خصمه، وسمع حديث الاثنين، فظهر الحق أنه لصالح اللص، فتوجه إلى الآخر وقال له : (كيف ترضى لنفسك بهذا ؟ أتضاهي مثله، وتقف معه ؟ وآخر الأمر أن الحق ظهر له. فأوصل له حقه، وإلا توجه حيث شئت، وإن لم توصل له حقه فلا تعود تدخل إلينا). فقابل الرجل كلامه بالسمع والطاعة، وجعل تسليمه حقه أربح بضاعة، فرجع اللص يثني ويشكر ولفضله ينشر)).

وكان الأمير السيد عبد الله كثير الاعتناء بأخبار الأولياء والصالحين والعلماء والزهاد، أمثال : سفيان الثوري و الفضيل بن عياض، وابن عنينة و مالك بن دينار، وعبد الله بن مبارك، وحاتم الأصم وابن الشمال، وأشباههم في الزهد والورع والتقوى والوعظ والأحكام. وكانت مكتبته تضم مئات الكتب الكبيرة والصغيرة، فيها (340) مجلداً تبحث في علوم الدين والتاريخ واللغة والأدب ومذاهب الفقه الأربعة والسيرة النبوية والتفسير. وكان يدعو إلى سبل الخيرات وتقتدي به أكابر الناس، وكان ينهاهم عن الدنيا ويرغبهم بالآخرة. وصرح لهم الأعمال الصالحة وباعد ما بين قلوب الأشرار وبين قلوب الأخيار، ونهى عن الشهوات والشبهات والخمور والمسكرات، وفرق بالحق العادات،محامده كثيرة، ومناقبه جزيلة يطول شرحها،وكان يسر الليل في طاعة ربه وينام ثلثه، وينام في المجلس،ثم يقوم الثلث الأخير من الليل لخلوته في طاعة ربه، وكان ذلك دأبه دائماً عندما يفرغ من درسه.

والتواضع صفة بارزة من صفاته، فقد كان لا يتكبر على طالب علم صغيراً كان أم كبيراً وكان يفيد كل واحد على قدر قواه، فإذا مر به الصبيّ الصغير السن، يرغبه في طاعة والديه،

ويخوفه المعصية، وينهاه عن اللعب والبطالة، يحثه على تعلم الخط[313] وكان يقول لوالد الصبي : ((اجعل لك عليه رهبة حتى يبقى يخاف من الله، لأن الولد لا يعلم خشية الله ويخاف والده أكثر مما يخاف ربه)).

وقد أنجب الأمير عبد الله ثلاثة أولاد[314] لكن الله تعالى لم يقدر له أن يفرح بهم. فكان ابنه الأول سيف الدين عبد الخالق،لكنه توفي وهو ما يزال صغيراً ثم أنجب الثاني ناصر الدين محمد وتوفي وهو صغير، ثم أنجب شجرة النور سيف الدين عبد الخالق الثاني وقد اسماه علىاسم ولده الأول،وقد توفي الأمير سيف الدين عبد الخالق الثاني وهو في الثانية والعشرين من عمره.

ومن مولد الأمير سيف الدين الثاني ظهر نشره، ووقعت البشاير في البلدان وفرح به كل إنسان، أمه عائشة المشهورة بـ (ست العيش) ابنة الأمير سيف الدين أبو بكر بن شهاب الدين أحمد بن زين الدين صالح بن ناصر الدين الحسين ابن خضر بن محمد. ويذكر ابن سباط عن مولده فيقول : ((ولما شاع ذكر مولده بين الصادر والوارد، وفد على والده الوفود، وبُذل في الأفراح المجهود، وتداعوا بالعهود، وأشرقت طوالع السعود)).

ولد في الثامن عشر من شهر رمضان سنة ثمانمئة واثنين وخمسين هجرية. فكان أبيض اللون بحمرة تميل إلى شقرة قليلة لطيفة، معتدل الرأس والعنق حسن الفم، في عينيه شهولة[315] لطيفة، معتدل الزندين، حسن الكف، سبط[316] الأصابع، ربط اللحم، حسن المنكبين والقدمين.

ولما بلغ من العمر السابعة، مال إلى العلم والتعليم، وأحبّ البحث والتكلم وتعلق بهما، وحفظ العلم كان من أحب الأمور إليه، ألف العلماء ونظر في كتب الحكماء ورابط على الفضائل حتى سبق الأوائل، كان صحيح العقل، واسع الفضل، لطيف الكلام متواضع ورع، قادر، مقنع، مقيم، عظيم، حليم، عالي، ذكي، زكي، عفيف، نظيف حل بمدينة دمشق فخالط العلماء، وجالس الفقهاء، عزيز النفس، شريف الحدس.

توفي في شهر محرم سنة ثمانمئة وأربع وستين، كان يوم وفاته خطب عظيم وفادح عميم ارتجت له البلدان والأركان.

كان يوماً مشهوداً اجتمعت فيه الناس من كل حدب وصوب وعلت الأصوات والبكاء والنواح، وذرف الخلق الدموع وأهملوا العبرات.

ثم خرج والده الأمير عبد الله في محفل الهيبة متسلحاً بالصبر والقناعة بقضاء الله وقدره، مسلماً أمره له ووعظ الناس بالمواعظ، وناداهم بحفظ العقول والصبر قائلاً[317]

((... سبحان الله... والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. له البقاء الدائم، وهو الحاكم العالم. وهو الواهب والآخذ، وأمره الجازم والنافذ، فله الحمد على ما أولى والشكر على ما أبلى. أعطى ومنح. وتكرم وأوسع، منه الامتنان وعليه التكلان وإليه الإيمان. هو العظيم الجليل وأنا القليل الذليل، الواقف بباب الرحمة، الطالب من الكريم مزيد النعمة))

ولما دُفن ولده، وقف للعزاء،وكان لتعزيته نظام ولهيبته احترام، ثم عاد إلى منزله، وأمر بإحضار الطعام متذرعاً بالصبر والطاعة لربه، وقرأ على الناس آيات العهود، وسلم تسليم الموقنين[318] واعتصم بالحق، ووعظ الناس بآيات الله وأخبارالأنبياء وسيرالأولياء وذكرموت العظماء، وجعل موت ولده قضاء الله وقدره وهو لابد منه، لذلك جعل عبرة للناس ((... أيها الناس يطوي العمر الجديدان[319] ولا فوت من الموت. ولكم عند الله من الخير وتكثرون، ومن السر وتكسبون، ونحن وإياكم في قبضة مالك، وهو المنجي برحمته من كل هالك. قبول أوامر الله طاعة، وصبراً، والإنابة[320] إلى رحمته عزة ونصرافطوبى[321] لمن قبل أوامر الله طاعة، وجعل مدة الحياة ساعة، وركب جواد القناعة، وعلق في الحكمة الربانية فكرة لماعة، وقيد النفس بالوراعة وجعل من حق الموت أمانة الرضا بتسليم الوداعة. أيجوز أن يعترض العبد على ربه فيما أبدع، أو يحجر[322] عليه في قبضة ما أودع ؟ أو يعصي قول الله فيما أنبأ به وهو يسمع، أو يظن أن حكم الله وقدره له قاهر ومدفع[323] أيها الناظرون إلي ! أتظنون أن صبري على فقد ولدي الصالح جهالة ؟ أو ترك اعتقاد فيه على القضاء ضلالة، أو أني نسيت فيه علمه. وعزمه، واحتماله ؟ كلا ! بل كان ولداً صالحاً، هبة من الديان[324] رائق حاذق، فريد في طبعه، عنوة الزمان. بل إن الصبر العظيم مطية من ارتقى، والرضا والتسليم منار من ارتقى.

أيها الناس ! خلقكم وأوسعكم نعمة بحر عطاياه، وفرض عليكم الحق وقبله منكم، وارتضاه ونهاكم عن الباطل وحذركم من سخطه، فويل لمن عصاه ! وعلقكم من أسماءه بأسباب معرفة

معناه. بل أنت كسمكة خلقها الله بإرادته وأعطاها سبع بحار، فهي تغوص وتقوم وترزق ولا تحوط لها قرار. خلقكم في غير شيء، وغمركم بالرحمة، ونقلكم من ضيق الدنيا إلى فسيح نعمه. أما ترضون بالشفوق الرفوق، المليء بالشفقة والرأفة القادر، القاهر المعطي المانع، الحاكم بالعدل والنصفة أتظنون أنكم إذا أعرضتم عليه في حكمه تبلغون مرادكم[325] أو تزعمون أنكم إذا أهملتم طاعة مولاكم وركبتم هواكم تخلصون من بلاكم ؟؟ أيها الناس ! إنكم كطيرمسجون في قفص الإرادة،متحرك في طلب هواه، فلا يجد مطاراً ولا فراراً ولا زيادة....)).

ومازال على مثل ذلك في الموعظة والإرشاد فيما يطول شرحه حتى أروى كظه[326] الظمأ، وأروى باصره العمى، وكفا الناس بالحكمة الباهرة والموعظة السافرة[327] وبعدها جمع مجالسه العظيمة وبدأ يبسط العلوم للناس ويشرح لهم الدين والدنيا.

وقد رثى الناس سيف الدين بقصائد مطولة كثيرة، وقالوا فيه المراثي العظيمة. وقد نظم الشاعر شمس الدين محمد بن الصايغ مرثية، يرثي بها الأمير سيف الدين عبد الخالق قال فيها

قِفْ بالدّيارِ وحيّها ونادِيها	وانظرْ إلى ربعِها الخالي وناديها
أَمَّا المعاني فقد دكت[328] مبانيها	من بعد ما كان سيف الدين بانيها
يا عبدَ خالقنا قد كنتَ راعيها	فبعدُك اليومَ من أضحى يُراعيها

ورثاه الناس مرات كثيرة، وجرى للناس من فقده هم كبير وأصابهم مصاب شديد. كل هذا ووالده جمال الدين يوعظ الناس، ويشرح لهم قصص الأولين حتى أنه كان يروي الناس الصبر وكأنه لم يجزع عليه،احتساباً لوجه الله تعالى لأنه كان شبيه الجوهر المكنون، أو كأنه البدر التمام بين منطقة النجوم، أو شبيه البحر المحيط بين زمانه، تمتد منه البحور وقد تجول الأمير السيد كثيراً في طلب العلم والمعرفة، وأقام في الشاغور في دمشق اثني عشر عاماً، خالط العلماء والفقهاء والزهاد، واخذ عنه الكثيرون من طلاب العلم والدين،وقد لقب بالسيد[329] اعترافاً بسيادته على غيره

وتفوقه على أهل زمانه، ويعتبره الموحدون بعد الحدود الخمسة في المكانة والتقديس وقد ألف ثلاث شروحات على ثلاث رسائل من رسائل الحكمة الشريفة هي (الميثاق، الكشف، وشرط الإمام).

والحقيقة أن الأمير السيد لم يشرح رسائل الحكمة بالمعنى المفهوم لكلمة شرح بل أخذ معانيها ومراميها وسبكها في أربعة عشر من الكتب المخطوطة بشكل مواعظ وإرشادات قيمة منطبقة على القرآن المجيد، والحديث الشريف في التربية والأخلاق والمعاملات[330] وتهذيب النفوس وإصلاح المجتمع والعشيرة والبيئة عن طريق إصلاح الفرد بذاته وبنفسه وعن هذا قال العلامة الأستاذ عجاج نويهض في كتابه (التنوخي جمال الدين عبد الله)[331] ((.... وهنا محراب الحقيقة وقدس أقداسها في قضية التنوخي، فإنه لم يشرح الرسائل كلها ولا ربعها، ولا عشرها، بل أقل من ذلك، فكتبه الأربعة عشر أو أقل أو أكثر لم تشرح من الرسائل إلا عدداً ضئيلاً منها، أنه كان يستوفي على نص العبارة الورادة في رسائل الدعوة التوحيدية فيجد نفسه أمام آفاق واسعة من المجتمع الإنساني المحتاج إلى تطبيق أحكام الحكمة العملية، فينتقل تواً إلى هذه الآفاق ويعالج أمورها، ويقيم معالمها للخير الإنساني الشامل فهو لم يكتب على وجه الحصر لبني معروف فقط.

بل كتب إلى النفس البشرية التي عرفت توحيد الخالق، ويستفاد من آرائه المبعوثة في كتبه المسماة (الشرح) أن عقيدته الكلية التي يمتص من الرسائل جميع ما فيها من دعوة إلى الخير ويحول ذلك إلى دستور عملي مهتماً بالنفس الإنسانية)).

وللأمير السيد كتباً أخرى هي : (سياسة الأخبار) (كمالات النبي المختار) ومعجم للغة سماه (سفينة اللغة العرباء)

2 _ وفاته :

في السابع عشر من جمادى الآخر من سنة ثمانمئة وأربع وثمانين هجرية الموافقة لسنة ألف وأربعمائة وإحدى وسبعين، ارتعدت الفرائص، وذهلت العقول ونكست الرؤوس، واشتد الوجه والبؤس بين الناس كافة، كبيرهم وصغيرهم، فقد توفي الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي. وكان لوفاته رجة عظيمة، وفادحة عميمة لا مثيل لها ولا تقاس نهايتها، لأن الناس قد تشككت وحارت لهذاالمصاب العظيم فكيف سيكون أمر الناس من بعده[332] ((فإن الألباب حارت، والخطوب والمصائب جارت،وطيور الحزن واليأس طارت، والحسرات ثارت وأرض الزكاة بارت، ورحى الخراب دارت، ووفود الشرور زادت، وركبان الخير سارت، وخيل الظلم أغارت، وبغير الحق أشارت، وباعتمادها الباطل صارت، وطيور الإخلاص طارت، ولأجنحة العقول عارت، وتنانير الفتن بعده فارت، وعجول الآفات خارت، فهل تقول الجبال مارت لما بشخصه الكرم وارت، وله الجنان نارت...))

وكان يوم دفنه يوماً عظيماً، ويوم عزاه مشهوداً لم تشهد مثله البلاد منذ قديم الأزمان. فقد اجتمع في يوم واحد في بلدته (اعبية)أكثرمن سبعة آلاف شخص، ساهمين باكين نادبين، وقد كان مجموع ماقدم من اللحم يوم عزاه ستمائة وعشرين رطلاً[333] دمشقياًوقدم نحو ثلاث غرائر[334] من الدقيق طحيناً حيث خبز وقدم للناس المجتمعين ولم يصرف كل ذلك على الناس من أهل البلاد وحسب ، بل صرف على الغرباء من خارج البلاد أيضاً . وجعلت الناس تأتيه بالمراثي في وصفه أشياء يطول ذكرها ، ومن الذين رثوه الشيخ علم الدين سليمان بن حسين الذي قدم قصائد ومراثي طويلة تندب وتبكي ذلك الشيخ الجليل والعالم الفقيه الكبير . دفن الأمير السيد في (اعبية) وله مقام يزار حتى يومنا هذا .

3 _ أمثلة من شرح الأمير السيد : ((قدس الله سره))

1 _ في تحريم الخمر :

قال الأمير السيد في تحريم الخمر : ((... والإنسان مادام صحيح العقل، صافي الذهن، أدرك عواقب الأشياء المحمودة والمذمومة، والخمر يصدي العقل، ويكدره ولا يدعه يميز بين الحسن والقبيح، والخير والشر، فيصبح عنده كل شيء وفي محل واحد لذهاب مخيلته المضيئة النيرة كما قال المعز : إن الخمر يفسد الدماغ حتى يبطل التمييز، ويكون فعل السكران بلا تمييز ويظن الفساد صلاحاً، ويصور الباطل بصورة الحق، ويقدم على القبيح ويظن أنه الجميل فتكون أفعاله كلها ضلالاً. لأن القلوب إذا صَفَتْ وصفت، وإذا حازت كدرت، والخمر مسكر للعقل، كالصدأ للمرآة، لأن الصدأ إذا استولى على المرآة يطمسها ويواري وجها القابل للأشكال، وهكذا الخمر وكل مسكر إذا غلب على العقل غيب جوهره القابل ليفيض الحكمة، ولا يدعه يتمثل فيه شيئاً من المعاني الصحيحة،فمن هذه الجهة نصرح تحريم الخمر وكل مسكر، فالمسكرات جميعها حجب بين العبد وربه،وبالضرورة كل شيء ويحجب العبد عن ربه فهو يحجب العبد عن ربه فهو حرام شديد التحريم.))

2 _ في النهي عن الغضب :

قال الأمير السيد في النهي عن الغضب : ((.... لأن الغضب نار محرقة، يؤثر في النفس، كتأثير النار في الحطب، فإذ لم يطفأ في مبتدأ أمره اشتعل وقوي حتى لا يستطاع دفاعه أبداً، فالنار بدؤها شرارة يمكن إطفاؤها بسهولة، وإذا اضطربت وعظمت فلا يطفئها ألوف الخلائق،

وكذلك الغضب في مبتداه سهل إخماده، وإذا تمكن من صاحبه واستولى عليه أهلكه هلاك الأبد، وقال بعض الحكماء : ليس الغضب إلا من ضعف النفس، فمن استطاع أن يقهر غضبه فهو الشجاع البطل، وقال غيرهم : فيك الغضب نار تلفح نار فضلك، والشهوة غيم يحجب شمس عقلك،فلو رأيت نفسك في حالة الغضب والشهوة فررت من نفسك فرارك من حرق أو غرق...))

3 _ في اللسان :

وقال قدس الله سره في اللسان : ((.... فاللسان هو أكبر الكبائر، والكاسر الذي لا ينفع في كسره شد الجبائر، فيجب على الإنسان أن يحفظه من الكذب بالكلية وما تحلى الإنسان ولا اللسان بمثل الصدق، وقال الكتاب الكريم ((يا أيها الناس آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين))، وقال ((إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون)). ويجب على المرء أن يحفظ لسانه من المواعيد الكاذبة فالإنسان مرتهن بوعده، وإخلاف الوعد ضرب من الكذب، بل إن استطاع أن لا يعد أحداً البتة فهو أكمل، وإن اضطر إلى الوعد ولا بد منه فليعلقه بالمشيئة، ويقول في كل وعد إن شاء الله، ويحرص كل الحرص على أن لا يخلفه، فإخلاف الوعد من إمارات الشقاق، وخبائث الأخلاق، والكذب هو الداء العضال)).

4 _ في العين : وقال في العين :

((... والعين إنما خلقت للعبد ليستعملها في النظر بالاعتبار في حكمة الله وقدرته في مصنوعاته، ويهتدي بها في الظلمات ويستعين بها في الحاجات وينظر في عجائب ملكوت الأرض و السموات ويعتبر بما فيها من الآيات،ليكون اعتبارهابذلك سبباً للوصول إلى خالقها، وقيل من وقع طرفه على شيء، ورجع بغير اعتبار فليس بحكيم، فالوجود كله ملآن منه، لأن الحكيم صنعته جمع الكلمة، فمن هذه الجهة وجب على كل إنسان إذا نظر إلى الشيء أن يتذكر صانع ذلك الشيء، وما أودع فيه من حكمة، وإن لم يدركها ومن الفروض اللازمة للعين أن يصونها ويحميها من النظر إلى خيانة أبداً، وقيل في هذا المعنى في آداب النساء (فالحذر الحذر من أن تنظر واحدة منكن إلى رجل مؤمن أو مخالف إلا بالعين التي تنظر بها إلى ابنها أو أبيها) فمن لا تتحفظ عينه، لا ينحفظ فكره،والنظرة سهم من سهام الشيطان، فمن تركها خوفاً من الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوتها في

قلبه، ولا ينظر الإنسان إلى محرم من محارم الله تعالى، كنظره إلى مال الغير يريد أخذه ، وتناوله،ونظره أيضاً إلى أحد من أهل الخير باحتقار بل ويجب أن ينظر إليهم بمحبة وصفاء ، وبتبجيل وتكريم وإذا آوى إلى فراشه فليقل أللهم إليك آويت ، ورضاك نويت أللهم أنم في طاعتك عيني ، وأدم في رضاك عوني ، أللهم أجعل في طاعتك يقظتي ونومي ، أللهم احرسني بعينك التي لا تنام))

5 _ في الأذن :

((... والأذن يستعملها الإنسان في سماع حكمة البارئ والإصغاء إليها، والإنصات المحض لوعي الحق والصدق، لأن الأذن هي القمع الذي تتسرب منه المسموعات إلى القلب، فاحذر أن تملأه بشيء يكدر عليك قلبك، فإن له آفات كآفات العين بل و أكثر، وكن مع الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه،واجعل عقلك فاصلاً بين أذنك وقلبك حتى يستعرض ما يدخل فيها قبل أن تعرضه على قلبك،فإن كان كذلك كانت أذنه أذن خير. وقال حكيم : احفظ الأذن من أن تصغي إلى البدعة والغيبة والفحش،أو الخوض في الباطل، أو ذكر مساوئ الناس، فإذا أصغيت بها إلى شيء من المكاره، صار ما كان لك عليك وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك، وهذه غاية الخسران، ولا تظن إن الإثم مختص به القائل، فإن المستمع أحد المغتابين، ولا تصغي بأذنك إلى كذب ولا بهتان ولا نميمة، ولا هزء ولا هزل، ولا شيء ينافي حكمة الله، وبالجملة أن جميع ما فرضه على اللسان في النطق بالصواب، والإمساك عن الخطأ، فرض مثله على الأذن من استماع الصواب والإصغاء إليه والصدود عن استماع الخطأ والانحراف عنه.)).

6 _ في اليد :

وقال قدس الله سره في اليد : ((... واليد فاحفظها عن أن تتناول مالاً حراماً، أو تؤذي بها أحد من الخلق، أو تخون بها أمانة أو تكتب بها مالا يجوز النطق به، فإن القلم أحد اللسانين، فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه، ((ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً)) فلا تمدها إلى محرم ولا تبسطها كل البسط إلى محلل، ولا تجعلها مغلولة إلى

عنقك عن العطاء، ولا تقبضها عن بسطة المكارم، ولا تمدها بالسؤال إلى غير الله، واستعملها في مساعدة إخوانك في ضروراتهم، كالكتابة والصنعة وغير ذلك، ثم تعليمها صنعة تليق بك وتستعين بها على القيام بأودك، فلا يحل لأحد أن يهمل نفسه ويده عن تعليم الخط، ويحرم عليه أيضاً إهمال ولده أو زوجته بعدم تعليم الخط.

7 _ في الرِّجل :

((والرجل تجنب السعي فيها في غير مرضاة الله عز وجل، وعليك بها في عيادة المرضى، وشهادة الجنائز، وفي حاجة أخيك إذا أمكنك السعي بها، واحفظها أن تمشي إلى حرام، أو أن تمشي إلى باب السلطان، فالمشي إلى السلاطين من غير ضرورة معصية، وعودها المشي الذي ينعش البدن، ويقوي الحرارة، وكان أفلاطون الحكيم يعلم تلامذته وهم يمشون حتى ترتاض نفوسهم وأبدانهم)).

وللأمير السيد شروحات كثيرة في الحكمة والإرشاد، إذ لم يترك شاردة ولا واردة فيم ينفع الناس إلا وقيدها، ويكفيه أنه حاول جاهداً إصلاح كتب المذهب، وحذف التحريف منها والغلو، وذاق مرارة الغربة في ذلك عن أهله وقريته، وهم أمراء البلاد وحاكمي العباد.

4 _ قوله في النفس :

للأمير السيد عبد الله التنوخي قدس الله روحه ونفعنا ببركاته كلام في النفس وهذا بعضه :

((.. إن النفس ليس لها حَوْل ولا قوة بل الحول والقوة والقدرة والعزة والعظمة لخالقها، والنفس فيها ظلمة كما فيها نور، وفيها طبائع كالسباع الضارية[335] والأراقم[336] الناهشة، إذا هاجمت افترست الإنسان وأهلكته، والشر لا يأتها إلا منها، وهي مفتقرة إلى المفيدين يعلمونها الخير وينهونها عن الشر. وكمالات النفس خمسة : صفاء ويقين وطاعة ويقظة ومواظبة. ومراتب نقصها خمسة : ظلمة وشكوك ومعصية وغفلة وهجران، ومواطن عزها خمسة : عادة وهداية ومشاهدة وإيمان وطاعة ومواطن ذلها خمسة : درجة ومكان وبقاء وحركة وصقال. فالدرجة : العبودية لله، والمكان : عجزها تجاه القوة المبدعة، والبقاء : تفهمها العلم الصحيح ثم العمل الصالح. والحركة : التربية بالحكمة المفيدة، والصقال : اليقظة وعمل الخير ولذاتاها خمسة:الفهم والعلم والإيمان، واليقين والتوحيد. فلذة العقل الفهم، ولذة القلب الإيمان، ولذة التوحيد المساهمة بأعمال الخير مع جميع الناس.

الفصل الثالث

الشيخ الفاضل (قدس الله سره)

1 _ نسبه وحياته

2 _ تعبده

3 _ وفاته

4 _ تأوهاته

5 _ من كلامه

6 _ جملة من الآداب

7 _ جملة من الشروط

((آهٍ من ثِقَلِ الأوزارِ * من قلّةِ الاستشعارِ * آهٍ مِنْ غَضَبِ الجبَّارِ
*** آهٍ مِنْ المَتَابِ * آهٍ مِنْ ذَهَابِ الشبابِ * آهٍ مِنْ يَوم الحِسابِ**
*** آهٍ مِنْ عَظُمِ الخَطَا * آهٍ مِنْ الزَّللِ * آهٍ مِنْ خيبةِ الأملِ**
***.......)).**

تأوهات الشيخ الفاضل

كتب المذهب التوحيدي

((أولها الصِدق[337] باللسانِ والجِنانِ والأَركانِ ثمّ المحافظُة
والمناصرةُ والمعاضدةُ للإخوانِ * ومحضِ الوّدِ والصَفَا والمناصحةِ
لهم
في السرِّ والإعلانِ *...))

* من كلام الشيخ الفاضل *

كتب المذهب التوحيدي

الشيخ الفاضل قدس الله سره
(987 _ 1050 هـ / 1567 _ 1630 م)

1 _ نسبته وحياته :

هو محمد أبو هلال، ولد في قرية الشعيرة من وادي التيم في جبل الشيخ[338] عام (987 هـ / 1567 م) ولكنه قضى معظم حياته في قرية (كوكبة) القريبة من قريته. تربى يتيماً وقد ورث عن أبيه بعض عنزات كان يرعاها ليفي ضرورات الحياة الصعبة له ولوالدته،وكان شغفاً بالعلم منذ صغره بالرغم من عمله في رعي عنزاته لذلك صنع لوحاً من خشب وبدا يتلقى القراءة والكتابة حتى أتقنها بالرغم من عمله.

ثم استطاع أن يتصل بالشيخ محمد أبي عبادة، واتفق معه على زراعة أرضه وتربية القز مقابل قسم من الانتاج، وبتلك الطريقة استطاع أن يحسن من أحواله، ويزيد دخله، مما جعله يتفرغ في بعض شهور السنة لدراسة والتعليم والعبادة، فبرع في علوم الدين وتمكن فيها،توضّحت مواهبه بالعلم والتقوى، وهذا ما جعله يتميز بين الناس ويذاع صيته بالتقوى والعبادة والعلم، وقد قال له الشيخ أبو عبادة :

((.... إن قلنا لك يا محمد فهذا قليل عليك، وإن خاطبناك يا شيخ محمد، نراه كثيراً عليك فلذلك نخاطبك يا أبا هلال.)) وقد توطدت الصلة الدينية بينه وبين أبي عبادة وقويت بسبب ما بينهما من روابط أساسها القربى بينهما، واستمر على هذا الحال حتى توفي الشيخ أبو عبادة في نهر الليطاني غرقاً فحزن عليه الشيخ الفاضل حزناً شديداً، وأصبح المرجع الديني في مجتمعه

واتجهت الأنظار نحوه، لكنه رغب في مغادرة بلده نحو دمشق رغبة منه في اكتساب المعرفة وزيادة التعليم واكتساب التوسع بالمعارف الدينية العلمية والفقهية. وقد كان معجباً بتقوى الأمير السيد جمال الدين التنوخي وتبحره في العلم والدين. وتشبهاً به نزح إلى دمشق، بلد المعرفة والعلوم ومكث فيها سنوات منكباً[339] على العلم على يدي أحد شيوخها البارزين بالعلوم، حتى أصبح ملماً بعلوم الفقه والنحو والحديث والنحو والتجويد

وبعد عودته في الشتاء إلى موطنه كان يتجرد لقراءة القرآن الكريم فختمه كاملاً، وصار يتلوه غيباً ودرس تفسير القرآن الكريم للإمام البيضاوي فحفظه غيباً، وصار يتلو الاثنين معاً غيباً.

2 _ تعبده :

اشتهر الشيخ الفاضل بتقواه، وأصبح مقصداً لرجال الدين، فتوافده عليه للاستفادة من علمه والاقتباس من تعبده وتقواه. وكانت حياته وعيشه غاية في الزهد والتقشف والترفع عن مغريات الحياة وزينتها، لذلك اكتفى مع أهل بيته بخبزالشعير بغذائه، لكنه كان يقدم لضيوفه وزائريه الفاكهة التي تعفف عن مذاقها، وعندما شعر أن خبز الشعير يضر بالصحة تحول عنه إلى خبز القمح مع الاكتفاء بما يحتاجه الجسد من الطعام القليل، وكان يقول : ((... إن تعلق الإنسان بالدنيا هو من الفضول)) فهو كان يكفيه في العام مدان من القمح ورطلان من الزيت ورطلان من الدبس وبعض العسل كان يتناوله لمنفعته، وكان يتجه مع بعض أصحابه نحو سفوح الجبال لقطف اللوز المر واستخراج الزيت منه الذي كان يستخدمه . أما لباسه مع مريديه وتلامذته فكان من خشن القماش ذي اللون الأزرق، وقد اتخذ من أسلوب التعبد والانفراد عن البشر مسلكاً له في الحياة . فكان يمضي وقتاً بعيداً عن الناس مع مريديه في الجبل الذي سمي فيما بعد باسمه لكثرة ما قضى فيه من أيام تعبده و انعزاله عن الناس . وبعدما ما اشتهر أمره رجاه الناس بأن لا يبخل عليهم بعلمه وتوجيهاته ومواعظه الدينية، فرغب عن ذلك لأن همه كان إصلاح نفسه ومن معه من المتعبدين بالعبادة والانفراد والاعتزال بالجبل. ويروي عنه الشيخ أبو علي عبد الملك الذي كان من مرافقيه في التعبد والاعتزال في الجبل هذه القصة : ((.. كنا عنده مرة في الكهف في الجبل في زمن الصبا، فكنا نترصده خفية في الليل أنا ورفيق لي كان صالحاً _ رحمه الله _ كي نعرف حرفته في العبادة فكان لا يهجع في ليله إلا قليلاً ويقضي سائره متعبداً متهجداً[340] بصوت خفي منكسرمحزون،تارة يتلو في كتاب الله العزيز بنغمة خفية، وطوراً لا نسمع له من نغمة، ولا ندري أكان يبكي من خوف الله، أم كان يحاسب نفسه ويعاتبها، أم كان يفكر فيما هو مطلوب منه، هذه كانت حرفته في العبادة في ليله، كقوله تعالى :

((.. كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون))

هذا كان دأبه إلى السحر رحمه الله ثم ينهض قائماً يصلي صلاة الصبح ثم يورد ورداً مختصراً، ثم يأخذ له راحة إلى طلوع الشمس،ثم يجلس لقراءة الفرض. فكنا نتوجه إلى عنده فيقرأ كلمة كلمة بخشوع وطمأنينة مع مذاكرة وإفادة إلى أن يفرغ من الفرض إلى قرب نصف النهار.... وكان يكره النغمة القوية في القراءة، والهرج وتضخيم الصوت والمسابقة فيها والمباراة، وبعد ذلك من إظهار القوة والرياء.)).

واشتهر الشيخ الفاضل بتعبده وتزهده وإيمانه بعيداً عن الناس، منعزلاً عن الدنيا حتى زاد إلحاح الناس عليه، والرجاء منه من أن يكون بينهم ويهديهم ويرشدهم. فقبل أن يخصهم بشهور الصيف حيث يتواجد بينهم للقراءة والتفسير والتوجيه والإرشاد إلى ما فيه صلاح النفوس وتهذيب الأخلاق بالتعاليم الدينية الصحيحة،فكان يحيل القراءة لرجلين فصحين يتلوان من الكتاب الشريف، وهو يفسر للحضور معاني الجمل الدينية بعبارات واضحة وتفسيرات بينات يفهمها الحاضرون بخشوع وسكون، وكان يتلو على الناس من كتب الحكمة الشريفة وشروحاتها وكتبها، وكان يعتبر السيد الأمير عبد الله قدوة له في الزهد والإيمان ويعتبر شروحاته غاية في الوضوح والدقة،وعلى جميع الموحدين الإطلاع عليها وفهمها والعمل بها،فكان يقول : ((إن شروحات السيد الأمير فيها الكفاية وفيها التأديب، وهو ما نحاسب عليه يوم القيامة لأنها واضحة موضحة)). ولما طلب منه يوماً مساعدة رجل فقير صاحب عيال كثيرين، وعلم أن لديه من الأولاد ما يزيد عما قرره الشرح[341] امتعض من سؤالهم له بالمساعدة ومن ضعه. وكان يستحسن ممن سكن في بلد أن يواسي أهله بالمعروف على قدر استطاعته برأيه وماله دون أن ينتظر سؤالهم له حتى لا يبقى لهم عليه جميل وتبرا ذمته من منافع تدخل عليه في بلدهم.

وكان العابدون التقاة الزاهدون يتحدثون عن توافق النفوس والأماكن، فكانوا يقولون : ((إن تهمة الشيخ نصر كانت في (اعبية)، أفما يكون أن الله تعالى أعاد إليها بالأمير السيد حتى أقام الحجة على أهل ذلك العصر إلى القيامة. والداعي[342] عمار رضي الله عنه كانت مصيبته في الشعيرة في منزل حسين بن شبيب في حارة من بلد الشيخ الفاضل أفما يكون أن الله رده إلى كوكبة بالشيخ الفاضل،...)). وكانوا يضعون اللوم على الشيخ أبي الخير الذي لم يدافع عن الداعي عمار ضد الشرذمة التي قتلته أعزل لأن سيفه كان عند ابن جندل ولم يعطه إياه أو يساعده. وقد استمر

الشيخ الفاضل بفيضه من المواعظ والتوجيهات الصحيحة وكذلك الاجتماعات الدينية التي كان يقوم بها ضمن مجالس خاصة واعظاً فيها للناس مرشداً وهادياً لهم إلى الخير والصلاح والتوحيد، فكانت حياته مليئة بالتقوى والصلاح والهداية والتوحيد والإيمان، لذلك كان مقصداً لرجال الدين من كل مكان فيما اختلفوا به من أمور الدين والدنيا،وكان لشكاوى الناس متقبلاً باللطف وبالعدل و القسطاس بينهم حاكماً عاملاً بقول الله :

((إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً))[343] .

وكان يحث الناس على تعلم العلم الشريف ولكنه متسامح، مردداً القول : ((إن الله يحاسبهم بذنوبهم ولا يحاسبني بظلمهم)).

3 _ وفاته رحمه الله :

استمر الشيخ الفاضل[344] على حاله من العبادة ومن الزهد والتقوى، إلى أن تمكن والي دمشق (الكجك أحمد باشا) من القضاء على استقلال الأمير فخر الدين المعني، والبطش بالموحدين، مما جعل مجالسه تنقطع عن انعقادها ولزم الشيخ الكوكباني في بيته وكان يتصل مريدوه به ويسمعون منه تعاليم ومواعظه وإرشاداته ويحفظونها ويسجلونها، حتى ضعف بدنه من الجوع الذي كان يلزم به نفسه والسهر والعبادة. ومرض مرضاً شديداً ولما طال مرضه وتأثر من المرض رأسه، أشير عليه بالكي في رأسه، فرضي بذلك وأجري له الكي بالنار، فوضع في رأسه في ساعة واحدة خمس كيات، لكنه لم يستفد من الكي شيئاً، واستمر جسده بالهزل والضعف، حتى توفي رحمه الله في ليلة الجمعة / 22 / شعبان من عام / 1050 هـ _ 1630 م)). وما يزال ضريحه في (عين عطا) بين راشيا وحاصبيا، وهو مزار يتبرك الناس بزيارته حتى يومنا هذا. وقد ترك لنا مواعظ وإرشادات وجملاً مسرودة، وخصالاً معدودة وتأوهات، وجملة آداب، مبثوثة في كتب الحكمة الشريفة رحم الله روحه وقدس سره ونفعنا ببركاته وأعاد علينا من صالح دعواته.

4 _ تأوهات الشيخ الفاضل[345]:

((آه من ثقل الأوزار * من قلة الاستشعار * آه من غضب الجبار * آه من المتاب * آه من ذهاب الشباب * آه من يوم الحساب * آه من عظم الخطأ * آه من الزلل * آه من خيبة الأمل * آه من قلبي ما أقساه * آه من عملي ما أرداه * آه من ربي كيف ألقاه * آه من عهدي كيف أنساه * آه من عِظَم الصيحات * آه من عمل قد فات * آه من بعد الطريق * آه من سبق الرفيق * آه من عدم الصديق * آه من ضعف اليقين * آه من قلب حزين * اللهم إني أصبحت فقيراً عاجزاً لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو إلا بمعونتك وأصبحت مرتهناً بعملي وأصبح الأمر كله بيدك * لا فقيراً أفقر مني * إليك ولا غني أغنى منك عن عبادك * اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني * ولا تشمت بي عدوي * ولا تأسي على صديقي * ولا تجعل الدنيا أكبر همي * ولا مبلغ علمي * ولا تسلط علي بذنوبي من لا يخافك ولا يرحمني * وألقاك وأنت راضٍ عني برحمتك يا أرحم الراحمين *

5 _ من كلام الشيخ الفاضل[346] : (قدس الله سره)

جمل مسرودة وخصال معدودة

من كلام الشيخ الفاضل أبي هلال محمد الكوكباني نفعنا الله ببركاته وأعاد علينا من صالح دعواته. آمين. جمل مسرودة وخصا ل معدودة.

فأولها الصدق باللسان والجنان والأركان * ثم المحافظة والمناصرة والمعاضدة للإخوان* ومحض الود والصفا والمناصحة لهم حتى الوالدين والأولاد * ثم الرضا بأحكام الرب سبحانه وتعالى في كل ما يريد * ثم التسليم لأمره والتفويض وإلقاء المقاليد عليه في كل وقت جديد * ثم تصفية القلب * ثم تنقية السو * ثم الاجتهاد على درس المعلوم الشريف غاية الاجتهاد والطلب الشديد والسؤال والاستفاد * ثم معرفة الفرائض الدينية * والمواجب الإلهية * ثم تقوىالله سبحانه وتعالى في السر والعلانية * ثم استشعار حضوره تعالى أنه معه لا يفارقه طرفة عين * ثم المبالغة في معرفته ومحبته وطاعته ومحبة أصفيائه صلوات الله عليهم * ثم الخضوع له والتذلل بين يديه * ثم الدعاء والتوسل إليه بأصفيائه صلوات الله عليهم * ثم الحيا ء منه تعالى أكثر من استحيائه من جميع الخلق * ثم الخوف من مخالفة أوامره وغضبه وعقابه * ثم الرجا لعفوه وثوابه * ثم الإخلاص له في العلم والعمل * ثم التوبة الخالصة قبل مفاجأة الأجل ثم الزهد والورع وقصر الأمل * ثم ضبط اللسان * ثم غض الطرف * ثم اجتناب المحارم * ثم محاسبة النفس * على كل لحظة في كل حال * ثم ملازمة الصبر والاحتمال على البلايا والمحن وجور أهل الضلال * ثم حسن المعاملة * في البيع والشراء والأخذ والعطا ء والقرض والوفاء وغير ذلك من سائر المعاملات * ويدقق على نفسه في القطعة والدرهم * ثم حسن الأخلاق ولين الجانب * ثم إيثار القناعة * ثم النزاهة والعفاف * ثم الإعراض عن فضول الدنيا * ثم الاقتصار على الكفاف * ثم احتقار الدنيا * ثم ذكر الموت

والاعتبار به * ثم مخالفة الجسد * ثم ترك الزنية * ثم ترك التكبر * ثم الإعراض عن ملاحظة الجاه * في هذه الدنيا وحب المجد فيها * ثم حب الرياسة * ثم حب وبسط الآمال * ثم مخالفة الهوى * ثم قهر الغضب * ثم ملك الشهوة * ثم ترك الدغل * ثم ترك الحقد* ثم ترك الحرص*ثم ترك الحسد * ثم ترك الريا * ثم ترك العجب * ثم ترك الغيبة * ثم ترك النميمة * ثم اجتناب نقل الحديث بغير تأكيد * ثم القطع بالظنون من غير تحقيق * ثم ترك الدعا بالأجمع إن كان على إنسان أو حيوان * وغير ذلك من كل شيء * ثم الإمساك عن كثرة الكلام وترك الهذر والهذيان في أمور الدنيا ثم كثرة الصمت وخصوصاً في المحافل * والسكون والتواضع والتاني وخفوت الصوت ولزوم الوقار * ودوام الذكر واستشعار حضور الرب سبحانه وتعالى كما ذكر * ثم ترك الهزل والمزاح والاستهزاء والضحك إلا أن يكون متبسّماً * ثم ترك التسويف والبطالة وتضييع الساعات والأوقات في غير ذكر الله تعالى * ثم الاحتراز من شهوات الجسد كما تقدم ذكره * والميل إلى التنعم والترفة وفصول المطاعم والمشارب * والملبوس والمراكب * والنوم والراحة وما شاكل ذلك من جميع الفضولات الجسمانية * ثم ترك التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد والأنساب والمقتنيات الدنية * ثم ترك الأكل في الأعزية ولو بعد حين * وقطع النواح والمناداة بالكلية لأن ذلك خلاف للحق ومناف لشرع الدين والصدق * ومأثور في بعض الكتب المنزلة عن الله عز وجل، يقول عز من قائل من رفع صوته على جنازة فكأنما حاربني برمح * وقال غاثا ديمون النبي سلام الله عليه * يا نفس إن أهل الدنيا مظلومون ظالمون مغرورون غارون * وذلك أنهم يستقبلون النفس الواردة إلى دار الهموم والأحزان بالطرب والسرور * ويشيعونها إذا صدرت عنها بالبكاء والعويل * وكفى بذلك يا نفس ظلماً ومخالفة للحق والعدل * فيا له من صوت شنيع * وفعل قبيح وضيع * يكثر الأحزان ويغضب الرحمن * ويعمي القلب والجنان * أعاذنا الله تعالى من ذلك ولجميع الإخوان * وينبغي ترك ظهور النساء وراء الجنايز ولا ينكشفن على الرجال لأن النساء عورات وكل عورة يجب سترها * ثم ترك الأمور الخارجية عن نظام الحق في الأعراس كالزينات والنقوش والدف وغير ذلك مما لا يريده الله تعالى * وتخفيف الصداق وترك المغالاة فيه * وقد نهى السيد الأمير قدس الله روحه عن المغالاة فيه وأمر بتخفيفه * وكذا الأنبياء والسلف الصالح من قبله * ثم معرفة الصلاة ومبطلاتها * ثم معرفة الوضوء ونواقضه * ثم قراءة ما تيسر من القرآن قراءة صحيحة على شيخ * ثم عمارة بيوت الطهارات واستعمال الطهارة دائماً في البول والغائط وكذا في البول وحده ومن الحيض والجنابة وغير ذلك من سائر النجاسات * ثم استعمال اللباسات دائماً صيفاً شتاءً شاملاً للرجال

والنساء والأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء * بحيث لا يفارق اللباس نهاراً واحداً إلا بعذر * وهذا ما تهيأ وتيسر بتوفيق الله تعالى وعونه * وحراسته وصونه * وهدية السيد العظيم * وإرشاده * وفيضه وإمداده * وقد تحصل في هذا المكان بتوفيق الله الكريم المنان* وهداية صاحب الأمر والزمان * من الأوامر والنواهي والحقائق والبيان * ما يغني ذا الناظر * بالإمعان * ولا تذاع لمن لا يستحقها من أهل النفاق والطغيان * والحمد لله وحده وصلى على من لا نبي بعده *

6 _ جملة من الآداب من كلامه :

من جملة الآداب المطلوبة من العبد أن يكون مخلصاً لله تعالى في سره وجهره * مراقباً لربه * مسلماً جميع أموره إليه * متكلاً في السراء والضراء عليه * راضياً بقضائه * قانعاً بعطائه * صابراً على بلائه * شاكراً لنعمائه * معترفاً بذنبه * صغير النفس * نازعاً الكبر من قلبه * ملازماً الانكسار والذل والافتقار * متواطياً متواضعاً خاشعاً لله تعالى * متمسكاً بحدوده ملازماً للأوامر صغيرها وكبيرها * منصرفاً عن النواهي جليلها وحقيرها * مهذباً بالأخلاق * مستشعراً لخلاقه * محاسباً لنفسه * ناظراً في عيبه * مقبلاً على ربه * معرضاً عن عيوب الناس * خفياً صوته * كثيراً صمته * صادق اللسان * لين الجانب * سالم القلب * نقي السر * حسن الأخلاق * سهل المعاشرة قليل المنافرة * قليل المنازعة * قليل المراجعة * كثير المتابعة * غضي العين * قليل الكلام * قليل الضحك * قليل المزاح * كثير المروة * صادق المراجعة * كثير الصفا * مساوياً بين سره وجهره * كثير الوفا * قليل الجفا * ذاعفة ونزاهة وصيانة وقناعة * قليل الحقد * قليل الحرص * قليل الطمع * قليل الغضب * قليل النزق * قليل الغيبة * قليل النميمة * حميد الفعال كثير الاحتمال * كثير الأدب * كثير اللطف * كثير العطف * واسع الصدر * رحم القلب * صافي الود * قليل الخلاف * قليل الإسراف سريع الائتلاف * كثير الاعتراف * كثير الإنصاف * ولا يحب نفسه على أحد * ولا يرى لنفسه قدراً ولا قيمة ولا يتكبر على أحد من خلق الله بل يرى نفسه دون الناس * كلامه موزون وقلبه مخزون وطرفه مسجون وشره مأمون وسره مدفون * إن أكرمه الناس تواضع هو في النفس * وإن أغضبوه صبر واحتمل * فهذه أربع وثمانون خصلة واجبة على كل المستجيبين * أعاننا الله على القيام بها بجاه سيد المرسلين

7 _ جملة من الشروط الواجبة على الإخوان :

أولها تقوى الله سبحانه وتعالى في السر والإعلان * والتجنب في اللحظ واللفظ والقلب وجميع الجوارح * وتجنب الشهوات والشبهات والمحرمات وكل شيء يغضب الله سبحانه وتعالى * والثانية : الاجتهاد على درس المعلوم الشريف غاية الاجتهاد * فإنه قدر على درس جميع الحفظ فهو أكمل وأفضل وإن لم يقدر فأقل ما يكون نصف الحفظ * والثالثة : معرفة الفرائض الإلهية والمواجب الدينية * والرابعة : حسن المعاملة في البيع والشراء والأخذ والعطاء * والقرض والوفاء * وغير ذلك من سائر المعاملات * ويدقق على نفسه في القطعة والدرهم * والخامسة : حسن الأخلاق ولين الجانب ونفي الطيش والنزاهة والغضب * والسادسة : ترك الدعاء بالأجمع إن كان على إنسان أو حيوان أو غير ذلك من كل شيء * والسابعة : ترك الزينة بالأجمع ظاهراً وباطناً * فالزينة الباطنة عمل الرياء * والزينة الظاهرة كل ما يتحلى به الإنسان على نفسه أو على ولده أو في بيته * والثامنة : ترك الكبر في ظاهره وباطنه * بل ينزع الكبر من قلبه بالكلية * والتاسعة ترك الحسد لأن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب * والعاشرة : التحرر من حب المجد والجاه وطلب الرياسة * لأن ملاحظة الجاه مقطعة عظيمة عن الله * قال بعض الحكماء : من غوامض آفات النفس ركونها إلى استجلاء المدح * والحادية عشر : ترك الغيبة لأن الغيبة تذهب الحسنات * وقيل : من كثر لفظه كثر سقطه * وعلى ما قيل : إن من يغتاب الناس كمثل من نصب منجنيقاً فهو يرمي بحسناته شرقاً وغرباً يميناً وشمالاً * وقيل للحسن[347] : فلان اغتابك، فبعث إليه بطبق فيه رطب[348] * وقال بلغني إنك أهديت إلي حسناتك فأحببت أن أكافيك * وذكرت الغيبة عند ابن المبارك[349] * فقال : لو كنت مغتاباً لاغتبت أمي لأنها أحق بحسناتي * وقال النبي : ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد * والثانية عشرة : ترك النميمة

لأن النميمة توغر الصدور وتفتح الشرور * والنميمة هي نقل الحديث مما يفسد بين الناس * والثالثة عشرة : مداومة الصلاة في كل يوم * والرابعة عشرة : استعمال اللباسات دائماً صيفاً وشتاءً شاملاً للرجال والنساء والأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء بحيث لا يفارق اللباس نهاراً واحداً إلا بعذر * والخامسة عشرة : عمارة بيوت الطهارات * فهذه الخمس عشرة خصلة لازمة للقوي والضعيف *

الفصل الرابع
مجتمع الموحدين

1 _ الأسرة و المرأة الدرزية

2 _ الزواج عند الموحدين

3 _ الطلاق عند الموحدين

4 _ بعض الأحكام القانونية

5 _ التربية عند الموحدين

إن الموحدين عرب خالصون، انحدروا من قبائل عربية وقد جاء الإسلام فوحدهم في أمة واحدة، عربية فصيحة، تشع نوراً على العالمين، وبعد ذلك جاءت دعوة التوحيد فميزتهم عن فرق الإسلام الكثيرة، فحافظوا على دعوتهم والميثاق المكتوب عليهم طالما أن باب الدعوة قد أقفل منذ مئات السنين، لذلك لا نجدهم لا يتزاوجون إلا فيما بينهم عموماً .

والموحد لا يتزوج إلا امرأة واحدة كما أوصاهم بذلك المعز لدين الله الفاطمي، وعملاً بقوله تعالى، ((....فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً....))[350] وأين هو ذلك الإنسان الكامل الذي يستطيع أن يعدل بين زوجات أربع؟ وطالما أن الإنسان غير كامل، فالاكتفاء بزوجة واحدة، أقرب للعدل، وأصلح للأسرة والمجتمع، وهذا ما يطالب به اليوم علم الاجتماع الحديث بعد أبحاث طويلة جاءت تؤكد ما أقره المذهب التوحيدي منذ مئات السنين. ويعتبر الاستقلال ورفض الاحتلال ومحاربته، والتعلق بالأرض وعدم التخلي عنها أو تركها إلا أمواتاً، أمران هامان أساسيان في حياة الموحدين، لذلك عندما هدد الأتراك استقلالهم وأرضهم حاربوهم وانتصروا عليهم، فالفلاح يعتبر أرضه شرفه يموت ولا تهان أو تسلب منه، الموحدون كانوا وما زال أغلبهم يعملون بالزراعة وليس لهم مصدر آخر للرزق، مع وجود بعضهم ممن يعمل بالتجارة أو في وظائف الدولة ولكن تبقى الأرض رمزاً للتشبث والاستمرار بهذه الحياة.

وقد أبرزت ثورتهم في جبل العرب ضد الفرنسيين سنة (1925 م) ومن خلالها إشعال نار الثورة السورية، أبرزت الشجاعة والجرأة والفداء واتحادهم تحت إمرة قائد وصفه أعداؤه بالشجاعة والقوة والحكمة والدين، ولقد كان للسكنة في الجبال بما تحمله من هواء عليل وماء عذب، إضافة إلى تحريم المشروبات الروحية دينياً، أثر هام في قوة أجسادهم وتمتعهم بصحة ممتازة.

والمجتمع التوحيدي قوي متماسك متضامن في الأفراح والأتراح، خال من كثير من مشاكل المجتمعات العصرية، كالانحلال والفساد وكثرة الجرائم والسرقات، لذلك فالمجتمع مازال حتى يومنا رمزاً للمجتمع الصحيح والسليم والمعافى والمتماسك، تضبطه ضوابط دينية وعشائرية، ومع ذلك نجد

أن المجتمع التوحيدي منقسم دينياً إلى قسمين وإن كان اقتصادياً واجتماعياً يخضع لظروف العصر وتقلباته. وهم على قسمين فئة العقال وفئة الجهال.

فالعقَّال : هم الذين تقيدوا بشروط المذهب وأوامره وفروضه، يتطلّعون نحو الخير والآخرة ويطلعون على كتبه وأسراره الكثيرة المحرمة[351] على غيرهم، وهم يتقشفون في حياتهم، ويزهدون فيها، يصومون ويصلون في أوقات الصلاة وخاصة صلاة الجماعة مساء كل يوم خميس من كل أسبوع، ولا يقولون إلا الحق، وفيهم الحلم والتأني، والتعقل في التصرفات، وضبط النفس، والترفع عن زينات الدنيا، وشهوات النفس، ولا يشربون الخمر، ولا يدخنون التبغ على اختلاف أشكاله، ولا يأكلون ما يحسبونه حراماً، يصدقون إذا نطقوا وإذا وعدوا أو عاهدوا يوفون، يفعلون الخير في جميع أعمالهم، ويعاملون جميع الناس بالحسنى كما أمرهم المذهب التوحيدي وهم يرتدون زياً دينياً[352] خاصاً بهم يميزهم عن الجهال وعن باقي رجال الدين في مختلف المذاهب والأديان. والرجل منهم يدعى (جوّيد) وهو لا يحصل على هذا اللقب إلا بعد أن يطلب ذلك من عقال قريته ويتضح لهم نقاء سريرته وصدق إيمانه بالمحافظة على فرائض المذهب وميثاقه، و المرأة منهم تدعى (جُويدة)، وهي تمنح هذا اللقب بعد طلب ذلك من عقال القرية وإظهار حرصها على صون دينها وتمتعها بالحشمة والصدق والعفاف، وأما الجهال : فهم الذين لم يتقيدوا بشروط المذهب تماماً، فلا يقيمون الصلاة ولا يحضرون في مجالسها. وقد وصفوا بهذا لأن صفاتهم تتعارض مع خلق العقال، فمن صفات بعض الجهال _ وأقول بعض لأن فيهم من تمتع بصفات العقال وكان أكثر تديناً من بعضهم ومن هذه الصفات : التهور، وسرعة الغضب، والحمية المتطرفة، وفقدان ضبط النفس، ومنهم الطبقة المتعلمة المثقفة التي درست كتب المذهب واطلعت على رسائله وعرفت حقيقة التوحيد، لكنها فضلت السكوت خوفاً مما قد تواجههم من مشاكل ومعاندة من العقال المتزمتين وعدم الفاهمين لأصول التوحيد. وكان العقال يحاربون الأعداء المعتدين مع الجهال، وقد برز من رجال الدين في جبل العرب الشيخ حسين الهجري، الزعيم الديني البارز في الجبل، وكان من أبطال الحروب ضد إبراهيم باشا وشيخ بارز آخر كان رمزاً للبطولة والتضحية والتدين وهو الشيخ المرحوم سلطان باشا الأطرش وسيمر بحث خاص عنه لاحقاً. وكان بعض العقال يزهدون في الدنيا، ويتركونها ويذهبون للخلوة بعيداً عن الناس خارج البلدة للتعبد والصلاة مثل الشيخ الفاضل رحمه الله، ومنهم من يمتنع عن أكل اللحوم ويقتصر على الخضار، ومنهم لا يتزوج مطلقاً، وللعقال

مجلس يجتمعون فيه ويقرؤون الكتب الدينية والحكمة الشريفة ورسائل الحدود صلوات الله عليهم، وتسمى هذه المجالس ((مجالس حمزة)) لأن من خلالها تم نشر الدعوة وتوضيح الدعوة للمستجيبين، وهي مقسومة إلى قسمين للرجال والنساء، وكل منهما مقسوم إلى قسمين (الجوانية والبرانية) بحسب مكانة رجل الدين وتدرجه في الإطلاع على كتب المذهب ورسائله وفهم فلسفته.

وللموحدين رئاسة دينية تسمى مشيخة العقل قد كان أسمها قبلاً مشيخة العقال وهو الأصح، وهذه الرئاسة الدينية ترجع إلى عهد الفاطميين وبدء الدعوة، وإسناد المهمة للدعاة بأخذ الميثاق على المستجيبين و تعليمهم أصول المذهب وفرائضه وأركانه. وفي لبنان أسند الأمر إلى الأمير أبي الفوارس معضاد يوسف التنوخي والأمير أبو الحسن وأبو العز ابني الخضر، والشيخ نصر بن فتوح في دمشق، والشيخ أبي رافع بن أبي الليل في حلب، وأبي الكتائب في مصر، وبعد تفرق الموحدين في مناطق انتشارهم اليوم أسندت الرئاسة إلى الشيخ بدر الدين العنداري في القرن التاسع الهجري.. ثم أسندت إلى الأمير عبد الله التنوخي واستمر حتى وفاته عام (1471 م) ثم انتخب شيخ العقال الشيخ زين الدين جبرائيل بن سليمان بن علم الدين بن حسين بن سليمان بن نصير أبي الفتوح من (معاصر الشوف) وبعد وفاته عام (1513 م) أسندت إلى الأمير سيف الدين أبي بكر التنوخي من (عبية) ثم إلى الشيخ أبي مرعي زهر الدين من (الفساقين) وخلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) كان الشيخ أبو زين الدين عبد الغفار تقي الدين من (بعقلين) وفي القرن السابع عشر الميلادي اشتهر الشيخ محمد أبو هلال الكوكباني (الشيخ الفاضل) والشيخ بدر الدين خال الأمير فخر الدين المعني الثاني.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي كان الشيخ أبو محمد ناصر الدين العبيد والشيخ أبو علي ناصيف أبو شقرا، والشيخ أبو زين الدين أبو يوسف أبو شقرا والشيخ علي جنبلاط، والشيخ إسماعيل أبو حمزة، والشيخ فخر الدين ورد، والشيخ حسن تقي الدين ورد، وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي اشتهر الشيخ حسين ماضي من (العبادية) والشيخ أحمد أمين الدين من (اعبية) والشيخ شرف الدين العظيمي من (بطمة) والشيخ يوسف الحلبي، والشيخ يوسف الصفدي، والشيخ يوسف بردويل من (رأس المتن) والشيخ عز الدين أبو رحال من (الفريديس) والشيخ ناصر الدين الدويك من (كفر نبرخ).

ثم تضاعف الانقسام بين الموحدين في عهد الأمير بشير الثاني وصارت مشيخة العقل مشتركة بالحزبية، فاصطلح على تولية المشيخة بآن واحد لشيخ ينتخبه اليزبكيون، وشيخ ينتخبه الجنبلاطيون. ففي سنة (1825) انتخب الشيخ حسين عبد الصمد من (عماطور) وفي سنة (1845) اختير الشيخ حسن طليع من (الجديدة) وفي سنة (1868) انتخب الشيخ محمد طليع من (بعقلين) وفي سنة (1905) انتخب الشيخ حسين حمادة من (بعقلين) والشيخ حسين طليع من (بعقلين) سنة (1916) وسنة (1956 م) انتخب الشيخ محمد عبد الصمد من (عماطور) والشيخ محمد أبو شقرا من (بعذران الشوف) عام (1949) وبعد وفاة الشيخ محمد عبد الصمد حصل خلاف وحسم بانتخاب الشيخ رشيد حمادة وتثبيته من رئيس الجمهورية. وفي عام (1962 م) صدر قانون ينظم كيفية انتخاب شيخ العقل وذلك بألا يكون له وظيفة أو مهنة حرة أو حرفة، ويتجاوز الأربعين من عمره، ويكون من أهل التقوى والدين والعلم والمعرفة بتقاليد الطائفة، ينتخب من قبل جميع الذكور من الموحدين الذين لهم حق الانتخاب، ويكون انتخابه لمدى الحياة ولا يكون إعفاؤه إلا لأسباب صحية تمنعه من متابعة شؤون الطائفة أو لأسباب خطيرة ناتجة عن سلوك قد يسيء إلى سمعة الطائفة وكرامتها وهذا لم يحصل حتى يومنا هذا، واستمر الشيخ محمد أبو شقرا حتى وفاته، وبعده سير الشيخ بهجت غيث أمور الطائفة بالوكالة، ثم انتخب وتم تثبيته بتهنئة رئيس الجمهورية اللبنانية، وهو ما يزال شيخ عقل الطائفة في لبنان حتى يومنا هذا. وأما عن الرئاسة الدينية في جبل العرب فقد رافقت استقرار الموحدين في الجبل، لأن قوة الرابطة الدينية المتغلغلة في النفوس والالتفاف حول المركز الديني جعل حمدان الحمدان الذي كان زعيماً سياسياً مطلقاً للجبل إبان استقرار الموحدين في الجبل جعلته يسند منصب مشيخة العقل لابن كاتبه إلى الشيخ إبراهيم الهجري من (قنوات) لاشتهاره بالتقوى والصلاح وغزارة العلوم الدينية، وأصبحت بلدة قنوات هي المرجع الدين لموحدي الجبل ومازالت حتى اليوم، وبعد وفاته تولى الرئاسة الدينية الشيخ سليمان جربوع، وبعده الشيخ أحمد جربوع الذي اشتهر في حرب إبراهيم باشا وعاصر الشيخ حسين الهجري الذي توفي أثناء عودته مع الهاربين من المنفى التركي عام (1899 م) وكان يشاركه في الرئاسة الدينية الشيخ وهبة جربوع وكان عالماً تقياً، والشيخ أبو علي الحناوي العالم المتدين والتقي الشجاع، وبعد وفاته عام (1884 م) تولى المشيخة ولده الشيخ خطار الحناوي وأصبحت المشيخة منذ ذلك الوقت وراثة في هذه الأسر الثلاث حتى يومنا هذا، فكلما توفي شيخ تولى مكانه الأصلح من أسرته. وفي مطلع القرن العشرين اشتهر بقوة نفوذه وتدينه وورعه الشيخ أحمد الهجري والشيخ

حسين جربوع، وبعد وفاته تولى الشيخ سعيد جربوع وبوفاته بعد فترة قصيرة من تسلمه أسندت للشيخ أحمد جربوع وكان يعاصره الشيخ علي الحناوي وبعده ولده الشيخ يحيى الحناوي وبعد وفاته تسلم الشيخ شبلي الحناوي الذي مازال حتى اليوم. وأما بعد وفاة الشيخ أحمد الهجري عام (1953 م)[353] انتخب الشيخ إبراهيم الهجري وبعد وفاته عام (1979 م) تسلم شقيقه سلمان الهجري وبوفاته تسلم الشيخ أحمد الهجري الشيخ الحالي.

Image

وبعد وفاة الشيخ أحمد جربوع عام (1956 م) تسلم ولده الشيخ حسين جربوع الشيخ الحالي. وللموحدين محكمة مذهبية عليا تقضي في قضاياهم الدينية، كان في عام (1972 م) يترأسها الشيخ حليم تقي الدين المجاز في الحقوق، وعضوية الشيخ سجيع الأعور والشيخ شفيق أبو الحسن وكلاهما مجاز في الحقوق. وغير هذه يوجد أربع محاكم مذهبية في لبنان ومحكمة في سوريا في السويداء وفي فلسطين يمكن أن يكون لهم محكمة مذهبية فالمعلومات غير واضحة.

وبالإضافة إلى الزعامة الدينية بمشيخة العقل، هناك الزعامة السياسية التي تبحث أمور الموحدين الدنيوية ومشاكلهم وحياتهم على الرغم من ضعفها أيامنا هذه فهي ما تزال إذا ما حدث أمر لها الدور البارز في حل المشكلات وغيرها من الأمور. ومن مستلزمات الزعامة حُسّن الضيافة وهي صفة الموحدين عامة وأكثر من اشتهر بحسن الضيافة في جبل العرب آل الأطرش، وآل جنبلاط في المختارة في شوف لبنان، ولا يقتصر حسن الضيافة على إكرام الضيف وإطعامه، بل تشمل حق اللجوء والحماية، وحماية المستجير التزام مقدس مهما كان الشخص المستجير، زعيماً أو شخصاً عادياً موحداً أو غير موحد، وقد كان أحد الأسباب التي جعلت الموحدين يقومون بثورتهم ضد فرنسا في جبل العرب بالإضافة إلى رفض الظلم والاحتلال والاستبداد وعشق الحرية والتخلص من الاستعمار، كانت حادثة أدهم خنجر الذي احتمى بسلطان الأطرش، لكن فرنسا اعتدت عليه فكانت الشرارة الأولى لاندلاع الثورة السورية بقيادة المرحوم سلطان الأطرش. ويمتاز الموحدون عامة بأنهم أصحاب كرامة وعزة نفس وأخلاق عالية وتهذيب واحتشام في السلوك والكلام وتودد للغرباء، وصلة الرحم ومساعدة الأهل والأقرباء، يبتعدون عن القتل والسرقة والجريمة وهي مسألة

تشهد لهم فيه قوى الأمن المتواجدة حيث أن حوادث القتل والجرائم تكاد تنعدم بينهم، إلا من بعض من تأثرت عقولهم بمجتمعات الغرب، فلا أقول أن المجتمع الموحدي هو المدينة الفاضلة التي رسمها الفلاسفة القدماء، لا، ولكن هذا المجتمع يكاد يكون رمزاً للتماسك والتعاضد والتعاون والمعافاة من أمراض المجتمع الكثيرة. يقول بطرس البستاني عن الموحدين :

((إنهم يمارسون ضبط النفس والعفة، وصدق اللسان، ويتجنبون السفه والبذاءة ويرفضون المال الحرام)). وهم على جانب من التسامح حتى مع من يخالفهم بمعتقدهم، ومعظم عاداتهم عربية إسلامية. يقول الأمير شكيب أرسلان ((... الموحدون فرقة من الفرق الإسلامية يقيمون جميع شعائر المسلمين ويتصفون بمرافقة الإسلام والمسلمين في السراء والضراء، وهم لا يلقون السلام على الغير فقط، بل يلقون السلام ويقولون أنهم مسلمون ويحفظون القرآن ويلقن ملقنهم الميت : (إذا جاء منكر ونكير وسألاك ما دينك، وما نبيك وما كتابك وما قبلتك ؟ فقل لهما : الإسلام ديني ومحمد نبيي والقرآن كتابي، والكعبة قبلتي والمسلمون إخوتي)، وليس من شعائر الإسلام شيء إلا ويوجب إقامته الموحدون)) وكتب الشاعر المسيحي بشارة الخوري يقول : ((إن الطائفة الدرزية التي اشتهرت بالمروءة والبسالة والعفة يجب أن يكون لها المقام الأول الذي تستحقه فضائلها، إن الطائفة التي سبقت أشد الأمم تمدناً ففرض دينها العلم على أبنائها ذكوراً وإناثاً، وأمر بإبطال الاسترقاق وتساوي المرأة والرجل في الحقوق وجب أن يكون لها مقام في الطوائف السورية، لاسيما أنها لا تعرف سوى سورية وطناً، ولا تعبد غيره وطناً.. فالموحدون حصروا حبهم بسورية ولبنان وعشقوا الحرية ولم يبيتوا على ضيم...)) والضيافة تقليد عربي يقوم به الموحدون أينما وجُدوا، مع وجود بعض الاختلاف عند اللبنانيون فرضته عليهم المدنية الغربية، ومع ذلك فإن مظاهر الضيافة في جبل العرب والإقليم (قرى حلب و إدلب) ووادي التيم (جبل الشيخ) وقرى الغوطة هي أقرب إلى الأصل العربي، في معظم المنازل تخصص أجمل غرفة وأكبرها لتكون (مضافة) لاستقبال الضيوف وعلى صاحبها تجهيز القهوة العربية يومياً لتقديمها لكل زائر قريب أو غريب، وهذه المضافات تكون أشبه بنواد يتداول المجتمعون فيها الحوادث وأخبار المعارك، ويقدم للضيف الطعام ويحاط بالتكريم والحفاوة، يقول الكاتب الإنكليزي (نمري) ((إن حسن الضيافة عندهم للغرباء وضيافة بعضهم لبعض هي مضرب الأمثال في أرجاء الشرق ومن يتاح له زيارتهم ولو لمرة واحدة لا يستطيع نكران أنسهم ولطفهم وشهامتهم)).

وقد تجلى مدى حبهم للضيف صغيراً كان أم كبيراً في استقبالهم لطلائع البعث أثناء المهرجان الثامن الذي أقيم في نيسان (1982 م) في السويداء واستضافة الأطفال مع مشرفيهم في منازلهم ورفضهم أن يذهبوا إلى معسكرات الطلائع وفتح بيوتهم لهم وإكرامهم وما لم يفعله أحد من قبل في المهرجانات السابقة، وقد غدت هذه المكرمة من سنة المهرجان تسير عليه باقي المحافظات.

وهم عندما يستقبلون ضيفاً أو يتقابل صديق مع صديق بعد فراق يكون السلام بالمصافحة ويزداد بالمعانقة والتقبيل، أما رجال الدين فسلامهم تقبيل الأيدي. والمصافحة تقليد يمني، وبني معروف ينحدرون من قبائل عربية نزحت من اليمن، ويذكر التاريخ قول الرسول الكريم لأصحابه عند قدوم أهل اليمن إلى المدينة : ((قد جاءكم أهل اليمن، وهم أول من جاء بالمصافحة))، وقال أيضاً : ((ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا)). وعن بطولات الموحدين في معاركهم ضد الأعداء يذكر الشيخ نجيب أبو خيال في قصيدة طويلة منها هذه الأبيات :

فقَوْمي بنو معروفٍ أحفادُ يعربٍ　　هم الجنُّ في الهيجا وفي السلمِ رُكَّعُ

سلاحهُمُ الإيمانُ إن جَدَّ جدُّهُمُ　　ولم يبقَ للغازي المباغتِ مَطْمَعُ

فكم مُرْضعٍ في الهَوْلِ عافَتْ وليدَها　　وكمْ من شهيدٍ بالحِدَا الأهلُ شيّعُوا

وهذا الأستاذ مارون عبود مدير الجامعة الوطنية في عالية يشيد بالموحدين (الدروز) ويصف بطولاتهم بقصيدة طويلة مطلعها :

قالوا الـدروز فقلتُ جيلٌ معرقُ　　(العقلُ) دينٌ والوفاءُ (الموثقُ)

و (الصدقُ) شَرْعتُهم فإنْ عاهدتهم　　برّوا وإن نطقوا بأمرٍ يصدُقوا[354]

1 _ الأسرة و المرأة في مجتمع الموحدين

إحدى أول لبنات المجتمع وأهمها هي الأسرة، وبها يرتبط صلاحه أو فساده، إن صحت صلح، وإن فسدت فسد وتشتت، وسلامة الأسرة مرتبطة بضمان وحدتها وتماسكها وحسن اختيار كل من الزوجين للآخر، وتربية الأولاد تربية سليمة تدفع بالأسرة نحو التماسك والتعاضد، والاقتصار على زوجة واحدة يجعل الأشقاء متحابين متضامنين أكثر مما لو كانوا أخوة من أكثر من أم. بالإضافة إلى التعاون بين الزوجين على ظروف الحياة الصعبة وأداء كل واحد منهما لواجبه اتجاه الآخر، فالزوج ينتظر من زوجته الطاعة فيما لا معصية فيه للخالق، والأمانة والإخلاص، وحسن المعاشرة والاحترام والثقة، والزوجة تنتظر من زوجها الأمانة وحسن المعاشرة والإخلاص والثقة والاحترام والمودة والبر والإنفاق. والحياة الزوجية هي حياة اجتماعية ولا بد لكل اجتماع من رئيس لأن المجتمعين لابد وأن تختلف آراؤهم ورغباتهم، والرجل أحق بالرئاسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوله وماله. فهو يتزوج امرأة يتكفل إعالتها وإعالة أبنائها، والزوجة تواجه تكاليف الأمومة ورعاية البيت وليس لأن الرجل أذكى من المرأة، لا، بل لأن تكوين كل منهما الجسماني فرض هذا التوزيع للمهام، وقد جاء بالحديث الشريف : ((ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، و المرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم)).

وهذا ما تشعر به المرأة ظاهراً وخفياً وتسعى في سبيل تحقيقه. وهذا لا يعني أن تجلس المرأة في بيتها تعمل وتنتظر زوجها حتى يعود بل يمكنها ان تعمل في أي مجال تقدر عليه على أن توفق بين عملها الأساسي كربة منزل، وراعية للأطفال، وعملها خارج المنزل، وقد يكون لمساهمتها في المصروف دور كبير في تحسين أوضاع الأسرة وراحتها المادية. ومذهب التوحيد يوصي بالمرأة خيراً، ومن هي المرأة بالأساس، إلا أن تكون أماً تحمل الإنسان جنيناً وترعاه صغيراً،

أو زوجة ترعى شؤون البيت وتوفر الراحة لزوج متعب من أعباء الحياة، أو أختاً تهتم وتساعد أو بنتاً تكبر تحت رعاية والديها، لذلك ارتبط منذ القديم مفهوم الشرف والعرض بالمرأة، وقد يموت المرء على أن يبقى عرضه وشرفه مصوناً، و المرأة الموحدة تمتعت منذ القديم حتى الآن بالحياء والعفة والعطف والحنان والطهارة والمحافظة على شرفها، وتعاليم المذهب تشدد بالمحافظة على الأخلاق والحشمة وتحذر من الفواحش والأهواء. وهناك أربع رسائل من كبير الحدود حمزة (س) وبهاء الدين (س) خصصت للمرأة، منها اثنتان للنساء واثنتان للبنات، وتتعلق الرسالة الخامسة والعشرون بالزواج، وهي موجهة من الإمام حمزة (س)، وقد شرحها الأمير السيد عبد الله وعنوانها (شرط الإمام) وتتحدث عن أن الزواج لا يتم إلا بموافقة الزوج والزوجة، بدون إكراه، وتعتبر طاعة الرجل واجبة على المرأة. يقول الأمير السيد ((على قدر المحبة تكون الطاعة)) ويقول أيضاً ((الدين ورصانة العقول، وقوة الحياء، وخفة المهر، وحسن الخلق والنسب)). وقال النبي الكريم (ﷺ) : ((إياكم وخضراء الدمن)) وتعني المرأة الحسناء في منبت السوء، فإن العرق نزاع. يجب أن تكون المرأة غير منانة تمن على زوجها بما تفعله، ولا حداقة تنظر إلى كل ما حولها تريد شراؤه، ولا براقة تهتم بالمظاهر والبهارج، ولا شداقة كثيرة الكلام.

ومن صفات المرأة الموحدة _ ويبقى لكل قاعدة شواذها _ أن تكون خفية الصوت، كثيرة الصمت، لينة الجنان، عفيفة اللسان، ظاهرة الحياء، خالية من المكر، كثيرة الشكر، لها قناعة بالعفاف وإيثار بالكفاف ورحمة بالأهل والزوج، تكون مع زوجها على ظروف الحياة الصعبة، ولا تكون مع الزمان عليه.

ومنذ بدء الدعوة برزت (الست سارة) ابنة شقيق بهاء الدين (س) فترأست الوفود إلى زعماء القرامطة في البحرين، وإلى وادي التيم، وكما كان للست (نسب) والدة الأمير فخر الدين المعني الثاني زوجة الأمير قرقماز دور في حكم الموحدين، والست (حبوس) أرسلان التي حكمت منطقة الغرب وسهل بيروت خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر وهي التي بنت خلوات البياضة. وكذلك زوجة الشيخ بشير جنبلاط وابنته نايفة كان لهما دور كبير في مجرى الأحداث ففي سنة (1860 م) ذهبت لقلعة حاصبيا تحت وابل النيران وأخرجت نساء المسيحيين وحمتهن في منزلها. وكذلك الست (نظيرة جنبلاط) التي تولت الزعامة بعد وفاة زوجها سنة (1921 م) وكان ابنها كمال طفلاً آنذاك.

وقد كانت المرأة الموحدة سابقاً إلى جانب عملها كربة منزل، ترعى شؤون الأطفال والبيت، كانت تساعد زوجها في أعمال الأرض من زراعة وحصاد، وكانت تشارك في المعارك التي خاضوها ضد الأعداء بتأمين الطعام للثوار ومساعدة الجرحى ومنهن من استشهدن ومنهن من فقدن أزواجهن وأولادهن معاً وتذرعن بالصبر. وكانت المرأة سابقاً أمية لا تعرف القراءة والكتابة بسبب صعوبة الظروف التي كان الموحدون يعيشونها إذ أن التعليم كان محصوراً بأبناء الأغنياء فقط فما بالك بالمرأة، والفقيرة بالذات. على أنه بالرغم من جهلها فقد كانت تتعلم صلوات المذهب وفروضه وتحفظ الكثير من رسائله غيباً وخاصة ميثاق النساء، مما يدل على قدرات كبيرة، وذاكرة عظيمة، وتعليم المرأة لأصول دينها أمر منصوص عليه في ميثاق النساء الذي أمر به كبير الحدود حمزة بن علي (س). وأما نساء الموحدين اليوم فقد سرن في ركب الحضارة والعلم إلى جانب حفاظهن على تقاليد المذهب وأصوله، فنجد بينهن اليوم الطبيبات والممرضات والمحاميات والكاتبات والمعلمات، ومنهن من اشتغلن بالسياسة والإدارة والتنظيم الاجتماعي والتربية والتعليم العالي، وقلما نجد مجالاً من مجالات الحياة إلا ونجد فيه المرأة جنباً إلى جنب مع الرجل وهذا يعطي صورة مشرقة عن واقع المرأة الموحدة وتحررها وحصولها على المساواة مع الرجل بالإضافة لتقيدها بفروض المذهب.

2 _ الزواج عند الموحدين :

أول ما يعترضنا في بحث هذا الموضوع، هو عدم تزاوج الموحدين سابقاً إلا فيما بينهم، وهذا أمر كان يحرص عليه الجميع، ومن تجرأ وخالف هذا الشيء فقد كان جلب عليه وأسرته العار والقطيعة، وعلى أبنائه وبناته من بعده فالموحدين كانوا يعرضون عن الزواج ممن كانت أمه غير موحدة وإن خفت حدة هذا الأمر هذه الأيام نتيجة التطور والوعي وازدياد الثقافة رغم وجود بقايا من هذه العادات حتى الوقت الحالي. والزواج عند الموحدين له شروط يجب توافرها بالراغبين فيه : فالشاب يجب أن يبلغ الثامنة عشر من عمره، والفتاة يجب أن تبلغ السادسة عشرة وإن تم الزواج قبل هذا العمر فلا يتم تسجيله بالمحكمة المذهبية حتى يكتمل فيه هذا الشرط، ولا يجوز زواج المعتوه والمجنون ولا المريض بالأمراض السارية كالجذام والزهري وما شابهما كالإيدز المنتشر في عصرنا والبعيد كل البعد عن مجتمعنا بسبب الأخلاق التي يربي الموحدون أولادهم عليها. وتعدد الزوجات في المذهب التوحيدي ممنوع منعاً باتاً لاجتهاد فيه ولا جدال، عملاً بالآية الكريمة ((.....فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً..))[355] وقوله تعالى : ((وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ...))[356] وعملاً بوصية المعز لدين الله الفاطمي إلى رؤساء قبيلة كتامة، ولذلك قرر المذهب وأمر مستجيبيه باكتفاء الرجل بزوجة واحدة، وهذا النظام المعمول به منذ آلف سنة، صادق عليه علم الاجتماع الحاضر واعترف العالم المتمدن بأنه أفضل الطرق لسعادة الإنسان والعائلة وصيانتها من الشقاق والخلاف والشواذ، وأصبح سنة اجتماعية يتقيد بها كبار النفوس وتحترمها الأمم الراقية وتقاصص من يخالفها بأشد القصاص، ويسبق مرحلة الزواج الخطبة وفيها لا يجوز للخاطب أن يخلو بمخطوبته وهو بالنسبة إليها كغيره من الأجانب، لأن الخطبة وعد بالزواج وليست بزواج، والزواج هو عقد مبني على التفاهم المتبادل بين الرجل و المرأة وشرطه الإيجاب والقبول،

وكله مودة ومحبة وحنان، قال تعالى في كتابه العزيز ((.. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة)). وعلى الزوجين تربية أولادهما بما يحقق لهم التوازن النفسي في مجتمع صالح رشيد، ومتى تم الزواج أمسى ميثاقاً غليظاً ليس الفكاك منه أمراً ميسوراً لذلك على طالبي الزواج أن يقدم كل منهما شاهدين عادلين يشهدان أن لا شيء يمنع زواجهما حسب الشريعة الغراء، وإثبات ذلك بأوراق رسمية من المراجع التي تخصص لذلك، تضاف إلى عقد الزواج[357] وتحفظ لدى المحكمة.

ومن طلق زوجته حرم عليه أن يتزوجها ثانية، ولو ترملت أو طلقت من غيره. ويحرم المذهب الزواج بذوات الرحم كالأم والأخت والعمة والخالة كما يحرم كل ما حرمه الإسلام في الزواج وأمور الحياة[358] وجاء في قانون الأحوال الشخصية وتعديلاته الصادرة في عام (1975 م) في 31 / 12 منه،

وفي المادة (307)، الفقرات أ . ب . ج . ء :

أ _ يتثبت القاضي من أهلية العاقدين وصحة الزواج قبل العقد.

ب _ لا يجوز تعدد الزوجات.

ج _ لا تسري أحكام اللعان والرضاع على أفراد الطائفة.

ء _ إذا تزوج شخص بنتاً على أنها بكر، ثم ظهر أنها ثيب فإن كان عالماً بذلك قبل دخوله فليس له حق المطالبة بشيء من المهر أو الجهاز، وإن لم يعلم بذلك إلا بعد الدخول، فله حق استرجاع نصف المهر إذا أراد إبقائها في عصمته، وله حق استرجاع كامل المهر والجهاز إن ثبت إن فض البكارة كان الزنا وأراد تطليقها. وإذا ادعى الزوج كذباً أنه وجد زوجته ثيباً وطلبت التفريق منه كان لها أن تستبقي ما قبضته من مهر وجهاز..)) وفيما يتعلق بعقد الزواج فهذه بعض المواد الواردة في قانون الأحوال الشخصية : المادة 14 : _ يتم عقد الزواج بالإيجاب والقبول من الفريقين في مجلس العقد بحضور شهود ويجوز أن يكون الشهود من أصول وفروع الخاطب والمخطوبة ويجب أن يكون العقد كتابة ويوقعه الزوجان وشهودهما.

المادة 15 : الإيجاب والقبول في الزواج يكونان بالألفاظ الصريحة وكذلك في الخطبة وإشارة الأخرس تقوم مقام العبارة.

المادة 16 : لا يكون عقد الزواج صحيحاً إلا إذا أجراه أحد شيوخ العقل أو قاضي المذهب.

المادة 17 : يعين أحد شيوخ العقل أو قاضي المذهب مأذوناً أو أكثر لإجراء عقد الزواج.

المادة 18 : بعد أن ينظم المأذون العقد يرسله إلى أحد شيوخ العقل أو قاضي المذهب لأجل المصادقة عليه وتسجيله

وفي أحكام الزواج جاء ما يلي :

المادة 20 : يلزم مهر الزوجة ونفقتها الزوج منذ إجراء العقد الصحيح.

المادة 21 : ليس للزوجة حق المطالبة بالمؤجل من المهر قبل حدوث أحد الأجلين، الطلاق، الوفاة.

المادة 22 : تجبر الزوجة بعد استيفاء المهر المعجل وإجراء عقد الزواج الشرعي على الإقامة في بيت زوجها.

3 _ الطلاق عند الموحدين :

الطلاق ضرورة اجتماعية شغلت عقول المفكرين والمصلحين الاجتماعيين في كل زمان وعصر، وعند كل الأمم، لما يرافقه من تمزيق للمجتمع، وتفكيك للأسرة نواته الأولى، وضياع للأولاد وتشردهم، لذلك هو آخر الحلول لمشكلات الزواج، وأبغضها مع أنه محلل إذا استحالت الحياة بين الزوجين. لذلك نجد أن الطلاق عند الموحدين له قوانينه وأنظمته الشرعية فلا يجوز إلا بعد إرسال الحكمين اللذين أشار إليهما القرآن الكريم بقوله

((وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)). (سورة النساء _ الآية 35).

ولا يجوز الطلاق ما لم يقترن بحكم شرعي من قاضي المذهب، وهذا الحكم الخطير لا يصدر إلا بعد درس دقيق ومحاولات كثيرة لإصلاح ذات البين، لأن المطلقة لا يحق لها أن تعود إلى زوجها المطلق أبداً لا بمجرم ولا بغيره كما يصح عند باقي الفرق الإسلامية، ويمكن للزوج أن يعيد مطلقته قبل انقضاء فترة العدة إلى عصمته ومدتها أربع أشهر، أما بعد انقضائها قلا يمكن العودة مطلقاً، وإذا ظهر بعد الدراسة والتحقيق أن القصور والإصرار في طلب الطلاق من جهة الزوج، يفرق القاضي بين الزوج والزوجة، ويحكم للزوجة بالمهر المؤجل والتعويض لها عن العطل والضرر والنفقة، وإذا كانت الزوجة هي طالبة الطلاق وكان القصور والضرر من جهة الزوجة يحكم القاضي للزوجة بالمهر المؤجل ولا يحكم لها بالنفقة. جاء في قانون الأحوال الشخصية في :

المادة (307) الفقرة : (هـ : إذا حكم على الزوجة بالزنا فللزوج تطليقها واسترجاع ما دفعه من مهر وما بقي من جهاز، إذا حكم على الزوج بالزنا فللزوجة طلب التفريق وأخذ كامل مهرها

المؤجل. و _ ولا يقع الطلاق إلا بحكم القاضي وبتقرير منه. ز _ لا يجوز عودة المطلقة إلى عصمة مطلقها.)

والموحدون يعظمون الحديث الشريف : قال رسول الله (ﷺ) ((أبغض الحلال عند الله الطلاق)) ويتمسكون به لدرجة لأنهم لا يقرون المطلق على الأسباب التي يظهرها إذا لم تكن الأسباب الشرعية الموجبة للطلاق. والمطلق يخسر مكانته الاجتماعية بينهم، وإن كان المطلق من رجال الدين (جويد) فإن الأجاويد يقاصصونه بإبعاده عن مجالسهم و مجتمعاتهم الدينية، فالطلاق مكروه عند الله ورسوله وأوليائه والمؤمنين وإن كان حلاً في بعض الحالات نهائياً.

4 _ بعض الأحكام القانونية :

أ _ **العدة** : هي مدة حددها الشرع تقضيها المرأة بعد الطلاق، أو وفاة زوجها، ليحق لها الزواج وعنها جاء في قانون الأحوال الشخصية[359] :

المادة 50 : مدة العدة أربعة أشهر تبدأ من تاريخ الطلاق أو التفريق أو وفاة الزوج، وعدة الحامل تنتهي بالوضع أو بسقوط الجنين.

المادة 51 : لا تلزم العدة إذا وقع الطلاق أو الفسخ قبل الاجتماع و المقاربة.

المادة 52 : تبدأ العدة من تاريخ وقوع الطلاق أو الفسخ أو وفاة الزوج وإن لم تطلع الزوجة على الوفاة.

المادة 53 : تجب نفقة العدة للمرأة المطلقة على زوجها، ولا تجب للمرأة التي توفي زوجها سواء أكانت حاملاً أم غير حامل.

ب _ **النفقة** : وهي ما يفرض للزوجة على زوجها من مال للطعام والكساء والسكنى والحضانة ... وعنها ورد في قانون الأحوال الشخصية :

المادة 28 : النفقة هي كل ما ينفقه الإنسان على عياله وزوجته، ويشمل الطعام والكسوة والسكنى والتطبيب وخدمة الزوجة ذات الكرامة أو العاجزة أو المريضة، وهي _ النفقة _ لازمة الأداء بتراضي الفريقين.

المادة 29 : بعد تقدير النفقة يجوز زيادتها أو إنقاصها بحسب تغير الأثمان أو تبدل حال الزوجين يسراً وعسراً.

المادة 30 : إذا امتنع الزوج الحاضر عن الإنفاق على زوجته، وطلبت الزوجة النفقة، فالقاضي يقدر النفقة اعتباراً من يوم الطلب وحسب حال الفريقين.

المادة 31 : إذا عجز الزوج عن الإنفاق على زوجته، وطلبت الزوجة النفقة فالقاضي يقدر النفقة اعتباراً من يوم الطلب.

المادة 32 : إذا ترك الزوج زوجته بلا نفقة، واختفى أو تغيب، بذهابه لمحل بعيد أو فقد، فالقاضي يقدر النفقة اعتباراً من يوم الطلب بعد تقيم البينة على كونه مفقوداً.

المادة 36 : إذا تركت الزوجة بيت زوجها بدون سبب مشروع أو كانت في بيتها ومنعت زوجها من الدخول إليه قبل طلب نقلها لبيت آخر تسقط نفقتها مدة دوام هذا النشوز. وفيما يخص النفقة الواجبة للأبناء على الآباء، فتجب على الأب لولده الصغير الفقير سواءً أكان ذكراً أم أنثى إلى أن يبلغ حد الكسب وتتزوج الأنثى، وتجب للولد الكبير الفقير العاجز عن الكسب لعاهة تمنعه من الكسب. ويتوجب على الأم قبل سائر الأقارب الإنفاق على ولدها في حال عسر أبيه، ولا تجب على الأب نفقة زوجة ابنه الصغير الفقير إلا إذا ضمنها، وإنما يؤمر بالإنفاق عليها ويكون ديناً له يرجع به على ابنه إذا أيسر. وبالنسبة للنفقة الواجبة للأبوين على الأبناء وذوي الأرحام فقد جاء :

المادة 75 : تجب على الولد الموسر كبيراً كان أم صغيراً، ذكراً أم أنثى نفقة والديه وأجداده وجداته الفقراء.

المادة 80 : تجب النفقة لكل ذي رحم محرم فقير على من يرثه من أقاربه الموسرين ولو صغير بقدر إرثه منه..)).

ج ـ الحضانة : وتعني الولاية على الطفل لتربيته وتدبير شؤونه وعنها ورد في قانون الأحوال الشخصية :

المادة 54 : الأم أحق بحضانة الولد وتربيته حال قيام الزوجية وبعد الفرقة إذا اجتمعت فيها الأهلية المطلوبة.

المادة 55 : يشترط في الحاضنة أن تكون بالغة عاقلة أمينة صحيحة الجسم قادرة على تربية الولد وصيانته وألا تكون متزوجة بغير محرم للصغير، ولا فرق في ذلك بين الأم وغيرها من الحاضنات

المادة 56 : إذا تزوجت الحاضنة سقط حقها في الحضانة، وانتقل إلى من يليها في الاستحقاق من الحاضنات.

المادة 57 : حق الحضانة يستفاد من قبل الأم، فإذا ماتت الأم أو تزوجت بقريب، أو لم تكن أهلاً للحضانة ينتقل حقها إلى أمها فإن لم تكن، أو كانت ليست أهلاً للحضانة تنتقل إلى أم الأب.

المادة 58 : إذا فقدت المحارم من النساء أو وجدت ولم تكن أهلاً للحضانة تنتقل للعصبات بترتيب الإرث فيقوم الأب ثم الجد ثم الأخ الشقيق ثم الأخ لأب، ثم بنو الأخ الشقيق، ثم بنو الأخ لأب، ثم العم الشقيق، ثم العم لأب. فإذا تساوى المستحقون للحضانة يقدم أصلحهم ثم أكبرهم.

المادة 64 : تنتهي مدة حضانة الصبي عند إتمامه السنة السابعة من العمر، وتنتهي مدة الحضانة للصبية عند إتمامها السنة التاسعة ...))

د _ الولاية : جاء عن الولاية في قانون الأحوال الشخصية : ((المادة 81 : للأب ولو مستور الحال الولاية على أولاده الصغار والكبار غير المكلفين ذكوراً وإناثاً في النفس والمال ولو كان الصغار في حضانة الأم أو أقاربها.

المادة 82 : إذا بلغ الولد معتوهاً أو مجنوناً تستمر ولاية أبيه عليه في النفس والمال، وإذا بلغ وهو عاقل ثم جن أو عُتِهْ عادت عليه ولاية أبيه بحكم القاضي.

المادة 83 : إذا كان الأب عدلاً محمود السيرة، أو مستور الحال أميناً على حفظ المال، فله التصرف والتجارة بالمعروف.

المادة 85 : إذا كان الأب فاسد الرأي، سيئ التدبير محكوماً جزائياً بعقوبة تمنعه لفترة طويلة من القيام بأعباء الولاية، فلا يجوز له بيع مال الصغير وإن كان فيه نفع الصغير إلا بإذن من القاضي.

المادة 86 : إذا كان الأب مبذراً متلفاً مال ولده، غير آمن على حفظه فللقاضي أن ينصب وصياً وينزع المال من يد أبيه ويسلمه إلى الوصي ليحفظه.

المادة 87 : لا يجوز للأب شراء مال ولده لنفسه، ولا يبيع ماله لولده ولا رهن ماله من ولده أو ارتهان مال ولده من نفسه، ولا إقراض مال ولده أو اقتراضه إلا بإذن القاضي بذلك.))

هـ ـ الوصاية : الوصي هو الشخص الذي أقامه ليتصرف في تركته بعد وفاته، أو أقامه القاضي إذا كانت هناك داعية إليه، فالوصي نوعان : وصي مختار يعينه الموصي حال حياته، ووصي منصوب يعينه القاضي. وعن الوصاية جاء ما يلي : ((

المادة 89 : من أوصي إليه فقبل الوصاية في حياة الموصي لزمته وليس له الخروج عنها بعد موت الموصي إلا لأسباب موجبة يقرها القاضي.

المادة 90 : من أوصي إليه بغير علمه فله الخيار بعد موت الموصي إن شاء قبل الوصاية وإن شاء ردها، وعليه في حال الرد أن يعلم القاضي.

المادة 91 : تجوز الوصاية إلى الزوجة والأم وغيرهما من النساء وإلى أحد الورثة، ويجوز جعل الأم أو غيرها مشرفة مع وجود الموصي.

المادة 92 : يشترط في الوصي المختار أن يكون قد أتم الثامنة عشرة وفي المنصوب يشترط أن يكون قد أتم الحادية والعشرين من عمره. ويجب أن يكون الاثنان عاقلين، أمينين، حسني التصرف، حائزي جميع الحقوق المدنية.

المادة 95 : للقاضي عزل الوصي في حال ثبتت لديه خيانته.

المادة 96 : يعتبر قاصراً من لم يتم الثامنة عشرة من العمر، ذكراً أم أنثى وينصب عليه وصي إن لم يكن له ولي أو وصي مختار.

و _ النسب : وفي نسبة الولد لأبيه أو عدمها مواد هامة حددها قانون الأحوال الشخصية لطائفة الموحدين ووضحها بدقة متناهية لما في هذا الموضوع من أهمية وخاصة وأن الإنسان يعتز بنسبه وقد يثور أو يرتكب جريمة إذا ما شكك بنسبه وفيه جاء :

المادة 137 : أقل مدة للحمل مائة وثمانون يوماً وأكثرها ثلاثمائة يوم.

المادة 138 : إذا ولدت الزوجة في حال قيام الزواج الصحيح ولداً لتمام مائة وثمانين يوماً فصاعداً من حين عقده، ثبت نسبه من الزوج، وإن جاءت لأقل من مائة وثمانين يوماً منذ تزوجها فلا يثبت نسبه منه إلا إذا أقر بصراحة أو دلالة.

المادة 139 : إذا نفى الزوج الولد المولود لتمام مائة وثمانين يوماً من عقد الزواج، فلا ينتفي إلا إذا نفاه في غضون شهر من تاريخ الولادة إذا كان حاضراً، ومن تاريخ علمه بالولادة إذا كان غائباً

المادة 140 : لا ينتفي نسب الولد في الحالات التالية :

1 _ إذا نفاه الزوج بعد مضي الوقت المبين في المادة السابقة.

2 _ إذا نفاه بعد الإقرار به صراحة أو دلالة.

3 _ إذا نزل الولد ميتاً ثم نفاه.

4 _ إذا نفاه بعد الحكم بثبوت نسبه شرعاً.

ز _ الوصية والإرث : الوصية عند الموحدين لها قوانينها الخاصة، وأنظمتها السامية الدالة على التسامح الخلقي الاجتماعي الذي اشتهروا به، حيث يحق للموحد أن يوصي ما أنتجه بيده وتعبه ولا ما ورثه إلى من أراد، حتى ولو كان الموصى له غير موحد، وبالفعل فقد أوصى بعض الموحدين إلى غير الموحدين ونفذت المحاكم المذهبية تلك الوصايا، وأعطت أملاكاً وأرزاقاً لغير

الموحدين حسب وصية الموصي. لأن المذهب التوحيدي لا يفرق بين الناس، بل يقول بتوحيد الله تعالى، ووحده أنبيائه، ووحدة الأديان، ووحدة الإنسانية والبشر، وهذه العقيدة الجامعة هي من مفاخر المذهب وفلسفته العقلية التي كتمها، وكان من حقها أن تعلن، فالحق لا يجب أن يخفى. وقد جاء في بعض مواد قانون الأحوال الشخصية ما يلي :

المادة 145 : الوصية تمليك مضاف إلى بعد الموت بطريق التبرع.

المادة 146 : يشترط في صحة الوصية كون الموصي بالغاً عاقلاً مختاراً أهلاً للتبرع، والموصي له قابلاً للتمليك بعد موت الموصي.

المادة 147 : لا تنفذ الوصية إذا كانت تركة الموصي مستغرقة بالدين إلا إذا أبراه الغرماء أو أجازوا الوصية.

المادة 148 : تصح الوصية بكل التركة أو ببعضها، لوارث أو لغير وارث.

المادة 149 : يحرم الموصي له مما أوصي له إذا أقدم على قتل الموصي عمداً أو قصداً.

المادة 150 : تجوز الوصية في جميع سبل الخير.

المادة 151 : اختلاف الدين والملة لا يمنع صحة الوصية.

المادة 155 : إذا توفي أحد الموصي لهم قبل الموصي ولم يعدل وصيته قبل وفاته، فإن كان للموصى له المتوفى وارث يعود نصيبه لورثته حسب الفريضة.

المادة 168 : في حال الوفاة عن غير وصية إو في حال بطلان الوصية توزع التركة بحسب الفريضة الشرعية.)).

ح ـ الحجر : ويعني منع المالك من التصرف بما يملك لصغر، أو سفه، أو جنون. وهو عند الموحدين مثله عند باقي طوائف الإسلام خاضع للشرع والفريضة الإسلامية، وجاء عنه في قانون الأحوال :

المادة 119 : يحجر القاضي على المجنون والمعتوه والسفيه، وذي الغفلة ويقيم عليه أوصياء بعد أن يتحقق من ذلك بالشهادة والتقارير الطبية

المادة 120 : إذا حجر القاضي على من ذكر يعلن للناس سبب الحجر.

المادة 121 : يشترط حضور الشخص المطلوب الحجر عليه أمام القاضي وإذا تعذر ذلك فعلى القاضي أن ينتقل لاستماعه عند الاقتضاء.

المادة 122 : لا تعتبر تصرفات المجنون قبل الحجر وبعده، وإنما تصح تصرفاته قبل الحجر في حالة إفاقته.

المادة 125 : لا تسلم إلى المجنون أو المعتوه أو السفيه أو ذوي الغفلة أمواله بعد زوال الحجر إلا بحكم من القاضي يفيد زوال هذا السبب.

ط _ المفقود والقيم عنه : المفقود هو الذي لا يدرى مكانه ولا تعلم حياته ولا مماته، وإذا ترك هذا الشخص المفقود وكيلاً عنه قبل غيابه لحفظ أمواله وإدارة مصالحه فلا ينعزل وكيله بفقده إلا إذا أظهرت خيانته أو تقصيره، ولا تنزع ورثة المال من يده، وليس للوكيل تعمير عقارات المفقود إذا احتاجت إلى تعمير إلا بإذن القاضي. وقد جاء في قانون الأحوال الشخصية :

المادة 133 : على القيم أن يقدم في نهاية كل سنة حساباً إلى القاضي بدخل المفقود وخرجه، وإذا امتنع بعد إنذاره يعد مقصراً ويعزل.

المادة 134 : يحكم القاضي بموت المفقود الذي يغلب عليه الهلاك بعد انقضاء عشر سنوات من تاريخ فقده.

المادة 136 : إذا عاد المفقود أو تبين أنه لا يزال حياً بعد الحكم بموته فإن الباقي من ماله في أيدي ورثته يسترد عيناً وما ذهب منه يطالب بثمنه.

5 _ التربية عند الموحدين :

يشدد الموحدون على التربية والتهذيب ومكارم الأخلاق، فلا يلفظون الكلام البذيء، ولا يسمحون بسماعه، وإن وجد بينهم غير ذلك فهذا شواذ، والشواذ موجود في كل مكان، ويهتم الموحدون اهتماماً خاصاً بالدفاع عن العرض والشرف والوطن وكل ما يحافظ على التقاليد التي اشتهروا بها، كالصدق والأمانة والشجاعة والكرم وعزة النفس.، والأريحية وإجارة المستجير، وإغاثة الملهوف، ونصر المظلوم و العفو عند المقدرة، وجميع مكارم الأخلاق حتى ضربت في سجاياهم الأمثال وتغنى بمدحهم الشعراء، يقول الشاعر سعيد أبو الحسن رداً على قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي في وصف الموحدين وبطولاتهم[360] :

جَبَلٌ أشمُّ قال شوقي   لا يُضَـاهيه جَبَـلُ

مَا ضَـاره صِغرٌ وفي   أمجادِه ضُرِبَ المَثَلُ

وبلغ الموحدون المكانة العليا في تربية أولادهم، حتى صرنا كثيراً ما نسمع الناس يباهون بأن تربية الموحدين فكانوا يربون أولادهم تربية عسكرية _ ومع تغير الوقت تغيرت التربية _ ويلقنونهم أصول الحرب والفروسية والقتال، مع التغير قليلاً بالتربية حالياً فرضتها عليهم طبيعة الحياة وأنصارها بالمجتمع الذين هم فيه، وتغير مفهوم الحرب وأساليبها، وتحول الفروسية من وسيلة للقتال

ضرورية لكل مقاتل إلى مجرد رياضة، إذ لم تعد تجدي الفروسية في عصر الذرة والصاروخ كوسيلة حرب.

وقد اشتهر عن الموحدين في حروبهم أنهم لا يعتدون على عاجز أو شيخ، أو طفل أو امرأة، والجملة هم لا يعتدون أبداً، بل يحاربون من اعتدى عليهم، ويردون كيده إلى نحره. حاربوا الدولة العثمانية أبان عزها ومجدها الحربي ودحروا جيوشها في معارك عدة، وحروبهم معها كما وصفها رجال الحروب، كانت رمزاً للبطولة والشجاعة والتضحية، وحاربوا فرنسا المسلحة بأحدث السلاح العصري، وقهروا جيوشها أكثر من مرة، وكانت انتصاراتهم عليها الأساس لاستقلال سوريا ولبنان، وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية فتح الموحدون دورهم وقلوبهم ومضافاتهم لألوف من الناس دون تفريق في الدين والمذهب، وكان كبارهم يرحبون بكل قادم ومن أي جهة حتى غدوا مضرب الأمثال في الكرم والعفة، وحسن المعاملة التي سجلها التاريخ غرة في جبين الدهر.

وقد نهض الموحدون اليوم لنيل العلوم بكل أشكالها كغيرهم من المواطنين العرب في سورية ولبنان والأردن وفلسطين، وكان لهم السبق في عدة ميادين، وهم الآن في سوريا ولبنان فيهم الوزير وعضو مجلس الشعب، والقائد العسكري والضابط والطبيب والمعلم والصيدلي والمحامي والصحافي، والكاتب والشاعر والمؤلف والخطاط والعالم العبقري صاحب الأختراعات على مستوى العالم، وعندهم في كل المجالات، ولديهم إقبال على العلم منقطع النظير ومستوى الأمية بينهم قليل جداً ولن تمر سنوات قليلة حتى نجد الأمية معدومة بينهم، وهنا لا بد من الإشادة والتقدير لدور الدولة والحكومة لما تبذله من جهود وأموال في سبيل نشر العلم وبناء المدارس، فقد صرنا لا نجد بلدة إلا وفيها مدرسة ابتدائية على الأقل، وفي القرى لكبيرة نجد المدارس الإعدادية والثانوية وفي مركز المدينة نجد المعاهد والمديريات المهتمة بالعلم والتعليم، ولو نظرنا إلى نسبة المثقفين والمعلمين لوجدناها نسبة عالية تضاهي أكثر الدول تقدماً. هكذا يتقدم الموحدون في معارج الفلاح والعلم، لإعادة أمجادهم القديمة وإحياء التراث القومي الثمين، لأن الموحدين لا يحسبون طائفة دينية كبقية الطوائف الأخرى بل هم حسب علم الحياة (البيولوجيا) عصبة قومية وعشيرة عربية معروفة الأنساب، كريمة المحتد[361] تعتز بقوميتها العربية،صافية الدم لم تختلط بالزواج مع الغير في مدى ألف سنة، فصارت صفوة الدم العربي، وزبدة الروح العربية الصافية النقية.

الفصل الخامس
مواطن الموحدين

عند إغلاق باب الدعوة في منتصف القرن الخامس الهجري _ الحادي عشر الميلادي. كان المذهب منتشراً في شمالي إفريقيا والهند. وكان الموحدون قد انتشروا،وتوزعوا في مصر إثر الاضطهاد الذي لاقوه من (الظاهر) الخليفة الذي تسلم بعد غياب الحاكم، فارتد كثير منهم عن الدعوة، وآخرون تستروا خوفاً، وبعضهم خرج من مصر إلى أماكن أكثر أمناً. وفي القرن الثاني عشر الميلادي،هاجرت عشائر من قبيلة ربيعة بقيادة المعنيين من شمالي سورية إلى جبال الشوف في لبنان بجوار التنوخيين المستقرين هناك منذ عهد الإسلام الأول، وقد حدث بينهم تزاوج وتعاون ضد الصليبيين. وقد كانت هذه الهجرة من ديرة حلب إلى جنوب لبنان كأسر منفردة وجماعات، كالجماعة التي صاحبت آل جنبلاط في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، كما كانت هناك هجرات متعددة من جنوب لبنان إلى وادي التيم والجليل الأعلى في فلسطين. وفي سنة (1711 م) استوطن مهاجرون من لبنان بعد حرب القيسيين واليمنيين في جبل حوران جنوب شرق دمشق، والذي أطلق عليه اسم جبل (الدروز) بداية، ثم أطلق عليه الزعيم عبد الناصر اسم جبل العرب. وقد احتفظ مجتمعا وادي التيم،ومنطقة دمشق بروابط وثيقة، وكون موحدو دمشق والقرى المجاورة مجتمعاً مزدهراً، وأطلقوا على مكانهم اسم (البستان) وهو يرمز إلى أن الدعوة هي البستان والمؤمنون هم الأشجار، والثمار الناتجة عنها هي الأعمال الصالحة. وفي الأشرفية جنوب غرب دمشق عاش إسماعيل بن هلال من سلالة نصر بن فتوح، وكان على رأس الدعوة في البستان، ووجه له بهاء الدين (س) ثلاث رسائل استند عليها في نشر الدعوة.

وفي فترة اضطهاد الموحدين في حلب و إدلب وإنطاكية استخدم رافع بن أبي الليل وهو بطل موحدي ذو قوة ومال، قومه وماله للدفاع عن الموحدين، فأثنى عليه بهاء الدين (س) سنة (422 هـ / 1031 م) برسالة موجهة إلى رؤساء القبائل العربية. ويعود وجود الموحدين في فلسطين إلى أول الدعوة وقد كانوا يسكنون الساحل بين غزة وعكا، ومن عكا إلى صفد، وقد كانت غزة وعسقلان واشدود والرملة، مركزاً للموحدين وبعد سنة (427 هـ / 1036 م) لم يعرف عن الموحدين شيء في جنوب فلسطين، وخلال القرن التاسع عشر تقلص عددهم في فلسطين فقد هاجروا بسبب رفضهم للخدمة العسكرية التي فرضها الاحتلال الإنكليزي في الثلاثينات من القرن المذكور مما جعلهم يغادرون فلسطين متوجهين إلى حوران وسكنوا في جبله.

أما توطنهم في جبل العرب وراء سهل حوران فهو حديث العهد فبعد موقعة (عين دارة) سنة (1711 م) بين القيسية واليمنية جاء أكثر سكان لبنان هرباً من الحروب والمجاعات والظلم، وقد وفد على الجبل من شمالي سورية وجبل الشيخ وفلسطين وجبل لبنان فاستطاعوا أن يزرعوا الجبل ويعمروه و ينشؤوا المدن والقرى حيث قويت شوكتهم وازداد نفوذهم.

أما الموحدون اليوم فهم منحصرون غالبيتهم في سورية (السويداء وقراها، وبعض قرى إدلب، وريف دمشق، جرمانا وصحنايا و الأشرفية) وفي لبنان (جبل الشوف وعالية ورأس المتن وغيرها...) وفي فلسطين (جبال الجليل، و الكرمل.....) وفي الجولان وقراه المحتلة (مجدل شمس، بقعاثا، واسط، مسعدة.....) وأما تواجدهم في الأردن فهو حديث العهد يرجع إلى نزوح الثوار وهروبهم من وجه المستعمر الفرنسي، ومعظم الأسر الموجودة الآن هي فروع للأسر الموجودة في السويداء وهي تتواجد في منطقة الأزرق والزرقاء. أما تواجدهم في فلسطين فسنذكره وذلك لارتباطه ببحث آخر هو تمهيد له، (محاولة فصل الموحدين ......)

الفصل السادس
الموحدون في فلسطين

1 _ التواجد

2 _ أيام الانتداب البريطاني

3 _ بعد عام ((1984))

4 _ البيئة الاجتماعية والسياسية

أولاً _ التواجد

انشرت دعوة الإمام الحاكم بأمر الله (س) التوحيدية انتشاراً واسعاً أيام حكمه، نتيجة ما بذل من جهود في هذا السبيل، بواسطة دروس خاصة كانت تلقى في الجوامع والأماكن العامة، وبواسطة الدعاة الذين بلغ عددهم مئة وخمسين داعياً[362] وقد اعتنق العديد من عرب فلسطين المسلمين الدعوة التوحيدية، ولكن العديد منهم عاد إلى السنة بعد ذلك إثر الاضطهاد والعذاب والقتل الذي لاقوه بعد غياب الحاكم وتسلم الظاهر، وهو ما يعرف بمحنة إنطاكية وكذلك بعد أن قضت الجيوش العثمانية على الدولة العربية التوحيدية التي أنشأها الأمير فخر الدين المعني الثاني، وامتدت من أواسط فلسطين إلى إنطاكية وجبل السماق في إدلب. ولكن رغم كل شيء بقي الكثير منهم محافظاً على الدعوة ولم يرتد عنها، وهؤلاء قد تكاثروا وتزايدوا ومازالوا محافظين على الدعوة وميثاقها، وفروضها وأركانها. ويتوزع الموحدون اليوم في فلسطين المحتلة على ثمانية عشرة موقعاً وقرية، منها اثنتان في جبل الكرمل وهما : (دالية الكرمل، عسفيا) وست عشرة قرية في الجليل وهي : (شفا عمرو، المكر، جولس، أبو سنان، جت، يركا، يانوح، كفر سميع، كسرى، البقيعة، حرفيش، بيت جن، عين الأسد، الرامة، ساجور، المغار،) وهي قرى جبلية، وعرة المسالك، فقيرة التربة. أما عن سكان هذه القرى من الموحدين، فقد بلغ عددهم في نهاية سنة (1948 م) حوالي (14) ألف نسمة وفي عام (1971 م) بلغ عددهم (34) ألفاً وقد ارتفع عددهم في عام (1972 م) إلى أكثر من ضعفي عددهم عند اغتصاب فلسطين سنة (1948 م)[363] . ويبلغ معدَّل عدد الأطفال للعائلة الواحدة عند الدروز (4) بينما نجد أن المعدل في العائلة اليهودية (1.8) ويشكل الموحدون ما معدله (8.6 %) من عدد العرب الباقين في فلسطين.

والأرض في فلسطين تأخذ أهمية خاص عند الموحدين، فهي مصدر رزق أساسي وهي تتعدى كونها مصدراً للرزق إلى كونها قضية سياسية ووطنية. فالزراعة تعني العمل في الأرض، والأرض هي الوطن، وفقدان الأرض وخاصة في ظل الاحتلال معناه فقدان الوطن، والتشبث بالأرض معناه التشبث بالوطن. لذلك يعمل العدو على سلب الأرض من أصحابها ليجبرهم على النزوح، لكن الفلاح العربي بشكل عام والموحدي بشكل خاص لم يتخل عن أرضه ودافع عنها بحياته، وكيف لا، وهي وطنه، وحقله، ومرعى ماشيته ومصدر رزقه الوحيد.

ثانياً : موحدو فلسطين أيام الانتداب البريطاني

في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وفرض الانتداب البريطاني الفرنسي على المشرق العربي وتمزيقه إلى دويلات عدة، وقع حوالي (90 %) من الموحدين تحت ظل الانتداب الفرنسي، وتوجهت أنظارهم إلى مقاتلة الاستعمار الفرنسي بعد أن اشتركوا بنشاط في الثورة العربية الكبرى.

وكان موحدو فلسطين مرتبطين بموحدي لبنان وسورية، تشدهم إليهم أواصر القربى والمذهب ورباط شبه عشائري، فمركزهم الروحي كان في خلوات البياضة وكانت القلة منهم ترسل أبناءها للدراسة في الكلية الداودية في (اعبية) التابعة للوقف الدرزي. وفي أثناء الثورة العربية الكبرى، والثورة السورية الكبرى سنة (1925 م) وجد الكثير من قيادتها في فلسطين والأردن ملجأ لهم من الاضطهاد الفرنسي، كما كان موحدو فلسطين يتبرعون بسخاء رغم فقرهم للثورة السورية في جبل العرب بقيادة المرحوم سلطان باشا الأطرش، الذي انضم إليه فيما بعد الكثير من قيادات الثورة العربية الكبرى أمثال (عادل أرسلان، فؤاد سليم) وغيرهم.

وقد استمرت هذه العلاقة الطيبة والمساعدة المتبادلة طيلة فترة الانتداب البريطاني، فعندما وقع خلاف بين السنة والموحدين في (شفا عمرو) سنة (1940 م) توجه وفد للمصالحة بين الطرفين وهذا الوفد كان من موحدي سورية برئاسة الشيخ عبد الغفار الأطرش الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع السوري في تلك الفترة عام (1940 م) وقد تم الصلح وإزالة الخلافات التي وقعت بينهما.

ثالثاً : موحدو فلسطين بعد عام (1948 م)

تعمل الصهيونية على إثارة الشبهات والشكوك حول موقف الموحدين في فلسطين من إسرائيل والصهيونية، وتحاول ان تشوه موقفهم في سوريا ولبنان. لكن ذلك واضح للعيان ولن تستطيع أن تنقص من دورهم في مساندة القضية الفلسطينية. فقد اشترك العديد من الموحدين في جيش الإنقاذ بفوج من جبل العرب عام (1948 م) وسرية من الإقليم (ريف حلب و إدلب) وادي التيم علاوة على اشتراك العديد العديد من موحدي فلسطين، وقد تمركزت القوات العربية التوحيدية في الجليل، فتمركز فوج بقيادة (شكيب وهاب) في قرية (شفا عمرو) وسرية بقيادة الملازم أول في تلك الفترة (مفيد غصن) حيث تمركزت هذه السرية في قرية (يركا) وأهم معركة وأكبرها خاضها جيش الإنقاذ هي معركة (الهوشى والكساير)، التي خاضتها القوات العربية، واشترك فيها موحدو فلسطين، وكانت المعركة الأولى يوم الثلاثاء، وكانت انتصاراً ساحقاً لقوات الموحدين، واشترك فيها العديد من موحدي (شفا عمرو) وقد سقط في هذه المعركة حوالي ستة عشر شهيداً، وأكثر من خمسين جريحاً من الموحدين، وفي هذه المعركة حضر قائد المنطقة آنذاك (أديب الشيشكلي) والملازم أول (مفيد غصن) وأشرفا في بداية الأمر على المعركة، ثم انسحب الشيشكلي كعادته عند احتدام القتال.

أما المعركة الثانية فقد استعد لها الصهاينة ليثأروا لهزيمتهم الأولى في معركة (الهوشى والكساير) فزحفوا ليل الجمعة على (الهوشى والكساير) وقد أبادوا الحرس حول القرية، وأحاطوا بقوات (شكيب وهاب) المرابطة على التلال القريبة، وطلب (وهاب) المساعدة والإمداد من السرية في (يركا) بقيادة الملازم أول (غصن) وكان تجاوبهم ونخوتهم منقطعة النظير، فهبوا لنجدته وتغير الوضع في الجبهة بعد وصول النجدات والمساعدات وكانت معركة حاسمة دامت من ليل الخميس

حتى مساء الجمعة، وقد اشترك في هذه المعركة عموم المنطقة من عكا حتى أعالي الجليل، كلها توافدت إلى القتال، وأجبرت القوات الصهيونية على إخلاء (الهوشى والكساير) ولكنها وعلى عادتها من الوحشية والهمجية نسفت جميع المنازل قبل ان تنسحب وبلغ عدد شهداء العرب الموحدين في هذا القتال البطولي ما بين (85 _ 100) شهيد ومئات الجرحى.

وأما عن حياة الموحدين في فلسطين بعد عام(1948 م) وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فقد استمروا في قراهم الفقيرة التي يعيشون فيها منذ القديم، في ست عشرة قرية متناثرة في الجليل وقريتين في جبل الكرمل، تربتها فقيرة، تعتمد الزراعة البعلية والرعي في انتزاع رزقها. ويهبط بعض أبنائها إلى السهول القريبة ليبيعوا قوة عملهم بأثمان زهيدة، حيث يتعرضون هناك للاستغلال ويجابهون بالفروقات المذهبية ذات الجذور العميقة في الصراعات الدامية والمميتة. ولصعوبة الظروف والضغط الذي تمارسه الصهيونية على العرب عامة والموحدين خاصة فإن القليل من الموحدين تمكنوا من نيل شيء من الثقافة وقد اضطر هؤلاء أو على الأقل بعضهم أن يهاجروا من قراهم منسلخين عن مجتمعهم وعن حياة القرية، مستقرين في المدن في بيئة غريبة عنهم ومجتمع هم عنه غرباء، ولكن بالرغم من كل ما واجهوه من صعوبات ومشاق للتعليم فهذا قد ساعد في نمو وعيهم الوطني والسياسي، ونتيجة لذلك فقد ظهرت في بعض المدن والقرى الفلسطينية القريبة من المدن، جمعيات وتنظيمات توحيدية وكان أكثر قادتها من دروز لبنان، ففي سنة (1944 م) تأسست جمعية (الفقير الدرزي) في حيفا وكان من قادتها الطبيب (نايف حمزة) وفي سنة (1945 م) تم في (عسفيا) تأسس نادي (الإخاء الدرزي) وقد كان لهذه الجمعيات والتنظيمات والنوادي صفة العمل الاجتماعي الخيري، ولم تمثل اتجاهات سياسية نضالية في تلك الفترة.

رابعاً : البيئة الاجتماعية والدينية والسياسية

الولاء للزعيم، أو للعائلة أو للعقيدة هو ناتج عن وضع إما اقتصادي أو ديني أو سياسي أو ثقافي، وبما أن إسرائيل تسيطر على الوضع الاقتصادي والسياسي سيطرة شبه تامة، وتسعى إلى إحكام سيطرتها الفكرية من خلال وسائل الإعلام. لذلك تعمل إسرائيل على السيطرة على الولاء للعائلة والعشيرة من خلال نشر الصراعات مع عائلات أخرى، مما يكفل لها استمرار الرضوخ للاستبداد والاضطهاد. حيث تجعل من العائلة الكبرى صاحبة الأفضلية على العائلة الصغيرة وهي الأحق في توظيف أحد أبنائها. وكثيراً ما يأخذ النزاع العائلي شكلاً دموياً وهمجياً، وتعمل إسرائيل على تهيئة المناخ لذلك، وتوفر الأدوات والوسائل لإشعال هذه النزاعات حيث قامت بتوزيع السلاح على العائلات لاستمرار الخلافات فيما بينها. وبعد تقسيم الموحدين إلى عائلات متناحرة متنافرة وراء زعامات مربوطة بعجلة الحكم الاستبدادي بدأت بتقسيم الموحدين إلى : موحدو الكرمل، وموحدو الجليل الأعلى وأثارت بينهم صراعات على الزعامات وأحقيتها. ورغم سيطرة إسرائيل على الأوضاع السياسية والاقتصادية وما زرعته في البداية من انقسامات و صراعات، فهي لم تستطع السيطرة على الوضع الديني والعقائدي رغم ما نثرته من إشاعات وكتب مزورة دفعت مؤلفيها وهم من الموحدين المتعاملين معها، لتشويه عقائد الموحدين وإظهار صلتهم أو قرابتهم باليهود، فإنها لم تستطع أن تنجح في هذا المجال لأسباب كثيرة منها : وعي الزعماء الدينين ومشايخ العقل لمثل هذه الادعاءات ومحاربتها بتوعية الجماهير والرد عليها بقوة، إضافة لنصاعة الحقيقة الواضحة في كتب المذهب التي تظهر اليهود وكفرهم ومحاربتهم لكل الأنبياء، فهم قتلة الأنبياء والرسل حتى أنبياؤهم فهم لم يسلموا منهم. ورغم كل ما تحاول إسرائيل إشاعته وبثه من تفرقة و صراعات فإن الموحدين في فلسطين ما زالوا محافظين على المذهب وميثاقه وفروضه وأركانه، متمسكين بمحبة بعضهم ضمن فلسطين وخارجها، كيف لا، وهم من أصول واحدة، فكثير من العائلات مقسومة بين فلسطين

وسورية ولبنان والأردن ونجد أن بعض الأسر فيها أخوة تعيش في فلسطين قبل النكبة وبقيت هناك وأخوة تعيش في سورية ولبنان، وكل ما تحاول إسرائيل غرسه من انقسام فهو يتحطم على صخور الأخوة والأصل والعقيدة، وهم أي الموحدون يتبعون لمشيخة العقل التي لها الدور الفعال في حل كثير من المشكلات و الصراعات التي تعرض لهم في حياتهم، والمعلومات تكاد تكون معدومة حول مشيخة العقل من بدء الدعوة في فلسطين، ومن تولاها عبر السنين ولكن أكثر وأشهر من تسلم الزعامة الدينية هو المرحوم الشيخ (أمين طريف) الذي كان حرزاً للنضال والإيمان والحفاظ على وحدة الموحدين وارتباطهم بالعروبة والإسلام، والذي وقف حجرة عثرة في وجه المخططات الإسرائيلية. وقد توفي عام (1993 م) وحضر جنازته الكثير من العرب والموحدين وغيرهم وقد سمح لوفد من موحدي سوريا ولبنان بالدخول إلى الأرض المحتلة ليشيعوا جنازته رحمه الله.

وقد ازداد الوعي السياسي والثقافي بين الموحدين، خاصة في الستينات، ما دفعهم إلى خلق تنظيمات توحيدية جديدة، وإصدار بعض المجلات بهدف تعميق هذا الوعي وتوجيه المثقفين إلى العدو الحقيقي ومحاربة المؤامرة الإمبريالية الصهيونية،ومحاولات بث الخلافات و الصراعات بين الموحدين أنفسهم، وبينهم وبين باقي مذاهب الإسلام. ويظهر هذا الوعي في قول الشاعر سميح القاسم من موحدي الرامة :

يا بنتَ مَنْ رفعُوا على   الآفاقِ راياتِ التحدي

رُدّي على الخصمِ الألدِّ   آن الأوانُ لأن تردِّي

وها هو يغني آلامه وأسره وحرمانه من الحرية والوطن فيقول :

أنتقي من سوسن الحقل وشاحاً لحبيبي

غير أن الحقل مزروع بألغام جديدة

أنتقي من قصب الوديان ناياً لحبيبي

غير أن الجند في الوديان يجرون تمارين جديدة

أنتقي من كرمنا أجمل عنقود

لأهديه لحبيبي

غير أن الكرم... يا عيني

أحاطوا بأسلاك جديدة

يا حبيبي... أطفئ القنديل

موتي.... مددوه

فترة أخرى..... جديدة

وما زال الموحدون في فلسطين يعانون قسوة الاحتلال وظلمه، لكنهم ظلوا متشبثين بالأرض رافضين الخروج من منبع أرضهم وأصلهم متمسكين فخورين بعروبتهم رغم كل محاولات الترهيب والتهجير التي تمارسها السلطات الصهيونية. وسيبقون حتى تحين الساعة التي تتطلع إليها قلوب الموحدين أينما كانوا، وهي آتية لا ريب فيها وإن طال أمدها.

الفصل السابع
محاولة فصل الموحدين

1 _ محاولة نابليون

2 _ محاولة الاستعمار الفرنسي

3 _ المخطط الإسرائيلي

4 _ عزل الموحدين

5 _ مشروع ((الدولة الدرزية))

محاولة فصل الموحدين
عن العـرب والإسـلام

شكل فصل الموحدين عن العرب والإسلام هماً استعمارياً دائماً لدى كل مستعمر، وغاصب للمشرق العربي، منذ الحكم المملوكي، ثم السيطرة العثمانية على الوطن العربي حتى الاستعمار الغربي. فالعرب الموحدون كانوا عبر التاريخ قبل انتشار المذهب التوحيدي وبعده السيف العربي المرفوع في وجه كل مستعمر ظالم، وروت دماؤهم هذه الأرض العربية وما تزال، وتعرض الموحدون بسبب ذلك إلى حملات إبادة قاسية من قبل الصليبيين، ثم المماليك، ثم العثمانيين الذين لم يفهموا الإسلام، بل اتخذوا من تعصبهم المقيت ذريعة للبطش والإرهاب، ثم بعد ذلك من قبل الاستعمار الغربي وأعوانه[364]

وظنت هذه القوى الاستعمارية أنه بالإمكان إخراج الموحدين من العروبة والإسلام، بغية تفتيت الشعب العربي في المشرق، وإضعاف مقاومته لإرادة الغاصب المحتل، وسأحاول التطرق لبعض هذه المحاولات القديمة منها والحديثة.

1_ محاولة نابليون بونابرت :

عندما توجه نابليون بونابرت إلى بر الشام،ة وحاصر عكا في العشرين من آذار عام (1798 م) كتب رسالة إلى الأمير بشير شهاب يعده فيها بإقامة ((دولة درزية))، جاء فيها : ((مخيم عكا _ 20 آذار _ 1798 إلى الأمير بشير : بعد السيطرة على مصر، دخلت صحراء سيناء في سوريا، ثم أتيت إلى قلعة العريش ثم إلى غزة، ثم إلى يافا بعد أن التقيت جيوش الجزار، وسحقتها، ومنذ يومين وصلت إلى عكا وأنا أحاصره هناك. وأسرع إلى إعلامك بكل ذلك، لا شك أنك تفرح لهزائم هذا الطاغية، الذي سبب الكثير من الذعر إلى الإنسانية عامة، والدروز الأباة بشكل خاص. ورغبتي المخلصة هي أن أقيم للدروز استقلالهم، وأعطيهم مدينة بيروت، ذات المرفأ الكبير، كمركز تجاري لهم، لذلك فإنني أرغب في أن تأتي شخصياً لمقابلتي، أو أن ترسل حالاً من يمثلك، لرسم خطة للتغلب على عدونا المشترك ويمكنك أن تذيع في جميع القرى الدرزية أن كل من يأتون لنا بالمؤن وخاصة الخمر، سيكافأ بسخاء)).الإمضاء نابليون[365]

وقد حاول نابليون التقرب من العرب والإسلام لتعميق مساندتهم، فتظاهر بالإسلام، فيروي عنه: ((إنه سمى نفسه علي بونابرت باشا وارتدى الثياب الشرقية، وكن يزور المساجد أيام الجمعة، ودفع أحد جنرالاته لاعتناق الإسلام)) ولكنه لاقى المقاومة في مصر، وكشف هدفه من وراء ذلك التظاهر. ورغم تلك الرسالة التي لم يجبه عليها الأمير بشير، فإن قوة من الدروز والموارنة، انضمتا إلى جيش نابليون الذي كان يحاصر عكا. وفي آذار عام (1799 م) أتت قوة من الخيالة الدروز لنجدة نابليون، فقال نابليون في ذلك : ((... بينما كنت أحاصر عكا، أتت مفرزة من الخيالة الدروز تحت إمرة الشيخ عمر الظاهر، ودهشت وأسرت بمنظرهم، وشعرت بدافع قوي يشدني إلى كل منهم، وكنت أتخيل أن الدروز يحملون طابعاً تركياً قوياً، ولكنني رأيت أنهم لا يحملون أي طابع تركي،

وأكثر من ذلك شعرت بأواصر قوية تشدنا _ نحن الفرنسيين _ إليهم.)) ويبدو الهدف من هذا الكلام واضحاً لكل ذي بصر، وبصيرة فهو يصب في المخطط الاستعماري. ولكن الأمير بشير بعد فشل نابليون في احتلال عكا وانسحابه إلى مصر، أطلق ساقيه للريح، هرباً من وجه الموحدين، ومن وجه الجزار[366] وبقي تحت حماية العلم البريطاني مدة ثلاث سنوات أما بالنسبة للدروز فقد كانوا نشيطين ضد نابليون. فكان آل عماد يجوبون سهل البقاع (مخزن سوريا للقمح) مانعين وصول القمح والخمر، والمؤن الأخرى إلى مخيم الفرنسيين. ولم يقاتل الموحدون الغزو النابليوني، لأن القائد البريطاني رجاهم أن يقوموا بواجبهم تجاه السلطان العثماني، كما يزعم (تشر شل). فالعرب الموحدون لم يظهروا أية حماس تجاه الاستعمار العثماني بل كانوا من أشرس أعداءه. وتاريخ الأمراء المعينيين هو سجل النضال العربي ضد السيطرة العثمانية في المشرق. كما قاتل العرب الموحدون المماليك من قبل، ورفضوا الخشوع لسلطانه، وفي الثورة العربية الكبرى قاتل الموحدون ضد العثمانيين في سبيل العروبة والاستقلال، وعندما غدر الاستعمار الغربي بالثورة العربية الكبرى واحتلت فرنسا سورية ولبنان، عملت على إحياء الحلم الاستعماري الذي وضع نابليون طبعته الأولى.

2_ محاولة الاستعمار الفرنسي :

العدو الأول للاستعمار الفرنسي، كانت عروبة سورية ولبنان ولو استطاعت فرنسا كبت الانتماء القومي العربي لأصبح استمرار سيطرتها أمراً ممكناً، وهذا لم يتم ((لأن فرنسا حاولت الضغط على السوريين، مطاردة كل ما هو قومي، ومحرمة كل شيء يشتم منه رائحة العروبة)) فعند اكتمال سيطرة فرنسا على بر الشام، لجأت إلى تقسيمه إلى دول خمس (ذات سيادة كاملة) في ظل السيادة الفرنسية وهذه الدول هي : دولة لبنان، دولة دمشق، دولة حلب، دولة جبل الدروز، دولة جبل العلويين،. كما أعطت لواء الإسكندرون إلى تركيا، وصنعت ((للدولة الدرزية)) التي كانت عاصمتها السويداء علماً[367] هو نفسه العلم والرمز الديني للمذهب التوحيدي والمكون من خمسة ألوان مرتبة تنازلياً : (أخضر، أحمر، أصفر، أزرق، أبيض) ترمز للحدود الخمسة في هذا المذهب. كانت النظرية الفرنسية من وراء هذا التقسيم كما يقول عارف النكدي : ((.. إن هذه الدول تتألف من شعوب مختلفة لا جامع بينها ولا تشدها أواصر[368] واحدة، ولا تجمعها أية مصلحة مشتركة)). وقد مارس الاستعمار الفرنسي أشد أنواع الاضطهاد ضد العرب ((الدروز)) في دولتهم المصطنعة، ونشبت الثورات ضد الفرنسيين في سوريا، وكان أشدها ثورة جبل العرب التي توسعت لتشمل كل سوريا، ونادت بسلطان باشا الأطرش قائداً عاماً لها، وكتب الموحدون بدمائهم تاريخ الانتصارات العسكرية ضد الجيوش الفرنسية خلدها التاريخ، وغناها الشعراء في كل أرض عربية.

وأسقط الموحدون بدمائهم (الدولة الدرزية) التي صنعها المحتل الفرنسي، وقاتلوا بظروف صعبة، وبلغت خسائرهم بالأرواح (من لبنان و حوران) ما لا يقل عن أربعة آلاف شهيد،ولم يكن هناك من ((قرية درزية)) في لبنان إلا وأرسلت بعض المقاتلين للقيام بالواجب في هذه الحرب الوطنية المقدسة، ومن ثم سمي((جبل الدروز)) بعد إسقاط الدولة المصطنعة بجبل العرب. وحاول

الفرنسيون ـ الكتاب منهم ـ إصدار كتب تشوه ((الموحدين)) وتاريخهم وعروبتهم، وتحاول جاهدة لإبعاد الموحدين عن العرب والعروبة والإسلام وتفكيك الوحدة القومية للعرب وتشويه واقعهم، ومن هذه الكتب التي شوهت ((تاريخ الدروز)) ما كتبه الكاتب الفرنسي بورن (POROUN) إذ ألف كتاباً باللغة الفرنسية أسماه ((الدروز)) وكذلك كتاب باللغة الإنكليزية اسمه (أصل الشعب الدرزي ودينه) للدكتور فيليب حتي وهما يصبان في المخطط الاستعماري ذاته. وكذلك حاول الكتاب العبث بالتاريخ وتزويره، كما فعل بوكوك عندما كتب :

((إن الدروز هم بقايا من جماعة الإسرائيليين،كانوا قد فروا من غضب موسى عندما عاد من جبل سيناء ورأى اليهود وقد صنعوا عجلاً من ذهب يعبدونه. ولربما كانت قصة هذا الرجل هي أصل حكاية عجل الدروز)). وقول الدكتور حتي : ((... إن الدروز هم ناسلون من عرب وفرس وهنود ومسيحيين))



وقول عالم الأنتروبولوجيا الفرنسي فيليكس فون لوشان ((الشعب الدرزي من حيث الجنس هم خليط من فرس وعراقيين، وعرب وقد تأثروا بالأثر الفارسي)) وكذلك قول الكاتب الفرنسي بورن فيورد : ((الدروز من أصل آري، أو من سلالة الفرس أو هم فرنسيو الأصل))[369]

ومن السخف مناقشة هذه الأقوال، أو تبيان صحتها من عدمها إذ أن الجاهل الأعمى يعرف بطلانها وهدفها الذي يسعى إلى إبعاد الموحدين عن العروبة، وإثارة الفتن بينهم وبين مختلف فئات الإسلام ومذاهبه. وقد نجحوا بإثارة بعض المتعصبين ضيقي النظر

والجاهلين حقيقة الإسلام والعروبة. وأما المتعقلون الفاهمون جوهر الإسلام والمطلعون على كتب الموحدين المقدسة ومقارنتها مع القرآن الكريم، يدركون أن الموحدين عرب أقحاح وإن مذهب التوحيد هو مسلك جديد يفسر فيه آيات القرآن الكريم عبر العرفان (الحكمة) وهو وإن اختلف شكلاً مع المذاهب الإسلامية الأخرى، فهو مضموناً وجوهراً متفق معها لا محالة .

وبعد نيل سوريا استقلالها استمر التآمر الاستعماري على العروبة، وعروبة الموحدين خاصة بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية قائدة الحملة الاستعمارية الجديدة ضد الأمة العربية، فخططت لانقلاب حسني الزعيم ونفذته، و أظهرت حسني الزعيم _ دميتها في سوريا _ بمظهر العميل الفرنسي لإلصاق العملاء بفرنسا بسبب تاريخها الاستعماري العميل في المنطقة. وبغية إخفاء الدور الاستعماري الأمريكي نفذ حسني الزعيم إرادة المستعمر الأمريكي، وسحب الجيش العربي السوري من الأرض التي حررها من فلسطين، وعرض حسني الزعيم الاجتماع مع (بن غوريون) زعيم الصهاينة شخصياً، ولكن الصهاينة اقترحوا اجتماعاً على مستوى وزراء الخارجية،وقد صب الزعيم جام الغضب على العرب الموحدين بغية إبعادهم عن العروبة، والتخلي عن واجبهم الوطني والقومي المتمسكين به، فأرسل قوات كبيرة إلى جبل العرب، لإثارة الموحدين والبطش بهم، وقد سحب القوات المدرعة من الجبهة مع إسرائيل، ووجها لمقاتلة الموحدين،هذه القوات المدرعة _ والتي كان يقودها العقيد أديب الشيشكلي عادت من قطنا وساهمت في تحقيق الانقلاب الثاني في سورية،واستمرت المؤامرات الاستعمارية على عروبة الموحدين في عهد الشيشكلي وبلغت أوجها في المذابح الوحشية التي نفذها الشيشكلي بسكان جبل العرب في أواخر عهده لكرهه لهم وخوفه في الوقت ذاته. وقد كان يقول ((... إن أعدائي كالأفعى رأسها في جبل الدروز، ومعدتها في حمص وذنبها في حلب) بعد سقوطه استمر التآمر على عروبة سورية واستقلالها ثم كانت المؤامرة على عروبة لبنان وربطه بمشروع أيزنهاور[370] الاستعماري وقد قاتل العرب الموحدون في لبنان دفاعاً عنه وعن استقلاله وعروبته، وانضمّ إلى صفوفهم العديد من إخوانهم في جبل العرب إلى جانب القوى العربية التقدمية التي ساهمت في اسقاط المشروع.

3 _ المخطط الإسرائيلي :

المخطط الصهيوني يرتكز إلى جميع المحاولات السابقة والتشويهات القديمة لتاريخ الموحدين وتراثهم النضالي، ويضيف هذا المخطط إلى هذه المحاولات والتشويهات الكثير الكثير من عنده. وقد عمل على خلق التنافر والعداء بين الموحدين وغيرهم من العرب في ظل الاحتلال بوسائل مختلفة، فالأراضي التي كان يصادرها من القرى العربية ((الدرزية)) في فلسطين، كان يعمل على تأجيرها لغيرهم من العرب، كما يؤجر بعض الأراضي المصادرة من العرب غير الدروز إلى الدروز. وعندما يرى الفلاح أرضه في حوزة رجل آخر ولو بالإيجار لابد أن يحقد على هذا الفلاح الآخر، وعندما يرى السجين العربي حارساً درزياً عليه في السجن فلا بد أن يحقد على هذا الحارس الذي اضطرته ظروف المعيشة إلى مزاولة هذا العمل، وكذلك السجين الدرزي يحقد على سجانه العربي غير الدرزي إذ لم يكن وعيه السياسي شبه متكامل، فالتضييق الاقتصادي الشديد الذي تمارسه إسرائيل في الأراضي المحتلة، يجبر بعض الشباب العرب دروزاً ومسلمين ومسيحيين على الانخراط في سلك الشرطة، وحرس السجون.

وعندما خططت الصهيونية لمجزرة كفر قاسم في فلسطين أرسلت جنديين درزيين بين المجموعة التي نفذت المجزرة على الرغم من أنهما لم يشتركا في تنفيذ المجزرة رغم الأوامر الصادرة إليهما بذلك لكن وسائل الإعلام الصهيونية ادعت أن كل القتلى في المذبحة قتلوا برصاص الجنديين الدرزيين وذلك ليثيروا المشاكل والنزاعات بين العرب مسلمين ودروز، ويزرعوا الحقد في قلوب العرب على الدروز الذين هم بعيدون كل البعد عن التعاون مع الصهيونية أو تنفيذ مجازرها البشعة التي قامت بها ضد العرب.

4 _ عزل الموحدين :

بعد نمو الوعي القومي والنضالي العربي بين صفوف الجماهير العربية الموحّدة في ظل الاحتلال، عمدت إسرائيل إلى وسائل جديدة لعزل القرى العربية الموحّدة، والشباب العربي الموحّد، لتمنع اختلاطهم ببقية العرب في ظل الاحتلال. ولا يقل حقد الصهيونية على الإسلام عن حقدها على العروبة فقد نزل الإسلام على نبي عربي، ونبع من أرض عربية، ومن خلال تراث عربي ملبياً حاجات المجتمع العربي، وملائماً لواقعه الحضاري الشامل، فكان أكبر ثورة شاملة في التاريخ العربي، ونمى الإسلام في أحضان الأمة العربية، مواكباً تطورها، فتاريخ الإسلام هو تاريخ الأمة العربية والعكس صحيح أيضاً.

وأرادت الصهيونية أن تخرج الموحدين من الإسلام بالرغم من أن،مذهب التوحيد هو من مذاهب الإسلام، وفي صميمه يستند إلى القرآن الكريم ويفسر آياته عرفانياً ويعظم الأئمة من آل بيت الرسول أسوة بباقي الفرق الإسلامية، والثابت أن الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله مؤسس المذهب قد بنى العديد من الجوامع تجاوزت الآلاف، وأقف الأوقاف على الأزهر الشريف ونظم المرتبات الشهرية لعلماء الفقه وخطباء الجوامع والمؤذنين وكتبة القرآن الكريم وكان يرسل كساء الكعبة سنوياً.

ولو عدنا بالتاريخ للوراء قليلاً لشاهدنا العديد من المؤامرات على الموحدين بغية عزلهم

عن العروبة والإسلام، فهاهو الأمير بشير الثاني الذي حاول تنصير الدروز أيام أمجاد نابليون وكان عميلاً للجزار ثم لنابليون وبعد ذلك للبريطانيين،ثم لإبراهيم باشا ها هو يتهم الموحدين بإنكار وجود الله ويدعو المسيحيين ويسلحهم لمحاربة الموحدين،فقبل هربه الخامس والأخير من لبنان وجه إلى الموارنة التعميم التالي بغية إثارة الفتنة بين أبناء الشعب العربي الواحد وهذا نص

التعميم : ((... إني أخاطب كل مسيحي يعيش في لبنان، وخاضع لسلطاني، عندما أقول أن سعادة ولي عهد مصر، أعني إبراهيم باشا، يتعهد أن يقدم لكم ستة عشر ألف بندقية لحماية أنفسكم، محاربة أعدائكم الدروز، الذين ينكرون وجود الله ويتحينون الفرصة للانقضاض عليكم،وتستطيعون أن تورثوا هذا السلاح لأولادكم وأحفادكم من بعدكم[371] ويتوضح من هذا التعميم مدى تعامل الأمير بشير الثاني مع أعداء العرب والإسلام وقد كان أمر بهدم الجوامع في القرى الدرزية، وآخر جامع بني في القرى الدرزية وهدمه الأمير بشير الثاني هو جامع المختارة الذي بناه الشيخ بشير جنبلاط سنة 1815 م. وعودة إلى أشرس أعداء الموحدين والعرب أجمع، الصهيونية فقد عملت السلطات الإسرائيلية على إظهار الدروز بمظهر منفرد فأعلنت في سنة (1957 م) اعترافها بالدروز كطائفة دينية مستقلة، مع أن وزير الأديان قد أعلن أنه لا ينوي اتخاذ مثل هذا الإجراء، لأن أحداً لم يقدم طلباً بذلك الخصوص.

واشتدت الجملة الصهيونية بعد ذلك لتميز بين (عربي) و (درزي) وقد اعتبر الدروز أمة منفصلة قائمة بذاتها تختلف عن الأمة العربية. وعمدت إسرائيل كذلك إلى تزوير الكتب الدينية والمعتقدات التوحيدية والإسلامية وسعت إلى دفع أحد المتعاونين معها لتأليف كتاب (الدروز في إسرائيل) يتحدث عن التعاون المشترك بين الطائفة الدرزية والشعب اليهودي، ويتضمن بحثاً واسعاً مزوراً عن حياة الطائفة الدرزية وتقاليدها وعاداتها يسيء إليها ويشوه صورتها الناصعة عبر التاريخ.

واخترعت إسرائيل (عيد النبي شعيب) الذي لم يشفع له قربه من النبي موسى[372] فصادرت إسرائيل أملاك وقفه، ومنعت الموحدين من الاحتفال بعيد الفطر المبارك انسجاماً مع المخطط الصهيوني لفصل الموحدين عن الإسلام. وقد رد كثير من المثقفين العرب الموحدون على ادعاءات الصهاينة تلك ومحاولتهم عزل الموحدين عن العروبة والإسلام، وكان الشاعر الفلسطيني سميح القاسم (من موحدي الرامة)) و عاصم الخطيب أحد قادة لجنة المبادرة الدرزية الذين ردوا على ادعاءات الصهيونية، فقد كتب عاصم الخطيب رسالة مفتوحة إلى (غولدامايير) رئيس الوزراء الإسرائيلية عام (1973 م) يوضح فيها بعض الحقائق التي تثبت عروبة الدروز وانتمائهم للعروبة والإسلام جاء فيها :

((تقول دائرة المعارف البستانية أن أجداد الدروز الحاليين عشرة ممن بايعوا الرسول (ﷺ) بيعة الرضوان تحت الشجرة.

2 _ الأنسيكلوبيديا العبرية نفسها تؤكد أن الدروز هم عرب أقحاح.

3 _ في نشرة داخلية سرية بمكتب مستشار رئيس الوزراء صدرت عام (1958 م) ورد في الصفحة / 6 / قول الدكتور حاييم بلانك ((لغة الدروز العربية، ولا مجال للافتراض أكثر أن أصل الدروز يختلف كثيراً عن أصل الناطقين بالعربية، ويخطئ من يعتقد الدروز ليسوا عرباً، فالدروز هم قح العرب)).)

وجاء في كتاب للدكتور سامي مكارم، الذي كتب مقدمته المرحوم كمال جنبلاط : ((.. ولا أكشف سراً إذا قلت أن نفس سورة الفاتحة في القرآن الكريم تتلى عند الموحدين في عقد الزواج، وفي صلاة الميت، الأمر ذاته فهي تتلى عند الموحدين، و بعض سور القرآن مثل سورة (يس) وسورة (الإخلاص)، وسورة (الناس)، سورة (التكاثر) وغيرها الكثير ولولا شراسة الظروف، وحماقة بعض الناس في طائفتنا نفسها، ولولا هول الأضاليل التي تحدث صباح مساء، لما قبلنا الجدال في موضوع عروبتنا، فقد كتب علينا أن نكون عرباً، ونحن قانعون بذلك)).

وقد ذكرت مجلة العربي الكويتية في عددها (38) وفي الصفحة (135) منه : ((تخبط المستشرقون في أصل الدروز، فمنهم من زعم أنهم من أصل أعجمي، ومنهم من أرجعهم إلى الجنس الهندي، ومنهم من نسبهم إلى الحثيين، ومنهم من قال أنهم من سلالة الغال سكان فرنسا القدماء، وتلك كانت مزاعم واهية، وخلط لا يستند إلى أساس من الحقيقة أو التاريخ. فالدروز عرب لا شك في عروبتهم تشهد بذلك نقاوة لغتهم العربية، كما يشهد أن فيهم بطوناً وأفخاذاً معروفة الأنساب إلى قبائل عربية ولا شك في عروبتها، مثل لخم وطي وتميم وغيرها)). ويقول الأمير شكيب أرسلان ((ولا يوجد في العرب الجالين عن جزيرة العرب، أصح عروبة من الموحدين يستدل على ذلك : أولاً : من سحنتهم العربية الصرفة وتشابه بعضهم البعض، وكان الإمام الشيخ محمد عبده كثيراً ما يبدي إعجابه من شدة هذا التشابه فيقول : إذا رأيت المعروفي كأنك رأيتهم جميعاً. ثانياً : من نقاوة لغتهم العربية وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة فلا يوجد في خارج جزيرة العرب من يتكلم بالعربية أو يتلفظ بها مثلهم. ثالثاً : التواريخ عند الدروز والتي عند الطوائف الأخرى المساكنة لهم في جبل لبنان متفقة على كونهم أبناء اثنتي عشرة قبيلة عربية هاجروا من ديار حلب إلى لبنان في أوائل عهد العباسيين، ولا تزال منهم بقية في الجبل الأعلى بجهات حلب.)).

5 _ مشروع الدولة الدرزية والدور الأمريكي الإمبريالي :

عندما احتلّت إسرائيل مرتفعات الجولان ، بدأت بالضغط على المواطنين السوريين السّنَّة والمسيحيين ودفعهم للهجرة من الجولات ، ولكنهم كانوا يتفادون الضغط على الموحدين لغاية رسمها زعماء الصهاينة ، وهي التي سوف تتكشف فيما بعد، ثمّ حاولت التقّرب من الزعماء الدينيين في الجولان، وكانت عائلة الكنج أكبر العائلات ولها الزعامة في الجولان ، ويمثلها الشيخ سليمان كنج أبو صالح، لذلك حاولت إسرائيل التقرّب إليه. وليس بقاء الموحدّين في قراهم إلاّ بدافع التمسك بالأرض والشرف وعدم التخلّي عنها، وهذا ما فعله الموحدون في فلسطين بعد النكبة ، لذلك وبعد تفريغ الجولان من أهله – عدا الموحدين الذين رفضوا المغادرة – بدأت إسرائيل التمهيد لتنفيذ المشروع الإسرائيلي الأمريكي لإقامة الدولة الدرزية بعد تأجيل قيام الدولة المارونية في لبنان التي كانت إسرائيل والإمبريالية تهيئ لإنشائها معتبرةً (جونية) عاصمةً لها حيث بدأت تركّز الاهتمام العمراني والاقتصادي والمالي في هذه المدينة التي أغلب ساكينها من الموارنة،. وبسبب بعض الخلافات بين الحلف الثلاثي (كميل شمعون – بيار الجميل– ريمون إدّة) والشهابين، ولذلك جعلت إسرائيل مشروع الدولة الدرزية هو الأهم وسعت للإكثار من زيارة آل الكنج مستخدمة اللين وإظهار المودّة والتقرّب تارةً والترهيب أحياناً وعندما وَجَدَتْ أن الموحدين لن يوافقوا معها لجأت إلى الخداع والحيلة. وكانت ترى في الأستاذ كمال الكنج أبو صالح غايتها ، لكنه كان يرفض أن يجتمع بالقادة الإسرائيليين أو حتى مناقشة ما يطرحونه فقامت إسرائيل بإرسال ضباط من المخابرات الإسرائيلية إلى الشيخ سليمان الكنج في مهمة توّضحت فيما بعد وطلبوا أن يرسل وراء كمال للحضور ، فرفض ، وعندها توجَّه الضباط الإسرائيليون إلى بيته واصطحبوه إلى بيت الشيخ سليمان ، وفي

مضافته التي حَوَتْ الشيخ سليمان والشيخ محمد كنج والشيخ أحمد طاهر أو صالح إضافة للضباط الصهاينة والأستاذ كمال أبو صالح ، بدأ كبير الضباط بقوله : ((أريد منكم أن تفهموا أنّ كرمنا معكم ومعاملتنا الحسنة بعد الحرب ليس من أجل مصلحتكم وحدكم بل لنا مصلحة مشتركة معكم ، ونحن معكم نهدف إلى إقامة دولة درزية نواتها الجولان ، فإذ1 تجاوبتم معنا فنحن سنكمل المهمة، وإلاّ يجب ألاّ تلوموا إسرائيل فيما ستعمله معكم وأولها تهجيركم من قراكم....)) فرفض الجميع هذه المؤامرة التي تهدف إلى سلخهم عن الأمة العربية وتقسيمها إلى دويلات طائفية متناحرة تخدم إسرائيل.

لكنّ الصهاينة لم يفقدوا الأمل فتارةً يحسّنون الخدمات في القرى الدرزية ، وأحياناً يلجأون إلى التهديد بالتهجير ، وأحياناً يشترون المحاصيل من الأراضي بأسعار خيالية. وبعد مناقشات طويلة بين زعماء المنطقة آل أبو صالح وغيرهم من وجوه الجولان تقرّر أن يكون كمال أبو صالح الصلة بينهم وبين السلطات الإسرائيلية كونه متعّلم يجيد لغات أجنبية ، ففرحت إسرائيل بهذه الموافقة وهللّتْ لها، ودعت كمال لزيارة تل أبيب ضيفاً يلاقي كلّ الحفاوة والتكريم محاولين بالطبع غسل دماغه في كل لحظةٍ لشرح كينونة الدولة الدرزية (الإمارة الدرزية) وكيفية إقامتها، ولكن هيهات أن تهزّ الجبلَ رياح الشر، وكان على رأس من يزور الأستاذ أبا صالح رئيسُ المخابرات الإسرائيلية وكذلك موشي دايان وإيغال ألون...

وكان كمال كنج يتظاهر بالقبول والاقتناع حتى يعرف المخططات كافة ، فاعتبر الصهاينة أنهم ظفروا به، فانتقلوا معه إلى المرحلة الثانية التي تقتضي عقد اجتماعات بين كبار المسؤولين الإسرائيليين مع كمال كنج وعدد من الزعماء الموحدين في لبنان وسورية، على ان تعقد هذه الاجتماعات في عاصمة أوربية ، كانت روما هي المكان المحدّد ، وطلبوا من كمال كنج ترشيح من يراه مناسباً ليكون أوّل المتعاملين معهم لإقامة الدولة الجديدة ، فاختار أبو صالح مقدّماً سابقاً في الجيش السوري وهو محام لبناني اسمه كمال أبو لطيف، دون أن يعطيهم معلومات كثيرة عنه وخاصةً كونه ضابط سابق في الجيش السوري، لكن الإسرائيليين أدهشوا أبا صالح بأنّهم يمتلكون ملفاً كاملاً عن أبي لطيف ، ورغم ذلك وافقوا على اختياره ربّما ليزيدوه ثقةً باختياره وتعامله معهم.

ثمّ نُقِلَ كمال كنج إلى روما يصحبه عقيد في المخابرات الإسرائيلية (الكولونيل يعقوب)، وبعد عدّة محاولات وصل كمال أبو لطيف إلى روما بعد أن شرح له أبو صالح المخطط

الإسرائيلي، والرد عليه وكيف يجب القبول به حتى يعرفوا ثم يتم كشفه للمسؤولين العرب في سورية ولبنان رغم ما يحمله ذلك من مخاطر على حياتهما، لكن حب الوطن والعروبة كان أقوى من أي شعور بالخوف على الحياة، فحمل الاثنان دمهما على كفيهما وتابعا الأمر.

وبعد لقاءات بين الكمالين والكولونيل يعقوب الذي ارتاح لهما بدأ الكمالان يستدرجان يعقوب ليعطي معلومات عن الخطط العسكرية التي رفض تماماً مناقشتها معهما، وبفضل ذكاء الكنج وزميله استطاعا الحصول على الخطط العسكرية وطريقة التنفيذ (سوف نذكرهما) وقد انظم لهما بناءً على طلب إسرائيل شخص من آل الأطرش من جبل العرب، وعندما صارت المعلومات جاهزة والنية الوطنية الصادقة موجودة دائماً لكشف المخطط الإسرائيلي كان لا بد من فضحه رغم ما يحمله هذا من تهديد بالموت لكمال كنج وأبي لطيب، لكن مرحباً بالموت في سبيل حياة الوطن والشرف والكرامة، لا مرحباً بالمال والجاه مع الذل والخيانة.

وكان أول العارفين بهذا المخطط المرحوم كمال جنبلاط الذي نقل بدوره المعلومات الخطيرة إلى العميد الأول يوسف شميط رئيس الأركان في الجيش اللبناني، والزعيم شوكت شقير، ثم وصلت المعلومات إلى سوريا عن طريق كمال أبي لطيف إلى العقيد عبد الكريم الجندي الذي أخبر القادة السوريين بالأمر، وبالمقابل وصلت المعلومات إلى الزعيم جمال عبد الناصر الذي أرسل بدوره من يقابل كمال أبي لطيف ويحصل منه على كافة المعلومات وبعض الأمور الأخرى[373].

وبعد أن عرفت إسرائيل بكشف المخطط اعتلقت الأستاذ كمال الكنج الذي تسبب مع صديقه أبي لطيف في إفشال المخطط الإسرائيلي، وخاصة بعد قيام الجبهة الشرقية من قبل سورية ولبنان والعراق ومصر، وأحالت إسرائيل كمال الكنج إلى محكمة عسكرية في القنيطرة وأصدرت بحقه عدة أحكام دفعة واحدة بلغ مجموعها 124 سنة.

على أن تنفذ بحقه أشد العقوبات البالغة 30 سنة وبعد أربع سنوات من اعتقال الكنج كانت إسرائيل تجري مفاوضات لتبادل الأسرى الطيارين الذين اعتلقتهم سوريا خلال حرب تشرين 1973، إلا أن الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد أصر على أن يظم كشف الأسرى الذين سيفرج عنهم من الأرض المحتلة كمال كنج، فرفضت إسرائيل في البداية لكنها اضطرت صاغرة بذلك إلى إصدار عفو عن الأستاذ كمال كنج وخيرته بين مغادرة بلدته إلى سوريا أو إلى لبنان، أو أن يظل في مجدل

شمس شرط عدم تعاطيه السياسة، فآثر البقاء بين أبناء بلدته ليتابع النضال الوطني ، وقد اعتقل مراراً لمقاومته مشروع ضمّ الجولان.

وبقي كمال أبو لطيف في لبنان في بلدته (عيحا) وقد أخذ الحذر في تنقلّاته وبذل النقيب سامي الخطيب جهداً كبيراً لتأمين حمايته.

فلله درّ بني معروف كيف علّموا الأعداء أنّ الوطن لا يباع ، وأنّ الشرف لا يباع، وأنّ الدماء ثمن كل ذرّة من تراب الوطن، ولله درّكما أيها الكمالان كيف ارتفعتما للعلا برفع الردى عن الوطن.

وقد أوضح الكشف عن المخطط أنّ إسرائيل كانت تسعى لإقامة الإمارة الدرزية (الدولة الدرزية) وفق ما يلي:

أولاً: الإمارة [374] (حدودها – عاصمتها – السكان – المقّومات الاقتصادية)

ثانياً : طريقة التنفيذ:

أولاً : الإمارة الدرزية:

هذه الدولة (الإمارة) التي خططت لها الإمبريالية والصهيونية هي مشروع قديم جديد، استعملت له الظروف السياسية والعسكرية في المنطقة لتنفيذه لولا كشفه كما ورد سابقاً . وكان المخطط الإمارة كما يلي:

1 _ حدود الدولة: تمتد هذه الدولة أو الإمارة من جبل العرب (الدروز) إلى الشاطئ اللبناني محيطة بإسرائيل وتشمل محافظة القنيطرة، وقضاء قطنا، وضواحي دمشق (بعض قرى الغوطة الدرزية) حتى قضاء حاصبيا وراشيا ثم الشوف، وقضاء عالية، حتى خلدة بما في ذلك بلدة الشويفات قرب بيروت.

2 _ عاصمة الدولة : حسب المخطط الموضوع، من المقرر أن تكون السويداء عاصمة الدولة المزعومة، أو أن يتم تحديد ذلك حسب مستوى التعاون الأكثر من الدروز مع إسرائيل، فإن كان دروز الجبل أكثر تعاوناً كانت العاصمة السويداء، أو تكون بعقلين هي العاصمة.

3 _ علم الدولة: علم الدولة المقرر هو العلم ذو الألوان الخمسة كما قررته فرنسا للدولة التي حاولت إقامتها في جبل العرب في (5) نيسان عام (1921 م) مع اختلاف بسيط هو أن العلم الذي صمم لهذه الدولة لا يحتوي (13) نجمة ولا يوجد في زاويته علم الدولة المنتدبة (فرنسا)

4 _ السكان : خطط لهذه الدولة أن تكون أغلبية السكان من الموحدين الدروز، حيث يكون المسلمون السنيون والشيعة القاطنون في لبنان الجنوبي (المشمول في حدود الدولة) وكذلك في حوران والبقاع الغربي مخيرين بين البقاء كأقلية لا شأن لها ضمن الإمارة أو الرحيل خارجها، وأما المسيحيون فلا ضير بقائهم ، ويمكن إشراكهم في الحكم كأقلية.

5 _ المقومات الاقتصادية : المقومات الاقتصادية للإمارة مضمونة من قبل إسرائيل بتعهدات إمبريالية أمريكية، حيث يصبح ميناء صور بعد تطويره الميناء التجاري الخاص للإمارة، ويبقى ميناء صيدا لتصدير النفط للخارج. ولتأمين الأمور الاقتصادية لهذه الدولة رصدت أمريكة مبلغ ثلاثين مليون دولار للبدء بهذا المشروع، وتهيئة الأجواء المناسبة لتنفيذ هذا المخطط المعادي للأمة العربية قاطبة، إضافة للمساعدات العسكرية والمالية المقدمة من الإمبريالية لتضمن بقاء واستمرار هذه الدولة.

ثانياً : طريقة التنفيذ :

لم تكتف الإمبريالية الأمريكية برسم تلك العناصر لإنشاء الدولة على الورق، بل رسمت خطة لتنفيذ ذلك المخطط وكادت تشرع بتنفيذه، بل نفذت قسماً بسيطاً منها، وهو احتلال جنوب لبنان، ولولا انكشافه والحمد لله لكانت قد نفذته فعلاً وأبعدت العرب عن بعضهم وفصلت الموحدين عن وطنهم الأم سوريا. وحسب الأوراق التي كشفها المحامي (أبولطيف) كانت طريقة تنفيذ الدولة الدرزية كما يلي :

1) تحت ستار مقاتلة الفدائيين الفلسطينيين تقوم القوات الإسرائيلية باقتحام واحتلال المناطق التي يتواجد فيها الفدائيون، ثم تقوم قوات أخرى باحتلال جنوب لبنان حتى صيدا. وتتوجه في نفس الوقت ذاته قوات مدرعة إسرائيلية خارقة الجبهة السورية على محور (درعا، إزرع، السويداء) وعلى محور القرى المتاخمة للحدود السورية الأردنية (المغير، خربة عواد، العانات).

2) تقوم حركات (سلبية) ضد الجيش الإسرائيلي المحتل، فيشجعها اليهود سراً ولا يقمعونها بعنف إلى أن تبلغ من القوة ما يكفي ظاهرياً لنشوب معارك بين الفريقين، يكون فيها النصر للدروز المحتلة مناطقهم باتفاق مسبق.

3) في تلك الأثناء يكون الاتفاق قد تم مع عدد من زعماء الدروز على الصمود في مناطقهم (المناطق المحررة)والمحافظة عليها كي لا تعاد إلى سوريا ولبنان تمهيداً لإنشاء كيان سياسي مؤلف من هذه المناطق (المحررة) يتمتع باستقلال تام ظاهرياً لكنه تابع لأمريكا سراً .

4) تتكفل أمريكيا بالاعتراف فوراً بهذا الكيان السياسي، وبأن تدفع الأمم المتحدة والدول الغربية السائرة في فلكها للاعتراف به، وتكون بذلك إسرائيل قد كسبت (حزاماً واقياً لها) حسب تعبير أحد القادة الصهاينة وهذا الحزام سوف يقيها شر الاعتداءات العربية سواء أكانت من الدول العربية وجيوشها النظامية أو من المقاومة والفدائيين.

5) بعد إنشاء الدولة الدرزية تقوم الإمبريالية الأمريكية بجعل لبنان وطناً قومياً مسيحياً، وقد كان هذا المشروع من أسباب اندلاع الحرب الأهلية في لبنان بين المسيحيين والموحدين وفقد آلاف الضحايا،وكذلك كان من ضمن هذا المخطط الاستعماري إنشاء دولة شيعية علوية في اللاذقية ودولة كردية في شمالي سورية تتعاطف مع حركة البرزاني، وبهذا المخطط الاستعماري تقلص الجمهورية العربية السورية إلى سوريا الداخلية وتضعفها وتشل قدراتها من ثم يتاح لها السيطرة عليها والتحكم فيها.

لذلك يبقى الهدف الأكبر للموحدين أينما تواجدوا وكيفما اتجهوا هو الارتباط بعروبتهم وعدم التخلي عنها، وما فعله موحدو الجولان عندما رفضوا التخلي عن هويتهم العربية السورية، ورفض الهوية الإسرائيلية هو دليل واضح على مدى ارتباط الموحدين بعروبتهم وتمسكهم بالإسلام، ذلك المعين الذي لا ينضب والذي يستمد منه كل العرب أخلاقياتهم وقيمهم،ولا يجب أن ننسى أو نغفل

ولو للحظة واحدة أن الإمبريالية وإسرائيل لم تتخليا عن مخططهما التآمري على العرب عامة، والموحدين بشكل خاص ولذلك على الجمع زيادة الارتباط ببعضهم وعدم السماح لأقوال بعض المتعصبين أو المتعاملين مع الأعداء بأن تنتشر بينهم، وتحاول تمزيقهم، ويجب عليهم أن يتمسكوا بعروبتهم وأن يرفضوا كل محاولات الأعداء بالتفريق بين أخوة جمعهم الله في لغة واحدة، وأرض وأصل وتاريخ واحد ومصالح وآمال مشتركة، ورغم الاختلاف البسيط في المذاهب فهذا لا يدل على التفرقة وإنما هو اختلاف اقتضته ضرورات الحياة، فالأخوة في الأسرة الواحدة نجدهم مختلفين بآرائهم واتجاهاتهم، لكنهم ساعة الشدة ينسون ما بينهم من خلافات ويقفون مع بعضهم صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص. فكونوا أيها العرب جميعاً كما قال الله تعالى : ((إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص))[375]

الباب الرابع
شخصيات توحيدية

الفصل الأول
سلطان باشا الأطرش

1- حياته

2- جهاده ونضاله

3- وفاته

4- مراثيه

سلطان باشا الأطرش

القائد العام للثورة السورية الكبرى (1888 م نضال وجهاد 1982)

((باسم الوطن السوري المقدس، وباسم استقلاله المبارك، أحييكم وأحيي فيكم العروبة الصادقة، والأنفة القومية، وأستصرخ منكم أمة عربية مشت على مناكب الدهر محمية الذمار، ما حملت عاراً ولا كان بحماها شنار [376]

((... أيها السوريون... تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي، تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن إرادة الشعوب من إرادة الله، وأن الأمم المتحدة المناضلة الناهضة لن تنالها يد البغي....)).

(بيان الثورة السورية الكبرى)

((... وصيتي لكم إخوتي وأبنائي العرب هي أن أمامكم طريقاً طويلة، ومشقة شديدة تحتاج إلى جهد وجهاد، جهاد مع النفس، وجهاد مع العدو، فاصبروا على صبر الأحرار ولتكن وحدتكم الوطنية، وقوة إيمانكم، وتراص صفوفكم هي سبيلكم لرد كيد الأعداء وطرد الغاصبين، وتحرير الأرض...)).

((من وصية المرحوم سلطان باشا الأطرش))

أولاً : حياته :

ولد سلطان الأطرش في بلدة ((القريا)) في شهر آذار عام (1888 م). والده هو ذوقان بن مصطفى بن إسماعيل الأطرش (الثاني) ووالدته شيخة بنت منصور بن إسماعيل الثاني وكان سلطان كبير إخوته الثلاثة، عاش في كنف والديه عيشة بسيطة سعيدة، وبعد أن تمكن القائد التركي ممدوح باشا من نفي زعماء الجبل وكان من بينهم والده ذوقان،

نقلته جدته زمرد إلى قرية (العانات) لأن والدته كانت قد توفيت أثناء ذلك، ومن جملة الذين رافقوا النساء والأطفال لتلك القرية لحمايتهم كان صالح الحلبي وهلال العطواني من بلدة (عرمان) وبعد استئناف القتال ضد حملة ممدوح التركية، اضطر الموحدون إلى ترحيل نسائهم وأطفالهم إلى البادية الشرقية ليكونوا بمأمن من المعارك الحربية فمكثوا في مكان يسمى (العبد وأولاده) الواقع بين الحرة والحماد حتى نهاية حرب ممدوح، وكان سلطان طفلاً آنذاك ضمن الأطفال،

Image

ثم عادوا إلى القريا. وفي عام (1910 م) جردت تركياً جيشاً كبيراً بقيادة سامي باشا، حيث خدع الأهالي واعتقل الزعماء، وكان من بينهم ذوقان، ثم حكم عليهم بالإعدام ونفذ الحكم الظالم

بهم.

وفي عام (1916 م) اندلعت الثورة العربية الكبرى منطلقة بداية من الحجاز بقيادة الشريف حسين فتوسعت وشملت كل البلاد العربية، وكان من الصعب أن يسمع الشاب نداء الوطن دون أن يلبيه، حيث شارك سلطان بالجيش العربي الذي قاده الأمير فيصل، الذي قاتل الجيوش العثمانية وحطمها وحقق النصر عليها، وكان سلطان مع رفاقه الثوار أول من دخل دمشق، حيث رفع أحد أعوانه العلم العربي لأول مرة فوق مبنى البلدية عام (1918 م). وكان سلطان قد تعلم في مدرسة بلدة القريا وتمرس على الفروسية منذ نعومة أظفاره وكانت تجربته النضالية الأولى في معركة (الكفر) عام (1910 م) ضد سامي، باشا وعندما أعدم والده كان قد جند إلزامياً مع الجيش العثماني. فتركه وانضم للثوار ضد الأتراك.

تزوج سلطان باكراً من ابنة عمه (غازية) ابنة فايز الأطرش، لكنها توفيت بعد سنة من الزواج، ولم تنجب له أولاداً، ثم تزوج من ابنة ((إبراهيم أبو فخر)) من نجران واسمها (تركية) فأنجبت له أبناء أربعة : طلال، وقد توفي صغيراً، ومنصور وناصر وطلال الثاني (سماه طلال على اسم ابنه البكر) واستمر سلطان يكنى بأبي طلال، وأنجبت سبع بنات هن : غازية، بتلى، زمرد، زكية، نايفة، عايدة، منتهى. كان سلطان صديق الأرض أحبها ساحة نضال، وأحبها معطاء خير، عمل بها حرثاً وزرعاً وغرساً، كان يتمتع بالتجوال بأرضه، يقلم أغصان أشجارها ويقطف ثمارها، وتفرح عينه برؤية تعبه يثمر خيراً وعطاء، وكان يهوى الصيد منطلقاً في بطاح الجبل وسهوله، يدفعه حبه للترحال والتجوال في الأرض.

ثانياً : جهاده ونضاله :

بدأ سلطان الأطرش جهاده منذ صغره، حيث اشترك في جيش الثورة العربية الكبرى، ضد الأتراك وكانت أول معركة يشارك بها هي معركة الكفر ضد سامي باشا، وكان أول من دخل دمشق مع رفاقه الثوار، ورفع أحد أعوانه العلم العربي فوق مبنى البلدية عام (1918 م) ولكن استقلال سورية وتحررها من الأتراك لم تدم فرحته طويلاً، إذ سرعان ما ظهر تآمر الاستعمار الغربي على تمزيق الوطن العربي. ففي عام (1920 م) نزلت القوات الفرنسية على السواحل السورية واضعة سوريا تحت الانتداب وفق تقسيم (سايكس بيكو) وعندما تصدى وزير الحربية السورية يوسف العظمة للجيوش الفرنسية في معركة ميسلون عام (1920 م) هب سلطان ورفاقه الثوار لنجدته، إلا أن المعركة قد حسمت يومئذ قبل وصولهم حيث قال سلطان يومها ((خسرنا معركة ولم نخسر الحرب)). وما ان وطأت فرنسا أرض سورية، حتى تفجرت الثورات ضدها، وكانت أولها ثورة الشيخ صالح العلي التي ابتدأت في كانون الأول عام (1918 م) واستمرت حتى تموز (1921 م) وفي حلب ثورة امتدت من آذار (1919 م) حتى تشرين الثاني (1920 م) وثورة إبراهيم هنانو من أيار (1919 م) حتى تموز (1921 م)، (والثورة السورية التي كانت شرارتها الأولى في جبل العرب بقيادة سلطان باشا الأطرش إثر إعتقال ضيفه أدهم خنجر الصعبي من جبل عامل، وآل صعب هم عشيرة قوية عريقة كان لها مجدها في دولة صلاح الدين الأيوبي، وقد حكمت عائلة صعب مقاطعة الشقيف وكان أدهم من المغاوير الشجعان الذين قاوموا الاحتلال الفرنسي وألقوا الرعب في قلوب الفرنسيين، ولما أضفت فرنسا سيطرتها على لبنان انتقل ادهم إلى سوريا ليقوم وإخوان له بهجمات أسطورية زعزعت فرنسا ومنها محاولة اغتيال غورو، وقد طاردته فرنسا وطلبته حياً أو ميتاً. ولما كان أدهم قادماً إلى السويداء لزيارة سلطان الأطرش قبض عليه مدير الناحية في السويداء مع صاحب له، ووضعا في السجن ليصار إلى نقلهما إلى دمشق ليعدما، فكتب أدهم رسالة إلى سلطان

يعلمه فيها بأنه كان قادماً ليكون ضيفه مشهداً[377] فاعتقله موظفو الحكومة بناء على تعليمات السلطة الفرنسية، ولما لم يجد سلطان ضيفه في منزله ولا في مخفر ((القريا)) أوفد أخاه إلى السويداء ليطلب من الفرنسيين إخلاء سبيل ضيفه أدهم ورفيقه محمد الصغير، لكنه قوبل بالرفض، فاتصل سلطان برقياً بدمشق مع المسؤولين ومع ذلك لم يلب طلبه، فقام بجمع أشقائه وكثيراً من أنصاره، واتخذوا من منزل (نجم عز الدين) من بلدة (الثعلة) مقراً لهم لمراقبة وقطع طريق السويداء _ دمشق كي يمنعوا نقل أدهم ورفيقه إلى دمشق وفي 21 تموز (1922 م) هاجم سلطان[378] ورجاله المصفحات الثلاث التي كانت تنقل المعتقلين، فقد دمروا اثنتين وقتلوا أربعة جنود وبينهم ضابط، وأسروا أربعة، ولكن المصفحة الثالثة التي كان بداخلها السجينان فرت إلى السويداء عائدة، ومنها نقل السجينان بالطائرة إلى دمشق، حيث أعدم أدهم وأنقذ محمد الصغير لنكران معرفته به.

يقول الشاعر رشيد سليم الخوري في وصف هذه القصة :

ولمّا صِرْتَ من مهجٍ الأعادي		بحيث تُذيقَها السمَّ النقيعا

وَثَبْتَ على سَنَامِ التنك وثباً		عجيباً عَلَّمَ النسرَ الُوقوعا

فيا لك غارة لو لـم تُذِعْها		أعادينا لكذَّبْنْا المُذِيْعَا

حيث أن الصحف الباريسية قد سجلت هذه الحادثة وأبرزت شجاعة المهاجمين وأعمالهم الخارقة. وقد انتقمت فرنسا بتدمير منزلي سلطان وحمد البربور، كما غرمت أهالي الثعلة ألف ليرة ذهبية، لإيوائهم سلطان ورفاقه، وقد أرسلت فرنسا قوة من دمشق بقيادة الليو تنان كولونيل (هوغ) ليقوم بإخضاع التمرد في الجبل، فجرى اشتباك بين الثوار والجنود بالقرب من (برد) جنوب (القريا) فأوقع الثوار خسائر كبيرة بالقوات الفرنسية، وغنموا الكثير من الأسلحة، وعندما قدمت نجدة من بصرى، تصدوا لها وكبدوها خسائر بالأرواح والعتاد، عندئذ وجهت فرنسا القومندان (آرلي) على رأس قوة من الفرقة الأجنبية الفرنسية تسندها المدفعية، فرابط الثوار في قرية (أم الرمان) استعداداً لمقاومة الحملة، وقصفت الطائرات القريا بالقنابل، مما اضطر سلطان ورفاقه للنزوح إلى شرقي الأردن من أجل مهاجمة القوات الفرنسية منها.

وفي عام (1925) أجمعت قيادات المناطق الثائرة ضد المستعمر الفرنسي على تسليم سلطان الأطرش قيادة الثورة السورية الكبرى التي دخلت التاريخ العربي كرمز بارز للبطولة والفداء، والتي كانت بداية الاستقلال، والصخرة التي تحطم عليها غرور الاستعمار وقد شكلت هذه الثورة خطراً كبيراً، وهدد المستعمر الفرنسي بمعاركه الكثيرة، فمنها في جبل العرب : الكفر، بصر الحرير، سميع، السجن[379] المزرعة، تل الحديد، رساس، عرى.....

وفي حمص : القصير، يبرود، قلعة جندل ومعارك مجدل شمس... وغيرها معارك كثيرة في الغوطة ومختلف المناطق السورية. حيث كانت معركة الكفر بادية المعارك في يوم 21 تموز 1925، حيث استطاع الموحدون أن يبيدوا الجيش الفرنسي بالبلطات والسيوف والخناجر والفؤوس، ولم يسلم من الحملة الفرنسية سوى خيالة ثلاثة فروا في بدء الهجوم. وكان القائد سلطان الأطرش يدير العمليات الثورية ولكنه لم يكن متفرداً في رأيه، بل كان قبل كل قرار حاسم يشاور المجاهدين في نقاش حر مفتوح، تدرس فيها الأمور على وجوهها جميعها، حيث كان هذا رمزاً للديمقراطية. حتى كانت معركة المزرعة _ قرب السجن (قديماً) _ حيث تجمعت جماهير الثوار يحملون أعلامهم وبيارقهم، بعد أن علموا بقدوم حملة فرنسية يقودها الجنرال (ميشو) وقد هاجم الثوار الحملة في بلدة الدور قبل وصولهم إلى المزرعة، ليعرقلوا مسيرها، وكانت مدافع الفرنسيين تقصف، لكن الثوار هاجموا بما ملكوا من أسلحة قديمة وقضوا على الحملة الفرنسية بكاملها، وحطموا المدرعات والمصفحات الفرنسية وقد نجا الجنرال ميشو من الموت بشق النفس على متن دبابة نقلته جريحاً إلى دمشق. وكانت خسائر الفرنسيين في هذه المعركة تسعة آلاف جندي، واستشهد عدد من الثوار في هذه المعركة مسطرين أروع مشاهد التضحية والفداء. وقال رشيد سليم الخوري في وصف بطولات الثوار وسلطان في معركة المزرعة :

خففتَ لنجدةِ العاني سريعاً   غَضُوباً لو رآك الليثُ رْيَعا

كأنّكَ قائداً منهم هضاباً   تَبِعنْ إلى الوغى جَبَلاً منيعاً

ويا لكَ (أطرشاً) لّما دُعينا   لثأر كنت أسمعنا جميعاً

كانت معركة المزرعة أعظم نصر ضعضع سلطة فرنسا وجعلها تخشى عاقبة هذه الثورة فترسل الجيوش والمعدات الحربية لتوطيد سلطانها، وقد شارك في هذه الثورة كثير من أبطال الموحدين في لبنان و حاصبيا وراشيا، و مجدل شمس والإقليم ووادي العجم. وقد أصدر سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية بيان الثورة[380] وزع في الجبل ودمشق و الغوطة، ونشرته الصحف ونشر في الصحف الرسمية المصرية بتاريخ 23 آب عام (1925).

واستمرت المعارك بعد أن هدأت الثورة، ولكن بشكل جماعات متفرقة حتى تحقق النصر والاستقلال وخرج المستعمر الفرنسي من سوريا في السابع عشر من نيسان عام (1946).

لقد كان سلطان الأطرش أحد قادة المرحلة الأولى من حركة التحرر الوطني العربي، ولكنه كان استثناء لقيادتها الإقطاعية والبرجوازية التي سرعان ما ساومت واكتفت بالاستقلال السياسي والارتباط بالاستعمار اقتصادياً، ولتعجز عن الوقوف في وجه الصهيونية التي اغتصبت أرض فلسطين.

كان سلطان من القادة الشعبيين لا يعرف إلا القوانين النضالية الصافية، ولغة السلاح أمام الاستعمار ورفض المساومة والمصالحة على حساب الشعب وأرضه. وكان زاهداً عن المغانم المادية واختار العيش وسط الشعب، وقرر ألا يستخدم نضاله من أجل المنافع الشخصية ورفض أي مكسب أو امتياز خاص، فقد رفض العرض عند استقلال سورية بأن يكون رئيساً للجمهورية، وقرر أن يبقى فلاحاً يعمل بأرضه ويأكل من خيراتها.

كان فلاحاً ولم يكن باشا رغم اللقب الذي اقترن باسمه وقد رحب بأول وحدة عربية في التاريخ المعاصرة بين سوريا ومصر، وقد التقى بالرئيس الخالد جمال عبد الناصر وشد على يده معرباً عن أمله في تحقيق الوحدة العربية الكبرى. وبعد خروج الاستعمار، انعزل سلطان في الجبل وظل صامداً شامخاً يمثل أروع تقاليد النضال والارتباط بالشعب.

ثالثاً _ وفاته :

من حقه أن يتعب من سبق القرن إلى الولادة وكان ترباً له، ومن لم يتنكر لقدره، منغرساً في بيئته منذ نعومة أظفاره، ومن حقه أن يستريح بعد نضال طويل، لقد تردد الموت طويلاً قبل أن يبلغ سلطان مذكرة الجلب، اخيراً دخل عليه باحترام وهيبة ورافقه سلطان راضياً مرضياً. كم تمنى أن يرافقه شهيداً ليكون مع الخالدين لكنه شهيد بأفعاله، وأقواله، ونضاله نضال الشهيد.

ففي نهار الجمعة في السادس والعشرين من آذار عام (1982) توفي القائد الملهم، ورمز البطولة والنضال، وقد سجي في تابوت أعلاه من البللور ومخصص للتبريد. ولن تعجب إذا قلت إن فرنسا هي من أرسلت هذا التابوت لتكريم هذا المناضل الكبير، حتى وإن كان يناضل ضدها، وضع التابوت وسط المضافة في القريا، حيث أخذت وفود المعزين تلقي النظرة الأخيرة عليه. وفي مساء السبت (27) قام الرئيس الراحل حافظ الأسد بزيارة إلى دار الفقيد بالقريا ليلقي نظرة الوداع على الفقيد الكبير وقراءة الفاتحة على روحه الطاهرة وكان برفقته وفد من المسؤولين في الحزب والدولة. وفي صباح يوم الأحد (28) آذار أقيم في الملعب البلدي بالسويداء حفل تأبيني ضم أكثر من نصف مليون شخص، وفي الساعة التاسعة حطت في الملعب البلدي طائرة هيلوكبتر ناقلة جثمان الفقيد ومنها رفع على عربة مدفع إلى وسط أرض الملعب، تتقدمها فرقة المراسم التي كانت تعزف الموسيقا الجنائزية وقد رفع الجثمان على الأكف والأعناق من قبل أبناء جبل العرب ومن أفراد القوات المسلحة طيلة مدة حفل التأبين الذي استمر أربع ساعات. وقد حضر الحفل كبار المسؤولين في الحزب والدولة، ووفود من كافة قرى الجبل و الغوطة ودمشق والجولان المحتل، ووفود من معظم الدول العربية وكان أكبرها وفد موحدي لبنان الذي ضم الآلاف يتقدمهم المرحوم شيخ عقل الطائفة في تلك الفترة (محمد أبو شقرا)، والأستاذ وليد جنبلاط وزير المهجرين والزعيم السياسي

البارز للموحدين، والأمير فيصل أرسلان والوزير مروان حمادة، وقاضي المذهب في تلك الفترة الشيخ شريف أبو حمدان، ووفد الجولان وعلى رأسهم اللواء المتقاعد نور الدين أسعد كنج والمجاهد منير الريس، وممثل السيد الرئيس الراحل حافظ الأسد وهو رئيس الوزراء د. عبد الرؤوف الكسم في تلك الفترة وكثيرون كثيرون.....

وقد ألقيت كلمات في حفل التأبين، تذكر سجايا الفقيد وبطولاته، وقد تكلم الشيخ أبو شقرا، وكان من كلماته هذه الأبيات :

سلطانُ لستَ تكون أعظمَ حُرْمَةً	لو توَّجوك على الحِمى سُلطاناً
إنَّ البطولةَ في جلالِ مقامِها	تضعُ الملوكَ وتزدري التيجانا
فخُذِ الطريقَ على الذين تعوّدوا	أن يستغلّوا الدينَ والأوطـانا
فشعارُنا وطنُ العروبةِ وحدَه	وعليه ملقانا معاً... إخـوانَا

وتكلم الوزير وليد جنبلاط قائلاً : (إن وداع صقر الجبل كان قراراً وطنياً عربياً مستقلاً هذا القرار الذي من أجله ناضل وقاتل وضحى سلطان. وهذا هو القرار الذي من خلاله انتصر وانتصر وعاش سلطان، فذاك الوداع الجماهيري الكبير ليس بالوداع، إنه استعادة الأبطال واستعادة بطولاتهم.... هكذا كان وداع سلطان. إنه مثلث البطولة من القاهرة إلى المختارة إلى السويداء، محاولة تجسيد للبطولات في ذات الجماهير المستمرة، ولم يكن جبل العرب وبنو معروف ولم تكن سوريا وبلاد الشام إلا لتحيي وتنادي سلطاناً كبيراً) وقال ميشال أبو جودة في رثاء سلطان : ((حين هدأ قلب سلطان انطفأت منارة على الجبل، وحين أعلن نبأ موته مال الكثيرون إلى عدم التصديق لأنهم في هذا الزمن المجدب يتمسكون بالرموز التي تعني الذاكرة والقلب معاً، التي تحمي وتحصن، ولأنهم لا يريدون لبطل أن يموت على فراشه كأنهم يحتجون على نجاح المرض حيث فشل الرصاص، وعجزت المعارك، تعب الجسد كسيف أنهكته حروب طويلة ومواقف ناصعة، من حقه

أن يتعب وأن يخلد إلى الراحة، إذ ليس أشقى من الهمم الكبيرة على الجسد، فهي ترهقه إذ تكرهه السير معها، ولا تغفر له تعبه أو توانيه.)). وقد تلا منصور الأطرش نجل الفقيد، وصية المرحوم سلطان إلى العرب أجمع وفيما يلي نصها الكامل :

((بسم الله الرحمن الرحيم. إخواني وأبنائي العرب ! عزمت وأنا في أيامي الأخيرة أنتظر الموت الحق أن أخاطبكم مودعاً موصياً، لقد أولتني هذه الأمة قيادة الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي الغادر، فقمت بأمانة القيادة، وطلبت الشهادة وأديت الأمانة. انطلقت الثورة من الجبل الأشم لتشمل وتعم، وكان شعارها الدين لله، والوطن للجميع، وأعتقد أنها حققت لكم عزة وفخاراً، وللاستعمار ذلاً وانكساراً.

وصيتي لكم إخواني وأبنائي العرب هي أن أمامكم طريقاً طويلة، ومشقة شديدة، تحتاج إلى جهد وجهاد، جهاد مع النفس، وجهاد مع العدو فاصبروا صبر الأحرار، ولتكن وحدتكم الوطنية وقوة إيمانكم وتراص صفوفكم هي سبيلكم لرد كيد الأعداء وطرد الغاصبين وتحرير الأرض واعلموا أن الحفاظ على الاستقلال أمانة في أعناكم بعد أن مات من أجله العديد من الشهداء، وسالت بالوصول إليه الكثير من الدماء.

واعلموا أن وحدة العرب هي المنعة والقوة وأنها حلم الأجيال وطريق الخلاص، واعلموا بأن ما أخذ بحد السيف، بالسيف يؤخذ، وأن الإيمان أقوى من كل السلاح، وأن كأس الحنظل بالعز أشهى من ماء الحياة مع الذل، وأن الإيمان يشحن بالصبر ويحفظ بالعدل ويعزز باليقين ويقوى بالجهاد. عودوا إلى تاريخكم الحافل بالبطولات، الزاخر بالأمجاد، لأني لم أرَ أقوى تأثيراً في النفوس من قراءة التاريخ لتنبيه الشعور، وإيقاظ الهمم لاستنهاض الشعوب، لتظفر بحريتها وتحقق وحدتها وترفع أعلام النصر، واعلموا أن التقوى لله، والحب للأرض، وأن الحق منتصر، وأن الشرف بالحفاظ على الخلق، وأن الاعتزاز بالحرية والفخر بالكرامة، وأن النهوض بالعلم والعمل، وأن الأمن بالعدل، وأن بالتعاون قوة. الحمد لله، ثم الحمد لله، لقد أعطاني عمراً فقضيته جهاداً، وأمضيته زهداً، ثبتني وهداني، وأعادني بإخواني، أسأله المغفرة، وبه المستعان، وهو حسبي ونعم الوكيل.

أما ما خلفته من رزق ومال فهو زهد فلاح متواضع تحكمه قواعد الشريعة السمحاء.

((سلطان الأطرش))

رابعاً : مراثي سلطان الأطرش :

كثرت القصائد والملاحم في رثاء المرحوم سلطان الأطرش، كلها تندب فارساً قضى عمره جهاداً ونضالاً، ومنها :

قول محمد حديفي :

صُغْنَاكَ بالأمسِ يا تاريخُ ملحمةً   فكيفَ سجّلتَ للدنيا سَجَايانا

في كلِّ حَرْفٍ يَطُلُّ المجدُ منتشياً   وفي السطورِ دماءٌ من ضحايانا

يا سيّدَ الساحِ يا ليثاً بمعتَركٍ   يا ناطقَ الحقِّ كم أسقطتَ تيجانا

يحومُ النعشُ فوقَ (الكفرِ) يقرئُها   سلامَ صبٍّ إلى المجدِ الذي كَانَا

ثمّ يلملمُ في جنحيه (مزرعةً)   يعبُّ منها عَبير النصرِ نَشوَانَا

قول اللواء المتقاعد عبد المجيد التجّار :

قِفْ في حِمَى المجدِ إجلالاً وعرفاناً   وَدِّعْ زعيمَ بني معروفَ سُلطانا

و حيِّ صارمَهُ البتارَ مستمِعَاً   إليه مَنْ ينبيكَ تَبْيَانا

أغمدتَ سيفَكَ في صَدرِ العدِوّ ولمْ يرهبْكَ غزو فرنسّي تحدَّانا

نَكَّستَ أعلامَهُمْ في كلِّ معركةٍ فكُنْتَ أشجعَ من لاقوُه إنسانا

ما ماتَ من وَسَمَ الدنيا بِمَيْسَمِهِ وخلَّدَ الذِّكْرَ أحقاباً وأزمانا

فارقُدْ وأنتَ قريرَ العينِ مغتبطٌ فطيّب الذكرِ يبقى الدهرَ سُلطانا

وقول الأستاذ المرحوم عيسى عصفور :

حَيِّ المروءةَ في مِحْرَابِ سُلْطَانا وأخشَعْ لمثواهُ إجلالاً وعِرْفانا

ما ذاكَ قبرٌ و لَكنْ قمّةٌ شَمَخَتْ وطاولَتْ موكِبَ الجوزاءِ مَيْدَانا

دَرْعُ العروبةِ في إبّان محنَتِها صانَ العروبة آفاقاً وشُطْآنا

عُذنَا بسلطانَ لما عابنا نفرُ تقمّصوا سيرَةَ الأبطالِ أَوْثَانا

لبيّك يا صانعَ التاريخِ ملحمةً إنّا على العهدِ لَنْ تبلَى سَجَايانا

وكتب الدكتور فريد عقل ملحمة شعرية طويلة تحمل عنوان : (الثورة.... أو سلطان الأطرش)، وفيها وصف دقيق للثورة و بطولاتها، ويرثي القائد الخالد سلطان..يقول :

قالوا : بَكَتْ تغلبُ و الندبُ في مُضَرِ و المهرجانُ تنوحُ غرةُ الغُرَرِ

قلتُ : اقرعوا الطبلَ قوموا لا أبا لكمُ هَزّوا الرماحَ و ردُّوا غزوةَ القَدَرِ

بَيَارقُ الأمسِ فـي سهلٍ وفي جَبَلٍ   و رفقةُ السَّاحِ من بدوٍ ومن حَضَرِ

تحفُّ بالمجدِ مخضوباً و محتضَّراً   بل هادراً و خطيباً غيـرَ محتضِرِ

وتلكَ مزرعةُ الأبطـالِ موردُهَا   صارَ اللظى وخضيبُ التربِ من شرَرِ

(ميشو) تُجَّرِرهُ عرجاءُ نازفةٌ   والجندُ قد نَفَقَتْ والخيلُ في خَوَرِ

لكنَّ حورانَ روَّتْ من صفائِحِهَا   بِيْضَ الصفائحِ فـي درّيةِ الدُّرَرِ

تظلُّ تخفقُ فـي الريّانِ رايتُه   يا رايةَ المجدِ من ريّانِنا انتشري

وقال الشاعر المهجري زكي قنصل في الأرجنتين يرثي سلطان :

حُسَامُكَ... أمْ هُوَ الموتُ الزؤامُ   وصوتُكَ أم قضاءٌ لا ينامُ

و وجهُكَ أم كتـابٌ من نضالٍ   لـهُ بَدْءُ وَليسَ لهُ خِتَامُ

أميرَ السيفِ سيفُكَ مِن سقامٍ   يحِزُّ أضالعي هذا السَّقامُ

وقال الشاعر جورج شدياق من فنزويلا يرثي سلطان :

ضَاقَتْ بنَسرِ الذُرى الأنجادُ والقِمَمُ   فَعَافَها ومَضى بالله يعتصِمُ

في ذمّةِ اللهِ فَذٌّ.. قائِدٌ... بَطَلٌ   أندَتْ شمائِلَهُ الأخـلاقُ والقِيَمُ

وقال الشاعر محمد البزم عن معركة المزرعة :

غَادِرْ دمشقَ و يمّمْ دارَ سُلطانا   على السويدا ولا تحفلْ بِمَنْ مَانَا

جُلْ في حِمَاهُ و لا تَعْدِلْ بدارتُه   أفياءُ غمدانَ أو مَنْ شَادَ غمدانا

يا آلَ معروفَ هذي ذمّتي ويدي   رهينة الودِّ عن أبناءِ قحطانا

أشبعتم الطيرَ من أشلائِهم جُزُرَاً   فهل حسبتم وفودَ الطيرِ ضِيْفَانَا

هو ذا سلطان الأطرش، نسر محلق في سماء الوطن، ونجم ساطع ما أفل، من عطره ننشق عبير الثورة، ومن ذكراه معنى الحرية والبطولة، فارس مقدام وبطل همام، ومجاهد عظيم وشيخ ورع جليل، وأخ لكل المجاهدين وأب لكل الموحدين. إذا عقد حاجبيه وقطب جبينه تلمح كلمة الله عليه ارتسمت، رحمه الله وجعله وأمثاله هداية لنا ومنارة على ضوئها نسير نحو الحرية والمجد.

الفصل الثاني
كمال جنبلاط

1 _ حياته

2 _ أعماله

3 _ هو والتوحيد والعرفان

4 _ رحلته إلى الهند

5 _ مقتطفات من فكره

6 _ أدب الحياة

7 _ فلسفته

8 _ شعره

9 _ استشهاده

كمال جنبلاط

معلم المفكرين وفيلسوف الموحدين (1917 __ 1977)

((وهل من شيء أشرف من العبور فوق جسر الموت إلى الحياة التي تهدف إلى إحياء الآخرين وإلى إعطاء قضيتهم قوة الانتصار مع الزمن وإلى ترسيخ مثال الصمود والتضحية)).

أموتُ ولا أموتَ فلا أُبالي   فهذا العمرُ من نسجِ الخَيَالِ

هي الأيامُ تجري في دِمَانا   أم الحقُّ المكوّنُ ألفَ حالِ

((إذا كان الدين حقيقة فيجب أن تعلن هذه الحقيقة))

((المطلق هو أنت، وأنت هو المطلق دون أن تدري))

((الموت تسمية خاطئة لأنه لا يوجد))

((كل شيء هو الوعي.... هو النور))

كمال جنبلاط رحمه الله

ليس من السهل إيجاز الحياة لهذا القائد والمفكر العظيم بأسطر، دون المجازفة بإعطاء صورة جزئية وناقصة، ومع ذلك فإننا نجازف بهذا ويبقى البحر لا تستطيع مياه النهر إحاطته......

أولاً : حياته :

ولد كمال جنبلاط في السادس من كانون الأول عام (1917) في قلب الشوف بالمختارة والده الشهيد فؤاد جنبلاط الذي اغتيل في كمين نصب له في وادي عينبال بينما كان في جولة تفقدية، فتولت والدته السيدة (نظيرة جنبلاط) التي كان لها دور كبير بالسياسة رعايته وتربيته وتهيئته للأمور السياسية القادمة، قضى طفولته في المختارة دارساً ومتعمقاً في الحياة، كان في طفولته هادئ الطبع، يحب الوحدة والانفراد، يحلم بالمستقبل البعيد، قلما يلهو كالأطفال الذين في سنه ويتصرف كمن يريد أن يسبق عمره وجيله، تشع على جبينه مسحة نورانية حالمة. كان متواضعاً يحب الفقراء ويعطف عليهم ويساعدهم يقول : ((أنا لست من الغنى بقدر ما يقال، وإن كنت أحب أن أكون كذلك لأمضي في الاقتسام قدماً معطياً أغنياء هذا العالم أمثولة، وأنا أعتبر أنه ينبغي على المرء أن يعيش عيشة متواضعة ذلك أن الحياة البسيطة تصنع الغبطة، أما اصحاب الامتيازات فليسوا سوى (قيمين) لدى الآخرين، وسواء أكان للمرء ملكيات كبيرة أم لا فإن كل ما يتجاوز النفقات الضرورية يجب أن يذهب للآخرين فأنا لا أؤمن بهذا المجتمع العبثي البشع مجتمع الاستهلاك)). وكانت قصة اليتم أشد الأمور ألماً في قلبه، ذلك أن اليتيم يعيش في كنف مستقبل مجهول يواجه الفقر والحرمان، وكانت فرحته كبيرة عندما يتصل بالأطفال اليتامى ويتحدث إليهم وتبدو شفافيته ذات العمق الإنساني واضحة وقد اغرورقت عيناه بدموع الحزن والشفقة، وفي عام (1927) انتقل كمال جنبلاط إلى مدرسة عينطورة للآباء العازاريين في كسروان وأنجز بتفوق دراسته التكميلية والثانوية حتى العام (1937) وقد لاحت تباشير الحرب العالمية الثانية في الأفق ثم قرر الدخول في التعليم الجامعي فسافر إلى باريس ودخل جامعة السوربون وعاد منها عام (1939) بشهادتين في العلوم الاجتماعية، وعاد إلى وطنه وانتسب إلى كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف (اليسوعية) في بيروت ونال إجازة في الحقوق، وتدرب لعام واحد في مكتب المحامي (كميل

إدة) وعمل كمحامي (1941 _ 1942) وفي عام (1943) وقبيل استقلال لبنان خاض المعترك السياسي، وبعد وفاة نسيبه ((حكمت جنبلاط)) انتخب نائباً عن جبل لبنان وسمي آنذاك نائب الربيع، ثم عين وزيراً للداخلية عام (1947) وكذلك سمي وزير الربيع، وقد كتبت عنه آنذاك مجلة (أخبار العالم) في 28 آذار (1947) مقالاً جاء فيه : ((... كمال جنبلاط الوزير الذي ينعم بربيع حياته، إنه الآن في الجبل يصطاد أو يستجم، فهو يستقبل الربيع في حضن الطبيعة، بعيداً عن الضجيج الذي خلفه وراءه في عاصمة لبنان بعد القنبلة[381] التي ألقاها. ولو لم يكن الوزير الجنبلاطي شاباً ملء برديه دم الشباب الحار، وجرأة الشباب، وصراحة الشباب وحمية الشباب، لو لم يكن الأستاذ جنبلاط كذلك لما ألقى تلك القنبلة التي كان صداها وساماً على صدره.

إن الربيع يريد وزراء في ربيع أعمارهم، يريد رجالاً لا يعوزهم عزم الشباب وإقدامه ولا ينقصه نشاطه وحيويتهم)).

وبين الانتداب الفرنسي وجلاء جيوشه عام (1946) خاض كمال جنبلاط نضالاته الأولى في سبيل إصلاح النظام السياسي نحو العدالة والديموقراطية. وفي عام (1948) اقترن بالآنسة مي شكيب أرسلان وأنجب وحيده وليد عام (1949) الذي حل محله وملأ الفراغ بعد استشهاده.

ثانياً : أعماله :

في حرب الوطن والمقاومة كان كمال جنبلاط الوطني المقاوم المتوحد الموحد، العادل الحازم، الناقد الصعب، المسؤول الملتزم، وفي عملية التغيير كان مقداماً على الجديد المحرر، بقدر ما كان أميناً على القديم الصالح. منه وإليه تتلاقى وتنطلق روافد فكرية وتيارات حضارية متنوعة تجمعها وحدة الإنسانية في النهاية.

كان طموحه ان يرى وطناً واحداً، لا تتداخله عصبية ولا تمزقه فرقة، وإنما توحده من داخله إرادة العيش المشترك بين جميع اللبنانيين، في الأول من أيار أعلن تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي من عام (1949) وفي عام (1956) وقف إلى جانب مصر عبد الناصر ضد العدوان الثلاثي عليها واشترك في الحكم مراراً بين عامي (1960 _ 1970) بيانه السياسي الأول كان في تشرين الأول عام (1943) ((نداء إلى الأمة)) وجهه إلى المجلس النيابي،.

قصيدته الأولى كانت عام (1945) بعنوان (أفيقي) وله كتابات كثيرة ودراسات متعددة مثل (لبنان والعالم العربي) و (الوجه الأخلاقي للدروز) و (حقوق الإنسان والحرية) و (أدب الحياة)، وأشعار كثيرة بعنوان (فرح) وكتاب تعريب (نكون أو لا نكون) وله كتاب (جدلية هراقليطس) وله عشرات القصائد بالفرنسية والإنكليزية ظهر منها كتاب (ANANDA FELIETE) وله معربات لأشعار هندية منها (الصديق الخالد) و (في وهج التوحيد).

كان دارساً متعمقاً في دين التوحيد ومسلك العرفان، وسافر إلى الهند والتقى حكماءها وبحث في أصول هذا الدين وأقدميته، وله فيه مؤلفات كثيرة وقال في إحدى كتاباته[382] ((... في الدين التوحيدي الذي يمكن أن نركز جذوره التاريخية الأساسية في الانفصالية الشيعية من جهة عن طريق شيعة القرامطة خاصة وفي الفلسفة الأفلاطونية اليونانية الأصل، التي ازدهرت في الاسكندرية والتي أخذ عنها المعتقد نظريات كثيرة، كالانبثاق، والعقل الكلي والكلمة، والنفس، وغيرها. في المذهب التوحيدي أسطورة في غاية الجمال والروعة ترجع بنا إلى اليوم الذي خلق فيه مولانا العقل الذي منه انبثقت فيما بعد الكائنات تقول : ((فنظر العقل إلى نفسه فزها وتباهى، فخاف الله عليه عاقبة الزهو فخلق له الضد بين يديه، والضد هو أساس الشر في العالم)).)

ثالثاً : هو والتوحيد والعرفان :

إن الحياة انتصار للأقوياء في نفوسهم، لا للضعفاء. كمال جنبلاط كان رجلاً جاهد فانتصر لأنه قوي في نفسه، عمر قلبه بالإيمان، فآمن بالعلم سبيلاً إلى المعرفة، وبالفضيلة قرينة للعلم، فسكب في سراج العرفان الزيت ليشع نوره ويتعالى. وتعهد نبع العرفان ليبقى صافياً سلسبيلاً، عمل جاهداً لإنقاذ الآخرين وخاصة النشء الصاعد من الضلال والجهل وساهم في إنشاء مدرسة العرفان في الشوف لترشد وتعلم أصول العرفان وتحمي الجيل من الضياع. لقد درس كمال التوحيد وتعمق في العرفان وله فيه تأملات ودراسات كثيرة. يقول في إحداها :

((... من هم الموحدون ؟ إن أساس عقيدتهم قائم على طلب الحكمة فليس سوى الطالبين بمستطيعين قراءة الكتب المقدسة التي تسمى (كتب الحكمة) إنها امتداد للمدارس الهرمسية اليونانية أو المصرية _ مدارس السنة الباطنية التي انتقلت إلى التصوف الإسلامي، وفي أيامنا هذه فإنه ليس لغير الموحد الذي عرف (الرسالة) في حياة سابقة أن يتلقاها، وهذا إذا كان أهلاً لذلك، ولا بد لنا هنا من أن نذكر أن (الدروز) أي أصحاب المذهب التوحيدي الذين يشبهون الهنود من أصحاب كتاب (الفيدا) منتشرون تحت تسميات أخرى في كافة أديان العالم، يمثلون بالتالي أكثر من ربع البشرية، وسيفتح دور أو طلب أو طلاب جديد في حدود سنة (2000) بتجل إلهي وظهور رجل حكيم جديد، وعند ذلك يفتح الطريق من جديد، ويصير بإمكان جميع الناس من كافة أصقاع العالم سلوكها......)). وقد درس كمال جنبلاط المذهب التوحيدي دراسة معمقة مكنته من الشروع في عمل تحليلي، وقد تفهم هذا المذهب على هدى تعاليم (الفيدانتا أدفيتا) الهندوكية، والفلسفة اليونانية اللتين أتاحتا له اكتشاف مفاتيح الأسرار التوحيدية، ذلك أن العرفان التوحيدي هو ذات العرفان (الغنوصية) الذي يمكن أن تجده في كل مكان من العالم، والذي نجده عند حكماء الهند

وحكماء (الأوائل) واضطلاعه هذا ومعارفه أعطته نوعاً من السلطة الروحية لا الدينية.. وقد كان المشايخ والطالبون يفدون المختارة لرؤيته فكانوا يصلون معاً، ويقومون ببعض التأملات وكان يقرأ لهم بعضاً من أحاجي فكر الأدفيتا الهندوكي القديم الذي جرى استخلاصه بطريقة دقيقة عبر العصور.

يقول في كتابه (هذه وصيتي) ص / 50 / :

((... وعلى أي حال فإن الموحدين يعتقدون أن التجلي الأول، أي تجلي حكمة العلي قد حدث في مدينة (جيم ماتشين) الخيالية، في الهند من بضعة ملايين من السنين، فإذا كان الغربيون يحسبون بالألف من السنين فإنا نحسب بالملايين وعشرات الملايين من الأعوام.))

والتوحيدية كما وضحها، هي ملة الوحدة الأساسية بين الأشياء والكائنات، إنها وحدة الكون الجوهرية في صيغته الروحية والطبيعية الفيزيقية في آن معاً، أي كما لو كانت العناصر من ذات الخليقة، ومن ذات الجوهر الباطن. ففي بدء الأشياء كلها، لم يكن الله والعالم والروح يشكلون إلا كلاً واحداً، وقد ساهم كمال جنبلاط في جعل الموحدين يعاودون اكتشاف هذه الوحدة الأساسية البسيطة التي تعبر عن نفسها في كتب (الحكمة) والتي تغيبت عن أبصارهم بعض التغيب عبر العصور. وقد عمل كمال جنبلاط حوالي اثنتي عشرة سنة ليعرفهم ببعض كتبهم المفقودة ولكي يجعلهم ينسخون بواسطة نساخ أجاويد الكتب الأصلية التي عثر عليها، لما للكتاب المخطوط (من سلطان نفسي) أعظم من الكتاب المطبوع، فالجهد والتوتر الذهني والتآلف الذي يقدمه الناسخ يولي هذه الكلمات قدرة عظيمة على الإيحاء والتعبير، بينما نجد حروف المطبعة جامدة لا إحساس فيها ولا انفعال. إن مذهب الموحدين على حد تعبير فيلسوف الموحدين (كمال) مذهب تأمليين، أعطت شأن الفلسفة اليونانية، معنى للحياة والمجتمع وللمصير البشري، وخير شاهد على ذلك قول أحد حكمائها (أرسطو) : ((إن هدف الحياة تأمل العقل)) إنها إذاً ليست كسائر الديانات ترتكز إلى الإيمان، فالمهم بالنسبة للموحدين إنما هو الاقتناع الداخلي، هو أن ترى وتحقق الحقيقة الداخلية، ومعرفة الذات و التعرية الذهنية لكل شيء من أجل معرفة المطلق، إنها ديانة زهاد روحانيين وعرفانيين يمارسون الحياة، إنها ديانة أخلاق بقدر ما هي ديانة معرفة، وما قول (أعرف نفسك بنفسك) التي تصدر ذهنية الحقيقة إلا أحد مرتكزات هذه الديانة.

يقول في الموضع والموضوع ذاته : ((.... وليس لدينا كنيسة ولا مسجد بالمعنى المعروف للكلمة، بل لدينا (مجلس) أي الموضع الذي يجتمع فيه الأجاويد كل مساء خميس ليصلوا معاً، غير أن المجلس بالنسبة للموحدين ليس موضعاً مخصصاً للعبادة على وجه الحصر، كما أن الذهاب إليه ليس إلزامياً. فبوسع الطالبين الصلاة في منازلهم، وبوسع الدرزي أن يذهب إلى المجلس أو أن يتخلف عن الذهاب إليه إنه حر. وهناك بخلاف ذلك (الخلوة) وهي ضرب من الرهبانية، يعتزل فيها العالم ليقرأ أو ليتأمل، وفي الشوف خلوة (القطالب) وهي أبعد بقليل من (عين قني) ويفد إليها بخلاف جماعتنا طالبو جبل الدروز (العرب) في زيارة عابرة أو للاستقرار والعيش فيها حياة.... النساك، وهؤلاء بالعادة أناس بسطاء سليمو الطوية ويطمحون إلى القداسة.

والموحدون يقظون نشيطون ولكنهم يتصرفون في الآن ذاته في المجتمع بكثير من الكرامة والأدب، وهم مهذبون يستخدمون كلمات خاصة لترجمة انفعالاتهم وتفسير أفكارهم وينطقون بالعربية بأفضل مما يفعل الآخرون، الأمر الذي ينم عن جذورهم العربية الأصيلة وذلك باستثناء بعض العائلات التي وفدت من المغرب أو من الأناضول، وتترصع لغة الدروز بالأمثال وصيغ المجاملة بعبارات باتت وقفاً عليهم...)).

رابعاً : رحلته إلى الهند :

لقد كان كمال جنبلاط (رحمه الله) أول من ارتحل إلى بلاد الهند للتعرف على العرفان واستكمال معارفه، ومنذ ذلك الوقت زار الهند كثير من المريدين والمتطلعين إلى المعرفة من جبل العرب، وقد اختار أحد هؤلاء البقاء هناك وعدم العودة، ولبس ثوب الرهبنة ثوب (السامبناس) _ الناسك _ وظل هناك مجاوراً لشخصية هندية من أصحاب الخوارق والمعجزات هو (سي بابا) صانع المعجزات الخارق، ولا نعرف لماذا يصنع (سي بابا) المعجزات، مع ان عادة الحكماء الامتناع عن انتهاك قوانين الطبيعة النفسانية منها والفيزيقية، على الرغم من قدرتهم على ذلك. ويقول (سي بابا) إنه يصنع المعجزات على الرغم منه تقريباً، أي طيبة منه وصلاحاً وإعانة للناس على الاقتناع. ولم يلتق كمال جنبلاط شخصياً هذا الحكيم وإن كان حياً في تلك الفترة، ولكنه عرف حكيماً وذهب إليه أكثر من ثماني مرات وهو (شري إتماتندا) وحاضر في رانسبورام وكان يمضي هناك أسبوعاً أو أحياناً شهراً. وكان يتأسف كثيراً لأنه لم يستطع البقاء هناك شهوراً بل سنوات لكن العمل كان يجبره على العودة، وكانت دار الحكيم (شري إتماتندا) أشبه بتكية (اشرام) لأنه كان حكيماً لم يعتزل العالم ولم يكن ناسكاً وذلك لأن معلمه الروحي، وشيخ طريقته (شري يوغانادا) أمره بذلك، لكن كمال جنبلاط عرفه أول الأمر بالسماع، ثم بعد ذلك بواسطة روجيه غوديل وزوجته وبواسطة الكاتب الهندي (راجاراوا) الذي كان شديد الاهتمام بالحكيم، وقد التقى كمالُ الحكيمَ بفرنسا عندما دعاه تلامذته الفرنسيون ويومها قدر له أن يلتقيه في طريق عودته في مطار القاهرة ولم يره يومها إلا نصف ساعة. ويصف كمال جنبلاط هذا اللقاء بقوله : ((.... كان مذهلاً... راح يتكلم، ولكني لم أعر انتباهي شكلياً لما يقول. أي للكلمات.... فقد كان ذلك ضرباً من الغوص الداخلي حتى لكأن المطلق في شخصك ينكشف عليك أو كأن الحقيقة فيك تتصل بالحقيقة فيه، وانجذبت إليه فقد كان بالغ القدرة وإن كان يجمع إلى ذلك البساطة والتواضع، وهو أحد أعظم تعابير الهند في

مختلف العصور. فكتاباته تكمل تعاليم (آدي شانكرا) و (راما كريشنا) وآخرين، وكان الحديث من لسانه عندما يتحدث عن الحقيقة كما لو أن الحقيقة تسيل من منبعها. وإنها للحظة أخاذة هي تلك اللحظة، ذلك الاتحاد وتلك النشوة نشوة الفهم التي تتحقق في مواجهة حكيم، إنها معرفة تأتي مما وراء الحواس ومما يتعدى العقل، ولا ريب أنها الوجد الحقيقي (سامادي).

وقد كنت سأعرفه مباشرة من دون سابق رؤية له. ذلك أنه حين يجسد امرؤ الحقيقة فإنه يشع بها. أو كما كان المهاتما غاندي يقول فإنه يصبح صديقاً، فحتى جسمه ذاته يصير حقيقة، وتلك أمور تعصي على التفسير، فعندما كنت أنظر إليه _ يتابع _ فإن مرآه كان يتغير في كل ثانية، كما تخرج الصور التي تتعاقب فيه وتتالى في أبدية ذاتها، كان يعكس حضور السرمد في هذا الدفق من التغير الحسي والعقلي والجسمي، وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه صراحة. ذلك أنك تشاهد الإلهي حقاً ومحاضرة. بل إنك ربما ترى إلى الله بلحمه ودمه، أو ما هو أكثر من الله، ذلك إنه إذا كان الله تصوراً من تصورات الذهن وأرقاماً ولا ريب، فإن الحكيم هو حقيقة الله، إنه يحقق ويعبر عن حقيقة الله هذه، أي عما هو حقيقي عبر ما هو حقيقي، إنه إبصار مباشر للحق والكائن)).

كانت تلك الأمور تتراءى بوضوح في ذلك اليوم لدى (شري إتماتندا) في مطار القاهرة فحتى الأناس العاديون في ذلك اليوم أخذهم الفضول إزاء حضوره وإن لم ينل منهم ذلك لأن إشعاعه يؤثر في الطاقة والمادة نفسها. فهناك اللاواعون أو كبار النيام في الحياة (أو أهل الكهف) وجميع الناس نيام، ولا تلازم اليقظة إلا قلة، ولهذا فإن المرء يستيقظ أو يصحو إلى ذاته الحقيقية لدى رؤيته، وبالتالي فإنه يصير يقظاً في الحكيم، وهذه اليقظة هي التي تعطي الحكماء هذا المرأى المتألق دائماً، وتروي إحدى السير الصادقة من سير القديسين والحكماء أنه إذا جلس الحكيم تحت شجرة، وكانت الشجرة على وشك اليباس الكامل أو تشرف على الموت، فإن الشجرة تعاود الازدهار وبزهو للمرة الأخيرة، وبهذا نفهم إلى أي مدى يمكن للناس أن تحب الحكيم، ومنذ البداية حتى لو حدث بعد ذلك أن طواه في ذاكراتهم النسيان ولولا ظروف العمل والحياة لقرر كمال جنبلاط البقاء في الهند ولكنه عاد إلى وطنه ليكمل مسيرة طويلة وشاقة في الإصلاح والبناء.

خامساً : مقتطفات من فكره :

من العسير جداً، بل من المستحيل الإحاطة بفكر عظيم، كان مصباً ومنبعاً لتيارات فكرية قديمة وحديثة، ولتعذر ذلك أيضاً في هذا البحث الذي هو أضواء تلقى، وأستار تكشف عن فكر المفكر العظيم كمال جنبلاط، ولذا فإنا نقتطف من جنان فكره وفراديس عقله بعضاً مما ينسجم ويتآلف مع موضوع هذا الكتاب الروحي _ التاريخي،البعيد عن السياسة كل البعد.

1) الحقيقة – الوجود – الوعي :

الوعي هو جوهر (حقيقة) الوجود،هذا الاستقصاء والكشف الأخير عن حقيقة الوجود، هو الذي يتوجه إليه العلم الزمني والعرفان الروحي والعمل البشري، والمسلك الإنساني، والدين والفن والأدب على السواء،وهناك طاقة دفينة في أعماق كل وجود، ووجودنا لا ينفصل عن الوجود الكلي، تتكشف في مجرى الظهور والتحقق، وفي تنزله، إنما القدر إذا شئنا التحديد هو كل باطن من الأشياء معد لأن يظهر، هناك في صميم أغشيتنا كتب القدر الذي يمثل دوره على شاشة الحياة، ولا نرى سبباً ومسبباً إلا ضمن الزمان (علة ومعلول) وخارج الزمان لا يوجد علة ومعلول، والزمان مكون من هذا التوارد الدائم بين العلة والمعلول.

والطاقة في الكون شيء لطيف لا نستطيع إدراكه من خلال مظاهره، والطاقة تتلبس المادة من مستوى الذرة إلى الإنسان وعقله، وهي واحدة في جميع مظاهرها. فلنسمع إلى الحقيقة أولاً فهي التي تستطيع أن تبدل منا أكثر مما نستطيع أن نبدل نحن من أنفسنا. ماذا أخسر لو آمنت بالحقيقة....؟!

2) الجدلية[383] :

نظرية التضاد ضمن التكامل توجد في جميع مستويات التكوين، فقبل ولادة الذرة، التضاد موجود بين الجزئيات الصغيرة على أساس سلبي وإيجابي، الجدلية هي علم ظاهرية الأشياء، أو علم الظواهر وهو يخضع في كل مستوياته إلى التضاد، والتضاد ليس التناقض في الكون حيث أن النقيض هو الذي ينفي نقيضه وبالحقيقة هناك تناقض ضمن التكامل. فالجدل غايته الكشف عن الحقيقة. التاريخ بأسره تناقض جدلي قد صنع من هذا الصراع بين الإنسان وواقعه وبين الحرية، وبين ما ولده الإنسان وما يبدعه حتى نهاية الآباد من أنظمة ومفاهيم ومؤسسات يحاول من خلالها أن يجلو حقيقته، ويكشف عن أكناه ذات الوجود وودائعها في ذاته.

3) الدين :

الدين على حقيقته من حيث هو باب يشرف منه الإنسان على حقيقته التي هي حقيقة الوجود ونور يبدد به عتمة المعتقدات ويتعداها، فالدين مسلك وطريق، وليس هو غاية وقبلة ومحجة، وما التوحيد في كل دين إلا انطلاق المتعبد من قواعد الاعتقاد وسنن المجاهدة والعمل بالخير إلى مناجاة تلك الوحدة. والمعتقدات الروحية تتباين وتختلف من حيث ماهية الاعتقادات ولكن جوهرها واحد وهدفها واحد وهو ترقية الإنسان الفرد نفسياً وخلقياً وعلاقته بذاته وبالآخرين وبالتالي ترقية المجتمع. وعلى كل مدرسة أن توفر العلم الديني للتلميذ، لأنه إذا كان الدين حقيقة فيجب أن تعلن هذه الحقيقة.

الصيام في المعنى النفسي والخلقي والإيحائي أي في القصد الوجودي هو أن لا نتعلق بشيء وأن لا تشدنا رحى علائق الفكر والحواس، فتصبح كمن يحمل فعلاً وواقعاً، الدنيا كلها على ظهره. هذا هو حلم الناصري، وهذا هو حلم محمد، لو أدرك معظم أتباعهم ماذا تبغي الحياة في انعكاسها في الوجود، من العودة إلى بلد الحنين الدفين الأصيل، وإلى ضجيج الدم والعرق البشري، وإلى وطن الوحدة في نفوسنا، فالدين يعطينا قوانين مثالية أخلاقية تلجم أنانيتنا وهو تقدم في الحياة للإنسان البدائي، لأنه كان أداة تهذيب النفس وتربية الحواس.

4) المعرفة :

المعرفة هي أداة التطور، وعامله المؤثر الأول، المعرفة العلمية الأخيرة ومعرفة العرفان هي واحدة، وهي ذاتها في النهاية. والعالم الحديث المتقدم في الاستقصاء وطلب التفسير هو كالعارف الصوفي، يتطلب توحيد التفسير ووحدة المفهوم المعبر لطاقة الكون الشاملة بأسرها للمادة والحياة، غاية العلم هي معرفة الحقيقة (معرفة الحقيقة الأخيرة للوجود) وكل علم يتدرج بنا إلى هذه الغاية في عمق واعتلاء...... والمعرفة هي مرآة النفس ومسلكها العفوي ودربها الطبيعي، والفرح هو في الانتصار على الجهل، لا في معرفة أشياء أكثر.

5) الأخلاق :

يفترض أن يكون للفرد نظام للأخلاق والمناقبية في داخله، وفي علاقاته مع الآخرين، فنظام المجتمع ونظام الأخلاق متلازمان متصلان، لا يقوم أحدهما بدون الآخر وإلا سقط الفرد، وفسد المجتمع، واضمحلت الحضارة، وتبعتها في اضمحلالها مكاسبها المادية جميعها. تحرر من الإسراف ومن التجاوز ومن عبودية الشهوة أياً كانت فتتمتع بأفضل وأقوى موارد التمتع : الشعور بالسيادة الذاتية على جميع الأفكار والاشتهاءات، فلا يختل نظام فكرك، ولا يضطرب اتزان مزاج جسدك، ولنفعل الحق، ولنقل الحق ولنفكر بالحق.

6) أدب الحياة :

إن مفهوم الأدب هو احترام النفس، واحترام الآخرين، ومن لا يحترم نفسه ويعتبر قيمها، فكيف يصح له أن يتوجه إلى الآخرين بالاعتبار. وفيما يلي بعض من جملة الآداب الحياتية الخاصة والعامة التي ذكرها المفكر العظيم والمعلم الجليل التي صارت تعاليم، وإن غابت عن الكثيرين هذه الأيام، يجب عرضها ونشرها وبثها دائماً كي تهتدي بهديها الأجيال، وإنا إذ نعرض لبعضها فيما نعرض نرجو أن تتحقق الغاية سواء من إشعاعها من ذلك الفكر الثاقب، أو من عرضها في هذا الكتاب المتواضع (كشف الستار).

* أدب الدخول[384] :

من العادات المألوفة، والتقاليد المتبعة أن لا يدخل أحد إلى بيت، دون أن يستأذن قبل ذلك بالدخول من صاحب الدار، وقد يكون رب البيت منهمكاً في عمل له أو منصرفاً إلى تدبير شؤون منزله، أو جالساً مع عائلته وأصدقائه مطمئناً إلى حال، لا يريد أن يزعجه فيها غريب أو جار.

ويتخذ أدب الدخول شروطاً خاصة، ومحاذير معينة عندما يقدم أحدهم على الدخول إلى غرفة نوم رب الأسرة أو الإقبال على مطبخه أو موضع استقرار حرمه، وكذلك في موضع صلاته، فهذه الأماكن لها قدسية خاصة يجب أن لا يتجاوزها الداخل إلى البيت لأن فيه أقساماً مخصصة لاستقبال الضيوف، وأقساماً أخرى يجب ان تبقى مصونة في وضعها المادي والنفسي والروحي الذي يجعل منها موضع الحرمة في البيت. وعلى الداخل إلى البيت ألا يتطلع يميناً ولا شمالاً ليلحظ ما لا يجب عليه أن يلحظه داخل الأبواب، أو ليسرق بعض المشاهد من حرمة وحشمة الدار، ولا يهيم بنظره إلى ما تتضمنه وتحويه من فرش وأناقة، فالعيون الملقة[385] والتي تشع بالحشرية تؤذي.

* أدب الجلوس :

عندما تدخل الدار فمن المألوف أن تنتظر قليلاً، لتدعى للجلوس إذا كان رب البيت موجوداً، وعندما تجلس فليكن الأدب متجلياً في جلستك، ولتكن الحشمة ظاهرة في نظراتك وفي حركاتك، ولا تتدلَ على الكرسي فتنحني إلى الأمام كمن هو في اضطرار لأن يغادر البيت في أسرع وقت، ولا تفعل ذلك حتى ولو كان عندك موعد، ولا تستلقي على الكرسي بعنف، ولا ترمي بجسمك إلى الأمام كأنك نصف نائم على الكرسي، بل اجلس في وضع تستقيم به السلسلة القوية، ففي ذلك راحة لك وأنس للمضيف. ومن أبشع العادات أن يضع أحدهم رجلاً فوق رجل، ثم يأخذ في هزها في حركة من التغطرس وأبهة الذات ولتكن يداك أمامك، فحري بك أن تتبع هدى الأصول، فلا تزعج الآخرين.

*** أدب المجالسة والكلام :**

عندما تجلس مع قوم بعد الاستئذان والدخول فليكن في جلوسك، وفي زيك الكثير من التواضع والاحترام والاحتشام فالمجالسة والكلام شراكة وعقد بينك وبين الآخر، وتمثل وتجل لمعاني الإنسانية فيما بينك وبين جليسك، فكما تحب ان تفيد من حديث الآخرين فيجب أن يفيد الآخرون من مجالستك وحديثك مما يتجلى فيه من معاني لطفك وأنسك وعدلك، فلا يكون حديثك ثرثرة أو قالة أو اغتياباً أو سرداً لبعض التوافه التي ليس لها علاقة بجوهر ما تبتغيه من الزيارة، ودع للآخرين مجال الكلام فإنهم كثيراً ما تكون لهم حاجة بأن يتحدثوا إليك وقد يكون صمتك أفضل تفهم لما يطلبونه منك من استيعاب لمشاكلهم وإدراك لمتاعبهم ويجب أن يكون صوتك هادئاً، لا عالياً فيزعج، ولا منخفضاً فلا يسمع، وأوجز ما استطعت من حديثك واختصر به ما تهتم معرفته فتكون أسباب كلامك واضحة سهلة الإدراك ويكون ما تطلبه واضح الفهم، ولا تدر بوجهك للحديث كأن قريبك في المقعد ولا يسمع ولا توجه فمك إلى وجهه ويجب أن تتكلم من موضعك حيث تجلس، فلا فائدة لك من أن تقف ويكون ظهرك للآخرين، وخفف ما استطعت في السؤال، ولا تبغ الكثير فلا تحصل إلا على القليل، ولتكن القناعة رائدك.

*** أدب السلام :**

قد يكون السلام نزعة إلى الفرفشة والابتذال والدلع، كمن يقترب من أحدهم ليصافحه، ويعانقه فيكاد يخنق الأنفاس في صدره، أو يوشك أن يوقعه أرضاً من فرط اندفاع العاطفة أو اصطناع الاندفاع والعاطفة.

وقد يكون السلام فيه من الرجولة وحلاوة التوجه في آن واحد وما يضفي عليه صنعة من القوة وضرباً من الاعتزاز فيوحي بالثقة وبالصراحة. وكان اليونان والرومان والعرب سلامهم عن بعيد دون مصافحة أو معانقة، وبعض الشعوب العريقة كالهنود والصينيين واليابانيين لا يسلمون أيضاً بأيديهم إلا اضطراراً. ونحن عندما نصافح[386] الآخرين فيجب أن نتذكر أن السلام هو أن نتمنى للآخرين في ساعات النهار وآناء الليل أن ينعموا بالسعادة الحقيقية وتبتعد الهموم والأفكار المغرقة والهواجس عن عقولهم وقلوبهم فتتحقق فيهم نعمة السلام.

فلنعد إلى عاداتنا القديمة في السلام وليكن سلامنا من بعيد، ولتكن فيه علامات المروءة والرجولة والتواضع وحلاوة اللفظ وأدب التطلع والتوجه، فذاك هو الأفضل.

*** أدب الأكل :**

من آداب الأكل غسل اليدين جيداً بالماء الطاهر قبل الجلوس إلى الإخوان والانصراف إلى المأدبة، فالنظافة الخارجية تعطي صاحبها شعوراً بالنظافة الداخلية، حيث أن الإنسان لا ينفصل داخله عن خارجه، ولا ظاهره عن باطنه، ثم يعمد الآكل إلى غسل يديه وفمه بعد فراغه، ويجب عليه قبل مباشرة الأكل أن يقطع علائقه الفكرية بما يحوم حوله من هموم وأحزان في يومه وغده فيكون صافي البال، هادئ الجنان فينعكس ذلك على جهاز الهضم فيعمل بشكل جيد. وعلى الآكل طيلة فترة جلوسه إلى المائدة أن يجانب كثرة الحديث عن شغله ونشاطه ويومه ومشاريعه، ويجب ان يكون الصمت أفضل أدب في هذه الحالة، وإذا كان لا يحسن ذلك فيجب أن يعلق فكره بالمواضيع المفرحة ولذلك فإن ترتيب المائدة بشكل أنيق يفرح العين ويسر الخاطر.

و إذا كنت ضيفاً لا يجب أن تحضر المائدة دون دعوة، دون أي إزعاج للآخرين بمعضلات ومصالح، فلفعل الأكل وممارسته لون من التكريس والقدسية ينبعث من مشاركة الله تعالى في رزقه وحلاله. ويجب على الإنسان أن يعمد إلى الراحة فترة بعد الأكل، فلا يقرأ ولا يعمل لكي يوفر أفضل الأجواء لعمل جهاز الهضم، ويكون من المفضل أن يمشي الإنسان قليلاً دونما تعب، ويجب ألا يشرب الإنسان قبل مباشرته الغذاء ولا أثناءه ولا بعده إلا بعد مرور ساعة على الأقل، ويجب على الإنسان ألا يدخل طعاماً على طعام، فلا يأكل إلا عند الجوع ولا يشرب إلا عند العطش. ويجب تنوع الأكل للحفاظ على صحة الجسد وصحة أعضائه، ويجب العودة إلى الأطعمة الطبيعية الكاملة كالخبز الأسمر والحليب والأجبان والعسل والحبوب المتنوعة. ويجب ان يأكل الإنسان ببطء، ويمضغ الطعام جيداً مما يسهل هضمه وامتصاصه من الجسم.

*** أدب الشرب :**

على الماء ان يكون زلالاً طاهراً طهوراً، لا تدنسه الأوعية المفتعلة، ولا تسممه ألوان الأدوية القاتلة للجراثيم فأفضل المياه هي مياه الينابيع، وأفضل الأشربة ما كان قليل الأملاح الكلسية واعتباره أن يكون قابلاً للتبريد السريع عندما يوضع في إناء من فخار. ويجب اجتناب المياه الآسنة التي يكثر فيها النبات والطحالب وفي العموم فإن الشراب مذاق، فما طاب مذاقه وقلت رواسبه ورقت لطافته وسهل هضمه فهو أفضل الشراب. ومن أدب الشرب في صون صحة البدن تجنب شرب الكحول و الأشربة الموضوعة في القناني المتعددة الألوان والأصناف.

*** أدب النظر :**

من أدب النظر أن لا تؤول سراً ما تراه، فانظر إلى الأشياء ببساطة ووداعة وعفوية بريئة، ولا ترى في كل شيء إلا أحسنه وأفضله، فلجميع الأفعال وجهان أو أكثر، فتعود أن لا ترى فيها إلا أفضل هذه الوجوه وأنقاها.

ونقاوة النظر شأن أساسي وعامل جوهري في تكوين روحية الإنسان وذهنيته الفاضلة وفي النظر حشمة يجب أن ترعاها وعناية يجب أن لا تخالفها، فلا تنظر إلى النساء إلا بالعين التي تنظر بها إلى شقيقتك وأمك على حد تعبير الولي الهندي (راما كريشنا) الذي ترعرع وعاش وترك جسده أصفى وأنقى من عطر ورائحة الزنبق والياسمين، والناس أشقاء وأقرباء بعضهم في السلالة البشرية والروح الإنسانية، وحشمة النظر تقضي بألا تنظر نظرة استعلاء إلى الآخرين ولا تهكم ولا ازدراء ولا افتراء، فلا يلاحقهم بصرك في خصوصياتهم وفي أمكنة راحتهم وفي أجواء انصرافهم إلى التمتع بأجواء الطبيعة. ومن مناقب البصر الحياء والاستغناء، وأفضله أن تستر من الآخرين مالا تحب أن يظهر من نفسك، والحياء تاج الفضيلة وعنوان الوراعة.

*** أدب السماع :**

من أدب السماع أن تتعود بان تميز بين الضجيج والصخب وبين ما ابتدعته الطبيعة من أصوات و تعابير سمعية تظهر وتعبر عن حقائق جواهر الأشياء والكائنات، ولكل ضده ونقيضه

وهو ما يقابله ويتم به كينونته، ويضبط نحوه وتطوره وليس بنقيض حقيقي فهو ضابط له في شرعة تكاثره وإبداعه.

ويجب أن نبتعد عن كل ما يؤذي من صخب المدينة وضجيج الحارة التي تقلق النفس وتسبل على عواطفها الاضطراب والتشويش وأن تجنب سواها من الأصوات التي لا تتآلف ولا تتناغم، ولتكن الراحة فيما نسمع من أصوات الطبيعة، فالسمع باب من أبواب القلب والفكر فلا تدخل الشيطان وزبانيته إلى نفسك، والشيطان في هذا المعنى هو رمز اضطراب الأشياء وقلقها وصخبها، وتناقضها وتشاكسها، وهو في ذلك رمز العدم والهلاك وصورة اندثار العالم في نهايتها. أما البقاء فلا يبتدع ويبقى إلا بالانسجام وبهذه الموسيقى الداخلية للتكوين التي تظهره وتنميه، وتواكب امتداده واستمراره في كل حين. ولذا عبر كل الأقدمين عن فعل التكوين بالموسيقى الأزلية، وأوضحوا أن موسيقى الوجود أو نغم الوجود هو وراء كل موجود. فبكلمة (أوم) الشهيرة ابتدعت الكينونة وظهرت من حيز الإمكان إلى مدار التكوين.

سادساً : فلسفته :

جانب من شخصية المرحوم كمال جنبلاط، ومساحة ليست بالصغيرة من حياته كانت الفلسفة، التي استقاها من مصادرها المتنوعة والمتشابهة إلى حد ما، كالحكمة العرفانية اليونانية، وحكمة علماء المصريين القدماء، والفلسفات الشرقية القديمة (أدفليتا _ فيدانتا) والحكمة التوحيدية الشريفة والتي كلها ذرات جذوة واحدة. حيث يبدو ذلك جلياً بقول زعيم الهند وحكيمها المهاتما غاندي[387] : ((إن جميع الأديان هي طرق مختلفة تقصد الهدف ذاته وهي _ أي الأديان _ مرتكزة إلى السنن المناقبية ذاتها، إن معتقدي المعنوي تضمن جميع الشرائع التي تربط الناس بعضهم ببعض.)). وقد كان التأمل إحدى طرقه في التعرف على الحقيقة والتي يتلخص فيها من كل ما يربط بالوجود المادي الذي هو من نسج خيالنا.، والذي يمنع حواسنا من الصفاء والعودة إلى الأصل الذي كانت عليه. وقد درس المذهب التوحيدي (الدرزية) وتعمق فيه وله دراسات وكتابات تحلله وتبين عمق فلسفته وارتباطها بالفلسفة اليونانية القديمة والحكمة الهندية، والمصرية القديمة، وكذلك صلاتها بعد الإسلام بالمتصوفين والفلاسفة الذين لهم مكانة وتقدير لدى أصحاب المذهب.

يقول فيلسوف الموحدين إن المذهب التوحيدي هو تماماً كالدين الهندوسي إلا ببعض المظاهر الخارجية، كاستخدام التماثيل وبعض الرموز التي هي غريبة عن الموحدين لتأثرهم بالإسلام، ولكن لديهم نفس الرؤية للإنسان والمطلق. لأن المطلق هو أنت، وأنت المطلق دون أن تدري، ولن يعلم ذلك الإنسان من خلال العقل والتفكير المرتبك، ولكن من خلال التطلع المباشر إلى الذات (التأمل في أعماق الذات) وبحدس مباشر وبمعونة معلم أو حكيم يساعده على إدراك الحقيقة، عندها يعلم الإنسان أنه هو المطلق، وأن المطلق هو كل شيء. وبهذا المعنى، أنت وأنا واحد. قال يسوع : (أنا وربي واحد).

وكل إنسان قادر أو لديه القدرة ليكون المسيح، لأن كل إنسان هو مسيح في أعماق ذاته وقد لا يدرك هذا وقد لا يعرفه أبداً، أو يستغرق ذلك عدة أدوار وأجيال من الولادة والموت (من خلال التقمص) ليتوصل إلى هذه الحقيقة، ولكن الإنسان الحقيقي (الأنا الجوهرية) هي هناك موجودة، ويوماً ما، هذا الوهم الذي نسميه العالم المحسوس، هذا العالم الذي خلقناه بعقولنا وعواطفنا سيسقط، و الأنا الجوهرية الحقيقية. (real self) ستقف (ستظهر) في النور الكامل الإشعاع (التام الإشعاع، النور الشعشعاني التام) وهناك خسارة عظيمة للأرواح التي لم تحقق هذا الإدراك وهذا ما قاله القديس بولس ((الأب ينتظر ظهور أبناء الله)) وهم لم يظهروا حتى الآن، لأن التعاليم الخفية (أي ما كان خصوصياً) والتي كانت أصل تعاليم المسيح قد وقفت هناك ولم تصل إلى المسيحيين أنفسهم. وهذه التعاليم الخفية هي تعاليم الحكمة والمعرفة، ومن المؤكد أنه كان للمسيح اتصال مباشر مع احد المعلمين (gura) وربما كان هذا القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى بن زكريا) أو لربما مرشد آخر، إذ بدون هذا المرشد لا توجد درب ولا طريق للحقيقة.

وحول مفهوم الفرح (السعادة) يوضح كمال جنبلاط أن الفرح هو كنهنا، طبيعتنا الحقيقية، فنحن نسعى (ننجذب) نحو الأشياء السعيدة وحين نصل إليها نرى أن السعادة ليست فيها حقيقة وإنما فينا نحن، لذا فالفرح هو في حقيقتنا نحن، وقد يظهر كمرح ولذة، ولكن الفرح (السعادة) ليس مرتهناً بسبب، ليس له سبب، إنه كالوجود نفسه، والوجود لا سبب له، إنه كالوعي ليس له مسبب وليس له بداية ولا نهاية، فالفرح هو صميم وجودنا، وهذا هو ثالوث التوحيد الحقيقي، الوجود، الوعي، الفرح (السعادة). هذه هي الحقيقة المطلقة ذاتها وبذاتها إنها كما هي فوق الأسماء والأشكال، إنها الوجود المحض. والعالم الظاهر الذي نراه بالحقيقة لا وجود له، كل هذه الأشكال قد خلقها عقلنا وعلاقات الحواس، ومن جهة أخرى تفاعلات كل هذه العوامل، إذن فخصائص هذا العالم هي ذاتية ذهنية (شخصية) ولا وجود لها بحد ذاتها، وبهذا المعنى أكون أنا خالق العالم، بما أنني طوال الوقت أصنع هذه المخلوقات الذهنية، ومن الوجهة العملية إذا أرجعنا كل شيء إلى مادته الأساسية نصل إلى فراغ مليء بكل الاحتمالات، إنه ليس العدم، إنه شيء فوق الأسماء يحتوي احتمالات الوجود، ويستطيع العلماء القول إن هذا ما هو إلا الطاقة الصافية (المحضة)، وإنها تظهر بشكل كميات و جزئيات و ذرات، حتى حياتنا هي كم من الطاقة. والحقيقة النهائية هي المطلق، الوعي المحض، الأنا الجوهرية (self) كل شيء هو الوعي، هو النور. ويصف المفكر والفيلسوف التأمل ضمن هذا العالم المادي، فيقول :

((... وطالما أن الإنسان على مستوى العالم المادي، فهو بحاجة للدين، للتأمل، لليوغا ولكن عندما يصبح مستعداً فعلاً فهو سيحتاج إلى معلم (عارف أو مرشد) لأن الوصول إلى هذه الحقيقة مستحيل بدون المساعدة المباشرة من معلم. وللتأمل طريقتان، إما بالتركيز على ظاهرة عقلية (فكرية) مثل : الله، المسيح، الذين هم بذاتهم ظواهر عقلية، أو بالاسترخاء العقلي الذي ينعكس بادئ الأمر من معرفة الحقيقة، وتخف أعمالك العقلية لدرجة يصبح لديك عقل بلا أفكار عندها تكون تتأمل لأنك تصبح لوحدك مع نفسك. فأنت من هذه الحالة (الأنا الجوهرية) دون أي حجاب بينك وبين نفسك عنده تصل إلى مستوى الوعي المحض للمطلق.

وهي ذي بعض لمحات ومقتطفات من فلسفة رجل عرفه الجميع بالتواضع والهدوء والتأمل والتعمق في البحث عن الحقيقة والمطلق، لقد كان رمزاً للعارف الدارس والمرشد الذي سيقودنا في طريق بحثنا عن الحقيقة.

سابعاً : مختارات من شعره :

من أشعار البداية وأولى القصائد التي كتبها كمال جنبلاط الشاعر الصوفي كانت قصيدته (أفيقي) :

أَفيقي فما الكونُ إلاّ غَرامٌ   وَ حُبٌّ يهيمُ بلونِ السَّحَرْ

وقَلبٌ يدقُّ و رُوْحٌ تَشِقُّ   غُبارَ المروجِ وصُمَّ الحَجَرْ

حَياةٌ تدبُّ وريـحٌ تَهِبُّ   بريِش الطيورِ وغصنِ الشَجَرْ

كـأنَّ البرايا بحُلْمٍ ذهولٍ   يمرُّ عليها بشتَّى الصُوَرْ

أفيقي، أفيقي فما العيشُ إلاّ   هنيهةُ سعدٍ وعُمْرٍ ضَجِرْ

ومن أشعار الفرح نقتبس مقاطع من قصيدة (غداً)

غداً ستمرُّ الرياحُ الهَوْجُ في بيتي

وتهدمُ الأثقالَ من فوق كتفيَّ..

غداً ستسيرُ الخيول الحُمْرُ في الربوعِ

ويرتوي الباشقُ من دَمِ العصفورِ

في ثورةِ الأحرارِ

آه لسَكْرِ خمرِ الشبابِ

وعثرةِ الخيولِ

في مَرَاكبِ البطولةِ !

آهِ للزمهريرِ

يطوي الأساريرَ

في عتمةِ رؤيةِ العشّاق

وانبلاجِ شهودِ العروسِ الأزلية

في مَسابحِ الآلهة

ومن قصائد (آنندا _ السلام) نقتبس مقاطع من قصيدة : (الأزل)

Image

تَمرُّ الأيامُ

لكن لا يوجدُ أبداً

ليلٌ ولا نهارٌ

لذلكَ الذي كان فجره أزلاً

أُقبضِ الشمسَ

الشمسَ الحقَّ

في نورِ عينيكَ

ونزّهها حواليك حتّى يمكنكَ أن ترى

الأشياءَ الكبيرةَ والصغيرةَ

في فرحِها بكونها

الوعيَ العظيمَ

ولأنّ العدمَ

من استحالاتِ الكلامِ

كيفَ يمكنُ لكلّ ما يمرُ

أن يتوَّحد في الصفاء

أرى وجهي

الذي هو وجهكَ

وحيثما أنظرُ

تعكسُ مرآتي الداخلية

بهاءَك

لأنّني أنا

مرآة ذاتي

واللعبة

هي التي تفصلنا وتوّحدنا

مقاطع من قصيدة (وَجْهُ الرَّحمَنِ)

غداً ستمرُّ القوافلُ

ولن أرى بينها هودجَ قافلةِ الحبيب

غداً سأرى النوقَ والكثبان تتصوّر

وتقرب وتحدو

وتنعكس أشكالها وجوهها

في مياهِ بردى والفراتَ ودجلةَ والنيلَ

ونهر الغانج واليمونة والبامبا

وفي السرابِ

وإن قلتُ بالكينونةِ الهندسية

فهو النقطةُ

وأنتَ والأشياء دائرة البيكار

والدائرةُ كلّها في نُقَطٍ

ولولا النقطةُ

لما كان الخطّ

الدائرُ المستديرُ

حولَ مِحوَرِهِ

وهذا الكلُّ بشكله يتشكّل

والكلُّ منه مصنوع

ولم يصنعْ منه شيء

وليسَ هُوَ الصَّانعُ

*****

وهكذا الكلمة

فإنّها جسرٌ عابرٌ متنقل

بينَ الباطنُ والظاهرُ

بين الذي لم يتكوّن في حاضر الفكر

وبين الذي وارته في ترابِ النسيان

معاول حاضر الإبداع

أنتَ أنا يا أخي

أنتَ هذا الكونُ في حقيقته

أنتَ الإنسان

بل أنتَ وجهُ الرحمنِ

ونهيم مع هذه الأبيات وتسرح خيول فكرنا مع الشفق المنبعث منها إذ يقول :

في الوعي بعثٌ من الأسحارِ في الحَدَقِ   أحلامُها جِنْنَ من قيومةِ العمقِ

يا موضعَ النورِ في الأحداقِ كمْ رقصت   فيكَ المرايا وكم عانت من القلقِ

يا راكباً من عِتَاقِ الخيلِ ارفعها هلاًّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

ثامناً : استشهاده :

في الساعة الثانية والنصف بعد انحراف شمس يوم الأربعاء للمغيب، وقد قابل السادس عشر من آذار من عام (1977) ذاك الزمان، وأما المكان فعلى مفترق طريق بين (بعقلين، ودير دوريت) وفي قلب الشوف الذي أحبه الكمال فأحبه، وناضل من أجله وعاش فيه لأجله، هناك.... هناك سقط الكثيف عائداً لحضن الأصل، وارتفع اللطيف للمحل الأرفع وجواز مروره لون الدم وعبق الشهادة، وأما الأداة فرصاصات جبلت بالغدر والخيانة، وحملتها يد ترتجف لا من خوف، وإنما من حقد أسود.

لم يسقط لأن الشهيد بموته، ارتفع عن مستوى البشر (الأموات _ الأحياء) لم يسقط لأن النسر في الأعالي يعيش وفي الأعالي يموت، لقد ظنوا أن بإمكانهم إطفاء الشمس بنفخة، يا لسخف ما ظنوا، واعتقدوا أنهم يقتلون قضية، بقتل منبعها، ويا لضحالة تفكيرهم، ألم يعلموا أن الكل صار كمالاً، وإن الكمال صار كلاً.

وقد عصف لموت الكثيف إعصار الاستنكار الجارف، ودوت رعود الغضب فوق القرى المفجوعة. أمطار الحزن صارت غضباً وكل الشرفاء الوطنيون أحسوا بأن الأرض تميد تحت أقدامهم، فقد تطاولت يد الظلام لتطفئ مشعلاً أنار ويبقى للأجيال طريقاً طويلة. واستقبلت الملائكة اللطيف، نقياً، طاهراً، زادته دماء الكثيف قدسية وطهارة، وأسبغته بعطر المسك وقد وسعت له مكاناً بين الشهداء والصديقين، مكانٌ يشتاقه ويشتاق اللطيف المكان.

وكثرت ردات الفعل العربية والعالمية، غاضبة مستنكرة أبشع ما تقترفه يد البغي الغادرة الجبانة. وكبرت المسؤولية وزادت أحمالها وكان الوليد ندها، كيف لا ؟! وقد تلقى من النبع ماءه،

ونهل من القبس نوره والتفت الجماهير حوله، هي لا تعزي فهي الفاقدة المفجوعة هي تريد صدراً تبكي عليه وتطلق عنان أدمعها، وكان صدره. تريد يداً تمسح شعرها وتهدهد جرحها النازف وتضمد أناتها فكانت يده.

وكثرت كلمات التعزية، وقصائد الرثاء ولكن من يرثي بركاناً ؟ وتبقى الكلمات والقصائد عاجزة عن الوفاء بالدين المعلق في أعناق الجميع. وقد عبر عن رحيل كمال جنبلاط الشهيد، عبر الدكتور خليل أحمد بقوله :

((.. كان لنا ثلاث شموع جديدة على شجرة الشهادة العظمى لم تنسَ الأرض قط، وخرجت باللطيف من الكثيف، وحصدوا وهم الكثيف، أما نحن فسنظل نقتات من نور اللطيف الذي أطلقت وأنت تعبر الكون بالدثور.))

ومن جبل العرب الأشم جاء الحزن يجر أذياله معزياً أخوة في التوحيد، وأهلاً في الدم. وهذا ابن الجبل يحمل أبياته دموعاً تندب الكمال متجلياً في (الكمال)، وتعقد الأمل الوليد على (الوليد).

يقول ابن الجبل في قصيدة طويلة منها :

غابَ الأديبُ وغابَ الفَكْرُ والقَلَمُ   غابَ اللبيبُ وغابَ البارِعُ العَلَمُ

غابَ الكمالُ الذي أقواله.. حِكَمٌ   غابَ الذي أبّنتْهُ العُرْبُ والعَجَمُ

والعبقريُّ الذي تحَيا به الأمُمُ. هلاًّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

ناجِ الوليدَ وعدّد فضلَ والدهِ   واستمطِر الصبرَ. ثرّاً. من مواردهِ

واستلهمِ الشعرَ دُرّاً من قصائدهِ   وارثِ الفضيلة نزراً من محامدهِ

فهوَ الوفي الأبّي الحاذِقُ الفَهِمُ. هلاًّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

أبناءَ قومي فأنتم معدنُ الكرمِ   أهلُ الإباء وأهلُ الفخرِ والشممِ

هبَّوا جميعاً للَمَّ الشملِ والهممِ   واشفوا جراحاً بنا، تزداد بالألمِ

وارضُوا (كمالاً) بمحضِ الودِّ واعتصموا. هلاَّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

ما ماتَ مِنا شريفٌ طيبُ الأثرِ   ألا وخلّفَ شبلاً في الأنامِ سري

يشفي الغليلَ ويحيي بعد معتكرٍ الـ   أيامِ حقّاً ويمحو ظلمة الغيرِ

ويذهبُ الحقدُ والبغضاءُ بينكمُ. هلاَّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

ما ماتَ مِنا شريفٌ طيبُ الأثرِ   ألا وخلّفَ شبلاً في الأنامِ سري

يشفي الغليلَ ويحيي بعد معتكرٍ الـ   أيامِ حقّاً ويمحو ظلمة الغيرِ

ويذهبُ الحقدُ والبغضاءُ بينكمُ. هلاَّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

لبنانُ فَوّتْ على العدوانِ فرصتَهُ   ونادِ الإخاءَ ولبِّ الحق صرختَهُ

لبنانُ بايعَ شهيداً باعَ مُهْجَتُهُ   حتى يرى الأرز خفّاقاً ورايتَهُ

تعلو وبالحبِّ والتوحيدِ تتسمُ. هلاَّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

يا ربُّ يا ربُّ جبّرْ كسرَ أمتنا   يا ربُّ يا ربُّ سدِّدْ رأي عمدتنا

يا ربُّ يا ربُّ خفف هول نكبتنا   واجمعْ لِشَملٍ هو في الأصلِ غايتنا

أنتَ النصيرُ وفيكَ اللهُ نعتصمُ. هلاَّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

أرختُ ذكـرى فقيدٍ باتَ مرتحلاً   عنا بشعرٍ سليمٍ ليس مبتذلا

فهو الكمالُ الذي في شخصه اكتملا   كلُّ النبوغِ بآي الزهدِ قدْ جبِلا

والله يعفو وفيه البدءُ والخَتْمُ. هلاَّ لمحتَ خيولَ الفكرِ في الشفقِ

الفصل الثالث

ملحقات

1_ الملحق (1) المرسوم لتعيين حمزة بن علي (س)

2 _ الملحق (2) صلاة الجنازة

3 _ الملحق (3) عقد الزواج

4 _ الملحق (4) سجل تحريم الخمر

5 _ الملحق (5) كشف الحقائق

6 _ الملحق (6) قصيدة مارون عبود

7 _ قصيدة أحمد شوقي (7)

8 _ الملحق (8) سبحانية مباركة

9 _ الملحق (9) بيان الثورة السورية

الملحق (1)

نص المرسوم الذي أصدره الحاكم بأمر الله سلام الله عليه

لتعيين حمزة بن علي داعياً للدعاة للمذهب الجديد (التوحيد)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وما وقع تحت القياس والحواس، المتعالي عن أن تدركه البصائر بالاستدلال والأبصار بالإيناس، الذي اختار الإسلام فأظهره وعظمه، واستخلص الإيمان، فأعزه وأكرمه وأوجب بهما الحجة على الخلائق، وهداهم بأنوارهما إلى أقصر الطرائق، وأحاطهما بأوليائه الراشدين، شموس الحقائق، الذين نصبهم في أرضه أعلاماً وجعلهم بين عباده حكاماً، فقال تعالى :

((وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين)).

يحمده أمير المؤمنين أنْ اصطفاه لخلافته، وخصه بلطائف حكمته وأقامه دليلاً على مناهج هدايته، وداعياً إلى سبيل رحمته، ويسأله الصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي ابتعثه رحمة للعالمين، فأوضح معالم الدين، وشرع ظواهره للمسلمين، وأودع بواطنه لوصية سيد الوصيين علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وفوض إليه هداية المستجيبين والتأليف بين قلوب المؤمنين، ففجر ينابيع الرشاد، وغور ضلالات الإلحاد، وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل، حتى أنار وأوضح السبل، وحَسَرَ نقاب البيان، وأطلع شموس البرهان، صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان وأعلام الإيمان، وخلفاء الرحمن، وسلم عليهم ما تعاقب الملونان وترادف الجديدان.

وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة، وفرض عليه من التوقيف على حدود الدين، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين، يعلن إقامة الدعوة الهادية بين أوليائه، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه، وتغذية أفهامهم بلبانها وإرهاف عقولهم ببيانها وتهذيب أفكارهم بلطائفها وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها، وتوقيفهم من علومها على ما لم يلحب لهم سبل الرضوان، ويفضي بهم إلى روح الجنان وريح الحنان والخلود السرمدي في جوار المنان، ما يزال نظره مصروفاً إلى نوطها بنا شيء في حجرها مغتذ بدرها، سار في نورها، عالم بسرائرها المدفونة و غوامضها المكنونة موفراً على ذلك اختياره وقاصية انتقاده حتى أداه الاجتهاد إليك، ووقفه الارتياد عليك فأسندها منك إلى كفئها وكافيها، ومدبرها المبرز فيها، ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية، ووقائعها المطوية ثقة بوثاقة دينك، وصحة يقينك وشهود هديك وهداك،، وفضل سيرتك في كل ما ولاك، ومحض إخلاصك وقديم اختصاصك، وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشريف والحملان والتنويه، ومضاعفة الإحسان.

فتقلدك ما قلدك أمير المؤمنين، مستشعراً للتقوى عادلاً عن الهوى، سالكاً سبيل الهدى فإن التقوى أحصن الجنن وأزين الزين

((ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ {125}))سورة النحل

فإن الله تعالى يقول :

(({ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ {269}سورة البقرة

وحض على ذلك فقال سبحانه :

((وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ {33})).سورة فصلت

وخذ العهد على كل مستجيب راغب، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه، ويصح عندك عفافه ودينه، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه فإن الله يقول :

((وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسؤولاً)) ويقول جل من قائل ((إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فكأنما ينكث على نفسه)) وكف عن كافة أهل الخلاف بيعتك، وإن حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة، فإن الله تعالى يقول لمن بعثه داعياً إليه بإذنه محمد صلى الله عليه وسلم : ((وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)).

ولا تلق الوديعة إلا لحفظة الودائع، ولا تلق الحب إلا في مزرعة لا تكدى على الزارع، وتوخ لغرسك أجل المغارس،توردهم مشارب ماء الحياة المعين، وتقربهم بقربان المخلصين، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات، واتل عليهم مجالس الحكمة التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات، والمستجيبين والمستجيبات، في قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالقاهرة المعزية، وصن أسرار الحكمة إلا عن أهلها، ولا تبذلها إلا لمستحقها ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل أفهامهم بتقبله، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول، ودل على اتصال المثل بالممثول فإن الظواهر أجسام، والبواطن أشباحها، والبواطن أنفس والظواهر أرواحها، وإن لا قوام للأشباح إلا بالأرواح، ولا قوام للأرواح في هذه الدار إلا بالأشباح ولو افترقا لفسد النظام وانتسخ الإيجاد بالإعدام، واقتصر من البيان على ما يحرس في النفوس صور الإيمان ويصون المستضعفين من الافتتان، وأَنْهِ عن الإثم ظاهره وباطنه وكافته وعالته، فإن الله تعالى يقول :

((وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ {120})) سورة الأنعام

واتخذ كتاب الله مصباحاً تقتبس أنواره، واتله متبصراً وردده متذكراً، وتأمله متفكراً، وتدبر غوامض معانيه، وانشر ما طوي من الحكم فيه، وتصرف مع ما حلله وحرمه، ونقضه وأبرمه فقد فصله الله وأحكمه، واجعل شرعه القويم الذي خص به ذوي الألباب، وأودعه جوامع الصلوات، ومحاسن الآداب سبيلاً تتبع جادته، وتبلغ في الاحتجاج محجته وتمسك بظاهره وتأويله ومثله ولا تعدل عن منهجه وسبله، واضمم نشز المؤمنين واجمع شمل المستجيبين وأرشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين، وسوي بينهم في الوعظ والإرشاد والله تعالى يقول في بيته الحرام :

((وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ {25})) سورة الحج

وزد لهم الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول وما يظهر لك من جودة المحصول، ودرجِّهم بالعلم، ووفِّ المؤمن حقه من الاحترام ولا تعدم الجاهل عندك قولاً سلاماً كما علم رب السلام، وتوخ رعاية المؤمنين وحماية المعاهدين، وميزهم عن العامة بما ميزهم الله من فضل الإيمان والدين، وألن لهم جانبك واحن عليهم وألطف وأبسط لهم وجهك وأقبل إليهم واعطف، فقد سمعت قول الله لسيد المرسلين :

((وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {215})) سورة الشعراء

ولا تفسح لأحد منهم في التطاول بالدين والإضرار بأحد من المعاهدين والذميين، وميزهم بالتواضع الذي هو حلية المؤمنين، وإذا ألبس عليك أمر، وأشكل وصعب لديك مرام وأعضل، فأنهه إلى حضرة الإمامة متبعاً قول الله تعالى :

((وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {43})) سورة النحل

وقوله

(({ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً {59})) سورة النساء

ليخرج إليك من بصائر توقيفها ومراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة، ويذهب بك في لاحب الطريقة، واقبض ما يحمله المؤمنون من الزكاة والجزئ والأخماس والقربات وما يجري هذا المجرى، وتتقدم إلى كاتب الدعوة بأثبات أسماء أربابه، واحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله إليه، وتبرأ ذممهم عند الله منه، واستنب عنك في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة، ومن تثق بديانته، وتسكن فيه إلى وفور صناعته، واعهد إليهم كما أعهد إليك، وخذ عليهم كما آخذ عليك واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته، واستخدم كاتباً ديّناً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً حقيقياً بالاطلاع على أسرار الحكمة التي أمر الله بصيانتها وكتمانها عن غير أهلها تقياً حصيفاً، لطيفاً، تنزلهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل. هذا عهد أمير المؤمنين إليكم قد بره متبصراً وراجعه

متدبراً وبه الوصايا تهدى وتسدد وتوفق وترشد، واستعن بالله يمدك بمعونته ويديم حظك من هدايته. إن شاء الله تعالى

الملحق (2)

*** صلاة الجنازة *   * الصلاة على الميت ***

يرتل الأجاويد أمام النعش الشهادتين، وبعضاً من أبيات البردة للإمام البوصيري ومطلعها :

أمـــــِنْ تذكّـــر جيـــرانٍ بذي سَــلَـــمِ   مَزجتُ دمعــاً جرى من مقلــتي بــدمِ

أم هبّت الريحُ من تلقاء كاظمةٍ   واومضَ البرقُ في الظلماءِ من إضمِ

ثم يوضع النعش ورأسه إلى الغرب ويقف المصلي وحده أولاً شمالي النعش مستقبلاً الكعبة المعظمة ويبدأ بقوله :

((إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً، اللهم صل وسلم على أشرف الأمم، سيد العرب والعجم، وإمام مكة والمدينة والحرم. سيد الأنام ومصباح الظلام، وخاتم الأنبياء والرسل الكرام، نبينا محمد، اللهم زده شرفاً ومهابة، وإجلالاً وتعظيماً،ورضي الله تبارك وتعالى عن سادتنا أصحاب رسول الله. رحم الله من نظر فاعتبر، وزجر فازدجر، ومثل هذا الحق المبين انتظر، انتذروا واعتبروا يا أولي الألباب، الحكم لله الواحد الوهاب. (يرافقها خضوع وخشوع من المصلين والمتواجدين) معكم جنازة رجل مسلم من أهل التوحيد والإيمان، ومن سلالة الأتقياء والأعيان، مندرج بالوفاة إلى رحمة الله الملك الديان، تغمده الله بالرحمة والرضوان وأسكنه

فسيح الجنان. رحمه الله.)) وعند وصول المصلي إلى هذا الحد يتقدم الإمام ويقف عن يمين المصلي فيصيح عندئذ المصلي مؤذناً : الله أكبر.

يقول الإمام سراً : (نويت أن أصلي على هذه الجنازة أربع تكبيرات فرض كفاية إماماً مستقبلاً الكعبة الشريفة)). ثم يكبر المؤذن الله أكبر بعد أن يكبر الإمام.

ثم يقول الإمام سراً ((اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد))

ثم يكبر الإمام......... فيصيح المؤذن............... (الله أكبر) ثم يقول الإمام : ((بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا، وذكرنا وأنثانا، وكبيرنا وصغيرنا.

اللهم من أحييته فاحيه على الإسلام، ومن توفيته توفه على الإسلام. اللهم إن كان محسناً فزد في حسناته، وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته)). (دعاء الميت هذا يقال جهراً للذكر والأنثى، أما الطفل والمجنون فلا يقال لهما : إن كان محسناً فزد في حسناته، وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته. لأن الطفل لا سيئات له، والمجنون لا يحاسب عن أخطائه لأنه غير مسؤول عن تصرفاته، هذا إذا كان قد ولد مجنوناً، إما إذا جن عن كبر فهذا يختلف) وبعد دعاء الميت : يكبر الإمام............... فيصيح المؤذن.....(الله أكبر) وبعد التكبير الأخير يسلم الإمام والمؤذن يميناً وشمالاً ويقولان علناً ((السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، اللهم اقبلنا وتقبل منا بحرمة الفاتحة يا حي يا قيوم. (ثم تقرأ الفاتحة سراً

((بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)).

اللهم اجعلنا من خير الفريقين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحياتك فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، يا أيها الذين آمنوا لا

تلهكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون، وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت، فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأتصدق وأكون من الصالحين، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون.

لا إله إلا الله......... محمد رسول الله........... صلى الله عليه وسلم)) ثم بعد الانتهاء ترفع الجنازة للدفن بينما يرتل المشايخ بعض السور القرآنية.

الملحق (3)

*** صورة الصداق وعقد الزواج ***

بسم الله الرحمن الرحيم....

وحسبي وكفى وصلى على السيد الجليل المصطفى، أما بعد الإطلاع على المأذونية المعطاة من فضيلة قاضي المذهب بتاريخ............ عدد............

هذا ما أصدق به الرجل البالغ (الهوية الكاملة) إلى (بنت أو ثيب) البالغة الخالية من الموانع الشرعية (الآنسة أو السيدة. كامل هويتها)، كلاهما من طائفة الدروز، أصدقها على بركة الله وسنة رسوله بمهر مؤخر إلى أحد الأجلين المعروفين قدره (.... قيمة المهر..) وقد أعلن هذا العقد قبل كتابته بدعوة جمع غفير من الوجوه والأعيان بحضور الزوج (أو وكيله بشهادة فلان وفلان) والزوجة (أو كيلها بشهادة فلان وفلان) وتصادقا على هذا العقد بالإيجاب والقبول، وعلى أن الخاطب قدم للمخطوبة جميع ما اتفقا عليه حسب العرف والعادة نظير أمثالهما، وتعاهدا على المعاشرة بالمعروف والابتعاد عن المنكر، وفقهما الله ومتعهما بالسعادة إنه خير مسؤول.

توقيع الزوجة أو وكيلها .... توقيع الزوج او وكيله.... توقيع المأذون....

توقيع الشاهدين على التوكيل توقيع الشاهدين على التوكيل شهود العقد :

شاهد أول...... شاهد أول...... شاهد 1....

شاهد ثان...... شاهد ثان....... شاهد 2....

وبعد الانتهاء من كتابة عقد الزواج، وتصريح الزوجين أو وكيلهما بالإيجاب والقبول علناً يقرأ المأذون أو من ينوب عنه الفاتحة (سراً) ثم يقرأ جهراً ثلاث مرات سورة الإخلاص :

((قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد))

ثم يتلو خطبة الزواج ونصها كما يلي :

((الحمد لله الذي أبدع الكائنات، وأفاض من رحمته الخيرات، وخلق الإنسان على أحسن صورة فكان أشرف المخلوقات، سبحانه وتعالى عن وصف الواصفين وإدراك الأنام والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين في كل بدء وختام.

وبعد :

فإن الزواج سنة من سنن الأنبياء وشرعة من شرائع البقاء وصون عن الفحشاء، ووقاية من رب الأرض والسماء. قال تعالى :

((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {21})).سورة الروم

وقال سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام : (تناكحوا تكاثروا فإني مباهي بكم الأمم يوم القيامة) فأسأله أن يلقي بين الزوجين المحبة والود. وأن يرزقهما النسل الصالح والأولاد، وأن يوسع عليهما الرزق وأن يحفظهما من مكائد الخلق وأن يبارك هذا العقد الميمون إن شاء الله.

الملحق (4)

مقطع من السجل الذي أصدره الإمام الحاكم
بأمر الله (ﷺ) في تحريم الخمر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعز الإسلام بأوليائه المتقين، وخص حدوده لمن استحفظ من أئمة دينه وأمنائه الميامين، وصلى الله على جدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله الطاهرين. قد أمر أمير المؤمنين وبالله توفيقه، بكتب هذا المنشور ليقرأ على العام والخاص، ينهي عن شرب الخمر من المسكرات على أصنافه، وأسمائه وألوانه وطعومه وكل شراب مشكوك فيه مما يسكر كثيره وقليله.

الملحق (5)

* الرسالة العظمى ((كشف الحقائق)) *

* كتبها كبير الحدود حمزة بن علي بن أحمد (س) *

= مقتطفات منها =

((توكلت على مولاي البارئ العلام، من لا يدخل في الخواطر والأوهام، ولا تحوط به الشهور والأعوام، المنزه عن الناطق والأساس والإمام، حاكماً يجل وصفه عن الحكام..))

((فبعضهم قالوا إن السابق هو الغاية والنهاية، والعبادة له وحده دون غيره في كل عصر وزمان. وهذا نفس الكفر أن يكون البارئ سبحانه لا يدرك، وعبده لا يدرك، فأين الفرق بين العابد والمعبود وهذا محال ونفس الشرك والضلال...)).

((لا يليق بالعقل أن يكون المسبوق أفضل من السابق، ولا المرزوق أفضل من الرازق ولا المفتوق أفضل من الفاتق، سبحان مولاي العلي الأعلى عما يصفون.....))

((سمي العقل السابق لأن خلقته سبقت جميع الحدود إلى توحيد البارئ سبحانه، وهو مدرك محسوس يأكل ويشرب لا كما قالوا إنه لا يدرك بوهم ولا بخاطر...))

((فقال مولانا العلي الأعلى سبحانه وتعالى لعلة الإبداع الذي هو العقل الكلي : أقبل = يعني اقبل على عبادتي وتوحيدي فأقبل عليها بالسمع والطاعة. وقال له : أدبر = أي تولى عن جميع من يشرك بي غيري ويعبد سواي، فأدبر.....))

((فإن كان المستجيب ضعيفاً بلا قوة العلم لم يزل الضد يعمل في إفساده كما يعمل الجمرة في الحطب حتى يصيره مثله ويصيرا جميعاً رماداً لا ينتفع بهما...))

((أقول بتوفيق مولانا سبحانه وتأييده : إن المولى سبحانه وتعالى لا يدخل تحت الأسماء والصفات واللغات والأشياء كلها، ولا أقول إنه قديم ولا أزل، لأن القديم والأزل مخلوقان وهو خالقهما ومكونهما،حقيقته لا تدرك بالأوهام والحواس، ولا تعرف بالرأي والقياس ولا له مكان معروف فيكون محصوراً فيه، وتخلو بقية الأمكنة منه ولا يخلو منه مكان، فيكون عاجز القدرة، ولا هو بأول فيحتاج إلى آخر، ولا بآخر فيكون له أول، ولا بظاهر فيحتاج إلى باطن حتماً، ولا بباطن فيكون يستتر بظاهر جزماً لأن كل اسم منها يحتاج إلى شكله ضرورة، ولا أقول أيضاً أن له شخصاً، ولا جسماً، ولا شبحاً ولا صورة ولا جوهراً ولا عرضاً لأن كل اسم منها لا بد له ضرورة من شبه ستة حدود، وهي فوق وتحت ويمين وشمال وخلق وقدام، وكل ما يقع عليه اسم الشبه يحتاج إلى شبهه، وهذه الستة محتاجة إلى ستة مثلها وهكذا إلى ما لا نهاية له في العدد.

ومولانا البارئ العلي سبحانه يجل عن الأعداد والأزواج والأفراد. ولا أقول إنه شيء فيقع في الهلاك، ولا أقول إنه لا شيء فيكون معدوماً مفقوداً ولا هو على شيء فيكون محمولاً عليه،ولا هو في شيء فيكون محاطاً به، ولا متعلق بشيء فيكون قد التجأ إليه، ولا هو قائم ولا جالس، ولا نائم ولا ساهر، ولا له شبه، ولا ذاهب ولا مار، ولا جاء، ولا لطيف ولا كثيف، ولا قوي ولا ضعيف، بل مولانا الخالق سبحانه بارئ كل شيء ومكوّن كل شيء. من نوره أبدع الأشياء الكلية والجزئية، وإلى عظمته يعود كل شيء.

الملحق (6)

قصيدة الشاعر مارون عبود في وصف بني معروف

قالوا : الدروز ؟ فقلت جيل مُعْرقُ[388]   (العقل) دينٌ، والوفاءُ (الموثَقُ)

و (الصدق) شَرعَتهم فإن عاهدتَهم   بَرّوا[389] وإن نطقوا بأمرٍ يصدقوا

خُلقُ الأسودِ متى يُمسُّ حماهُمُ   وسخاءُ حاتم طيء إن يُطرقوا

تمتْ مروءَتهُم فإنْ ناديتَهم   طاروا إليك عصائبَ[390] تتدفقُ

ربضوا[391] ببابِ الشرقِ خيرَ ضراغمٍ   تحمي العَرينَ فأينَ منه الأبلقُ[392]

غنت سيوفُهُمُ أناشيدَ شَجَتْ[393]   قلبَ العروبةِ واستعزَّ المشرقُ

فإذا مشت بيضُ العمائمِ للوغى   حُمَّ[394] القضاءُ فكل شيخٍ بيرقُ

و فتاهُمُ يلقى الجموعَ مجازِفاً   فكأنما تحتَ العباءةِ فَيلَقُ

تتلَّثمُ الآفاقُ من نيرانِهمْ   وسيوفُهم كَكواكبٍ تتألَّقُ

وتضــيءُ أوجههمْ إذا طايبَتهم ... وتخالُهـم جناً إذا ما أَطبقُـوا

فـإذا سئلتَ عن الدروزِ فقلْ همُ ... قـومٌ لهمْ في كلِّ حالٍ مَنْطقُ

إن تستفزَّهُمُ، فقـل خابَ الرَّجا ... العقلَ يَعْقُدُ، والسيوفُ تُطْـلَّقُ

يستلهمون البرَّ[395] فـي خَلْواتِهِمْ ... متَسِّكينَ وإن جَنَفَتَ[396]قـوا

وإذا الكريهةُ شَمرَّتْ عـن ساقِها ... كروا وفي أُفقِ البطـولةِ خـلقوا

مَا قَصّـرَتْ عن غايةٍ فرسانُهم ... فَاسْتنطِقوا تاريخَهُم َسْتوثِقُوا

يمشي الدمُ العربيُّ في أعْراقِهِمُ ... صَرْفاً صُرَاحاً والدليلُ المنْطِـقُ

لمْ لا تصانُ أصولُهم وفروعُهم ... والبـابُ فـي وجهِ البَرِّية مُغلقُ

فَهُمُ ذوو الجبلِ الطـويلِ نجادُهُ ... حلَّوا ربـاهُ وفـي ذُراهُ تَعَّلقُوا

تتدهورُ الأرياحُ عـن جنباتِهِ ... وعلى ذوائِبِهِ الصواعـقُ تَزْلَـقُ

لاذوا به مستعصمينَ ومُذْ غدا ... حصناً لـهمْ عَزَّوا به وتَفَوَّقـوا

وتألَّبوا[397] عُصَباً تَصونُ ذِمارَهُ[398] ... فَرَعَـتْ سيادَتَه قلـوبٌ تَخفُقُ

فإذا تعرَّضَ للمطامِع ارعدوُا ... وإذا تشيرُ إليهِ كفٌّ أبرقُـوا

السيفُ يخطبُ عنهُمُ إن هُوجموا ... والصدقُ في ندواتِهِمْ[399] يَنطـقوا

سبعٌ وعشرونَ أنقضَتْ في ظِلِّهِمْ ... للهِ ظلُّهُمُ المنيفُ[400] المُــوْرِقُ

فإذا أقولُ عشيرتـي فَهوَ الوفا يُملي علــيَّ فما هناكَ تَمَلُّقُ[401]

فأنا مُواطِنَهُـمْ بفضل منهُمُ والفضلُ يعرُفهُ الـدروزُ السُبَّقُ[402]

قد هوَّنَ الموتَ اعتقادُهُمُ فما أجسادُهُمُ إلا تـراثٌ يُنْفَقُ[403]

فإذا هززت هززت رمحاً طيعاً وإذا سللت سللت سيفـاً يفلقُ[404]

وإذا تَنمرَّ طـارئٌ صاحوا به أبشرْ فإن السيفَ حـيٌّ يـُرزَقُ

نحنُ الأُلى هانَ المماتُ عليهُمُ (الروحُ) تَبقى و (القميصُ) يُمـزقُ

الملحق (7)

قصيدة الشاعر أحمد شوقي التي ألقيت في دمشق عام (1946)

سَلامٌ من صبا بردى أرقُّ ... ودمـعٌ لا يُكَفْكِفُ يا دمشقُ

ومعذرةَ اليراعةِ والقوافي ... جلالُ الرزءِ عن وصف يَدِّقُّ

و ذكرى عن خواطرها لقلبي ... إليكَ تلفـت أبداً وخفقُ

وحـولي فتية غُرٌّ صِباحٌ ... لهم في الفضـلِ غاياتٌ وسَبْقُ

رواةُ قصـائدي فاعجب لشعرٍ ... بكـلِ مَحَـلّةٍ يرويه خَلقُ

وضـج من الشكيمةِ كل حرّ ... أبي مـن أميَّة فيـه عتقُ

لحاها اللهُ أنباء توالت ... على سَمْعِ الوليّ بما يَشُقُّ

يفصلـها إلى الدنيا بريدٌ ... و يحملها إلــى الآفاقِ بَرْقُ

وقيل معـالم التاريخ دُكَتْ ... و قِيْلَ أصابَها تلفٌ و حَرْقُ

صـلاحُ الدين تاجُك لـم يُجَمَّلْ ولم يوسَـمْ بأَزيَنْ منه فَرْقُ

سماؤكِ من حُلى الماضي كتابٌ وأرضُكِ من حُلى التاريخ رقٌّ

لـه في الشام أعلامٌ وعرس بشائرُه بأندَلسٍ تدقُّ

وهل غرف الجِنان منضداتٌ وهل لنعيمهِن كـأمسٍ نَسْقُ

برزتْ وفـي نواحي الأيكِ نارٌ وخَلْفَ الأيكِ أفـراحٌ تُزَّقُ

بليلٍ للقـذائف والمنايا وراء سمـائه خَطفٌ وصَعْقٌ

سلـي من راعَ غيدَك بَعْدَ وهْنٍ أبينَ فؤاده والصخـر فَرْقُ ؟

رمـاكَ بطيشه ورمى فرنسا أخو حـرب به صَلَفٌ و حُمْقُ

دمُ الثوار تعـرفُه فرنسا و تعـلمُ أنه نـورٌ وحقٌّ

بـــلاد مات فتيتُها لتحيا وزالوا دون قومــهم ليبقوا

بنـي سوريةَ اطـرحوا الأماني وألقوا عنكـم الأحلام ألقوا

فمن خدعِ السياسة أن تغرُّوا بألقابِ الإمـارةِ و هـي رقٌّ

نصحتُ ونحن مختلفون داراً ولكـنْ كُلُّنا في الهمِّ شَرقُ

دمُ الثوار تعـرفُه ويجمعنا إذا اختلف بلادٌ بيانٌ غـيرُ مختلفٍ و نُطقُ

و للأوطـانٍ في دمِ كلِ حرٍ يدٌ سلفت ودَيـنٌ مستَحِقٌّ

وقفتـم بين موتٍ أو حياة فإنْ رمتم نـعيْـمَ الدهرِ فاشقوا

ففــي القتلى لأجيالٍ حياةٌ وفي الأسرى فِدىً لهُـمُ وعِتقُ

و للحـريةِ الحمراء بابٌ بكــلِّ يدٍ مضرجة يُدَقُ

جزاكمْ ذو الجلالِ بني دمشق وعزُّ الشـرقِ أولـُه دمشقُ

نصـرتم يوم محنتِه أخاكمْ و كلُّ أخ بنصـرِ أخيهِ حقُّ

ومـا كان الدروزَ قَبيل شرٍ و إنْ اخذوا بمـا لا يستحقوا

ولكن ذادةٌ وقراةُ ضـيفٍ كينبوعِ الصفـا خشنوا ورقُّوا

لهـم جبلٌ أشمُّ له شِعافٌ مواردُ في السَّحابِ الجُونِ بُلْـقُ

لكــلِّ لبوءةٍ ولكلِ شبلٍ نضـــالٌ دون غايتِهِ و رَشْقُ

كأنَّ من السموءَلِ فيه شيئاَ فكلُّ جهاتِهِ شرفٌ وخُلْقُ

الملحق (8)

سبحانية مباركة تتلى في كل صباح

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. سبحان من له الفضل العميم. والحمد المقيم. سبحان من هدانا إلى الصراط المستقيم. وسيرنا على الطريق القويم. فهذه السبحانية من قالها في كل صباح بقلب طاهر ونية سليمة شفاه الله من كل علة وأغناه من كل قلة وجعله من السعداء الفائزين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وحبب فيه جميع خلقه. وأعطاه خير الدنيا ونعيم الآخرة.

سبحانك يا مشرق نور الصباح. سبحانك يا منسم الأرياح. سبحانك يا مطير الجناح . سبحانك يا كريم يا فتاح. سبحانك يا مصور الأشباح. سبحانك يا منعش الأرواح. سبحانك يا منشئ الفلاح. سبحانك يا صاحب الجود والسماح. سبحانك يا رافع السموات بغير عمد. سبحانك يا باسط الأرض على ماء جمد. سبحانك يا واحد يا أحد. سبحانك يا فرد يا صمد. سبحانك يا منزه عن الأزواج والولد. سبحانك يا من في ملكك منفرد. سبحانك يا منفرد بالقدرة. سبحانك يا متعزز بالعظمة. سبحانك يا من قاهر عبادك بالموت. سبحانك يا من هو حي لا يموت. سبحانك يا من لا يفوتك فوت. سبحانك يا من جاعل لكل شيء بداية. سبحانك يا من جاعل لكل شيء نهاية. سبحانك يا خالق الخلايق. سبحانك يا مجري النور في الحدائق. سبحانك يا رازق يا رزّاق. سبحانك يا فارج كل منضاق. سبحانك يا كريم يا وهاب. سبحانك يا معطي بلا حساب. سبحانك يا مسبب الأسباب. سبحانك يا مجري قطر السحاب. سبحانك يا رب الأرباب. سبحانك يا منبت الأعشاب.

سبحانك يا مالك الرقاب. سبحانك يا من قابل لمن تاب. سبحانك يا غفار الذنوب. سبحانك يا ستار العيوب. سبحانك يا مداوي أمراض القلوب. سبحانك يا كاشف الكروب. سبحانك يا من عن خلقه محجوب سبحانك يا غاية المطلوب. سبحانك يا علام الغيوب. سبحانك يا معبود. سبحانك يا واجد الوجود. سبحانك يا قاهر النمرود. سبحانك يا ودود. سبحانك يا حليم.

سبحانك يا من لا يرى بالعيان. سبحانك يا مؤنسنا بوحدتنا بلا جماعة. سبحانك يا من هادينا إلى الطاعة. سبحانك يا من هو منعم علينا. سبحانك يا من لنا قبل والدينا. سبحانك يا حاضر. سبحانك يا ناظر. سبحانك يا جابر. سبحانك يا عالم الأسرار. سبحانك يا مُفْلِقْ الليل عن النهار. سبحانك يا حميد. سبحانك يا مجيد. سبحانك يا صاحب البطش الشديد. سبحانك يا صاحب النور العتيد. سبحانك يا صاحب العز والتأييد. سبحانك يا منبع الماء من حجر. سبحانك يا منور الشمس والقمر. سبحانك يا مراقب الظالمين. سبحانك يا مجيب الطالبين. سبحانك يا دليل الحائرين. سبحانك يا رب العالمين. سبحانك يا جامع شمل المؤمنين. سبحانك يا إله الأولين والآخرين. سبحانك يا حي يا قيوم. سبحانك يا من لا تأخذه سنة ولا نوم. سبحانك يا مزين الأفلاك بالنجوم. سبحانك يا فارج كل مظلوم. سبحانك يا قاهر كل ظلوم. سبحانك يا من هادينا إلى خير العلوم. سبحانك يا من هو شافي المسقوم. سبحانك في الصباح والغروب. سبحانك عند غفلات القلوب. سبحانك يا من جلت قدرتك. سبحانك يا من لا فرض عليك بحكمتك. سبحانك كل الخلايق في قبضتك. سبحانك لا عناد لك في مشيئتك. سبحانك يا من أتقنت صنعتك. سبحانك يا من غمرتنا بنعمتك. سبحانك يا من أنعمت علينا برحمتك. سبحانك يا قادر. سبحانك يا جابر. سبحانك يا من على كل شيء قدير. سبحانك يا من هو عليم وخبير. الحمد لله الحمد لله. على عدد نعائم الله الحمد لله الباسط عدله. الحمد لله الحمد لله الرافع ظلمه. الحمد لله الحمد لله الذي أنعامه لا تحصى. الحمد لله الحمد لله الذي أمره لا يعصى. اللهم لك الحمد حتى ترضى. ولك الحمد إذا رضيت. ولك الحمد عدد ما أنعمت وأعطيت وتكرمت. اللهم لك الحمد حمداً يوافي نعمتك. ويدفع نقمتك وحمداً يكافي مزيد برك وإحسانك. اللهم لك الحمد ما ذكر الذاكرون. ولك الحمد ما غفل عن ذكرك الغافلون. اللهم لك الحمد حمد الشاكرين. وحمد الذاكرين وحمد الصالحين. وحمد الصادقين. وحمد الصابرين. وحمد المؤمنين وحمد المخلصين. وحمد العابدين وحمد العارفين. وحمد الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. اللهم لك الحمد دائماً مقيم. والشكر لأنبيائك أجمعين. اللهم لك الحمد

على عدد موج البحار ولك الحمد على عدد رمل القفار ولك الحمد على عدد ما تنبت الأعشاب ورق الأشجار وما فيها من الأزهار والأثمار. اللهم ارحمنا برحمتك. اللهم اشملنا بنعمتك. اللهم ارزقنا تلاوة كتابك يا رب العالمين. اللهم بحق كل كتاب أنزلته. ورسول أرسلته وأجل أجلته. اللهم بحق ما يقرأ في كتب الأنبياء والمرسلين من مشارق الأرض ومغاربها. اللهم لا تُقدّر علينا بعد تلاوة هذا الدعاء هماً ولا غماً ولا نكداً ولا حقداً ولا حسداً. ولا تدع لنا بعد هذه الساعة الشريفة ذنباً إلا غفرته ولا عيباً إلا سترته ولا خائفاً إلا آمنته ولا غائباً إلا وفقته في غيبته وردّته، ولا مريضاً إلا عافيته وشفيته. ولا عدواً إلا قهرته. ولا مفقوداً إلا أرجعته. ولا عملاً صالحاً إلا قبلته ولا مسيئاً إلا رحمته. وأن تقدرنا على التوبة الخالصة والرجا الثابت. برحمة منك يا أرحم الراحمين. والحمد لله رب العالمين.

آمين

الملحق (9)

بيان الثورة السورية الكبرى الصادر بتاريخ 23 آب 1925

أيها السوريون العرب :

باسم الوطن السوري المقدس، وباسم استقلاله المبارك، أحييكم وأحيي فيكم العروبة الصادقة والأنفة القومية، واستصرخ منكم أمة عربية مشت على مناكب الدهر محمية الذمار، ما حملت عاراً ولا كان بحماها شنار، واستنصركم لحومة الجهاد الوطني، يا خير من حمى الوطن، وكنتم زاده أبطالاً، ونفرتم إلى مواطن الشرف القومي خفافاً وثقالاً، أناديكم من معاقل الجبل المنيع، وهو داركم وسلاحكم، وحرزكم وملاذكم أن هبوا إلى المنافحة عن أوطانكم، أوطان آبائكم وأجدادكم، وحطموا أغلال الاستعمار في دياركم، فقد هبت رياحكم فاغتنموها ودرت[405] ضروع أيامكم فاحتلبوها.

يا أحفاد العرب الأمجاد :

هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم، والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم، هذا يوم انتباه الأمم والشعوب، فلننهض من رقادنا، ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا، لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال فلنستأنف جهادنا بالسيف بعد أن أسكت القلم ولا يضيع حق وراءه مطالب.

أيها السوريون :

تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي، تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وأن إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمم المتحدة المناضلة الناهضة لن تنالها يد البغي. لقد نهب المستعمرون أموالنا، واستأثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد، وقسمونا إلى شعوب وطوائف ودويلات وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا وأقاليمنا.

إلى السلاح أيها الوطنيون، إلى السلاح تحقيقاً لأماني البلاد المقدسة، إلى السلاح تأييداً لسيادة الشعب وحرية الأمة، إلى السلاح بعد أن سلب الأجنبي حقوقكم، واستعبد بلادكم ونقض عهودكم ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية وتناسى الأماني القومية. نحن نبرأ إلى الله من مسؤولية سفك الدماء ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرة عن الفتنة.

إلى السلاح أيها الوطنيون ولتغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة. إن حربنا اليوم هي حرب مقدسة، وثورتنا الدموية هذه هي ثورة القائم لتحرير البلاد من المغتصبين المستعمرين، هي ثورة سورية، بعيدة المدى، شريفة الغاية، نصابها النفوس والأرواح والسلاح، والعزمات الصادقات، خالصة لوجه الاستقلال العربي، ففي سبيل استقلال بلادنا السورية، حياة الأعزة نحيا وفي هذا السبيل موت الكرام نموت.

فيا أيها العرب الأماجد، أهل النخوة والنجدة، وحدوا مساعيكم، وتعاقدوا بقلوبكم، وتقلدوا سلاحكم، وانشروا ألويتكم، واراكبوا خيولكم وصابحوا العدو الجائس جلال دياركم ببارود الثورة، وخذوا عليه الطرق وارصدوا له في المكان، واقطعوا الأسلاك، وانسفوا الجسور، واهبطوا على مخافره في كل مكان، واقتلوه حيث ثقفتموه واغتنموا سلاحه وعتاده وكونوا عليه جميعاً يداً واحدة، واصبروا في القتال والجلاد إن الله مع الصابرين. فإلى اليوم الذي لاح صبحه، وفيه تتحرر البلاد السورية العربية يا أباة الضيم، وعياف الذل، إلى اليوم الذي تتوحد فيه البلاد مستردة ... استقلالها المسلوب.

إلى السلاح والله معنا، والإنسانية معنا في حربنا المقدسة ومطالبنا هي:

1 _ وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.

2 _ قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

3 _ سحب القوات المحتلة من البلاد السورية، وتأليف جيش محلي لصيانة الأمة.

إلى السلاح ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا.

قائد الثورة الوطنية السورية العام

سلطان الأطرش

خاتمة

وجل ما أرجوه أن أكون قد قدمت بعض الفائدة لجيلنا الشاب الموحد في توضيح أمور كانت غامضة عليه. وإني وقد صادفت الكثيرين ممن يجهلون ما يحب _ على الأقل _ معرفته، وقد سرهم أن يوجد مثل هذا الكتاب الذي يعرض لهم تلك العقائد والأركان مبسطة بعيدة عن تعقيد الفلسفة ومفهوماتها الغامضة. وأرجو أن يكون (كشف الستار) دافعاً للبحث والمحاولة في التعمق في مذهب عظيم قديم متجدد هو مذهب التوحيد، ولي رجاء من القارئ الكريم أن يحكم على هذا الكتاب وفق ما يمليه عليه عقله المستنير بعيداً عن أي تعصب جاهل أو جهل متعلم وإنا لا نطلب مجاملة ولا ممالقة فإذا كانت هناك أية أخطاء _ والإنسان خطاء _ فنرجو أن ترسل لنا بملاحظاتك القيمة على العنوان التالي : (سورية – السويداء – المزرعة) نسيب أسعد الأسعد

(2003 / 8 / 4)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
قَرِيبٌ {١٧} يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ
مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ

صدق الله العظيم

سورة الشورى _ الآية ١٧ _ ١٨

المراجع

((حسب ورودها في الكتاب))

أولاً : العربية :

1 _ تاريخ الأدب العربي _ العصر الجاهلي _ د. شوقي ضيف.

2 _ لسان العرب _ ابن منظور. ج 10

3 _ النزاع والتخاصم و _ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار _ المقريزي

4 _ الأغاني _ أبو الفرج الأصفهاني _ ج 13 _ 16

5 _ فرق الشيعة _ النوبختي (صححه وعلق عليه محمد صادق _ النجف) 1936

6 _ الفرائض وحدود الدين في نسب الخلفاء الفاطميين _ جعفر بن منصور

7 _ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم _ ابن حماد

8 _ شخصيات قلقة في الإسلام _ د. عبد الرحمن بدوي

9 _ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام _ د. سامي النشار. ج2

10 _ الفتوحات المكية _ الشيخ ابن عربي _ ج1 _ 4

11 _ نفس الرحمن _ الطبرسي النوري

12 _ كشف الحقائق _ الرسالة العظمى _ الإمام حمزة بن علي (س)

13 _ بحار الأنوار _ المجلسي _ ج 21

14 _ المقداد بن الأسود الكندي _ أول فارس في الإسلام _ الشيخ محمد جواد آل الفقيه سلسلة الأركان الأربعة _ دار التعارف بيروت.

15 _ رجال بحر العلوم _ السيد محمد مهدي بحر العلوم _ ج3

16 _ الكامل في التاريخ _ ابن الأثير _ ج2

17 _ صحيح مسلم _ ج3

18 _ الطبقات الكبرى _ محمد بن سعد _ ج3

19 _ تاريخ اليعقوبي _ احمد بن أبي يعقوب _ ج2

20 _ عمار بن ياسر _ محمد جواد آل الفقيه _ سلسلة الأركان الأربعة.

21 _ المعجم المدرسي _ المنجد _ مختار الصحاح. القاموس المحيط

22 _ مائة أوائل من تراثنا _ د. سهيل زكار _ ط2 (1982)

23 _ أبو الذر الغفاري _ محمد جواد آل الفقيه _ سلسلة الأركان الأربعة

24 _ صفين _ نصر بن مزاحم

25 _ مائة أوائل من النساء _ سليمان سليم البواب

26 _ البيان المغرب في أخبار المغرب _ ابن عذاري. ج2

27 _ تاريخ الإسلام السياسي _ حسن إبراهيم حسن

_ المعز لدين الله الفاطمي _ حسن إبراهيم حسن

28 _ تاريخ الدعوة الفاطمية _ مصطفى غالب

29 _ عيون الأخبار _ إدريس عماد الدين _ ج6

30 _ النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة _ ابن تغري بردي _ ج4

31 _ الحاكم بأمر الله (الخليفة المفترى عليه) د. عبد المنعم ماجد. ط2 (1982)

32 _ الفصل في الملل والأهواء والنحل _ ابن حزم _ ط1 (1321 هـ)

33 _ ذيل كتاب تجارب الأمم _ أبو شجاع الروذراوي

34 _ كشف أسرار الباطنية _ الحمادي _ ط (1939)

35 _ الرسالة الواعظة _ حميد الدين الكرماني

36 _ تاريخ دولة بني العباس والطولونيين والفاطميين _ بدر الدين العيني

37 _ الدروز في التاريخ _ د. نجاة أبو عز الدين

38 _ الكامل في التاريخ _ المبرد _ ج7

39 _ أضواء على مسلك التوحيد _ د. سامي نسيب مكارم

40 _ وفيات الأعيان _ ابن خلكان _ ج 2

41 _ الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلب _ ابن الشحنة (تحقيق سركيس) بيروت

42 _ صلى تاريخ أوتيخا _ يحيى بن سعيد الأنطاكي

43 _ تاريخ المسلمين _ ابن العميد

44 _ تاريخ العيني

45 _ رسائل أبي بكر الخوارزمي _ ط القسطنطينية (1297 هـ)

46 _ سلوك (تاريخ اليمن) _ مختصر كاي

47 _ سلسلة الحياة والنور _ المنداكا أوبانيشاد _ توبب بايازيد

48 _كتاب الينابيع _ أبو يعقوب اسحق السجستاني

49 _ الصوفية في الإسلام _ ر. أ _ نيكلسون _ ترجمة نور الدين شربيه

50 _ أصل الموحدين وأصولهم _ أمين محمد طليع

51 _ صدق الأخبار _ حمزة بن أحمد الفقيه بن سباط

52 _ المذهب التوحيدي (الدرزية) _ نجيب العسراوي _ برازيل 1972 نسخة بالآلة الكاتبة

53 _ الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي _ غالب أبو مصلح.

54 _ تقويم الأود في السير في الجدد _ فريد أبو مصلح _ نيويورك

55 _ قانون الأحوال الشخصية لطائفة الموحدين _ منشورات مطابع زين الدين

56 _ كتاب الأنباء _ ط 17 نيسان (1977).

57 _ أدب الحياة _ كمال جنبلاط _ آذار (1987)

58 _ مختارات _ كمال جنبلاط.

59 _ سليم أبو إسماعيل _ الدروز والتشيع الفاطمي الإسماعيلي

60 _ كتب الحكمة الشريفة، وبعض الرسائل المقدسة

61 _ القرآن الكريم

62 _ الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)

ثانياً : الأجنبية

1 _ Ivanov. ismailitca

.Fred massy. Op. Cit _ 2

potemics on the orign of the fatimicali pHs. M _ amour _ 3

the enigma of survival. Hrnell hart. 1959 _ 4

Notes

[1←]

هذا الحديث أوردته كما جاء في خلاصة الحوار، وهو حديث ضعيف.

[2←]

سورة آل عمران – الآية (97)

[3←]

سورة النساء، الآية (11)

[4←]

سورة البقرة – الآية (180)

[5←]

سورة النساء، الآية (3)

[6←]

سورة النساء، الآية (129)

[7←]

سورة البقرة – الأية (28)

[8←]

سورة المنافقون – الآية (11)

[9←]

س= اختصار لعبارة: (سلام الله عليه) وهي العبارة التي أوصى باستخدامها أصحابه في مكاتباتهم، ومنعهم من استخدام عبارة (صلى الله عليه وسلم).

[10←]

في تسمية الموحدين بـ (بنو معروف) أكثر من رواية أهمها

–أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى إحدى القبائل العربية اليمنية التي ينحدرون منها وقد غلب البعض على الكل في هذه التسمية، وأشهر هذه القبائل هي (بنو ربيعة، بنو ثعلب، بنو ثعلبة، بنو عامر، بنو معروف، بنو عبد قيس، بنو هلال، بنو زائدة) وكلها ترجع في أصلها إلى اليمن.

–والرواية الثانية في هذه التسمية = أطلق عليهم بنو معروف أو أبناء العرفان، أو أبناء المعرفة، أو أبناء الحكمة، وذلك لأنهم يعتبرون أنفسهم أبناء للمعرفة والحكمة الموجودة في كتبهم المقدسة.

[11←]

مأرب: وتسمى مدينة سبأ وتقع على بعد (80) كم جنوبي شرقي صنعاء، وفيها قصر بلقيس والسد الذي بناه سبأ.

[12←]

الحميريون هم: ملوك سبأ وذي ريدان، وحضرموت، واليمنات.

[13←]

يتفرع من قبيلة حمير: غسان . التبابعة . قضاعة في الشام، بنو كلب ساكنو تبوك ودومة الجندل، وتتوخ ساكنو شمال سورية، وجهينة ساكنو الحجاز، وبنو سليم في بادية الشام. ولخم في العراق . الأوس والخزرج في المدينة، كندة في الشمال وطيء في جبلي أجأ وسلمى.

[14←]

معين: إحدى ممالك اليمنين. كانت تقع في الجوف في الجزيرة العربية.

[15←]

نبع غسان: يجاور قرية عرى في جبل العرب، كما أورده ياقوت الحموي في معجمه.

[16←]

تنخ بالمكان تنوخاً: أقام به، كما أورده ابن منظور في معجمه لسان العرب.

[17←]

الحيرة = تحريف لكلمة حرتا السريانية، وتعني المخيم أو المعسكر . لسان العرب ـ ابن منظور.

[18←]

كانت الشهباء والدوسر تتألف من التنوخيين، وقد اشتهرتا بالقوة، وصارتا مضرباً للمثل بالقوة، فيقال أبطش من دوسر.

[19←]

بناه رجل يدعى سنمار ولما انتهى من بنائه وأعجب النعمان وخاصته جمال هندسته قال سنمار معجباً بنفسه إنني أتمكن من هدم هذا القصر بنزع أحد الحجارة فقال له النعمان أيعلم غيرك مكان الحجر، قال لا فأمر بطرحه من رأس القصر فمات.

[20←]

هند = هي عمة الشاعر المشهور أمرؤ القيس، الذي طلب من ملك الروم أن ينجده على المنذر وبني أسد الذين قتلوا أباه وقومه، وقد رثاه بقصيدة طويلة قال فيها

ملوكاًمن بني حجر بن عمرو يساقون العشيّة يقتلونا

فـلم تغُسل جماجـم بغسـل ولكن في الدمـاء غارقينا

[21←]

عين = بكسر العين تعني بقر الوحش، عين بفتح العين تعني الجماعة وقد فسرها زيد لمندوب كسرى بكسر العين بمعنى البقر.

[22←]

أطلق العرب المسلمون اسم المدائن بعصر الإسلام على مدينتي طيشفون في الشرق من بلاد فارس (إيران حالياً وسلوقيه في الغرب.

[23←]

بنو عجل إحدى قبائل الموحدين، وهم ينتسبون إلى عشيرة بني شيبان وهم بنو عجل بن لجيم بطن من بكر بن وائل من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وكانت منازلهم من البحرين على ساحل الخليج جنوباً,إلى صحراء الأبلة تجاه شط العرب

[24←]

كما أورد هذا الخبر المقريزي في كتابه (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار).

[25←]

غطاريف السيد الشريف السخي والشاب الظريف

[26←]

السدف سدف القوم دخلوا في السدفة وهي الظلمة

[27←]

الهندي السيف المصنوع في الهند

[28←]

لسان العرب _ ابن منظور – الجزء العاشر – الصفحة 54

[29←]

سورة القصص – الآية (15)

[30←]

حارب الإمام علي عائشة زوجة النبي مع طلحة والزبير في موقعة الجمل وانتصر عليهم وكان ذلك عام (36 هـ / 656 م).

[31←]

النزاع التخاصم – للمقريزي – ص 11

[32←]

كتاب الأغاني – الأصفهاني – ج13 – ص168 – ص 11.

[33←]

الخطط = ج4 – ص 173 يقول مؤلفه أن المشهور منها عشرون فرقة.

[34←]

فرق الشيعة. للنوبختي، صححه وعلق عليه محمد الصادق _ النجف 1936 – ص65.

=الفرائض وحدود الدين في نسب الخلفاء الفاطميين – جعفر بن منصور – ص9.

[35←]

كان أبو عبد الله يكتب على راياته (سيهزم الجميع) وعلى أفخاذ الخيل (الملك لله).

[36←]

سلمية مدينة سورية تقع شرق حماه، وهي تابعة لها.

[37←]

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم – ابن حماد

= زهر المعاني – ص 67

[38←]

شخصيات قلقة في الإسلام – د. عبد الرحمن بدوي

[39←]

وعلى قول عبيد المكتب وسيار الغنزي أنه ولد من دهاقين جي بالقرب من أصفهان

[40←]

في قول ابن منده .

[41←]

توجد أقوال متضاربة حول لقاء سلمان الفارسي مع الرسول، ومنها أنه لاقاه بعد هجرته إلى المدينة. ومنها أنه لاقاه في مكة قبل الهجرة وهذا الأرجح.

[42←]

ولأجل مكانة سلمان عند النبي واصحابه والمسلمين فقد أعطاه الرسول الكريم عهداً، له ولأهل بيته، يرفع عنهم الجزية وجز الناصية وغيرها

[43←]
صحيح بخاري.

[44←]
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – د. سامي النشار – ج2 – ص 294.

[45←]
شخصيات قلقة في الإسلام.. .. عبد الرحمن بدوي

[46←]
فسر ابن عربي الشيخ الأكبر، هذه الصيغة تفسيراً يقوم على التقدير السابق من الله لهذا الأمر في كتابه (الفتوحات) – الفصل 29 ج1 ص 219 =(غفرت ذنوب سلمان مقدماً).

[47←]
نفس الرحمن _ الطبرسي النووي – ص 43

[48←]
التفسير الطبري – ج 14 – 111

[49←]
إسماعيليات – إيفانوف – ص 34 – 74

[50←]
يبدو أن اللفظ سلسل قد يكون على الكلمة (سلسلة) الواردة في القرآن الكريم، السورة 69 الآية 32 وصيغت في صيغة المذكر كيما تكون في حساب الحروف س + ل + س + ل = 180 = س + ل + م + ن بإسقاط الألف من اسم سلمان حسب الكتابة العربية في القرآن الكريم.

[51←]
كشف الحقائق = الإمام حمزة بن علي – ص 88 – 90

[52←]
غنوص لفظ الدلالة على كل المذاهب المستورة الفارسية و الإسلامية.

[53←]
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – د. سامي النشار – ج2 – ص12

[54←]

شخصيات قلقة في الإسلام – د. عبد الرحمن بدوي.

[55←]

تذكر المصادر الشيعية أن الإمام علي _ كرم الله وجهه قد انتقل بمعجزة إلهية من المدينة إلى المدائن ليعينه في ساعاته الأخيرة.

[56←]

دعوة الزوار كما يرويها المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) ج21 – ص299 – س 36 – 37.

[57←]

المقداد _ أول فارس في الإسلام _ الشيخ محمد آل الفقيه ـ دار التعارف ـ بيروت ص 5.

[58←]

الإصابة _ ابن حجر العسقلاني (852 هـ) _ ج3 _ ص 454 _ 455.

[59←]

نسبة إلى بهراء بن عمرو، بطن من قضاعة، كانت منازلهم شمالي (بلي) من الينبع إلى عقب أيلة، ثم جاوروا بحر القلزم، واشتهروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر، وكثروا هناك، وغلبوا عل بلاد النوبة.. وقدم وفد منهم من بهراء على الرسول (ﷺ) سنة (9) هجري.

[60←]

حضرموت ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود عليه السلام واسم حضرموت يعني (حاضر ميت)، وقيل اسم لعامر بن قحطان لقب به لكثرة ما قتل من الخلق في إحدى حروبه في ذلك المكان.

[61←]

المصدر السابق = 454 – 455.

[62←]

الأسود بن يغوث الزهري: كان من جبابرة قريش، وأحد كبار المستهزئين برسول الله (ﷺ) وكانوا خمسة، وقد كفى الله نبيه إياهم، فحين نزلت الآية: ((إنا كفيناك المستهزئين)) أصيب الأسود هذا بالاستسقاء حتى هلك أما الأربعة الباقية فهم الأسود بن عبد المطلب أصيب بالعمى والوليد بن المغيرة كان قد جرح في أسفل قدمه فانتقض عليه فمات والعاص بن وائل أصيب في شوكة في رجله فقتلته والحارث بن طلالة امتخض رأسه قيحاً فقتله.

[63←]

المستدرك على الصحيحين ـ (الحاكم النيشابوري) محمد بن عبد الله (405 هـ)ج3 ص 348.

[64←]
المستدرك . ج3 . ص348

[65←]
الإصابة . ص454

[66←]
رجال بحر العلوم = (السيد محمد مهدي بحر العلوم) _ ج3 _ ص 345.

[67←]
صبأ الرجل: ترك دينه، ودان بدين آخر.

[68←]
الكامل في التاريخ _ ج2 _ ابن الأثير ص 111.

[69←]
المقداد ابن الأسود الكندي _ محمد جواد آل الفقيه _ ص 51

[70←]
وغلت أي استقرت وتمكنت في بطنه.

[71←]
حافلة ضرعها ملآن باللبن.

[72←]
صحيح مسلم ج3 _ ص 1625_ 1626.

[73←]
سبحة: أول فرس لأول فارس في الإسلام. ((فعن القاسم بن عبد الرحمن، قال: أول من عدا به فرسه في سبيل الله، المقداد بن الأسود.)) ((وعن علي بن أبي طالب (ع) قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد بن عمرو.))

[74←]
برك الغماد: موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل بلد في اليمن.

[75←]
كل ماجرفته السيول من الأرض، يقال له الجرف

[76←]

الطبقات الكبرى _ (ابن سعد) محمد _ 230 هـ ج3 _ ص 163.

[77←]
تاريخ اليعقوبي. (أحمد بن أبي يعقوبي) _ ج2 _ ص 171

[78←]
عمار بن ياسر. محمد جواد آل الفقيه ـ سلسلة الأركان الأربعة

[79←]
المصدر السابق نفسه

[80←]
المصدر السابق نفسه

[81←]
الطبقات الكبرى _ ج3 _ ص 251 _ 252 هذا الحديث أورده البخاري في صحيحه برقم (2812)

[82←]
عمار بن ياسر ـ محمد جواد آل الفقيه ـ سلسلة الأركان الأربعة ـ ص 10.

[83←]
صحيح البخاري.

[84←]
عام الفيل: هو العام الذي غزى فيه أبرهة الحبشي مكة قبل الإسلام لهدم الكعبة لكن الله تعالى أرسل إليه طيوراً ترميه بالحجارة فهلك جيشه وكان عنده فيل عظيم وكان ذلك عام (577)م

[85←]
الترب المماثل في السن ذكراً كان أم أنثى .

[86←]
السجية الخلق والغريزة الطبيعية. (ج) سجايا وسجيات

[87←]
البطاح م (بطح) ومثلها البطحاء _ مسيل واسع فيه دقاق الحصى والتراب

[88←]
المروج للسلعة ـ الذي يعجل بها حتى تنفق والمروج للدين الذي يزين كلامه ويبهمه فلا تعلم حقيقته .

[89←]
الأمة المرأة المملوكة (خلاف الحرة). (ج) إماء.

[90←]
صحيح مسلم.

[91←]
الإصابة ـ ج4 ـ ص 334.

[92←]
المشقة العناء، والتعب، والجهد. (ج) مشاق

[93←]
السغب: الجوع، أو الجوع مع التعب.

[94←]
السهم النصيب والحظ. (ج) أسهم.

[95←]
صحيح مسلم.

[96←]
صفين أرض قرب الرقة على شاطئ الفرات

[97←]
يرقل يسرع أرقلت الإبل أسرعت في سيرها.

[98←]
سلسلة الأركان الأربعة (عمار بن ياسر) _ محمد جواد آل الفقيه _ ص 227.

[99←]
ضياح اللبن الذي مسته النار ولكن لم تنضجه

[100←]
وعاء أو إناء من الجلد ـ قربة.

[101←]
الأسنة مفردها سنان _ نصل الرمح

[102←]
سعفات مفردها سعفة _ ورقة النخل أو غصنه.

[103←]
الطبقات الكبرى _ ج3 _ ص 362.

[104←]
مائة أوائل من تراثنا. د.سهيل زكار .ص302

[105←]
الحنفية: مِلَّة الإسلام. والدين الحنيف: المستقيم الذي لا عوج فيه، المائل من الشرّ إلى الخير.

[106←]
الإصابة ج4 ـ ص 360 .

[107←]
سلسلة الأركان الأربع _ الشيخ محمد جواد آل الفقيه _ ((أبو ذر الغفاري))

[108←]
دَوْلاً انتقالاً من حال إلى حال، ومن قومٍ إلى آخرين

[109←]
خَوْلاً أتباعاً وخدماً وعبيداً.

[110←]
دَخْلاً فاسداً في داخله.

[111←]
أرفضَّ المجلس تفرق وتشتت.

[112←]
أقام أوده قوّم اعوجاجه، وأمسك رمقه _ ما يحفظ حياته.

[113←]
أزمع العصا عليه ثبتها عليه

[114←]
شيع الضيف أو المسافر خرج معه ليودعه ويبلغ منزله

[115←]
الاحتساب الصبر على الأمر مدخراً الأجر على صبره.

[116←]
قارعة الطريق وسطه

[117←]
الكنف الرعاية والاهتمام .

[118←]
الورع التقوى واجتناب المعاصي .

[119←]
الربعة متوسط القامة .

[120←]
الدعج شدة سواد العين مع سعتها .

[121←]
المسربة السرب ـ الصدر

[122←]
المنكب ما بين الكتف والعنق .

[123←]
المشاش رأس العظم .

[124←]
تكفأ تمايل في مشيته .

[125←]
ذلف الأنف صغر واستوى طرفه .

[126←]
بخ كلمة تقال في المدح والرضا بالشيء، وتكرر للمبالغة

[127←]
قبأ أصله اسم بئر، عرفت القرية باسمه وكانت مساكن عمرو بن عمرو من الأنصار فيها، أيام الرسول العربي وبنى رؤسول الله (ص) مسجده المعروف هناك فسمي (قبأ) وهو اليوم في أجمل منطقة في المدينة المنورة

.

[128←]

الفواطم هن فاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت أسد أم الإمام علي، وفاطمة بنت الزبيربنت عبد المطلب، وفاطمة بنت حمزة بنت عبد المطلب .

[129←]

ضجنان اسم جبل يبعدة أربعة فراسخ عن مكة والفرسخ كلمة فارسية الأصل وهي وحدة قياس للمسافة وهو يساوي ثلاثة أميال هاشمية والميل الهاشمي ـ 5760 .... والفرسخ . 17280 م

[130←]

تفطرت قدماه، أويداه تشققت

[131←]

الكامل في التاريخ ابن الأثير _ ج2_ ص 154 * شرح النهج ج4 ص 250 _ 251.

[132←]

الجزعة خرزة يمانية فيها سواد وبياض وتشبه بها الأعين.

[133←]

شاكي السلاح = التام السلاح والمدمّج به.

[134←]

قسْوَرَة الأسد

[135←]

مائة أوائل من تراثنا _ د. سهيل زكار _ ص37

[136←]

عائلهم: فقيرهم

[137←]

عبد الرحمن بن الحارث: هو الذي عرقب الجمل الذي كانت تركب عليه عائشة.

[138←]

صفين ـ نصر بن مزاحم .

[139←]

النَّشْزُ ما ارتفع من الأرض وظهر – ما ظهر من الأمور

[140←]

السندان من آلات الحداد , وهو ما يطرق عليه الحديد

[141←]

مائة أوائل من النساء _ سليمان سليم البواب _ ص 151.

[142←]

الزهراء: المرأة النيرة المشرقة الوجه

[143←]

استعبر حزن، وجرت دمعته.

[144←]

أنظر الفصل (3) _ عمار بن ياسر _ الصفحة (77 ـ 78).

[145←]

سمل الثوب بلى واهترأ.

[146←]

الفنيق الفحل من الجمال المكرم الذي لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب.

[147←]

الفري الأمر المختلق المصنوع والعجيب _ (لقد جئت شيئاً فرياً) سورة مريم 27

[148←]

البيان المغَرب في أخبار المغرب _ ابن عذاري _ ج2 _ ص 169

[149←]

سيرة جعفر _ ص12 وكذلك يقول أبو القاسم محمد ((والله لا أزال حتى املك صدر الطائر ورأسه إن قدرت _ وإلا أهلك دونه)) يقصد بذلك الخلافة العباسية وأملاكها. انظرا تعاظ ص99.

[150←]

تاريخ الإسلام السياسي _ حسن إبراهيم حسن ـ ص 148

[151←]

كافور الإخشيدي كان مملوكاً لأحد أهالي مصر، ثم اشتراه محمد بن طفج مؤسس دولة الإخشيديين وعند وفاته تولى كافور الحكم وصياً على ابنه محمد وبقي حكمه عشرين عاماً، واستطاع أن يحصل على كتاب من الخليفة العباسي بتقلده ولاية مصر بحجة أن الوارث للعرش كان صغيراً، وكان يدني الشعراء وكانت تقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الأمم والدول، وكان عظيم الحرمة وله حجاب يفصله عن الناس، زاد ملكه على مولاه

الإخشيد وكان كثير الهبات وكان طاغية في السياسة فطناً ذكياً، كان يهادن المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، ويذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخادع الاثنين.

[152←]

انظر الشكل (1)

[153←]

أسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة عام (969 هـ / 358 م) وبنى حولها سوراً من اللبن على شكل مربع، وبلغت مساحة الأرض التي حددها السور (340 فداناً)، وفي وسط هذه الساحة بنى جوهر قصراً كبيراً كما انشأ الأزهر بالقرب من قصر الخليفة، واستمرت القاهرة حيناً بعد قيامها مدينة عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء، ومساكن الأمراء ودووابن الحكومة، وخزانة المال والسلاح.

[154←]

انظر الشكل (2-3)

[155←]

انظر الشكل (4)

[156←]

مائة آوائل من تراثنا – د سهيل زكار – طبعة ثانية 1982 ص 85

[157←]

بدأ بناء المهدية سنة (300 هـ / 913 م) وانتهى سنة (303 هـ / 915 م).

[158←]

حسن إبراهيم حسن _ المعز لدين الله الفاطمي

[159←]

الأهراء (م) الهري بيت تجمع فيه الحبوب ومواد الغذاء.

[160←]

انظر الشكل (5)

[161←]

مصطفى غالب _ تاريخ الدعوة الإسماعيلية.

[162←]

انظر الشكل (6)

[163←]

انظر الشكل(7)

[164←]

انظر الشكل (8)

[165←]

مات الشاعر أحمد بن الحسين (المتنبي) في أواخر خلافة المعز لدين الله الفاطمي أي قبل أن يتولى العزيز بالله الخلافة.

[166←]

الكامل في التاريخ _ ابن الأثير _ ج7.

[167←]

المحتسب رئيس يشرف على الشؤون العامة من مراقبة الأسعار ورعاية الآداب.

[168←]

البيمارستان المشفى وهي كلمة فارسية الأصل لكن الفاطميين جعلوه أكثرمن مشفى لعلاج المرضى بل كان مكاناً لدراسة الطب فهو أشبه في وقتنا الراهن بكليات الطب .

[169←]

الخراج ما يخرج من غلة الأرض وهو الضريبة المفروضة على البلاد التي فتحت صلحاً وتسمى أيضاً جزية

[170←]

المكوس مفردها مكس وهي ضريبة يأخذها الجابي من التجار عن أشياء معينة عند إدخالها المدن أو عند بيعها.

[171←]

الترف: التنعم، وسعة العيش.

[172←]

كان رسم الآدميين والطيور محرماً لدى المسلمين لأنهم يعتبرون الرسم خلقاً وهذا يتنافى مع الدين ويتجاوز المخلوق والخالق الوحيد هو الله سبحانه وتعالى لذلك لم يزدهر الرسم كثيراً ولجأ الفنانون العرب المسلمون إلى الخط العربي وزخرفاته تعبيراً عما في داخلهم من طاقات فاهتموا بالخط كثيراً فأبدعوا فيه وتركوا لنا آثار غاية في الدقة والروعة بينما نجد الرسم والنحت مزدهراً لدى اليونان والرومان والفرس .

[173←]

الشكل (9-1) (9-2) (9-3) نماذج من الخط الفاطمي (الكوفي المورق)

[174←]

عيون الأخبار إدريس عماد الدين .

. كتاب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني .

. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ابن تغري بردي ج4

[175←]

الثيوقراطية أو النيوقراطية كلمة يونانية وتعني نوع من نظم الحكم يجمع فيه الحاكم بين السلطتين الزمنية والروحية .

[176←]

الحاكم بأمر الله . الخليفة المفترى عليه . د. عبد المنعم ماجد . الطبعةت الثانية . القاهرة 1982 . ص72

[177←]

الفصل في الملك والأهواء والنحل. ابن حزم _ الطبعة الأولى 1321 هـ

[178←]

في تسميته راشدة عدة وجوه منها أنه على اسم قبيلة راشدة التي نزلت موضعها أيام الفتح العربي أو على اسم الكنيسة أو على اسم عمة الحاكم رشيدة بنت المعز التي توفيت في أيام الحاكم .

[179←]

المقس اسم بلد قديم. اسمه الآن أم دنين

[180←]

ذيل كتاب تجارب الأمم _ أبو شجاع الروذراوي

[181←]

كشف أسرار الباطنية _ الحمادي _ طبعة 1939 _ ص12

[182←]

م = المتوفى. زمن الوفاة. (المؤلف)

[183←]

عيون الأخبار _ إدريس عماد الدين. ج6 _ ص264

[184←]

السَّيْرُ قطعة مستطيلة من الجلد. (ج) سيور . أسيار.

[185←]

الرسالة الواعظة _ حميد الدين الكرماني _ ص 27 _ 28

[186←]

بدر الدين العيني _ تاريخ دولة بني العباس والطولونيين، والفاطميين. ص184

[187←]

انظر الفصل (4 / ب2) الصفحة (165) من هذا الكتاب.

[188←]

انظر الملحق / 1 / من هذا الكتاب ص (407).

[189←]

المقريزي المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.

[190←]

سكين ادعى أنه الحاكم بأمر الله بعد غيبته، أنظر الفصل الحاكم بأمر الله. نهايته.

[191←]

أضواء على مسلك التوحيد _ كمال جمبلاط.

[192←]

وفيات الأعيان _ ابن خالكان _ ج2 _ ص _ 66 _ 70

[193←]

الأرستقراطية طبقة النبلاء من الشعب _ وهي كلمة يونانية الأصل.

[194←]

الدر المنتخب في تاريخ أهل حلب، ابن الشحنة. تحقيق سركيس، بيروت. ص60 .

[195←]

النجوم الزاهرة..... ابن تغري بردي _ ج4 _ ص 128.

[196←]

يحيى بن سعد الأنطاكي _ صلة تاريخ أوتيخا. ص 210 وما بعدها.

- ابن العميد (تاريخ المسلمين) ص256

- تاريخ العيني _ ص 184 _ 185

[197←]

رسائل أبي بكر الخوارزمي _ طبعة القسطنطينية _ 1297 هـ _ ص 49.

[198←]

النوبختي... ص 57

[199←]

النجوم الزاهرة.... ج4 _ ص124 _ 125.

[200←]

الكامل في التاريخ _ ابن الأثير _ ج7 _ ص197

[201←]

سلوك (تاريخ اليمن) مختصر كاي، ص 151.

[202←]

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة _ أبو المحاسن تغري بري _ ج4 _ طبعة (1923) ص122. في (374 هـ / 984 م) والكوفة في (375 هـ / 985 م)، وكان القرامطة اقل عداء للفاطميين في عهد الحاكم بأمر الله على الرغم من أنهم لم ينضموا إلى دعوته ومذهبه الجديد.

[203←]

عيون الأخبار _ إدريس عماد الدين _ ج6 _ ص245.

[204←]

الروذراوري (أبو شجاع) _ ذيل كتاب تجار الأمم _ ص236

[205←]

البطن (من القبيلة) = فرع منها، أكبر من الفخذ. المؤلف

[206←]

وفيات الأعيان _ ابن خلكان _ ص210.

[207←]

عيون الأخبار _ ص 239 _ يحيى الأنطاكي _ ص 191

[208←]

الطرطور القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس.

[209←]

الدرة السوط يضرب به. ج درر.

[210←]

عيونالأخبار ص 244 _ 245

[211←]
البيان المعرب في أخبار أهل المغرب _ ابن عذاري ص 259 _ 260

لفتة انظر المصور الذي يوضح اتساع الدولة الفاطمية الشكل (10)

[212←]
الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه – د.عبد المنعم ماجد –ص 25

[213←]
الوساطة رتبة أشبه بالوزارة وهو أن يكون الشخص وسيطاً بين الخليفة والرعية

[214←]
الوزغة أحد أنواع الحيات، له أرجل، وهو أبرص اللون سام

[215←]
المصدر السابق ... ص 38.

[216←]
عيون الأخبار _ ص 224.

[217←]
العمرين هما عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي الثاني، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الذي يعد خامس الخلفاء الراشدين.

[218←]
المظالم مفردها ظلامة أو مظلمة، من ظلم بمعنى انتهاك حق شخص وتدل عادة على الظلم الذي أتى على الخصوص من التعدي أو الفساد من قبل رجال الدولة، فيرفع أمره مباشرة إلى الخليفة.

[219←]
عيون الأخبار ص266

[220←]
كتاب النجوم _ ص 185، وابن العميد _ 285

[221←]
كتاب الواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار _ ج4 _ 74

[222←]

تاريخ العيني _ ص 180 فما بعدها

[223←]

ابن حماد _ ص 51 _ 52.

[224←]

الموحدين رقم /6751/ مخطوطات بالمكتبة الأهلية بباريس، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم 37

[225←]

تاريخ ابن حماد _ ص 50 _ 51 _ سير الآباء ص (58) _ النجوم الزاهرة 184 _ 185

[226←]

سير الآباء _ ص 59 _ 60

[227←]

يحيى _ صلة تاريخ أوتيخا، تحقيق شيخو، في جزأين ص 219

[228←]

انظر الفصل (4) = الإمام حمزة بن علي = الصفحة / 165 /

[229←]

الرسالة العظمى (كشف الحقائق)

[230←]

رسائل الحكمة الشريفة ـ تقليد المقتنى

[231←]

دور نوح استمر أكثر من ألف سنة كون نوح (ع) قد عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً كما جاء في القرآن الكريم والكتب المقدسة .

[232←]

النفس الكلية ويسمى أيضاً = هرمس الهرامسة وهو النبي يوسف .

[233←]

أرسطاليس وتعني الفاضل ويلقب أيضاً كلمة الله _ وهو لقب أطلقه اليونانيون على النبي أشعيا (ﷺ)

[234←]

محمد بن وهب القرشي يرجع نسبه إلى الرسول العربي الكريم

[235←]
هو علي بن أحمد الطائي السموقي من قرية (السموقة) التابعة لحلب ويلقب بـ (بهاء الدين)

[236←]
سورة الكهف _الآية 109.

[237←]
ماذا بعد الحرف ـ كمال جنبلاط ـ الدار التقدمية ـ لبنان ـ ص: 78 ـ 79.

[238←]
السرمدي الدائم الذي لا ينقطع

[239←]
سلسلة الحياة والنور، الميناداكا أو بانيشاد. تويب بايازيد _ ص (23) وبايازيد لقب المرحوم كمال جنبلاط وهو لقب أو درجة عرفانية فتحت له من مرشده الحكيم الهندي (أتمتنندا)

[240←]
أضواء على مسلك التوحيد _ د. سامي مكارم _ ص 118.

[241←]
أنظر الفصل / 2 _ ب3 / الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي _ ص (273).

[242←]
كتاب الينابيع _أبو يعقوب السجستاني _ ص 156 _ 157

[243←]
سورة القصص – الآية 85

[244←]
سورة البقرة – الآية (28)

[245←]
سورة البقرة – الآية (73)

[246←]
سورة آل عمران – الآية (29)

[247←]
الصوفية في الإسلام د. أنكيلسون _ ترجمة نور الدين شربيه _ ص 138

[248←]

وهذا يعني إن الحق عند تجليه في الناسوت لا يراه الناس على اختلاف معارفهم وذواتهم ولا يبدو الناسوت مثل إنسان عادي يتصرف تصرفاتهم، ويعيش عيشهم وإنما هي صورة ناسوتية يراها العارفون المحققون كذلك كان مقام الحاكم تعالى حيث تجلى الله تعالى بتلك الصورة الناسوتية (الحاكم) وهي لم تظهر لجميع الخلق بل للعارفين الذين حملوا على اعتاقهم لواء نشر دعوة التوحيد وهي تختلف كلياً عن الإمام الحاكم بأمر الله .

[249←]

الناموس القانون أو الشريعة والناموس من أسماء جبريل عليه السلام .

[250←]

أضواء على مسلك التوحيد _ د. سامي مكارم _ 132

[251←]

الصوفية في الإسلام _ أ. نيكلسون، ترجمة نور الدين شربيه، القاهرة، 1371 هـ / 1951م ص145

[252←]

علة العلل حسب فلسفة التوحيد هو العقل الأول أول ما خلقه الله تعالى من نوره

[253←]

واسم الملك يقتضي وجود المملوك، كذلك اسم الحاكم يقتضي وجود محكوم فالخالق حاكم، والمخلوقات كافة محكومة بأمره. (المؤلف)

[254←]

سورة الأسراء – الآية (23)

[255←]

سورة الشورى – الآية (11)

[256←]

دين الإنسان _ فراس السواح. دار علاء الدين. طبع عام 2002

[257←]

سي تعني ثلاثون بالفارسي _ ومرغ تعني طائراً.

السيمرغ = كناية عن الحقيقة الكلية النهائية، الحق، الله جل جلاله. ويمكن أن تلاحظ أنه مكون من (سي + مرغ) دلالة على أن الكائنات تبدأ منه وتنتهي إليه، ولو كانت الطيور أربعون لكان الأمر نفسه، وهكذا

[258←]

سورة النجم – الآية (38)

[259←]
سورة الإنسان – الآية (3)

[260←]
سورة الزلزلة –الآية (7) (8)

[261←]
سورة النساء – الآية (79)

[262←]
سورة النحل – الآية (111)

[263←]
سورة القيامة – الآية (13)

[264←]
سورة آل عمران – الآية (30)

[265←]
سورة الإسراء – الآية (15)

[266←]
المقتنى من رزقه الله وأعطاه من الحكمة والخير ما يدخره بعد الكفاية والرضاء .

[267←]
سورة الكهف

[268←]
سورة الدخان

[269←]
سورة ص

[270←]
سورة الطور

[271←]
سورة الواقعة

[272←]
سورة الواقعة

[273←]
سورة الحج

[274←]
سورة الصافات

[275←]
سورة الكهف

[276←]
كشف الحقائق ـ رسائل الموحدين

[277←]
سورة يس

[278←]
كشف الحقائق .

[279←]
كشف الحقائق .

[280←]
قايين هو نفسه قابيل ولكن قايين باللغة اللاتينية .

[281←]
كشف الحقائق .

[282←]
المسح الكساء من الشعر .

[283←]
الإد الأمر المنكر القبيح .

[284←]
السفه والسفاهة الجهل ونقيض الحلم، الطيش

[285←]

سورة الحجرات –الآية (10)

[286←]

هي الطبائع الضدية الداخلية في تكوين النفس (الروح) أشير إليها بالشيطان وإبليس والضد. وكلها أسماء وألقاب. فالمذهب التوحيدي لا يعترف بوجود شياطين كمخلوقات عاصية، تسعى لتضليل الناس وإرغامهم على مخالفة أوامر الله. إذ لا يسمح العقل ولا التوحيد ولا الإيمان بوجود قوة ضدية مقابل قوة الله تنازعها دائماً وتطاول عليها وتغلبها أحياناً.

[287←]

الجديدان الليل والنهار .

[288←]

الميسر لعبة القمار عند الجاهلين .

[289←]

الأنصاب ما نصب وعبد من دون الله .

[290←]

الأزلام جمع زلم وهو قطع من الخشب تصلح أن تكون سهاماً . كان الجاهلون يقترعون بها، وهو ثلاثة يكتب على الأول أمرني ربي، إذا خرجت بالقرعة فعلوا الأمر، والثاني مكتوب عليه نهاني ربي، وإذا خرجت انتهوا. والثالثة لا كتابة عليها، فإذا خرجت أعادوا المحاولة .

[291←]

السعوط دقيق التبغ يستنشقه بعضهم، فيهيج العطاس، وهو النشوق

[292←]

سورة المائدة – الآية (90)

[293←]

أصل الموحدين وأصولهم ـ أمين محمد طليع .

[294←]

منقبات يعني يغطين وجوههن بالنقاب، وهو غطاء للوجه تضعه النساء.

[295←]

التجديف الكفر بنعم الله.

[296←]

في تحريم الخمر أصدر الإمام الحاكم بأمر الله عدة سجلات. أنظر أحدها في الملحق (4) الصفحة (415) من هذا الكتاب وانظر شرح الأمير السيد عبد الله التنوخي في تحريم الخمر . الباب الثالث ـ الفصل الثاني ـ ص (284) من هذا الكتاب .

[297←]
هذه بعض صلوات المذهب الكثيرة، ولم نذكرها كلها لتعسر ذلك هنا. وأما عن صلاة الجنازة فيمكن مراجعة الملحق / 2/ وهناك كثير من الأدعيات والسبحانيات، انظر الملحق / 8 / فيه إحداها.

[298←]
الشكل /12 / صورة تخيلية للأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي بريشة المؤلف

[299←]
تاريخ الدروز ـ د. نائلة تقي الدين قائد بيه، عن كتاب صدق الأخبار لحمزة بن سباط الفقيه ص 84 .

[300←]
الغور الانخفاض، يقال غارت العين غوراً، إي دخلت في الرأس ـ المصدر السابق نفسه .

[301←]
الورع التقوى واجتناب المعاصي والآثام .

[302←]
من اشتبه عليه الشيء. وفي الفقه وهو التباس الأمر بين الحلال أو الحرام أو الحق أو الباطل ويبدو أن الأمير عبد الله كان يشعل المصباح بزيت مشبه عندما تدور حول مصدره الشبهة أو هو حلال أو حرام ولكنه لا يقرأ على نوره في الكتاب العزيز .

[303←]
عارض عائق، والعرض ما يعرض للإنسان ويزول من مرض أو أحداث لها إثبات.

[304←]
علم الفقه :العلم بالشيء والفهم له والفطنة، وغلب على علوم الدين وأصول الشريعة

[305←]
كرامات م: كرامة الأمر الخارق والعجيب، يظهر الله على أيدي أوليائه .

[306←]
الحد المنع والعقاب

[307←]
القاذف الشاتم ورامي المحصنات (العفيفات والمتزوجات) بالعار

[308←]

التمس طلب أو اخذ بدون علم

[309←]

دانق كلمة معربة من كلمة (دانك) الفارسية، وهو يساوي 1\6 من الدرهم والدرهم كلمة فارسية معربة تعادل في دمشق (2.2) غرام، وفي مصر يعادل (3.12) غرام، وهو يصنع من الفضة .

[310←]

الخيف ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل، ويخاف السبيل يتربص في مكان مرتفع عن الطريق، يكمن للمسافرين ليسلبهم أموالهم .

[311←]

يرائي يظهر نفسه على خلاف ما هي عليه، أي ينافق .

[312←]

يحول يغير.

[313←]

تعلم القراءة والكتابة.

[314←]

أنجب الأمير السيد ثلاثة أولاد وبنت، توفوا جمنيعاً صغاراً عدا الأمير عبد الخالق الثاني .

[315←]

شهل اللونان اختلط أحدها بالآخر. ويشوب البؤبؤ حمرة جميلة.

[316←]

سبط الأصابع تعني مسترسل الأصابع ويقصد به الكرم والسخاء .

[317←]

صدق الأخبار _ حمزة بن أحمد الفقيه بن سباط _ ص65

[318←]

الموقنين العالمين المتأكدين من الإيمان .

[319←]

الجديدان الليل والنهار .

[320←]

الإنابة الرجوع، أناب إلى الله إنابة، رجع إليه وتاب .

[321←]
الطوبى الحسنى والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال وغنى بلا فقر .

[322←]
يحجر يمنع من التصرف.

[323←]
مدقع مخضع ومذل

[324←]
الديان من أسماء الله الحسنى القهار والمجازي بالخير والشر.

[325←]
المراد الهدف أو الشيء المقصود.

[326←]
الكظ كظ المسيل بالماء كظاً = ضاق به لكثرته

[327←]
الموعظة السافرة المكشوفة .

[328←]
دك دك الحائط دكاً، هدمه وسواه بالأرض

[329←]
السيد المولى ذو الإتباع ، وكل من افترضت طاعته .

[330←]
عندما أعلن الأمير السيد رغبته في إصلاح التحريف الذي أدخله بعض المارقين على الدين أمثال نشتكين الدرزي، وأسكين ولاحق وأصحابهم إلى رسائل المذهب، قوبل بالعناد والمضادة فرحل إلى دمشق وأقام وحرمه في الشاغور الجواني أثني عشر عاماً ثم أوفد إليه قومه وفداً رجاه أن يعود إلى قرية أعبية وقد اشترط على قومه شروطاً للرجوع منها أن تتعلم البنات القراءة والكتابة وأن يتعلم الجميع القرآن الكريم ويحفظوه اعتقاداً منه أن هذين الشرطين يضمنان الإصلاح الذي أراده في المستقبل للنواحي الدينية . (مأخوذ عن قول للمؤرخ الشيخ محمد الأشرفاني في مجلده (عمدة العارفين) ج2 .

[331←]
المذهب التوحيدي الدرزي ـ نجيب العسراوي ـ برازيل عام (1972)

[332←]
صدق الأخبار ابن سباط _ ج2 _ ص83

[333←]
الرطل الدمشقي من الأوزان في القرون الوسطى، يعادل 1911.6 غراماً.

[334←]
الغرارة كيل كانوا يتعاملون به في عهد قريب، ويعادل ثمانين مداً .

[335←]
الضارية المفترسة والمتوحشة .

[336←]
الأراقم م: الأرقم أخبث الحيات ، أو ذكرها .

[337←]
السِّدق هي الصدق، وهي مكتوبة بالسين في كتب المذهب التوحدي فبقيت كما هي .

[338←]
سمي جبل وادي التيم نسبة إلى الشيخ الفاضل وبعض الأقوال تقول إن التسمية قديمة ترجع إلى تكلله بعمامة الثلج .

[339←]
انكب على الدرس والعلم، أقبل عليه وشغل به ولازمه .

[340←]
التهجد الصلاة في الليل .

[341←]
الشرح شرح الأمير السيد للميثاق، إذ أوضح إن الإكثار في إنجاب الأولاد مع سوء الأحوال تجني عليهم وتجعل تربيتهم صعبة فالأفضل عدم الإكثار من إنجاب الأولاد .

[342←]
الداعي عمار هو الذي أرسله الإمام حمزة إلى وادي التيم لإبلاغ دعوة التوحيد، وقد قتل من قبل المريدين .

[343←]
سورة النساء – الآية (58)

[344←]

انظر الشكل / 13 /. ص (300).

[345←]

من كتب الحكمة الشريفة

[346←]

من كتب الحكمة الشريفة

[347←]

هو العابد الزاهد حسن البصري .

[348←]

الرُطَب التمر أو البلح .

[349←]

ابن المبارك هو العابد الزاهد عبد الله بن المبارك .

[350←]

سورة النساء ـ الآية 3

[351←]

هذا التصلب في حرمان الموحدين الذين يسمونهم بـ (الجهال) وما هم بالجاهلين هو الذي جعل تسعة أعشار الموحدين ينفرون من مجالس الصلاة وإطاعة فروض المذهب ولا سيما الطبقة المتعلمة التي لا تجهل أن أهل الحكمة هم الذين كتبوا على انفسهم ميثاقهم وذراريهم إلى يوم الحشر ولهم حق معرفتها. وقد قال كبير الحدود حمزة (س) ((من منع الحكمة عن أهلها فقد دنس ديانته)) فمن هم أهل الحكمة بنظره إن لم يكونوا الذين تقبلوها وكتبوا على أنفسهم ميثاقها وفدوها بأرواحهم. وإن فهم بعض قول ((أبعدوا الحكمة عن غير أهلها)) فهماً خاطئاً فكان يجب أن يعرفوا أن غير أهلها هم غير الموحدين الذين لم يقبلوا الدعوة وميثاقها

[352←]

وإن تصلب بعض رجال الدين الأجلاء مثل حلق الرأس وإرخاء اللحية واعتماد العمامة ولبس العباءة ليس من الدين في شيء فالدين يطلب الحشمة في اللباس وحسن المنظر والقيافة والاستتار بالمألوف عند الغير. فالموحد يمكنه لبس ما هو دارج في البيئة التي يعيش فيها على أن كون محتشماً بعيداً عن الزينة والبهارج، ويطالع كتب المذهب ويعرف ان البارئ جل ذكره لا ينظر للإنسان بلباسه بل بقلبه ولسانه وأفعاله التي وإن خفيت على الناس، يعلمها الله تعالى. وإلا فما قولكم بجويد يرتدي زي الدين ويعصي الله وفروض الدين وجاهل يعمل الخير ويخاف الله ولا يرتدي زي الدين؟

[353←]

انظر الشكل (14) ص

[354←]
انظر الملحق رقم / 6 / الصفحة (418) فيه القصيدة كاملة

[355←]
سورة النساء – الآية (3)

[356←]
سورة النساء – الآية (129)

[357←]
أنظر صورة عقد الزواج لدى الموحدين في الملحق (3).

[358←]
أنظر فصل محرمات المذهب من هذا الكتاب .

[359←]
قانون الأحوال الشخصية لطائفة الدروز _ منشورات مطابع زين الدين _ القرية / لبنان. وهذا القانون صادر في لبنان بتاريخ 24 شباط 1948 م والمعدل بتاريخ 2 تموز 1959 م، والصادر في الجمهورية العربية السورية برقم 59 عام 1953 م، والمعدل بالقانون رقم 34 عام 1975 م وخاصة المادة 307 منه.

[360←]
انظر الملحق رقم / 7 / ص (421) فيه القصيدة الكاملة.

[361←]
المحتد الأصل.

[362←]
سليم أبو إسماعيل ـ الدروز والتشيع الفاطمي، الإسماعيلي ـ ج1 ـ مؤسسة التاريخ الدرزي ـ بيروت .

[363←]
الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي _ غالب أبو مصلح.

[364←]
الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي _ غالب أبو مصلح _ ص 221

[365←]
Fred. Massy. Op. Cit. 51 – 52

[366←]

هو أحمد الجزار كان والياً على عكا .

[367←]
يرمز العلم الذي وضعته فرنسا للغقيدة الدينية التوحيدية فهو بالإضافة إلى ألوانه الخمسة المعروفة (الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق والأبيض) هناك في جانبه 13 نجمة إشارة إلى 13 ناحية كما قسم الجبل آنذاك وفي زاويته علم فرنسا . أنظر الشكل (14) .

[368←]
الآصرة ما عطفك على غيرك من قرابة أو رحم أو مصاهرة أو معروف .

[369←]
فريد أبو مصلح، تقويم الأود والسير في الجدد، نيويورك شباط عام 1945، (مناقشة ورد على الدكتور حتي) ص 11، 13، 14، 22، 40.

[370←]
صدر مشروع أيزنهور عام / 1957 / و أيزنهاور هذا هو وزير الخارجية الأمريكي في تلك الفترة، ويقوم هذا المبدأ على / ملء الفراغ في منطقة الشرق الأوسط / فبعد زوال الاستعمار القديم (فرنسا _ بريطانيا _ إيطاليا _ أسبانيا) نتيجة الثورات التي قامت ضده في الوطن العربي، أرادت الولايات المتحدة أن تملأ الفراغ الذي تركه الاستعمار القديم بإدخال الوطن العربي في سياسة الأحلاف الاستعمارية الأمريكية إلى إرسال أسطولها إلى المنطقة العربية، ولكن وعي الجماهير في سوريا ولبنان أدى إلى سقوط هذا المبدأ.

[371←]
FRED MASSY. OP. CIT. P62

[372←]
النبي شعيب الذي يقدسه الموحّدون، يدعي الصهاينة اليهود أنه قد زوج إحدى بناته من النبي موسى، ومع أنه لم يتزوج، ولم يكن له أولاد ولا بنات ((النبي شعيب هو كبير الحدود (العقل) س في دور موسى)).

[373←]
أرسل جمال عبد الناصر إلى لطيف المقدمين هيثم الأيوبي, وأكرم الصفدي.

[374←]
الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي – غالب أبو صالح – ص 215.

[375←]
سورة الصف _ الآية 4.

[376←]
الشنار أقبح العار.

[377←]
التشهيد أن يخبر الضيف الناس مشهداً إياهم على أنه متوجه إلى مضيفه على أن يلتزم المضيف بحماية ضيفه والدفاع عنه إلى أن تنته ضيافته وهو بمثابة قانون عشائري توحيدي .

[378←]
حين هاجم سلطان الدبابة قفز من ظهر جواده على المصفحة فقتل قائدها ومعاونه لكن الجندي الثالث أمسك بخناق سلطان فانقض على الجندي يعضه في وجهه حتى شرم أنفه وأذنه وخده فتلاشى ووقع فوق رفيقه فأجهز عليه وقد لقب سلطان يومها (عنتر بو سنان)

[379←]
تم استبدال اسم قرية السجن عام (2002) باسم (المزرعة) حيث صارت تشمل (السجن) قديماً إضافة للمزرعة .

[380←]
انظر الملحق رقم / 9 /، ص (426)

[381←]
يقصد بالقنبلة الخطاب الذي وجهه إلى رئيس الجمهورية آنذاك حول تجديد رئاسته .

[382←]
رسالتي كنائب. كمال جنبلاط   / مختارات /

[383←]
المصدر السابق .

[384←]
أدب الحياة _ كمال جنبلاط _ آذار 1987 _ ص13

[385←]
العيون الملقة هي التي تنظر بحشرية في كل شيء دون مراعاة أية حرمة أو قداسة وبالعامية تتقول (عيون فارغة) .

[386←]
المصافحة عادة يمنية قديمة وهم أول من صافح باليد .

[387←]
المهاتما لقب هندي يطلق على الحكماء والزعماء الروحانيين ويعني الروح العظيمة .

[388←]

معرق له أصل في الكرم .

[389←]
البر الطاعة والصدق والصلاح والخير للإنسان

[390←]
عصائب جماعات .

[391←]
ربضوا ربض الأسد على فريسته وقع عليها وتمكن منها

[392←]
الأبلق حصن للسموءل بن عاديا بأرض تيماء، بني بحجارة بيض وسود (الأبلق الفرد)

[393←]
شجت أطربت وأحزنت .

[394←]
حم القضاء قضي وقدر .

[395←]
البر الطاعة والصدق والصلاح والخير للإنسان .

[396←]
جنف مال عن الحق وظلم وحبار . استفرقوا فارقوا وابتعدوا

[397←]
تألب تجمع واحتشد

[398←]
الذمار ما يجب على المرء حفظه والذود عنه كالأهل والعرض.

[399←]
ندواتهم مجالسهم وأماكن المشاورة والتحدث.

[400←]
المنيف المرتفع العالي المشرف.

[401←]

التملق التودد والتلطف وأن تعطي باللسان ما ليس في القلب .

[402←]
السبق المتقدمين غيرهم وسابقيهم

[403←]
ينفق ينتهي ويفنى ويندثر

[404←]
يفلق يقسم ويشق

[405←]
درت الضروع كثرت الخيرات .